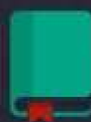
إليف شفاق

حليب أسود



ترجمة : أحمد العلي

ألف ـــ راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي



حليب أسود


جديد بدف
jadidpdf.com

إلِف شَفَق

حليب أسود

مذكّرات

ترجمة: أحمد العلي

مسكيلياني للنشر

المؤلّف: ألف شفق

عنوان الكتاب: حليب أسود

ترجمة: أحمد العلي

تقديم: د. بدرية البشر

تدقيق: شوقي العنيزي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الفنان محمّد النبهان

الناشر: مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 22997848(216+) او 531531622(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

ر.د.م.ك: 978-9973-833-58-4

الطبعة الأولى: 2016

الأمّ الكاتبة

د. بدرية البشر

لا توجد حقيقة ناصعة مثل بياض الحليب، فلماذا أصبح الحليبُ أسودَ؟. تحت هذا العنوان اللافت للنظر تضمنا الروائية الفاتنة أليف شفَق أمام سرّ كبير، كما في أسرار العشق الأربعين -أشهر رواياتها وأكثرها نجاحا وقد تُرجمت إلى العديد من اللغات. في هذا السر تصف الروائيّة تجربة غامضة لا تصيب بالضرورة كلّ الأمّهات حديثات الولادة، لكنها إذا ما أصابت روائية مثل شفَق فإنّها تتحوّل إلى حالة من البصيرة واليقظة تُشهد عليها الناس كلّهم، فيمتد ضوؤها إلى أرواحهم ويصيبهم شيء منه. ومثلما أنّ الحليبَ الضارب في البياض هو رمزُ الأمومة، فإن السوادَ ليس فقط رمز الكتابة وسواد الحبر، بل أيضًا سواد الأفكار السلبية الكئيبة التي تداهم بعض الأمّهات بعد الولادة مباشرة، فتدفعهنّ نحو نفق مظلم يتصارعن فيه مع قلقهن وأشباحهن وأسئلتهن التي تتفتّح في صدورهن، فتخنق تدفق أثدائهن العامرة بالحليب وأرواحهن الطافرة بالحياة، ليذهبن بعدها يفتشن عن أبوابٍ واسعة للفهم تُفضي بهنّ إلى سهول الإبداع، حيث يتشاركن فيها تجاربهن معَ البشرية جمعاء .

لقد ارتعشت عظامي، أنا أيضًا، بعد كلّ ولادة. ولم أفهم كيف تتحوّل احتفالية إنجاب طفلٍ تملأُ مَن حولي صخبًا وفرحًا، إلى جنائزية من بكاءٍ مُتقطّعٍ وهلعٍ وقلقٍ لا يهدآن، فقد كنت أستيقظ

كُلّ نصف ساعة لأضع إصبعي تحت أنف طفلي مخافةَ أن يخطف أنفاسه جنيُّ «موت المهاد» كما قرأتُ في الكتب التي ثقّفَتْ بها نفسي استعدادًا لما بعد الولادة، لأجد نفسي بعدها بدلًا من أن أعيش نعمةَ الوَعي، رُحت أحوّله إلى كارثة، وعلى الرغم من وجود الكثيرين حولي لمساعدتي، فإنّ ذلك لم يُغنِّي على استعادة هدوئي.. فكلّما رأيتهم ينامون حولي بسلام وابتهاج، أضطَرُّ لاستعادة مهمّة لا يُجيدها أحدٌ غيري: حراسة طفلّي والعالم. فقد تتوقف أنفاسهما فجأة لو سهوتُ عنهما. وحتى عندما عرفتُ لاحقًا أنّ ما يدور بداخلي هو حالة غامضة لِمَا بعد الولادة، فإنّ المعرفة لم تكن وحدها كافية للنجاة، خاصة في وجود بعض الأمهات اللواتي يُخبرنَك بأنهنّ عبرنَ تلك المرحلة بسلام وخفّة، فتشعرين بغرابة ما يحدُثُ لَكِ، ويُسرع عقلك يؤلّفُ حكاياتٌ للفهم وتفسيراتٍ تتأرجح بكِ بين الشك واليقين. وهذا طَبْعٌ مألوفٌ عند الروائيين والمبدعين. هكذا أصبحُ مثل بينلوبي في الأسطورة الإغريقية، تلك التي تنقض في الليل ثوبَها الذي نسجته في النهار، ثوبًا لم يُنجَز قط، ويقينًا لا تُشرقُ له شمس. إنّ كآبة ما بعدَ الولادة تدفعك إلى نفقٍ مُظلم أسوَد، تجعلك تُحدّقين تحت قدميك وحسب، حيثُ تتجادلين مع كائنات شَبَحيّة تتوالَد باستمرار. وكلما أطعَمْتها أجوبةً بَدَت منطقيّة لأوّل وهلة، شَدّتك إلى قاعِ جَحيم أسود، لا تستطيعين فيه أن ترفعي رأسك، فأنتِ تُريدين أن تفهمي ماذا يجري معك، لكن الشك يمتَصُّ قدرتك المتهاوية على الفهم والنهوض ومواصلة الحياة بفرح. إن أكثر ما قَد يوجعك وأنت تعيشينَ هذه المشاعر المُربكة هو سؤالٌ مُرٌّ يزلزل ثقتك بنفسك مَفَادهُ: كيف يحدث لي هذا، وأنا من كنت أظن أنني امرأةٌ تفوقُ قُوّةُ الكثيرات من النساء على هذه الأرض، فيما أشاهد أمهاتٍ لا حصرَ لهُن وقد عبرنَ هذه المحطة بسلام؟. لم

أدرِ أن السبب هو جنيٌّ شريرٌ أسمَتهُ شَفَق بـ «لورد بورتون» يزورُ بعض الأمّهات حديثات الولادة؛ يحفرُ بإزميله في عقولهن وقلوبهن، ويمتصُّ دماءَ قوّتهن بحسب مستوى شراسته ودرجة قوّته، فقد تمضي بعض الأمّهات في حياتهنّ دون الالتقاء به ومعرفته مُطلقًا، بينما تسقط بعضنا صَريعات حِرابه، ويَلزَمُهُنّ من الوقت الكثير كي يتعافين منه، وبعضهن يَمشنَ بين هذا وذاك.

هل تُسعف الكاتبات قدرتُهنّ على الكتابة للتخلُّص من هذا الجنّي، أم أنهنّ مثل غيرهن: لا ينجون منه إلا بقدر ما تنجو الأخريات، وهكذا تُصبحُ كآبة مابعد الولادة خَبط عشواء: مَن تُصبه تُكئبه، ومَن تُخطئه ينجُ؟.

إن كان للكتابة فَضلٌ فهو أنها قد جعلت كاتبةً مثل ألِف شفَق تُنجب مع طفلتها الأولى كتابًا أسمته (حليبٌ أسود) سَجّلت فيه ما اختبرته من أوجاع هذه الكآبة، دوّنَت تجربةً تمازَجَ فيها الإبداع مع الوجع، والضياع في أسئلةٍ غزيرة - هذه الأسئلة التي لا تُخلّصنا إلاّ بقدر ما تُضيّعنا وتزيد حمولتنا من الحياة. لقد بدأت أسئلة شَفَق بشكلٍ متوارٍ في حياتها قبلَ أن تقرّر أن تُمسيَ أمًّا، لكنها حين تصيرُ أمًّا تنهمرُ الأسئلة الدفينة كلّها بدءًا من تساؤل الكاتبة في لا وعيها: هل على الكاتبة أن تتنكّر لأنوثتها كي تصبح كاتبة، أم عليها التنكّر لإبداعها كي تصبح أمًّا وتعيش في طمأنينة وسلام؟ أم عليها أن تتصارع مع جوانب شخصيتها المتعدّدة دون أن تدرك أيّ جانبٍ منها عليه الفوز على الجوانب الأخرى؟. هل الكتابةُ حقًّا هي مجرّد هواية عند النساء، بينما الرجال يمارسونها لأسبابٍ أكثر جديّة وجدوى؟.

منذ أن كتبت فرجينيا وولف كتابها الشهير «غرفةٌ للمرء وحده» والأنثى الكاتبة تحاول أن تنبش هذا التحدّي الكبير أمام إبداعها

للاعتراف بموهبتها، أمام الضغوط التي تواجهها المرأة الكاتبة والقوانين الاجتماعية والثقافية التي تُميِّز بين الجنسين وتَحُدّ من مواهب النساء وخياراتهن في الحياة. ففي كتابها«غرفة للمرء وحده» طرحت وولف سؤالا مهمًا: ماذا لو كان لشكسبير أختٌ تمتلكُ ذهنًا صافيًا وخيالًا مُتقدًا؟ وتصوّرت أنّ هذه الأخت ربما ستنتهي إلى الجنون أو العزلة أو الانتحار، لأن الأنثى الكاتبة تحتاج إلى تحقّق شروط اجتماعيّة كي تتمكّن من المُضيّ في الكتابة، تحتاج إلى تجربة حياة واسعة تمنحها معرفةً بالعالم ومَنفذًا إلى علاقات ثريّة مع الناس، لأنّ المرء لا يكتب عن تجربته الشخصيّة فقط بل وعن حيوات متنوعة ومتباينة، ودون هذه التجربة لن تكتب النساء سوى عن واقع فقير ومحدود. لهذا أعلنت وولف أنّ الكاتبة المرأة في حاجة إلى غُرفة تخصُّها وحدها ودَخلٍ مُنتظم ولو كان بسيطًا. بيد أن شفق، بعد قَرنٍ من الزمن عن وولف، ورغم تغلّبها على صراع الحصول على غرفة تخصّها ودَخل مُتدفّق لكاتبة مثلها، فهي تكتشف أن الأنثى الكاتبة يعترضها تحدٍّ آخر، شرطٌ وجوديٌّ آخر، شرطٌ طبيعيٌّ ينتصبُ بعدَ تجارب الحب والزواج، ألا وهو الولادة والأمومة. وهو شرطٌ يستدعي معه، أيضًا، صراعًا نفسيًّا لا يقلُّ حِدّةً عن صراع الأنثى مع شياطين القوانين الاجتماعية والثقافية.

ورغم أن شفق، مثل كلّ الأمهات، تعترف بأنّ الأمومة هي أعظم هدايا الحياة، فإنّ المرأة كما تقول شفق لا تصير أمًّا بمُجرّد الإنجاب، بل عليها أن تتعلّم الأمومة، كما أنّ الأمومة ليست مَهمّةً ممتعة في كل الأحوال، إنها كما تصفها دوريس ليسينغ حين كتبت: ليس هناك مَلَلٌ أشدُّ من قضاء امرأة شابة وذكيّة وقتها كلّه مع طفلٍ صغير.

هل من الصعب أن تجمع المرأة بين الكتابة والأمومة؟ لماذا يبدو

ذلك صعبًا؟ هل السبب هو طبيعة الكتابة التي تتطلّب العُزلة، فيما لا تستطيع الأمّ الانعزال؟.

هذا الصراع يفتح البابَ أمام إشكاليّة الزواج والأمومة بالنسبة إلى الكاتبات، ويطرحُ أسئلةً من نوع: هل تتصالح المرأة الكاتبة مع أمومتها سريعًا مثل باقي النساء؟.. ومن ثَمّ تنفتحُ على أسئلة سابقة لذلك، من قبيل: هل نستسلم للنزعات الثقافية التي زُرِعَت بداخلنا والقائلة إنّ دور المرأة الأبديّ والوحيد هو الإنجاب: الأمومة، أم ننتصرُ لمواهبنا المتفرّدة؟ هل نُغيّر أنفسنا كي يتغير قَدَرُ النساء ونُغيّر العالم معنا؟.

ومثلما تركت لنا فرجينيا وولف في كتابها منارةً لفهم هذه اللواعج وتصريفها، تأتي شفَق في هذا الكتاب لتضع عتبةً أخرى من الفهم واليقظة في طريق النساء والكاتبات، لقد وضعت جسرًا من المعرفة الإنسانية الضرورية، حيث نكتشف أنّ هذا الصراع بين الأمومة والكتابة والإبداع ليس بجديد ولا يخُصُّ منطقةً من العالم دون أخرى ولا ثقافةً دون أخرى، بل أنّ المرأة في الغرب عاشت ما عاشَتهُ المرأة في الشرق: فعبْرَ استعراض دراساتها النسوية في (حليب أسود) لتاريخ الكاتبات في أمريكا وفرنسا والصين واليابان، نكتشف أنّ الأسئلة نفسها قد طُرِحَت في كُلّ مكانٍ وكُلّ ثقافة، وأنّ المرأة الأنثى التي عرفَت حَمْلَ الأفكار وإنجاب الكُتب قبل إنجاب الأطفال قد واجَهَت التحدّي ذاته والصراع نفسه: هل يلزمها أن تتنكّرَ للرَّحِم مُقابل العقل والمنطق؟. وعبْرَ هذه الرحلة الطويلة والشيّقة سنعرف تاريخًا لنساءٍ طرحنَ هذه الأسئلة على أنفسهنّ، وعَبَرْنَ جزيرة الفهم الكابوسيّة؛ بعضهنّ وصلن بسلام وَوِفاق، وبعضهنّ تمذّبْنَ وانجرفن إلى الهاوية، وبعضهن اكتفينَ بالانحياز للكلمة دون الطفل.

ستجدُ الكثيرُ من النساء في كتاب (حليب أسود)، مثلما وجدتُ أنا، شفاءً لجروح الأمّهات والمبدعات، وَفهمًا رائعًا لهذا الصراع الذي عشناه بما يُحوّله إلى شَغَف من أجل الحياة وليس من أجل النصر والفَوز، وهو ما جعل الكاتباتِ المذكورات في الكتاب على ما هُنّ عليه من عَظَمة ومكانة.

ليس (حليبٍ أسود) مجرّد رحلة في تجربة اكتئاب ما بعدَ الولادة، أو سيرة ذاتية لأمٍّ مُبدعة تَصادَفَ أن توقّفَ قلمها عن إنجاب الكلمات عندما أنجبت طفلها، بل هو تجربةُ وَعيٍ لِمَا يُمكن أن يحدُثَ حين تتصارع الأنثى التي تَلِدُ الكلمات والأنثى التي تَلِدُ الأطفال، وكيف يُشَقّقُ هذا الصراعُ المبدعةَ إلى كيانات مُتعدّدة تَحرمُها من السلام والصفاء وحالة الرضا، ويجعلها كما كتبَت شفق: في هَوَسٍ دائمٍ بشأن الدرب الذي أهمَلَت اختياره.

إن كانت فرجينيا وولف قد حرّرت جناحًا للمرأة الكاتبة بكَشفِ أسئلتها وحاجتها لغُرفة تخصُّها ودَخل مُنتظم، فإن شفَق قد حَرّرَت الجناح الآخر للكاتبة الأنثى الأمّ، ليُصبح مجموع كتابات النساء المتبصرات بواقعهنّ وأنفسهنّ حُريّةً وتحليقًا وانطلاقًا.

وإلى جانب المتعة وخِفّة الروح والطرافة في هذا السرد، فإنّ هذا الكتاب يُعيننا نحن النساء لنتصالح مع ذواتنا المتشظيّة إلى ذوات وذوات، وبأسلوب لا يُثير الأسى، كما يقول المثل عندنا: «الموت مع الجماعة رحمة». أي أنّ المأساة تخسر الكثير من أسلحتها ويفقد وجهُها بشاعتَهُ حين تمرُّ علينا في جماعة تتشاركها.

تكتبُ ألِف شفَق ببراءة تُشبه براءةَ أفلام الكارتون التي تُصوّرُ الجميعَ أبرياء، أو بشرًا في النهاية، وتجعلنا نتعاطف معهم، بما فيهم جِنيُّ اكتئاب ما بعدَ الولادة الشرّير الذي أثّرَت فيه كلمةُ حنانٍ فأخذَ

يبكي. ولعلّ شفَق تلتزمُ قَوْلَ جورج إليوت: إن لم يقم الفن باستظهار مشاعر العَطف لدى البشر، فليس له، إذن، أيّ دور أخلاقي.

ألف شفَق قلمٌ أصيل، لا يتبع ما يمثُرُ عليه في السياق ولا يُروّج له، بل يكتُبُ ما اختبرَهُ بنفسه مع احترام تجارب الآخرين. وقد برعَت شفَق وأثبتت أنّها شُجاعةٌ وطَيِّبةٌ مثل بطلات الحكايات الخرافيّة اللاتي يفُزنَ في النهاية.

إيفيان - فرنسا

25 يوليو، 2015

مَن روّضَ الوحش؟

أحمد العلي

قابلتُها في نيويورك وتحدّثتُ معها. وراقبتها أيضًا. كانت تنزوي وحدها عند طاولة قُرب مسرح سيتتابعُ للوقوف عليه ثمانية مُبدعين. على كُلّ مُبدعٍ أن يُشارك الجمهور حكايةً خاصّة وحميمة، استخلصَ منها قواعدَ تُسيّر حياته. لم يكُن غير وجهها مُضيئًا في تلك الزاوية المُظلمة، فقد كانت ترتدي زيًا أسْوَدَ بالكامل، يُغطّي جسدها النحيل تمامًا. تحتسي شايًا أخضر وتُراجعُ أوراقًا كأنّها تتأكّدُ من حفظها لها وتتدرّب على إلقائها همسًا. متوتّرة. تُرسل ابتسامات المُجاملة لِمَن يُحدّثها أو يُحيّيها، ثُمّ تُعاودُ الغرقَ من جديد في أوراقها. كنت أجلسُ إلى طاولة لِصقَ المسرح تمامًا مع الأستاذ خالد الجبيلي، مُترجم (قواعد العشق الأربعون) و(لقيطة إسطنبول). كانت تتعرّق، وكانت عيناها جميلتيْن. وكانت ترتدي خواتمَ كثيرة. رأيتُ إسطنبول كلّها تتماوجُ على المسرح. أمّا زوجها أيوب، فكان يحومُ حولها مثل شبح، لا يحدّثها ولا تحدّثه، ولا يقترب من جمهورها. لكنني ذهبتُ إليه في الخارج، عرضتُ عليه سيجارةً وتبادلنا الحديث. وعندما تصافحنا وغادر، رأيته يسيرُ خلفها وهي محفوفة بالأصدقاء. ليس غريبًا القول بأنّ خلف كلّ رجلٍ عظيم امرأة، فالحُب يجعل من النساء ملائكةً في البَذل والعطاء. الغريبُ حقًا أن تجد خلف امرأةٍ عظيمة رجُلًا. هنا، تمامًا، ممنى تطوّر المجتمع والحياة، تراه وتلمسه، خارجَ الكُتُب

وخارج الكلام. هل وجدَت شَفَق هذا الرجُل صُدفة؟ أم هيَ من قامت بصُنعه؟ أم أنّ ثقافةً جديدةً راح تأثيرها يُزهِرُ في المجتمعات الشرقيّة تدعو لاحترام المرأة وخياراتها والاعتراف بحقّها في قيادة حياتها بحُريّة؟. مَن روّضَ الوحش؟. كنتُ هناكَ رِفقةَ زوجتي نورس. وبعد أن ابتعدَ أيّوب وزوجته ولفيف أصدقائهما، كنتُ أسيرُ بطيئًا نحو محطّة القطار، ذهني في مكانٍ آخر وتقودُني الخُطى عَفْوًا، ثم ضمّت كفّي كَفٌّ أخرى: كانت نورس تسبقني إلى الأمام، إلا أنها توقفت، عادَت، وأخذتني معها. تغيّر شيءٌ في داخلي. لسنا خلف بعضنا. لسنا أمام بعضنا. لستُ أيّوبًا. وليست هي شفق. في هذا العالم الواسع، يكفيك أن تجد طيرًا يُحبّك لتعرف الفضاء، لتكون عظيمَهُ ويكون هو عظيمَك، هكذا ببساطة الريش، ونُبل جوهرة التاج الكبيرة.

نيـويـورك

أكتوبر 2015

ملحوظة للقارئ من ألف شَفَق

كنتُ في إسطنبول عندما هزّها الزلزال عام 1999م، أعيشُ في أحد أكثر أحياء المدينة نبضًا بالحياة والتنوّع، حيثُ تتفاوَتُ أبنيةُ البيوت في تَرَفها وفقرها تفاوُتَ قصص ساكنيها. أذكُرُ أنّني عندما هربتُ مع جيراني في الثالثة صباحًا خارجين من مساكننا، رأيتُ بين أصوات الصراخ وطلب النجدة ما أوقفني عن الجري. يجلسُ هُناك، مقابل الشارع، صاحبُ بقالة الحَي - رجُلٌ كبير السّن لا يبيعُ الكحول ولا يتبادلُ الحديث مع المتسكّعين والمنبوذين – يجلسُ إلى جانب «مُتحوّل جنسيٌ» تضعُ شَعْرًا مُستعارًا أسْوَدَ طويلا، وعلى وجنتيها تسيلُ المَسْكَرَا ومستحضرات التجميل. شاهدتُ الرّجُل العجوز يفتحُ عُلبة السجائر بكفّين مُرتعشتين ووجه صار أبيضَ كالأشباح، وعرضَ على جارته الباكية سيجارة. هذا المشهد من ليلة الزلزال، كان أكثر المشاهد تَغلغُلا في ذاكرتي وما يزال يُطالعني إلى اليوم: بَقّالٌ مُحافظٌ و«مُتحوّلٌ» ينشُجُ، يُدخّنان سويًا جنبًا إلى جنب. في وجه الكوارث والموت، تتبخّر فوارقنا الدنيويّة ونعودُ جميعًا لنكونَ واحدًا، حتى ولو لبضعة ساعات وحسب.

بيد أنني آمنتُ دومًا أنّ للقصص، أيضًا، تأثيرًا علينا مُماثلًا للكوارث والموت. لا أقولُ إنّ للخيال ما للهزّة الأرضية من انعكاس وتَبِعات بقَدْرٍ مُتساوٍ. لكننا، عندما ننغمسُ في رواية جيّدة، نترُكُ

مساكننا الحميمة الضئيلة خلفنا ونرحلُ مع الشخوص الخيالية للرواية، نجدُ أنفسنا نتعرّفُ إلى أناسٍ لم نُقابلهم قط، أو أنّنا كرهناهم حتّى، واعتبرناهم أعداءً.

سأستذكّرُ ذلك المشهد من ليلة الزلزال بعد سنينَ طويلة، في ظروف مُختلفة تمامًا: عانيتُ من اكتئاب شديد بعد ولادتي لطفلي الأوّل، ما عزلني عن شغف حياتي الوحيد الذي رفعتهُ، حتى تلك اللحظة، أولويّةً فوق كُلّ شيء: كتابة القصص.

ما حدثَ لي كان رِعدةً عاطفيّة، أو هزّة عنيفة، خرجتُ على إثرها راكضةً من مبنى «الذات» الذي بنيتُه واعتنيتُ به طوالَ عُمري، فصادفتُ هُناكَ في الظلام، خائفةً ومرتعشة، مجموعةً من عُقلات الإصبع — ستّ من الحريم ضئيلات بحجم الأنامل، بدَت كل واحدة منهن نُسخةً مُختلفةً مني — يجلسن مُتجاورات. أكيدةٌ أنا أنني أعرفُ أربعًا منهن وحسب، أمّا الأخريات فإنّني أقابلهن للمرّة الأولى. وقد فهمتُ بعدها أنّه لولا الوضع الاستثنائي الذي مررتُ به في اكتئاب ما بعد الولادة، لَمَا أتيح لي أبدًا رؤيتهن جميعًا تحت ضوءٍ جديد، ولبقينَ يعشنَ في جسدي وروحي دون أن يستمع بعضهُنّ إلى بعض، مثل جيرانٍ يتشاركون الهواء نفسه دون تبادل التحايا الطيبة على الإطلاق.

رُبما تعيشُ كلّ امرأة وفي داخلها حريمٌ صغيرات، وقد يكون التناقض والتوتّر وما يصعُبُ تحقيقه من تناغُم بين ذواتنا المتعارضة هو ما يصنعنا ويجعلنا نحنُ حقًّا.

مرّ وقتٌ لا بأس به قبل أن أتعرّف إلى حريمي السّت الأُنمليّات وأُحبّهنّ.

وهذا الكتاب هو قصّة مواجهتي لتعدُّدي الداخلي وكيف تعلّمتُ أن أتّحدَ وأصير واحدة.

Ω

أنا كاتبة.

أنا مُترحّلة.

أنا عالميّة.

أنا مُحبّة للصوفيّة.

أنا سلميّة.

أنا نباتيّة، وامرأة في الوقت ذاته، بهذا الترتيب تقريبًا.

هكذا كنتُ أُعَرِّفُ نفسي حتى بلغتُ الخامسة والثلاثين من عمري.

حتى ذلك العُمر، لم أكُن أرى نفسي في البدء والمنتهى سوى حَكواتيّة. كان يا ما كان، أشباهي من الناس كانوا يتشاركونَ قصصهم حول نيران المُخيّمات، تحت سماءٍ هائلة الاتساع لا يعرفون أبدًا أين تنتهي، هذا إن كانت لها نهاية. أشباهي الذين في باريس، كانوا بالكاد يجمعون إيجار مساكنهم بالكتابة للصحف. وأشباهي الذين في قصر السلطان المُستبد، تضمنُ لهم كُل حكايةٍ الحقّ في الحياة ليوم واحد آخر. شعُرتُ دومًا أنني مُرتبطةٌ بحكواتيّي الزمن القديم، أو قُلّ بصوت الرّاوي المجهول، أو فليكُن بلزاك أو حتى الجميلة شهرزاد. الحقيقة هي أنني، كالكثير من الروائيين، أشعُرُ بالقُرب من الكُتّاب الأموات أكثر من المُعاصرين، وربُما أستطيعُ أن أتّصل بأناسٍ مُتخيّلين وأتشابك معهم أكثر من اتّصالي بأُناسٍ حقيقيّين، أو، حسّنًا، لأقُلْ بالواقعيين منهم.

ذلك ما كنتُ أحياه، وما نويتُ أن أُكملَ عُمري عليه، لو لم يحدث، بعدها، ما لم أحسب حسابه قَط. حدَثَ مُعجِزٌ ومُذهل: الأمومة.

لقد غيّرَت كلّ شيء. حوّلتني.

رمشَت أجفاني أمام دَوري الجديد، مُرتبكةً كخفّاشٍ فاجأه ضوء الشمس فأيقظه.

فيومَ عرفتُ أنني حامل، ارتعبَت المرأةُ الكاتبةُ بداخلي، فيما اضطربت المرأة المجاورة لها بسعادة، أمّا داعية السّلام فأبقت على نفسها غائبة، وراحت المرأة المدنيّة داخلي تفكّر بأسماءَ عاميّة للطفل، والمرأة الصوفيّة إلى جوارها تُهلّل للخبر، في حين راودَ القلق المرأة النباتيّة بداخلي بشأن احتمال أن أضطرّ لأكل اللحوم، وأخيرًا، لم تكُن تلك المرأة المُترحّلة فيّ تريدُ شيئًا سوى أن تقف على قدميها وتركض بأسرع ما تستطيعه. لكن هذا ما يحدُث عندما تحملين: تستطيعين الهرب من كلّ شيء ومن أيّ أحد، سوى التغيرات التي تطرأ على جسدك.

عندما عصفَ بي اكتئابُ ما بعد الولادة، قبضَ عليّ بقسوةٍ دون أن يحميني أحد. كان يتمطّى أمامي كنفقٍ مُظلم لا نهاية له، أخافني وأرعبَ قرائنصي. تعثّرتُ أثناء مُحاولتي عبوره، وسقطتُ أرضًا مرّات كثيرة، وتشظّت شخصيّتي إلى أجزاء صغيرة جدًا حتّى أنني لم أكُنّ قادرةً على لصقها معًا مرّة أخرى. بيد أنّ التجربة ساعدتني، في الوقت نفسه، على النظر من شِقٍّ نحو عالم آخر، والتعرُّف على كُلّ واحدة من الحريم القابعات بداخلي، وقد حملتُهن طوال هذه السنين. يَحدُثُ أن يكون الاكتئابُ فُرصةً ذهبيّةً أعطتها الحياةُ لنا لنواصل التقدّم في أمورٍ تعني الكثير لقلوبنا، إلّا أنها، جرّاء تسرُّعنا أو إهمالنا، قد أزيحَت تحت السجّادة، أُخفيَت فنُسيَت.

لستُ على يقينٍ ما الذي جاء أوّلًا وما الذي تبعه. هل خرجتُ من اكتئابي ثُمّ بدأتُ كتابة هذا الكتاب؟ أم هل أنهيتُ الكتاب أوّلًا، وهكذا استطعتُ أن أحبو خارجةً من النفق؟ الحقيقة هي أنني لا أدري!.

تبدو ذكرياتي لتلك الأيام ساطعة وفاقعة، إلا أنها أبعد ما تكون عن التسلسل الزمني.

لكنّني أعرفُ بالتأكيد أنني كتبتُ هذا الكتاب بحليبٍ أسودَ وحبرٍ أبيض – مزيجٌ من القصّ والأمومة والتوهان والاكتئاب، مزيجٌ قطّرتهُ لمدّة أشهُرٍ في درجة حرارة الغرفة.

يُمثّلُ كُلّ كتاب رحلةً، خارِطَةً للدخول إلى تعقيدات ذهن الإنسان وروحه. وهذا الكتاب لا يختلف عن ذلك في شيء. لذا، فكلّ قارئٍ هو رحّالةٌ بشكلٍ ما. بعض الرحلات تُقدّم القارئ لمواقع أثريّة حضاريّة، فيما تُركّز الأخرى على المغامرات المفتوحة وحياة الغابات. أريدُ في الصفحات القادمة أن آخذك في رحلتين معًا، واحدة إلى وادي الأطفال، والأخرى إلى غابة الكتب.

في وادي الأطفال، سأدعوك لإلقاء نظرة قريبة على الكثير من الأدوار الصّانعة لحيواتنا، بدءًا بالنسويّة ثمّ الأمومة ثمّ التأليف. وفي غابة الكتب، سأناقش أعمال العديد من الكاتبات الماضيات والحاضرات، شرقيّات وغربيّات، سأناقش حيواتهنّ، لأرى كيف جابهنَ، في النجاح وفي الفشل، بعض الأمور المشتركة.

لا تقتصر قراءة هذا الكتاب على النساء اللواتي قد مرَرْنَ باكتئاب ما بعد الولادة، أو يتوقّعنَ أن يعصف بهن، بل كُتبَ ليتناوله أيّ أحد – رجالًا ونساءً، عُزّابًا ومتزوّجين، آباءً وأبناءً، كُتّابًا وقُرّاءً – أيّ أحد يجدُ من الصّعب في بعض الأوقات أن يوازنَ بين الأدوار المتعدّدة والمسؤوليّات في حياته.

يؤمنُ الصوفيون بأنّ كُلّ إنسانٍ هو مرآةٌ تعكسُ الكونَ على اتساعه. يقولون إنّ الواحد منّا هو فلكٌ صغيرٌ سائر. لذلك، أن تكون إنسانًا

يبني أن تحيى مع جوقة من الأصوات الفوضويّة والمشاعر المضطربة. قد تكون هذه تجربة ثريّة وواعدة حتّى لا نُعلي من شأن بعض الأصوات بداخلنا على حساب الأصوات الأخرى. إننا نقمع جوانب كثيرة من شخصيّاتنا ونكبُتها في سعينا للوصول إلى الصورة المثاليّة التي نحاول العيشَ وفقها. هكذا يندُرُ أن تحيى بداخلنا أية صورة للديموقراطية، وإنما استبدادٌ لأقليّة حيث تسيطرُ بعضُ الأصوات على كُل ما عداها.

حليبٌ أسوَد هو محاولة للإطاحة بحكم الأقليّة في سبيل تأسيس شكل ديموقراطي داخلي، صحّي ومكتمل الأركان، بطُرُق سلميّة صِرفَة. وإن بدا الافتراضُ بأنّ النظام الديموقراطي سريرٌ من الوَرد افتراضا ساذجا، فإنّه رغم ذلك يبقى أفضل من كل أشكال الاستبداد. فحين نستطيع جعل الأصوات بداخلنا متناغمة ومتزامنة، حينها، فقط، نقدرُ أن نُمسي أمّهاتٍ أفضل وآباءً أفضل، بل، ورُبّما كُتّابًا أفضل أيضًا.

لقد أطنبتُ هنا كثيرًا، لم يجدُر بي فعل ذلك. أحتاج أن آخذ المنعطف وأعود بالزّمن، بحثًا عن اللحظة التي ابتدأ منها هذا كله.

حليبٌ أسود

شاطِفَةُ الأواني المحظوظة

ها نحن ذا، أنا وأمي، عالقتان في متاهة من مشاعرَ حُلوَة مَشوبَة بمرارة، مشاعرَ لا يدخُلُ مغارتها سوى الأمهات وبناتهنّ. فرغم أنّني فاجأتها بأخبارٍ مُباغتة، فإنّها تجاوبَت معي بطريقة جعلت قلبي يمتلئ نحوها بالعِرفان، وقد شَكَرتُها لوقوفها إلى جانبي وتشجيعي.

(أوه، حبيبتي، لم أقصد أن أكون لطيفةً معك أو أن أقف إلى جانبك، أبدًا. أنا مثل شاطفة أوانٍ فقيرة، التقطَت ورقة يانَصيب مُلقاة على الرّصيف، صُدفةً، لتجد نفسَها قد ربحت الجائزة الكبرى).

أحسَبُ أنّني ألِفتُ رموزَ أُمّي وشفراتها، لكنّني هذه المرّة لم ألتقط ما رَمَت إليه فورًا. (خوفي أنّني لم أفهم يا أمّاه).

(لكنّ الأمر واضحٌ يا عزيزتي. أنتِ خِفتِ من استيائي عندما عرفتُ أنّك تزوّجتِ سرًّا في بَلَدٍ بعيد، وعندما وجدتِ أنّني لم أُعِرِ الأمر أدنى اهتمام، شعُرتِ بالامتنان. أليس ذاك صحيحًا؟)

أومأتُ برأسي: (بلى).

(هل رأيتِ! وحدها الأمّ التي تأمَلُ أن تتزوّج ابنتها يومًا ما، مَن يخيبُ أملها عندما تعرفُ أنها فعلت ذلك من وراء ظهرها. وبصراحة، لم أتوقّع أبدًا أن تتزوّجي يومًا!. بدا لي أنّك آخرُ من يُمكنه الارتباط على وجه الأرض!. لذا، لم أذهب لأبتاع ورقة يانصيب كلّ أسبوع وأُعلّق أحلامي عليها. هل يبدو ذلك منطقيًّا الآن؟)

للتوّ، بدأ حديثها يتّضح لي.

ثُمّ أردَفَت بحماس بالغ، بعد أن ابتهجَت لحصولها على انتباهي كُلّه: (هكذا تقبّلتُ الوضعَ كما هو، وأكملتُ حياتي. وفي يوم من الأيّام، ودون أيّ استعداد، صادفتُ ورقة اليانصيب هذه على الرّصيف، ووجدتُ أنّني قد ربحتُ الجائزة. هذا ما شعرتُ به عندما سمعتُ بخبر زفافك؛ مذهولةً ومحظوظة مثل شاطفة الأواني تلك!).

تزوّجتُ في (برلين) قبل وقت قصير. لم يكن اختيارنا هذه المدينة لعقد قراننا مصادفةً. إذ بدا أنّ ما نقومُ به، بالنسبة إلينا على الأقل، لا يقلُّ دهشةً عن البغتة التي أُعيدَ فيها توحيد (ألمانيا). نحنُ أيضًا، مثل شرق (برلين) وغربها، كُنّا سويًا لفترة، ثم انفصلنا، والآن يعودُ كلٌّ منّا إلى الآخر. تحلّينا أنا وزوجي –ولا نزال– بشخصيّات مختلفة اختلافَ الشيوعيّة عن الرأسماليّة. (أيّوب) رجُلٌ مُهذّبٌ صاحبُ روحٍ كريمة، حَصيفٌ وعاقلٌ على الدوام، وقد وُهب هذه الصفات كي يكونَ مُستَتِبًا نفسيًا ومُتمتّعًا حقًا بصبر النبي أيّوب الذي أخذَ عنه اسمه. أمّا أنا، فعليّ أن أشير لكُلّ ما يُعاكس سجاياهُ تقريبًا؛ بدءًا بـ (سريعة الغضب) و(مُتسرّعة) و(عاطفيّة) و(فوضويّة).

لقد أحجمنا عن إقامة زفاف لنا، إذ لم يكُن أحدنا مولعًا بالطقوس والمراسم. هكذا وببساطة دلفنا السّفارة التركيّة في جادّة (كاباوزم) وأعلنّا عن رغبتنا في الزواج. وأثناء ذلك، كان هناك مُتشرّدٌ يجلسُ على دَكّة بالقُرب من مدخل السفارة، يزدحمُ رأسه بالأفكار والقمل، ووجهُه يتقلّبُ في السماء، يتدفّأ بسعادة تحت الشمس. خَطَرَ لي أن يكون شاهدًا على زفافنا، لكنني عندما حاولتُ سؤاله الدخول معنا، لم يكن يتحدّث الإنجليزية، ولم أكن أتحدث الجرمانيّة، ولُغةُ الإشارة التي ابتكرناها للتو بيننا لم تكن رفيعةً بما يكفي لنتناول موضوعًا غير

معتاد كالّذي أردته. هكذا وَهبناه عُلبة سجائر (مالبورو) مُخفّفة، فبادلنا الامتنان بابتسامة تخلو من الأسنان. أعطانا أيضًا إصبع شوكولاطة ملفوف بغلاف ذهبيٍّ قامَ بأناة ولفترة طويلة بدَعكه حتّى أضحى ناعمًا. قَبِلْتُ هديّته جذلانةً، واعتبرتها فألَ خير.

لم ألبس ثوب زفاف. ليس لأنّني لا أتذوّقُ مثل هذه الشعائر المتوارثة وحسب، بل لأنّني لا أرتدي ثيابًا بيضاء على الإطلاق. فكّرتُ مرارًا ولأوقات طويلة ومُعقدّة في قُدرة الناس على ارتداء البياض. لم أكُن أستطيع لسنواتٍ تحمُّل مجرّد الجلوس على أريكةٍ بيضاء. لكنّني، تشافَيت، على مهلٍ، من هذه العادة. وضعَ أصدقائي وصديقاتي عدّة فرضيّات حول سبب كرهي اللّون الأبيض. إنهم يعتقدون أنني في طفولتي وقعتُ داخل مرجَلٍ (قدرٍ كبيرة) منَ الأرُز بالحليب (وخلافًا لما حدث لـ أوبيليكس عندما سقطَ في مرجَلٍ من الدّواء السّحري، فإنّني لم أحصل على طاقات خارقة من وراء سقوطي). فانتهى بي الحال إلى كُره اللون وحده، لا الرز بالحليب. غير أنّني لا أحملُ أيّ ذاكرة لمثل ذاك الحدَث، ولم تكن فرضيّتهم الثانية عنّي صحيحةً أيضًا، إذ أُعادو كُرهي للأبيض إلى أنني مُتحيّزةٌ دومًا ضدّ الأطباء البشريين وأطبّاء الأسنان وفَنيِّي المختبرات- الناسُ الذين يرتدون الأبيض دومًا.

على كُلّ حال، في ذاك اليوم من شهر أيّار، تحلّيتُ باللون الذي أفضّله: الأسود. أمّا أيّوب، فقد ارتدى بنطالًا أسوَدَ وقميصًا أبيضَ، إكرامًا للعادات إلى حَدٍّ ما. هكذا كُنّا عندما أجَبنا: (قَبِلت)، في نَزوة، وبلا ارتباك. ولو اقتُرح الأمرُ على والدَيّ أيّوب وأخواته الخمس، وأمّي وجدّتي، لكانت رغبتُهم أن نُقيم زفافًا تُركيًّا تقليديًّا يعُجّ بالطعام والموسيقى والرّقص، إلّا أنهم كانوا لطفاء جدًا عندما علموا بأمر زواجنا واحترموا طريقتنا التي اخترناها لنقوم بذلك.

لندع شاطفة الأواني المحظوظة جانبًا، لم تكن أمي وحدها من لم تتوقع زواجي يومًا، من الواضح أن قُرّائي أيضًا قد فاجأهم ذلك. لطالما كان مُتابعو رواياتي ومقالاتي الأقرب إلى معرفة ما أشعر به. إلّا أنهم هذه المرّة قد أظهروا صدمتهم من قراري، وعدم تفهُّمهم له، وعبّروا عن دهشتهم تلك، في رسائلهم الورقيّة والإلكترونية وبطاقات البريد، حتّى أنّ بعضهم قد بعث إليّ مقتطفات فيديو من مقابلاتي الأولى عندما قلت: (حياةٌ برجوازيّةٌ أليفة؟ انسَ! لا يُناسبُني ذلك)، و(لا أظنّ أنّني أتحلّى بملَكة تربيّة الأطفال. لكن، أعتقد أنّني سأكون زوجة أب لطيفة؛ أنت تدري، مع مَنْ أستطيع بسهولة أن أذهب لمُباراة كُرة، أو إلى بروفة حفلة مدرسيّة راقصة). والآن، في لحظة الإحساس «بالجُرم المشهود» في أعينهم، يطالب هؤلاء القُرّاء الأذكياء بسُخريتهم الظريفة بمعرفة ما تغيّر.

لم يكُن في يدي سوى جوابٍ واحدٍ أقدّمه لهم: الحُب.

أُحبُّ زوجي، ولطالما تملّكني إحساس غريب بالهدوء والسرورِ حين أكون إلى جانبه. بيد أنّ جانبًا آخر منّي لم يستطع أن يتعاطى مع تلك السّكينة ولم يقدر، أو لا يقدر، على أن يتنعّمَ في تلك الغبطة. رُبما لأنّني لم أستقرّ في مكانٍ بعينه لزمنٍ طويل. حيثُ وُلدتُ في (ستراسبورغ)، ونشأتُ في (مدريد) وتنقّلتُ بين (أنقرة) و(اسطنبول) و(عمّان) و(كولونيا) و(بوسطن) و(ميشيغن) و(أريزونا). عشتُ على حقيبة سفر-مُتيقنةً من قدرتي على المكوث في أيّ مكان وكُلّ مكان من هذا الكوكب، طالما لم أضرب بجذوري وأستقر في جهة بعينها. ولقد آمنتُ مُبكّرًا بحقيقة إنسانيّة واحدة شهدتُ رفض الآخرين لها دونَ جدوى: الوحدةُ جُزءٌ مُلازمٌ لكينونة الإنسان. عشقتُ الوحدة. تودّدتُ إليها. عرفتُ أناسًا قد يُصابون بالجنون لو تُركوا وحدهم لساعات طويلة.

أمّا أنا، فكان الأمرُ عندي على عكس ذلك تماما. قد أُصابُ بالجنون لو كان عليّ مُرافقة أناسٍ لوقت مديد. سأفتقدُ عُزلتي.

ازدهار مهنتي كروائيّة مرهونٌ بالعزلة. إنّ الاشتغال في أغلب مناحي الفن والأدب يتطلّب العمل مع أناسٍ آخرين يشاركون في العملية الإبداعية نفسها. وحتى أكثر مُخرجي الأفلام غرورًا، عليهم أن يُحسنوا الانسجام مع الآخرين وأن يُناغموا طاقاتهم بهم، وأن يتعلّموا العمل ضمنَ فريق. وكذلك شأن مُصمّمي الأزياء والمُمثلين والرّاقصين وكُتّاب المسرح والمُطربين والموسيقيين.

إلّا أنّ الروائيين قضيّة أخرى. فنحن نقضّي الأسابيع، والأشهُر، وأحيانًا سنوات بأسرها، مُنكفئين على الرواية التي نكتب؛ نستلقي داخل هذه الشّرنقة البصريّة مُحاطين بأبطالٍ مُتخيّلين. نكتب الأقدار ونَحسَبُ أنّنا آلهة. هكذا ننتهي بسهولة، ونحن ننسج خيوط الرواية مُضيفين تحوّلات صادمةً نرفعُ الشّخصيات بها ثم نهوي بها... ننتهي إلى الظّن بأنّنا مركز الكون. الغرور الصارخ وإرهاق الذات هما أكبر الأضرار الجانبيّة لمهنتنا.

لهذا نجد أنفسنا عُشّاقًا بائسين، وأسوأ من ذلك، زوجات وأزواجًا تعيسين. الكُتّابُ بالدّرجة الأولى ليسوا اجتماعيين- رغم أنّنا قد ننسى ذلك بقليلٍ من النجاح والشّهرة. الرواية هي أكثر الآداب وحدَة، كما قال مرّةً (والتر بنجامين).

كنتُ ألقي محاضراتٍ في (أريزونا) في الفترة التي أعقَبَت زواجي. أصعدُ كُلّ بضعة أسابيعَ طائرةً وأسافرُ 26 ساعة (مع محطّات التحويل) لأجتمع بزوجي وأصدقائي في زحام إسطنبول وألوانها وجنونها، وأعودُ بعدها إلى (أريزونا) مُنكفئةً في بَيداء عُزلتي.

إنّ أوّل ما تشعُر به خارجًا من مطار (توسكون) الدولي هو لَفْحُ

الحرارة- صاعدًا من أعماق الأرض، يلفحُ وجهك بألسنة لهب خَفيٍّ. وأوّل ما تشعر به خارجًا من مطار (أتاتورك) الدولي في إسطنبول هو مَوجُ الصَّخب، جيئةً وذهابًا. واستمرّ حالي هكذا لعامَين، حتى عرفتُ في أحد الأيّام أنّني حامل.

صُعقت. لم أشعر قط بأنّني أريد أن أصير أمًّا. بيد أنني أردت هذا الطفل. بدا الأمر وكأنّ جزءًا مني- جزءًا أصيلًا، حاضنًا وأموميًا- يسمى الآن ضد الجزء الذي شاعَ فيّ واحتلّني كلّ هذه السنين. هذه القِوى وعواطف الأمومة تثورُ الآنَ وتجتاحُ قُدُمًا القُرى الجنوبيّة الصغيرة لشخصيتي بسرعة محيِّرة وخفّة نَشِطَة. بيد أنّ القوى الأخرى التي تحتلُّ العاصمة لا تزال متماسكةَ القِوى، ومتكاتفة.

غير أنّني لم أكن أرغب بفقدان تلك الروح الساكنة فيّ؛ تلك الهائمة المُستقلّة وغير العابئة. هناك، داخل رأسي، ستّةُ أصوات تتحدّث إليّ جميعها في نفس الوقت. هكذا دخلتُ تجربة الحمل، بمشاعر مختلطة، كأنّني مختطفة إلى المجهول بشُحنة كهربائيّة أعلى ممّا يتحمّلها قلبي. ولم يساعدني أبدًا أنني ذهبتُ إلى المحكمة خلال مراحل حملي الأخيرة بسبب بعض الكلمات التي قالتها شخوصي الروائيّة الأرمنيّة في روايتي (لقيطة إسطنبول). بمحض الصدفة، تقرّر انعقاد محاكمتي في اليوم الذي يتلو تمامًا يومَ ولادتي المتوقّع. ورغم أنّ تهمتي قد ثبتت في أوّل جلسة محاكمة، ولم يكن لذلك أيّ دخل أو تأثير فيما يخصّ اكتئاب ما بعد الحمل الذي عانيته، فإنّ تلك الأيام العصيبة قد انضافت إلى التحديّات التي واجهتُها تلك السنة.

وضعتُ مولودي في سبتمبر 2006م، أجملِ شهور السّنة في إسطنبول. كنتُ مبتهجة ومغتبطة، لكنّني محتارة أيضًا ولست مستعدّة. استأجرنا منزلًا صغيرًا وحميمًا في إحدى الجزر المحيطة

باسطنبول، حيث يمكنني إرضاع طفلي والكتابة بهدوء. هذه خطتنا.
وتَكَشَّفَ لنا لاحقًا أنّني لستُ قادرةً على القيام بأيٍّ من الأمرين! لم يكُن حليب صدري كافيًا، وكلّما عُدتُ إلى عالم الروايات وهممتُ بالبدء في كتابة رواية جديدة، وجدتُ نفسي أحَدِّقُ في صفحة فارغة تُضاعفُ صعوبة الأمرَ عليّ. لم أنضب في حياتي، أبدًا، من القصص. لم أواجه مرّةً مشكلة العجز عن الكتابة أو أيّ أمرٍ مشابه. فمنذ بلوغي الرشد، لم يسبق للكلمات أن رفضت التحدث إليّ، مهما تقرّبتُ إليها، سوى هذه المرة.

داهمني خوفٌ خانقٌ بأنّ أمرًا نهائيًا لا يمكن الرجوع عنه أو إبطاله قد ألَمّ بي وأفسدني، ولم يعُد بإمكاني العودة كما كنت. مَخَرَتني مَوجَةٌ من الذُعر، ورُحتُ أظُنُّ بأنني الآن وقد صرتُ أمًّا وربّة منزلٍ، لن يعود بإمكاني كتابة الروايات. ومثل سجّادةٍ قديمةٍ، سُحِبَت شخصيتي القديمة من تحت أقدامي.

تعودُ صداقتي الحميمة بالكتب منذ اليوم الذي تعلّمت فيه القراءة والكتابة. أنقذتني الكتب. فقد كنت طفلةً انطوائيّةً إلى حَدّ أنني كنتُ أتحدث مع أقلام التلوين وأعتذرُ من الأشياء عندما أصطدم بها.

وهبتني القصصُ حِسًّا باتصال الأشياء بعضها ببعض، بالمركزيّة، بالفهم. تنفّستُ الحروف وشربتُ الكلمات وتقمّصت القصص، واثقةً من قدرتي على أن أميلَ باللغة وأبرمها بشغفٍ في رقصة تانقو.

مَلأت كتاباتي، كلّ هذا الوقت، حقيبتي الوحيدة التي أحملها أينما ذهبتُ. الحِسُّ الروائي كان دومًا الصّمغَ الخفي الذي يُبقي على أجزائي المختلفة مُتلاصقة، وعندما لم يعد معي المزيد من ذاك الصمغ، تساقَطَت هذه الأجزاء من حولي. هكذا بدا العالم لي، دون ذلك الحسّ، مكانًا موحشًا وأبديّ الحُزن. الألوان التي طالما كانت

مشرقة وباعثة على البهجة، صارت مُملّة. لم يعد هناك ما يُرضيني، لم يعد هناك ما أعرفه. أنا التي عَبَرتُ القارّات، ووجدتُ بسهولة منازلَ لي في العديد من البلدان، لا أجدُ الآنَ القوّة والجرأة على الخروج إلى الشارع. صارت بَشَرَتي في منتهى الرقّة وصارت أقلّ الأشياء تخزني وتؤذيني. الشّمسُ شديدة الحرارة، والرياحُ عنيفة، والليل أكثر عتمة. كنتُ شديدة التوتُّر ومُتخمة بالقلق، وقبل أن أنتبه، انتابني اكتئابٌ ما بعد الولادة.

جدّتي لأُمّي امرأةٌ لطيفةٌ وقُدسيّةٌ، وغفيرةٌ بالخُرافات. بعد أسابيع من مشاهدتها بكائي المتواصل، وضعَت كفّي بينَ كفّيها وهَمَسَت بصوت أنعم من المخمل: طفلتي العزيزة، عليكِ أن تستجمعي قواكِ. ألا تعرفين بأنّ كُلّ دمعةٍ تذرفها الأمُّ الجديدة، تجعل حليبها أكثر حموضة؟.

لم أكُن أعرفُ ذلك.

وجدتُ نفسي أُفكّرُ في تلك الصورة: مالذي سيحدثُ لو أن حليبي صار خاثراً؟ هل سيصبح قاتما ويأخذ هيئة أكثر ثخانة ودُكنة؟. لم تقُم هذه الفكرة بتنبيهي أكثر، بل أشعرتني بالذنب. وكُلّما حاولتُ التوقف عن البكاء، زادت رغبتي فيه. كَيفَ حدثَ أنّ كُلّ امرأة عرفتُها قد تأقلمَت مع الأمومة بسهولة، أمّا أنا فلم أستطع ذلك؟ أردتُ إرضاع طفلي من حليبي كأفضل ما أستطيعه، ولأطول فترة ممكنة، لكنّني لم أتمكّن من ذلك. صورةُ إفسادي لحليبي استمرّت بإزعاجي في النهار، بل وبالهجوم عليّ في عُقر أحلامي.

بعدها، في أحد الصّباحات، بعد أشهُرٍ من الاكتئاب والتقوقع ومحاولات العلاج الفاشلة، استيقظتُ مدفوعةً للكتابة مُجدّدًا، وجلستُ إلى مكتبي. كان الهدوءُ يعُمّ المكان، لا تجرح صمته سوى

أصوات مراكب صيدٍ بعيدة، وطفلتي تنام في مهدها الهزّاز. نسائمُ من شذى الياسمين في الهواء، والسماء فوق مياه البوسفور شاحبة الزُّرقة تكاد تخلو من أيّ لون. وبغتةً انتابني ذاك الحسُّ الباعثُ على ارتياح عميقٍ بأنّ كُلّ شيء كان على مايرام ولا يزال. وتناهى إليّ قول جلالُ الدينِ الرومي: الليل يُنجِبُ النّهار. نستطيعُ بدء الحياة من جديد، في أيّ وقت، وأيّ مكان.

لا بأس، ذُعرتُ ولم أتوقف عن البكاء. لا بأس، خفتُ وما كان بيدي أن أكتُبَ وأمارس الأمومة في نفس الوقت. لم يكُن حليبي أبيضَ كالثلج، لا بأس في ذلك أيضًا. ربما أقدرُ، لو بدأت الكتابة عن تجربتي هذه، أن أجعلَ من حليبي المسوَدّ، حِبرًا. فللكتابة دومًا تأثيرٌ ساحرٌ يُشفي روحي، وبها أقدرُ أن أشُقّ طريقي خارجةً من هذا الاكتئاب.

في ذاك اليوم تحديدًا، وضعتُ طفلتي في عربتها ودفعتُ بها خارجةً من المنزل إلى هدير الشّوارع. كنتُ حَذِرَةً في البدء، ثم أكثر جُرأة، حتى رُحتُ أسألُ من أصادفهنّ من النساء عن تجاربهنّ مع اكتئاب ما بعد الولادة. فوجئتُ أنّ الكثيرات منهنّ قد مررنَ باضطرابات عاطفيّة مُشابهة لتلك التي مررتُ بها. لماذا لم نعرف أكثر عن ذلك؟ لطالما قيل لي إنّ النساء يقفزن من السّعادة حالما يحملنَ مولودَهُنّ بين أذرعتهنّ. لم يقُل أحدٌ إنّ رؤوسهنّ قد تصطدم بالسقف، ومنّ يقفزن فرحًا، فيُمسينَ دائخاتٍ بعضَ الوَقت.

أثناء كتابتي لكتابي هذا (حليبٌ أسوَد)، أجريتُ مُحادثات عديدةً مع نساءٍ من كُلّ الأعمار والأصناف. وشيئًا فشيئًا حلّ الهدوء عليّ ببطءٍ وثبات، فعرفتُ أنني لستُ وحدي. وقد أعانني ذلك كثيرًا. يبدو مُضحكًا أن تقومَ فتاةٌ أمضَت حياتها تفخرُ بقدرتها على العيش وحيدةً بالبحث عن السّلوى والعزاء عند ما لا يُحصى من الناس. لكنني، مع

ذلك، اخترتُ ألّا أغرق في ذاك البحث. فالحقيقة بسيطة: اكتئابُ ما بعد الولادة شائعٌ جدا، أكثر ممّا نريد أن نُصَدّقهُ نحنُ كمُجتمع.

من المُثير أنّ النساء قد خَبروا ذلك في الأيّام الخوالي. جَدّاتُ جَدّاتنا كُنّ على عِلم بكُلّ اضطرابات ما بعد الولادة، وأعددن لذلك أفضلَ تدبير لها. وقد نَقَلنَ معرفتهن لبناتهن وحفيداتهن، غير أننا اليوم مبتعدون عن الماضي، حتى أننا لا نملك مدخلًا لحكمتهن تلك. فنحنُ النساء العصريّات، عندما يُصيبُ دواخلنا العطب والعياء، نُخفي علاماتهما وأعراضهما بأحدث تقنيّات التجميل. نَظُنُّ أنّ بإمكاننا الولادة اليوم والمُضيّ في حياتنا بشكلٍ طبيعيٍّ غدا. بعضُنا يستطعن ذلك بالطبع. والمشكلة أنّ بعضنا الآخر، ببساطة، لا يستطعن ذلك. الكبيراتُ في السّن، في تركيا، يؤمِنّ بأنّ على الأم الجديدة، خلال الأيّام الأربعين الأولى من ولادتها، أن تبقى برفقة مَن تُحبهم ووسط حفاوتهم. أمّا إن تُرِكَت لوحدها ولو للحظة واحدة، فستكون فريسة هجمات الجن- وتغرقُ ضحيّةً لطوفان الهموم والقلق والمخاوف. لهذا تقومُ العائلات التقليدية حتى الآن بتزيين فِراش حَديثَة الولادة بشرائط قِرمزيّة، وينثُرنَ بِذار الخشخاش المُقدّسة في أرجاء الغُرفة لطردِ أيّ روحٍ شريرة تحومُ في الهواء.

لا أُحاولُ هُنا القول بأنّ علينا الاقتداء برُزمَة من الخُرافات، أو أنّ على الرعاية الصحيّة أن تَصرفَ لحديثة الولادة حِبالَ زينة مشكوكة بفصوص الثوم، أو خُرَز العين الحافظة من الحسد التي تُعلّقُ على ستائر سرير المرأة الوالد. ما أقوله هو أنّ النساء في عصور ما قبل الحداثة، من خلال حكاياتهنّ القديمة عن المتزوّجات وعاداتهن ومعتقداتهنّ، مَيّزنَ حقيقةً لم نعُد نعرف كيف نُقرُّ بها: تمرّ المرأةُ خلال حياتها بمراحل انتقالية صعبة، والعبور من مرحلةٍ إلى أخرى

ليس سهلًا كما قد يبدو؛ إذ تحتاج الكثير من المساعدة والدّعم والنصيحة قبلَ أن تعودَ بأكملها إلى الحياة في الزمن الحاضر مرّةً أخرى. وفيما هي تسيرُ من يوم إلى آخر، تُصارعُ المشاكل وتواجهها وتتدبّرُ أمرها، تمرُّ أوقاتٌ تتعثّر فيها آلةُ جسدها ويُصيبها العطب. وتلك هي الحكمة القديمة والبسيطة التي لا نُعيرها اهتمامًا في سَعينا لنكون قويّات وناجحات وفي أوْج كمَالنا طوال الوقت.

شخصيّة السيّدة الركيكة، التي تضعُفُ وتحتاجُ الآخرين، ليسَت مشهورةً بين السيّدات والشخصيّات النسائية الأخرى في جيلنا. لم يعُد أحدٌ يعرفُ أين رحلَت. إلّا أنّ هناك شائعات تفيدُ بأنها منفيّة في جزيرة في المحيطة الهادئ، أو في قرية على مشارف جبال الهملايا. الجميعُ سَمِعَ بوجودها، لكن يُحَرّمُ النطق باسمها عاليًا. عندما يأتي أحدٌ على سيرتها، في أماكن عملنا ومدارسنا ومنازلنا، نخافُ العواقب. ورغم أنها ليست مُدرَجةً في قائمة أشَدّ المطلوبين للعدالة في جهاز الإنتربول، فلا أحد يريد أن تربطه بها أيّة علاقة.

لا شيء ممّا قلته يتنكّرُ للأمومة بوصفها أعظم هدايا الحياة. إنها قالَبٌ يُعيدُ تشكيلَ طينة القلب، ويجعلُ الإنسانَ مُتناغمًا مع إيقاع الكون. هناك سببٌ يجعل ما لا يُحصى من النساء يقُلن إنّ الأمومة هي أحسنُ ما جرى عليهن في الحياة. وأنا أتفقُ مع ذلك من أعماق قلبي.

غيرَ أنّ المرأة لا تصير أُمًّا بمُجرّد الإنجاب. بل عليها أن تتعلّم الأمومة؛ إنها معرفةٌ، يأخُذُ استيعابُها عند البعض وقتا أطولَ من الآخرين. فهناك مَثيلاتي، مَن يجدن أنفسهن يرتعشن حتى العظام من هَول التجربة. طبعا، لا أقول إنّ الانتقال إلى مرحلة الأمومة أصعب على المُبدعين من غيرهم، إذ أنني رأيتُ نساءً من جميع مشارب الحياة يخُضنَ كُلّ الذي مررتُ به، نفس الأغنية الكئيبة، ولو بدرجات

متفاوتة. رُبما، أكثرنا قوّة وثقة مَنْ في الحقيقة أكثرنا هشاشة. ومن المثير أنّ هذا الدولاب النفسيّ قد يدورُ ببساطة في الولادة الثانية أو الثالثة أو حتى السادسة، كما دارَ في الأولى تمامًا.

الحواملُ، رغم كلّ شيء، مثل نُدَف الثّلج؛ لا تتشابه اثنتان منها تمامًا.

الفصل الأول

الحياة قبل الزواج

علامات

إنها الظهيرة في اسطنبول. تُقلُّني باخرةٌ تُسَمّى (الفجرية) لأنها لا تُبحرُ وحسب، بل ترقص على المياه الزرقاء، مُقِلّةً الرُّكّاب بين المدينة وما جاوَرَها من جُزُر. عُشّاقٌ في أوّل الحُب يسرقون القُبَل، وطُلّابُ مدارس يُضَيِّعون حصصهم، وموظّفو مكاتب يُطيلون استراحة الغداء، وفوتوغرافيون يُلقِّمون كاميراتهم بالعدسات، وبَاعَةٌ يعرضون سلَعَهُم على ظهورهم، وسائحون يسيحون. أناسٌ من كُلّ مشارب الحياة، وجدوا أنفسهم، بأعجوبة، على متن مركب صغير، يميلُ بهم يُمنةً ويسرةً، وكنت هناك، محشورةً بين امرأة بدينة وسيِّد أنيق متقدّم في السّن بعضَ الشيء، مُتكوّمةً في زاوية، وكتُبي تجلسُ في حضني، إذ بعدَ أن انتهيتُ من مقابلة أجرتها معي مجلّةٌ أدبيّةٌ في إحدى الجُزُر، ها أنا في طريق عودتي، فتاةُ المدينة تعود وحيدة إلى منزلها الآن.

ما كاد يمرّ بعض الوقت على مغادرة الباخرة ميناءها، حتى أدركتُ أنني نسيتُ دفتر أفكاري حيثُ أجريتُ المقابلة. فانتابني شعورٌ بالغَمّ: لماذا أتجوّل دومًا ناسيةً أشيائي هنا وهناك؟ مظلّات، هواتف نقّالة، رُقَعُ فيتامينات، عُلَب مكياج، مُرطّبات شفاه، ومشابك شعر، وقفّازات، إلى درجة أنني أنسى فطيرةً قد التهمتُ نصفها ثم وضعتها جانبًا لبضعة دقائق، وأنسى في دورات المياه العامّة خواتمي الفضيّة بعد نزعها لأغسل يدي. ومَرّةً نسيتُ حَوضًا زُجاجيًا تعيشُ

فيه سلحفاتان، كان هديّة عيد ميلادي من صديقة مقرّبة جدا مني. ولأنني لم أجرؤ على الاعتراف لها بأنني فقدتُ الهديّة في اليوم نفسه الّذي قدّمت فيه إليّ، رُحتُ في الأسابيع التي تلت ذلك أبتكرُ قصصا عن السلاحف في كلّ مرّة تسألني فيها عن أحوالها.

- أوه، إنّهم يُحسنونَ الصُّنع، يلتهمون أعشابَ شُجَيْرتي (شُجيرة مريم)، ويزدادون وزنًا.

ثُمّ أكمَلتُ:

- أتدرين، في أحد الأيّام، تسلّلت إحدى السلحفاتين خارجَ الحَوض دون أن ألحظها. بحثتُ عنها في كل مكان ولم أجدها. وبعدها، عندما أشعلتُ ضوءَ القراءة، وجدتها. ها هي ذي تجلسُ مُرتاحة على المصباح، وظلّها يرتمي على الجدار كوحشٍ هائل.

هكذا تابعتُ اختلاقَ مُغامرات لتلك السلاحف حتى جاء ذاك اليوم. حينها وَضَعَت صديقتي عينيْها في عَينيّ وطَلَبَت منّي أن أكُفّ عن ذلك. راحَ صوتُها يتضاءَل حتى صارَ هَمسًا، وقالت إنّها تريدُ أن تُصارِحَني:

- أُريدُ أن أُزيلَ هذا الأمرَ عن صدري. في البدء، عندما اشتريتُ السلاحف، راودتني شكوكٌ حادّةٌ حول قدرتك على الاعتناء بها. لكنك أثبتّي خطئي. أنتِ تُحسنين صُنعا معها. ولذا، أدينُ لك بهذا الاعتذار.

أُقسِمُ أنّ شَفَتَيّ وأجفاني قد غدت يابسةً دون حراك ولم أعد أقوى على التنفّس. ومنذ تلك اللحظة تحديدا، توقّفت. لم أعُد قادرةً على اختلاق مغامرات عن السلاحف أكثر. وبعدها بمدّة أيّام، حانَ دَوري لأعترف لها بما حدث. أخبرتُها بأنها لا تدين لي بأدنى اعتذار،

وبأنّني أنا من يجب عليه أن يعتذر منها، ليس مرّةً، بل مرّتين؛ الأولى لإهمالي، والثانية لخداعي لها. ثم رحت أروي لها كيف أن سلاحفها لم تصل إلى بيتي أبدا.

قالت، بعد أن لبثت صامتةً لوقتٍ طويلٍ ومُحرج:

-أ تَدرين، لقد راوَدَتني تلك الفكرة مرّة، عندما أخبرتني بأنّ السلاحف كانت تلتقط حُبيبات عبّاد الشمس من كفّك. خَطَرَ لي أنّ الأمرَ اختلطَ عليكِ بين السّلاحف وطيور الكناري!.

ارتحتُ عندما انفجرَت صديقتي ضاحكةً فانضممت إليها، وتندّرنا على تعابير وجهي عندما أكون مرتبكة. في الحقيقة، لم أهتم؛ ففي ما عَدَا الإحراج الحاصل من فقداني للهديّة، لم تجُرّني هذه الحادثة إلى أيّ شكلٍ من أشكال تأنيب الضمير أو النقد الذاتي. ما الذي سيحدث لو كنت حريصةً أم مُهمِلة؟ ففي النهاية، كان المطلوب مني الاعتناء بسلاحف، لا بأطفال.

وفجأةً ترتَجُّ الباخرة، كعملاقٍ يتمدّدُ بعد نوم طويل. فيعيشُ الرّكاب أثناء ذلك لحظات من الذعر؛ شفاهٌ ترتجف دون ارتياح، والأكُفّ تطالُ كل ما يمكن التشبث به. فقد كانت تُبحرُ هناك في البعيد ناقلةٌ روسيّة، تُراكِمُ مَوجًا هائلًا في البحر يجري نحونا. نَحدُجُ النّاقلة ونرقبها حتى تختفي شيئًا فشيئًا. وفورَ أن يعود الماء لتموّجه الناعم، نُنهي صلواتنا ونُحلّ أحزمة الأمان ونغوص مُجَدّدا في الخمول.

لكنّ ذهني كان غارقًا في أمور أخرى. فمنذ أدركتُ أن دفتري لم يعد بحوزتي، لم أفكّر في شيء سوى الكتابة. أظن أنني أميلُ إلى جعل حياتي أكثر تعقيدًا دومًا. لو كانت عندي ورقة، لمّا شعرتُ بهذه الحاجة المُلحّة لتدوين أفكاري، في هذه اللحظة بالذات. ولكن لأنّه ليست بحوزتي ورقة، فعليّ أن أكتب. نبشتُ بشراسةٍ حقيبتي وأفرغتُ

كل ما بها في حضني، ورغم ذلك لم أجد حتى فاتورة أستطيع الكتابة على ظهرها.

لا أعرفُ لمَ أشعُرُ بأنني أتآكل؟ في رأسي فكرة تطُنُّ ولا أستطيع معرفة كنهها إلّا بأن أستجليها بالكتابة. يحب الكثير من الناس، ومنهم بالطبع كُتّاب وكاتبات، أن يُقلّبوا الأمور ويُفصّلوها قبل أن يخربشوها على الورقة. لكنني على العكس، إذا ما أردتُ معرفة الأفكار التي تخُضّ رأسي وفهمها، فعليّ أوّلا أن أرى ارتسامها على الورقة، أن أنظر إليها كالرسائل. أعرف أن فكرةً في رأسي الآن، بيد أنني أحتاج إلى ورقة وقلم لأتبيّنها. ولهذا، أحتاجُ ورقةً في الحال.

أخذتُ نظرةً إلى يميني وأخرى إلى شمالي. لا يبدو أن المرأة الجالسة إلى جانبي بإمكانها مساعدتي. يظهر لي أنّ هناك أطنانا من التحف والألعاب الرخيصة في أكياس التسوّق الخاصّة بها، لكنني أشكّ أن يكون من بينها دفترٌ واحدٌ. الآن، وقد أعطيتها بعضَ اهتمامي، رأيتُ كم هي يافعة وصغيرة، بَدَت لي في الخامسة والعشرين من عمرها، إلا أن وزنها الزائد يجعلها تبدو للوهلة الأولى أكبر بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة. إنها ترتدي فستانا لازورديا بأكمام واسعة، ينهمر منفوشا بدءا من خصرها. كأنها خرجت للتوّ من فيلم يعودُ إلى الثلاثينيات، وصَعَدَت معنا الباخرة في اسطنبول. شعرُها المتموّج بُنّيّ داكن، مقصوص إلى أكتافها ومجدولٌ منذ وقت قريب. ومن أذنيها يتدلّى زوجٌ من الأقراط الذهبية، ويمكن رؤية أظفار قدميها وقد طُليَت بالأحمر الفاقع من خلال الصندل الذي تحتذيه. كأنها ليست مُنزعجةً أبدًا من أزرار فستانها التي توشك أن تنفتق. لقد تقبّلَت الحجم الهائل لنهديها كنعمَة، وهكذا تقومُ بعَرض صدرها بامتنانٍ لكُلّ البشر دون تفرقة. امرأةٌ فخورةٌ بأنوثتها، وكلّما

زاد تحلّيها بسِمَات الإناث، أظهَرَت قوّةً وجاذبيّةً نسويّةً هائلة.

هكذا، بالقرب من كل النساء المشعّات بهذا النوع من النسويّة، أشعر بأنني مشوشة، أنني تمثيلٌ واهنٌ لجنسي. بالنسبة إليها، تجيء الأنوثة كالطبيعة، كالتثاؤب أو العطاس، هكذا بلا تعب. أما أنا، فالأنوثة أمرٌ عليّ مراقبته ودراسته، عليّ أن أتعلّمه وأحاكيه. ورغم ذلك لا أستطيع أبدا احتواءه.

لو أنّ المرأة التي بجانبي كانت قِطّة، لكانت تستلقي في سلّة وثيرة بالقرب من مدخنة، تكاد لا ترفع جفنيها من الترَف، أو لكانت متكوّمة في حضن صاحبتها، تموء مُستأنسة، وتلوّحُ بذيلها كما يحلو لها. ولو أنّني كنت قطة، لكنت أجلس متلهفة عند إفريز النافذة طوال اليوم، أرقُبُ السيارات العابرة والمُشاة المهرولين، ولكنتُ هربتُ من المنزل نحو العالم الواسع في الخارج عند أوّل فرصة سانحة.

يجلسُ إلى جانب المرأة صبيٌّ في الثامنة من عمره تقريبًا وآخر، أخوه، أصغر منه ويستعير ملامحه بشكلٍ مُبهر. يرتديان نفس الجينز ونفس القمصان الكحليّة المخططة بالأبيض، ويحملان نفس الألعاب بين أيديهما؛ رجالٌ عسكريّون من البلاستيك، يرتدون الأخضرَ الدّاكن، بعضلات مفتولةٍ وعُدّة كاملة. في اليد الأولى قُنبلةٌ بمسمارٍ مُعَدٍّ للسحب والتفجير، وفي الأخرى كلاشينكوف. كلاهما يمضغان علكةً كبيرةً بحجم حبّات البندق، ينفخانها فقاعات تلوَ أخرى. وكلّما تفرقعت إحداها، أجفلُ، كأنهما أطلقا النار على أحدٍ مّا بتلك الأسلحة البلاستيكية؛ عَدوٌّ آخر تمّت تصفيته على الباخرة!.

قد تقومُ تلك الألعابُ بتوجيه الإهانات بشكلٍ ما، لكن الصّبيَةَ أنفسهم لن يقوموا بذلك، أبدًا. إنهما لا يجرُؤان حتى على رفع رأسيهما والنظر إلى والدتهما. أعتقد بأنه ليس من السهل على طفلين

في عمرهما أن يحظيا بأمٍّ جذّابة كهذه!

مقتنعة بأنه ليس بوسع الصّبيين ولا أمّهما مساعدتي في مهمّة البحث عن ورقة، التفتُّ نحو الرجل الجالس إلى شمالي؛ إنه يرتدي نظّارةً بإطارٍ معدنيٍّ، وملامحه صارمة بعضَ الشّيء، وأفترض أنه قد بلغ الأربعين للتوّ، إذ بدأت قمّة رأسه بالتخفّف من الشعر.

أمّا لغة جسده فتصرخ: (أنا تاجر). إنه يقبض على حقيبة جلديّة، وهناك، في مكان ما بداخلها، ورقة! أنا متأكدة من ذلك. عندما سألته ورقةً، أعطاني بلطفٍ أكثر من واحدة، وقد كانت أوراقًا يُزيّنها هذا الشعار: (شركة النيزك للتسويق المحدودة).

شاكرةً الرّجُل، بدأتُ الكتابةَ ناظرةً إلى الحبر يجفُّ وأنا أمضي. تنسكبُ الحروفُ منّي كأنّها تكتبُ نفسها بنفسها وتقودُ السطور: (مانيفيستو الفتاة العزباء).

بحَيرةٍ أنظُرُ إلى الورقة: أهذا إذن ما كانَ يدورُ في رأسي؟

اقتربتْ مني المرأة المُحاذية لي، التصقت بي، ومدّت رأسها نحو الورقة التي في حضني. ستعتادُ، في بواخر اسطنبول، على الناس يقرؤون معك جريدتك من فوق كتفك، إلّا أنّ هذه السيّدة تقرأ ورقتي بوقاحةٍ وصراحة. لذا، أمْلَت عليّ غريزتي أن أقوم بتغطية ما كتبته، إلّا أنني بعد بُرهةٍ استسلمتُ لعدم جدوى البحث عن أيّ نوعٍ من الخصوصية في هذه المساحة الضيقة والمحدودة، وسمحتُ لها بالقراءة.

1 - التسليمُ بأنّ الله سبحانه قد تفرّدَ بالوحدة في أعاليه، وأنّ البشر، بالتالي، ليس في وسعهم أن يخوضوا الحياة وحيدين، بل عليهم أن يتزاوجوا، هو أكبرُ وهم ابتكره الإنسان على مرّ التاريخ. فقط لأننا صعدنا مركب نوح اثنين اثنين، لا يعني أبدًا أنّ علينا إكمال الرّحلة على نفس الحال.

أنا أكتب، والمرأة على حالها تقرأ. في إحدى اللحظات مالَت كثيرًا على كتفي الأيمن حتى لامَسَ شعرها وجهي. استنشقتُ شذى غَسول شعرها. فواكه لاذعة. يبدو أنها تواجه صعوبةً في قراءة ما أكتب، لكنني، بوضع خَطِّ يدي الرديء في الحسبان، لا ألومها. اجتهدتُ أكثر في توضيح خطّي.

2 - كيفَ حَدَثَ، في المجتمعات التقليدية، أنَّ مَن تَنذُر حياتها لإيمانها وتُقسمُ ألّا تتزوّج، تكونُ مَحَطّ تبجيلٍ من قِبَل الجميع. لكنها، في ثقافة اليوم، تُعتَبَرُ «عانِسًا»، وهو وضعٌ مذمومٌ ومُخزٍ ومُثيرٌ للشفقة؟.

3 - إذا وضعنا في الاعتبار أنّ الزواج يحتاج إلى رجُلٍ وامرأة، وأنّ وضعَ العنوسة ينطبق بالقدر ذاته على الجنسين معًا، فكيف يكونُ لصفة العنوسة وقعٌ أشدُّ ودلالاتٌ أكثر سلبيّةً على المرأة وحدها دون الرّجل؟

أخرَجَت جارتي من أكياس تسوّقها عُلبة مُكسّرات، تَناصَفَتها مع أبنائها، ثم عادَت بانتباهها إلى ورقتي مرّةً أخرى، تقرأ وهي تمضغ فولا سودانيًا مملّحا، وحبّات حمّص صفراء مُحمّصة، وحُبيبات اللّب. أكتُبُ وهي تنظُرُ، سعيدة ومُستمتعة.

4 - يجبُ أن نعيد الكرامة لكُلّ النساء اللواتي تُركنَ «على الرّف»، وأن نُصَفّقَ لهُنّ لشجاعتهنّ في العيش بلا رَجُلٍ يعتني بهن.

5 - أولئك الذين يُحبّون القولَ أنّ (أنثى الطّير هي من تنسُجُ العُش)، لا يفهمون الطيور. صحيحٌ أنّ الطيور تبني أعشاشها، إلّا أنها تهجر منازلها تلك في كُلّ فصلٍ لتبني غيرها في أماكن أخرى. لا يوجد طيرٌ يبقى في العُشّ نفسه إلى الأبد.

شعرتُ بالارتجافة السريعة التي انتابت المرأة المُحاذية لي. وقد

انتصب شعرُ ذراعيها، وكأنّ هذا النهار لا ينبضُ بالحرارة.

6 - التغيُّر والتغيير أبجديّة الحياة. ليسَ القَسَمُ بالبقاء معًا (حتى يُفرّقنا الموت) سوى فنتازيا ضدّ جوهر الحياة. وعلاوةً على ذلك، نحنُ لا نموتُ مرّةً واحدة. يَجمُلُ بنا أن نتذكّر دومًا أنّ الإنسان يموتُ مرّاتٍ كثيرةً قبل موت جسده.

7 - هكذا، لا يستطيعُ أحدٌ أن يعقد عهدًا بالحُبّ إلّا لتلك اللحظة التي يحياها. دونَ تجاوزها.

8 - لو أنني أُجبرتُ على تخيُّل أنّني سأتزوج، فسأدّعي أنّ الأَدَبَ زَوجي والكُتُبَ أطفالي. إن الطريقة الوحيدة التي يُمكنني الزواج بها هي أن أُطَلّقَ الأدب، أو أن أقترن بزوجٍ ثانٍ في نفس الوقت.

9 - وبما أنّ الطلاق من الأدب أمرٌ مفروغٌ من استحالته، وبما أنّه لا وجودَ لرجُلٍ في العالم يقبلُ بأن يكون (الزوج رقم اثنين)، فالاحتمالاتُ كلّها تقولُ إنّني سأعيشُ عزباء مدى العُمر.

10 - هنا، على هذه الورقة، بَيَاني، مانيفيستو الفتاة العزباء.

أسندتُ ظهري إلى الخلف وانتظرتُ المرأة لتُنهي قراءة الورقة. إنها تتأخّر، تتلكّأ وتتهجّى الكلمات صوتًا صوتًا كتلميذة تعلّمَت الأبجدية للتوّ. النّسيمُ الرّقيقُ الذي يلثُمُ مَتنَ الباخرة يحملُ شذى البحر نحونا، فأتذوّقُ مُلوحته بلساني. وبعدَ لحظات، ترتمي المرأة إلى الخلف، وتُطلقُ تنهيدةً عاليةً، عاليةً حقًا.

لم أملك سوى أن أشعر بالفضول. ماالذي كانت تقصده بذلك؟ هل توافقني الرأي؟ هل كانت تنهيدةً بمعنى: (أنتِ مُحقّةٌ يا أُخيّتي، ولكن هكذا سارَ العالم ومازال يسيرُ). أم أنها، على العكس، أرادت القولَ: (تكتبين هذا الهُراء كلّه يا عزيزتي، بينما العالمُ يمضي في

طريق أُخرى تمامًا). لديّ شعورٌ بأنها قالت في سرّها تكهُّني الأخير.

بغتةً، عَصَرَتني رغبةٌ في وَكزها. هذه المرأةُ هي «آخَريه». إنّها من ذلك النوع من النساء اللواتي نذرنَ حياتهن لمنازلهن، لأزواجهنّ وأبنائهنّ. لقد ركَّزَت، منذ شبابها، في الحصول على زوج مثاليّ، والبدء بتأسيس أسرتها الخاصّة. أرادت أن تكونَ أمًّا قبل أن تمطي فترةَ شبابها حقّها من الطّيش، وقد زادَ وزنها في سبيل ذلك، وبَدَت أكبر من عمرها، وسَمَحَت لرغباتها بأن تجري داخلها حَسَرات ونَدَمًا. هذه المرأة، بأحلامها المُعلّبة، ووضعها الإجتماعي المريح وأمانيها المهجورة، هي نقيضي. أو هكذا أحبَبتُ أن أصَدّق.

كَتَبَ مَرّةً بيامي صَفا، أحَدُ أشهر الروائيين في بلادي: (الطريقة الصحيحة للخلق بالنسبة إلى المرأة، أيّة امرأة، هي رَحمها، لا عقلها). هكذا إذن يظنّون! إنهم يدّعون أن تأليف الروايات مُلكيّةٌ تخصّهم وحدهم، مَهمّةٌ يرثُها الذّكور وحسب. الروايةُ بناءٌ منطقيٌّ في أغلبها، عَمَلٌ دماغيٌّ يتطلّبُ مهارات هندسيّةً وتخطيطية. ولأن النساء كُنّ، حسب العُرف، كائنات عاطفيّةً، فإنّهن لن يصرنَ روائيّات جيّدات. أولئك الروائيون المُحتفى بهم، رأوا أنفسهم «آباءً روائيين»، أبناؤهم القُرّاء في حاجة إلى توجيهاتهم. إنّ إرثهم يجعلني أقول إنّني إن أردتُ تحقيق وجودي وتفوّقي في عالم الأدب، فعليّ أن اختار بين العقل والرّحم. ولو وصلت الأمور إلى هذا الحد، فلن أتردّد إطلاقًا في الاختيار.

الباخرة على وشك الوصول. ودون أيّ دراية بما يدور في ذهني، تنحني المرأة نحو قدميها. اجمعي الأكياس، أغلقي علبة المكسرات، جهّزي الأطفال، احزمي ألعاب الكلاشينكوف، دُسّي أقدامك في

أحذيتها مُجدّدًا. وخلال أقلّ من ثلاثين ثانية، قامت بتهيئة كل شيء. تتحرّك، وإلى جانبها ولداها، نحو المخرج؛ تدفعُ الرُكّاب وتُزاحمُهم مُبتعدةً عني.

حينها فقط، عندما نهضَت المرأة، عرفتُ ما كان عليّ أن أشعر به من قبل. لم تكُن بدينةً أبدًا، أو منتفخة، إنّها حامل فحسب! هذا كل ما في الأمر. بطنها منتفخٌ وثقيلٌ جدًا، وأعتقدُ أنها ستُنجبُ توأمًا أو ثلاثة معًا.

ولسببٍ أجهله، قلب هذا التّفصيلُ الذي خَفِيَ عليّ كلّ كياني. لكن لم يكن هناك من وقت لأتأمّل حالي، فقد وقفت الباخرة عند رصيف الميناء، وقَفزَ الجميعُ على أقدامهم وراحوا يتزاحمون في عُجالة وفوضى نحو البوابات. في ذلك الهيَجان، التقَت عَينا الرّجل الذي كان يجلسُ حذوي، بعينيّ.

قلت له: شكرًا على الورق. فأجاب: على الرّحب والسعة، كم أنا سعيدٌ لأنني كنتُ عَونًا لك. قلتُ: أوه، لقد كُنتَ كذلك بالفعل، لكنني أتساءل، ماهي شركة النيزك للتسويق المحدودة؟.

فأجاب: نحن شركة متخصّصة في تسويق المنتجات الخاصّة بالأمّهات والأطفال حديثي الولادة. مثلًا، مضخّات الحليب الآليّة، ومدافئ الرّضاعات، وأشياء أخرى شبيهة.

افترّ ثغرُ الرّجُل عن ابتسامة تتفتّح كبذار القمح. أو أنها بَدَت لي وحدي كذلك. وفجأةً انتابني الشعور بأنّ ملائكةً مّا، في مكانٍ مّا هناك، في هذه السّماء الزّرقاء الرّائقة، حيث بدأت الشمس بالغروب الآن، تُشيرُ إليّ بأصابعَ بَضّة كاللبن وتتندّرُ عليّ. أيّ مُفارقة تطالعني حين أفكّرُ بما حدث؟ لقد كَتبتُ مانيفيستو الفتاة العزباء على ورقة تخُصّ شركةً لتسويق مُنتجاتٍ خاصّةٍ بحديثات الولادة. هكذا وقفتُ

مذهولة لهذه المفارقة وحرتُ كيف أتصرّفُ حيالها. إلّا أنّ صَوتا داخليا راح يُحدّثني: ليس في الكون صُدَف، بل علامات، هل تستطيعين فهمَ العلامات؟.

طَرَدتُ الصّوتَ بعيدًا ودَسَسْتُ المانيفيستو في جيبي، وشعرتُ بأنّني لم أعُد واثقةً من إيماني بما كتبته فيها مثلما كنتُ لحظةَ كتابتها. وعلى هذه الحال، ترجّلتُ من الباخرة الفجريّة.

هل هي حقًّا علامةٌ لمَ أعِرها اهتمامًا؟ كتبتُ مانيفيستو الفتاة العزباء دونَ واعز أو سبب أبدًا، وفي نفس اللحظة، نفس النَّفَس، رأيتُ إلى جانبي امرأةً تقف على الضِّدّ منّي تماما، إنها «آخَري»؛ ربّةُ المنزل والأمّ والزّوجة التي لم أسمح لنفسي بأن أصيرها. وظنّا منّي بأنّني لستُ مختلفةً عنها وحسب، بل أفضل منها بمراحل، أقسمتُ بأن أبقى على حالي، الآنسة العزباء الكاتبة. وفي تلك الأثناء، لم أكن أرى أنّ ما يلمعُ أعلى صفحة المانيفيستو كان اسم شركةٍ متخصّصةٍ في خدمة الأمّهات. هكذا راح الكونُ يسخرُ من عنجهيّتي.

لابُدّ أن تكون هناك علامات أخرى، لا واحدة وحسب، بل الكثير منها، لأنني بعد كتابتي المانيفيستو ببضعة أشهر، سقطتُ في الحبّ رأسًا على عَقِب، حتّى أنّني تزوّجت. وخلافًا لما ظننته طوال الوقت بأنّني سأنزلُ من مركب نوح وحيدةً، أفَقتُ على جمال أن تكونَ شريكًا وزَوجًا. وبعد ذلك بعامين، أنجبتُ طفلتي الأولى. ولطالما تذكّرتُ، أثناء حملي، كيف استصغرتُ المرأة في الباخرة. فأندمُ على ذلك، أندمُ بحدّة.

لابُدّ أن تكون هناك علاماتٌ أُخرى، لا واحدة وحسب، بل الكثير منها، لأنني بعد ولادتي بأسابيع قليلة، حين باتَ واضحًا بأنّ حليب صدري لن يكون كافيًا لإرضاع طفلي، وأنّ عليّ زيادته، اتصلتُ برقمٍ

حصلنا عليه من بعض أصحابنا. واستأجرنا آلةً لضخّ الحليب، وبعد أن تمّ شحنُ الآلة ووَصَلَت إلى البيت، لاحظتُ شعار شركةٍ مألوفٍ لديّ على صندوق الشّحن: شركة النيزك للتسويق المحدودة!.

مَن يدري، لعلّ الرجل نفسه الذي قابلته في الباخرة هو من أوصَلَ الشُحنةَ إلى البيت. مَن يدري، لعلّ المرأة التي اتّضحَ أنّها ليست ببدينة، بفستانها الأزرق وأولادها وألعابهم البلاستيكية وحبّات الحمّص والتوأم أو الثلاثة معًا، هي أيضًا، تختبئ خلف شجرةٍ ما، وتضحك عليّ ناظرةً إلى حياتي وقد عصف بها التغيير، وإلى الانعطاف المباغت للقَدَر.

البدايةُ دَومًا كوبُ شاي

لاحقًا، بعد أسابيع معدودة من أحداث الباخرة، وقبل تجوال فكرة الزواج في رأسي بزمن، وجدتُني أحتسي كوب شاي مع روائيّة. ما أقلّ ما كنت أعرفه قبل هذا اللقاء عن الخيار الصعب بين إنجاب الأطفال وإنجاب الكتب. وقد دفعني ذلك اللّقاء إلى التفكير في الأمر مليًّا.

قبل أيّام قليلة من اللقاء، قالت لي عبر الهاتف:

- الآنسة شفق؟ أودّ لو ألتقيك، لِمَ لا نحتسي الشّاي سويًّا في منزلي؟.

ثم أضافت بضحكة عالية:

- لا يعدو الشّاي أن يكون عُذرًا وحسب، فليس هناك من مناسبة سوى أنني أودّ أن نتحادث، تفضّلي عندي.

كانت قد بلَغَت الحادية والثمانين من عمرها ولا تزال شغوفَةً بالكتابة كما كانت أيّام صِباها. السيّدة عدالة آؤلو من أشهر الأصوات الأدبية التركية في جيلها، وأنا في غاية الحماس للقائها.

وعلى الرغم من أنها لقّنتني اتجاهات الطرق الموصلة إلى بيتها، فإنّني تهت بعض الوقت بحثًا عن مسكنها في تلك الليلة. فهذه المنطقة، كالكثير من مناطق اسطنبول، تضُم متاهةً من الوديان الملتوية صعودًا وهبوطًا، وتمتدُّ لتتفرع إلى شوارع جديدة بأسماء مختلفة. وأخيرًا، عندما وجدت مسكنها، لم تبقَ سوى خمس دقائق على حلول الموعد،

لذا تجوّلت في الجوار قليلًا. هناك في المنعطف، إلى جوار بعض ورود الزّينة، تجلس فتاتان غجريّتان بسيقان متقاطعة وسراويل واسعة برّاقة الألوان، يُجلجلن أساور الذهب في معاصمهنّ، وينفثن دخان السجائر. لقد أكْبَرتُهُنّ، لا لأجل خواتم الدخان المكتملة التي ينفثنها وحسب، بل لأنهن لم يُعِرنَ وزنًا للحدود الاجتماعية. إنهن من أولئك النسوة اللواتي يُدَخِنّ السجائر في الشارع، في ثقافة تعتبرُ الأماكن العامّة والتدخين فيها حِكرًا على الرجال.

بعد خمس دقائق، قرعتُ الجرسَ حاملةً باقةً من زنابق صفراء بين يديّ والفضول في قلبي. لم أكن أعرف، مُنتظرةً الباب أن يُفتَح، بأن هذا اللقاء ستكون له آثارٌ عميقةٌ في حياتي، عاكسًا العديد من التساؤلات داخلي حول الأمومة والنسوية ومهنة الكتابة.

فتَحت السيّدة آؤلو الباب. بَشَرَتُها شاحبة بعض الشيء، وابتسامتها متسائلة. أمّا شعرها فكان قصيرًا ومصفوفًا بطريقة تقول إنّها من أولئك النسوة اللواتي لا يُرِدنَ قضاء وقتٍ طويلٍ مع شعورهن.

قالت بصوتٍ مُفعمٍ بالطاقة:

- ها أنتِ هنا! أهلًا. تفضلي.

تَبِعتها إلى غرفة الجلوس. المكان رَحبٌ، يتّسمُ بالنقاوة، ومُزيّنٌ بذَوقٍ رَفيع، كأنّ كلّ شيء قد نَزَلَ في مكانه هنا بتناسُب وتناسُق بديعين. وعلى الرغم من أننا في أوج الصيف، فقد كان يومًا عاصفًا بسبب رياح اسطنبول الشمال شرقية غير المشهورة، المسمّاة بويرس؛ إنها تضربُ أفاريز النوافذ وتتخلّلُ شقوق الأبواب. بيد أنّ بيت السيّدة آؤلو مُحصّنٌ، وتضوعُ منه رائحة أعوام طويلة من الانضباط والهدوء التام.

ألقيتُ بنفسي على أوّل كرسي صادفته، لكنني لاحظتُ حالمًا أسندتُ ظهري إليه أنّه أرفعُ كُرسيٍّ في الغرفة، وأنه ليس من اللائق

والمناسب الجلوس عليه. وثبتُ على قدميّ ورحتُ أُجَرّبُ الأريكة التي في الجهة المقابلة. إنّها وثيرة إلى درجة أنني غرقتُ فيها. وحينما كان يراودني شعورٌ بأنني لن أرتاح هنا أيضًا، انزلقتُ إلى المقعد الملاصق تمامًا للأريكة، وندمتُ فورًا على فعلتي هذه، إذ من يُفَضّلُ الجلوس على مقعدٍ خشنٍ عندما يكون متاحًا الجلوس على كنبة ناعمة؟.

و في خضمّ ذلك، كانت السيّدة آؤلو مستقيمةَ الظّهر، رَصينةً، تضعُ أكُفّها مُشتبكةً في حضنها، ومن خلف زجاج نظارتها ترمقني أتنقّلُ من مكانٍ إلى آخَرَ بمُتعة لم تشعُر بأنّ عليها إخفاءها أبدًا. ولولا تلك النظرة في عينيها، لتابعتُ تبديل أماكن جلوسي، لكنني حبستُ أنفاسي وسيطرتُ على نفسي. قالت:

- التقينا أخيرًا! الكاتباتُ لا يُظهرنَ عادةً إعجابهن ببعضهن، لسنَ جيّدات أبدًا في القيام بذلك. إلّا أنني أردت مقابلتكِ أنتِ بالذّات شخصيًّا.

لم يَرِد إلى ذهني كيف أتجاوب مع ما قالته للتو، فابتسمتُ مُرتابةً وحاولتُ جاهدةً البدء بحديثٍ أقلّ توتّرًا:

- المكانُ هُنا غزيرُ السّكون.

- حمدًا لله، من الصعب تحقيق ذلك في مدينة مزعجة مثل اسطنبول. بيد أنَ أخفَضَ الأصوات بإمكانه تشتيتي أثناء الكتابة. إنه لأمرٌ أساسيّ عندي أن أكون في سلامٍ وسكونٍ لأستطيع العمل.

وسَكَتَت، وهي تقيسُ اهتمامي بما قالَته بعَينَين برّاقتين. ثمّ تابَعَت:

- لكنني أفهمُ أنّك لستِ كذلك. قرأتُ مُقابلتك ذاتَ يوم. يبدو أنّك تكتبين في الحركة، تُمتِعُكِ الفوضى وعدم الترتيب. إني أَجِدُ ذلك حقًّا...

فأكملتُ فورًا عنها جملتها:

- غريبًا؟

قوّمَت حاجبيها النحيفين ببطء، بحثًا عن الكلمة الصائبة. فحاولتُ مرّةً أخرى:

- لا يمكن فهمه؟

- بل سوقيًّا! أجدُ ذلك سوقيًا بالفعل.

أومَأتُ برأسي. كيف أشرحُ لها بأن الهدوء والنظام اللّذين تُجِلّهما يُشعراني بأنني غريبة الأطوار؟ أن أحيى في نفس المنزل لعصورٍ بأكملها! أن أميّزَ وجه كُلّ بائع في دكاكين الجوار، أن أتجذّر في نفس الشارع والحي والمدينة. يا لها من فكرة مروّعة. الثبات والاستقرار مفاهيمُ غريبةٌ عنّي، بعيدةٌ بُعدَ روسيا والصين؛ فعلى الرّغم من معرفتي بأن تلك الدول تتكلّمُ لغاتٍ عريقة في التاريخ، فإنّني لا أتحدثها.

الهدوء هو الأسوأ. أينما تحلّ غيمةٌ مثقلةٌ بالصّمت، يُمسي الزّعيق الذي بداخلي مسموعًا أكثر، ويطفو إلى سطحي صوتًا صوتًا. يُفرحني إيماني بأنني أعرف هؤلاء الحريم اللواتي بداخلي، إلا أنّ منهنّ من لم أتعرّف عليها وأقابلها بعدُ. تُشكّلُ أولئك الحريمُ جوقةً لا تعرفُ كيف تهدأ وتُخفّف من حدّة صخبها، أسَمّيها جوقة أصوات الفوضى.

إنها جوقةٌ سوقيّة. هكذا بَدَت لي، ليس لأنها نشازٌ وحسب، بل لأن لا أحد من أعضائها يستطيع قراءة النوتات الموسيقية أصلًا. في الحقيقة، لا وجود لأيّة موسيقى فيما يفتعلنه. إنهن يتحدثن جميعًا، هكذا، في نفس الوقت، ولا يستمعن لأيٍّ ممّا يُقالُ على الإطلاق. إنهن يجعلنني أرتابُ من تعدُّدي الذاتي وأرتعب من هذه الشظايا التي بداخلي. لهذا لا أحِبُّ الهدوء، بل إنّني أجده مزعجًا، ليس مُريحًا ولا

يعمّ على السّكينة. عندما أكتب في المنزل أو في غرفة فندق، أتأكّدُ من إدارة مفاتيح الراديو أو التلفاز أو المسجّلة، وأحيانًا منها جميعًا في آن واحد. لقد تعوّدتُ الكتابةَ في المطارات المكتظّة والكافيهات المُزدحمة، أو المطاعم الصّاخبة. أنا في أَوج إبداعي عندما أُحاطُ بصَخَبٍ غَني.

يخطُرُ لي الآن فجأةً، أنني لهذا السبب، على عكس أصدقائي، لا يزعجني سائقو السيّارات عندما يُنزلون نوافذها وينشرون موسيقى البوب إلى أقاصي تلال اسطنبول السّبعة وما وراءها. ففي اعتقادي أن هؤلاء الطائشين يخافون الهدوء مثلي. إنهم أيضًا لا يُريدون أن يُتركوا وحيدين مع أصواتهم الداخليّة تلك.

تمامًا كأولئك السّائقين المتبهرجين، أفتَحُ نوافذي وأجلسُ لأكتُبَ روايتي. وبالطبع ليس من أهدافي غزو العالم الخارجي بموسيقايَ، أبدًا، بل أريد لموسيقى الخارج أن تجتاح دواخلي؛ صياح النوارس، أبواق المركبات، صياح سيارات الإسعاف، خطوات الزوجين اللّذين يعيشان في الأعلى، ضجّة الصبيان الذين يلعبون الكُرة مقابل الشارع، أصوات النرد يَقرعُ الطاولات في المقاهي القريبة، هُتافُ الباعَة المتجوّلين، وموسيقى الروك، قديمها وحديثها، تموجُ في مسجلتي. فقط وسط هذه المعمعة، يغرقُ المَرَح الصاخب الذي بداخلي لبعض الوقت. حينها فقط، أستطيعُ الكتابة بسلام.

سألَتني السيّدة آؤلو:

- هل تودّين رؤية المكتب الذي كتبتُ عليه مُعظَمَ رواياتي؟

- بالطبع، أُحبُّ ذلك.

طاولة مكتب رائعة من خشب ماهاغوني، عليها مسوّدات مُرتّبة وكتب، مزيّنة بدقّة ببعض التذكارات، ومصباحٌ كلاسيكيٌّ أنيقٌ يُشيعُ ضوءًا أصفرَ ناعمًا عليها. قالت لي إنّها لا تسمح لأحدٍ سواها

بتنظيف طاولتها، فهي تريد الاطمئنان إلى أنّ كل شيء يبقى في مكانه الصّحيح. وقد تساءَلتُ لحظتها ما إذا كان هذا النوع من الحَظر يطالُ أيضًا أغراضَ الغرفة جميعها أم لا، إذ أن هناك العديد من التذكارات والصور متناثرة على أرفُف الكُتُب، كذلك أكواب القهوة وطاولات الكراسي. لطالما حيّرني هذا النوع من الشغف بجَمع الأشياء المُثقلة بالمعنى والذكريات.

علاقتي بالأشياء عبارة عن سلسلة من الخيانات. آتي بها، أحبّها، ثم أتخلّص منها. اعتدتُ منذ طفولتي على حَزم الأغراض وإعادة حَزمها في صناديق. عندما تُكثِرُ من الانتقال بين الأحياء والمُدُن والبُلدان، لا تستطيع أن تحمل معك سوى القليل من الأشياء لا غير، أمّا بقيّة ما تملك، فستتعلّم مُرغمًا أن تتركه خلفك.

أنابيز نين، وُلِدَت في فرنسا عام 1903م، وقد كانت مؤلفة تركت أثرًا كبيرًا في عالم الأدب وأيضًا في الحِراك النسوي في القرن العشرين. ورغم غزارة إنتاجها في الرواية والقصص القصيرة والنقد الأدبي، فإنّ كتاب يوميّاتها الذي نشرَت معظمه أثناء حياتها هو ما اشتُهِرَت به. قال النقاد إنّ أغلب الشخصيات النسائية في قصصها، إذا لم تكن جميعها، كُنّ هيَ. بيد أنها أنكرت ذلك. ومن بين الأمور الخارجة عن المألوف التي قامت بها هي أنها، مُتعبةً من قوانين عالم النشر، قامَت بنَشر كتبها بنفسها؛ ابتاعت آلة طابعة يدويّة، وتعلّمت كيف تستخدمها ثم بدأت بالطباعة. كان عملًا شاقًا كما قالت، خصوصًا على كاهل امرأةٍ لم تزن أكثر من 45 كيلوغرامًا. لاحقًا، عندما تحدّثَت عن هذه التجربة، قالت إنّ طباعة كتبها بنفسها، أن تطبع كُلّ جملة مكتوبة، قد علّمتها ككاتبة كيف تُمسي مُقتضِبةً وقليلة الكلمات.

الظروف تُدرّسنا كيف نولّد حشدا غفيرا من الدلالات بكلماتٍ قليلة.

و بالمثل، علّمني الترحال والانتقال كيف أحيى بأقل ما يمكن من الأثاث. ما أشتريه في مدينة ما، أتركه قبل سفري للمدينة التي تليها. لكأنني مع كل خطوة أخطوها وكل مكسب أحققه، أخسر شيئًا آخر في مكان مّا. لكنّ هناك شيئًا واحدًا تدبّرت أمرَ حمله معي أينما ذهبت في حقيبة يدي: محفظةٌ قديمةٌ قِدَمَ البحر الميّت، لكنّها أخفّ من الريشة، ولا يمكن للمفتشين رؤيتها أينما ذهبت في العالم: إنها فنّ حكاية القصص.

لا أستطيع حتى أن أضع أثمَنَ كتبي معًا. إنها مُغلّفة في صناديق موزّعة في أقبية بيوت الأهل والأصدقاء. مجموعتي من الأدب الروسي تجلس في أنقرة في بيت أمي، وأمّا الليالي العربيّة، الألف ليلة وليلة، فتنتظرني في كليّة ماونت هوليوك حيث تحصّلتُ على الزّمالة في وقت ما.

وبشكلٍ غريب، تجعلُ تلك الفوضى ذاكرتي ثخينة بعض الشيء، إذ عندما لا تستطيع الاحتفاظ بكتبك إلى جانبك، لا خيار لك سوى أن تحفظ عن ظهر قلب ما استطعت من القصص والمقاطع التي وردت فيها. هكذا أستطيع استذكار ما كتبه باسترناك من شظايا حوارٍ في روايته الدكتور جيفاغو، وقصائد من «مثنوي» جلال الدين الرّومي، منقوشةً في ذهني. لا أستطيع حملها معي، وهي بذلك الحجم، أو بتلك الأجزاء الكثيرة، لكنني أستطيع فورًا تسميعَ سطورٍ قالها الرّومي مثلًا، لأنّها ببساطة حاضرة في رأسي:

إنّ جوهرةَ حُبّي داخلي،

فَلْيتهاوَ هذا الوجود الرّخيص حجرًا حجرًا..

قالت السيّدة آؤلو:

– هل لديك مكانٌ للكتابة كهذا؟ هل تشعرين بقداسة نحوه؟

أجبتها عارفةً أنني سأبدو مدعاةً لرثائها، لكنني أجبتُها على أيّة حال:

- ليس تمامًا، عندي حاسوبي المحمول.

رمقتني بعينَي الحيرة، ثمّ تركَت الأمر ينتهي وحسب، ثمّ قالت:

- هل لنا أن نحتسي الشّاي الآن؟ هيّا..

ابتسمتُ بارتياح:

- بالطبع، شكرًا للطفك.

عدتُ إلى غرفة الجلوس منتظرةً مضيفتي أن تعود إليّ. واجهتُ حقيقةً لطالما عرفتها إلا أنها تضرب بجذورها الآن وتقف أمامي: تشبّثت دومًا، أو أنني أردت التشبث دومًا ببعض القطع والنتف هنا وهناك عِبرَ حياتي، بلا احتواء كامل، ولا تمركُز، ولا استدامة. لديّ طريقة مختصرة لقول هذا: أنا الفوضى.

اتضح لي في تلك اللحظة بالضبط، أنّني بالدرَجة ذاتها التي تحياها السيّدة آؤلو من الاستقرار، أحيا أنا الهيام. فيّ من الانفلات بقدر الانضباط الذي هي عليه. وكلّما حاولت بصعوبة أن أمكث في مكان أو عنوان أو بيت أو علاقة، لا يعود الصّمغ الذي استعمله قويًّا كفاية، لكن، وقد يبدو هذا مُريبًا، كان هذا التيه لعنةً ونعمة في آن واحد.

و بعد حين، ظهرَت السيّدة آؤلو مرّة أخرى ومعها صينيّة تحملُ أكواب شاي وأطباقًا برسلانيّة. في صحني فطائر، وبسكويتات مالحة إلى يسارها، وكعكٌ مُحَلّى إلى يمينها. تصطف جميعها في خطٍّ مكتمل الاستقامة وبأعدادٍ متساوية.

و خلال نصف الساعة اللاحقة، خبّرَتني عن أحوال الكاتبات في الماضي، ومالذي تغيّر اليوم من وجهة نظرها. أنصَتُّ إليها مستمتعةً

بالنقاش، إذ لا مواعيد عندي لألحقها ولا مهامّ لأقضيها. تكلّمنا عن الأدب والفن، عمّن جاء من الكُتّاب وعمّن رحلَ، وعن حال الكاتبة في مجتمع أبوي.

وحينها، ودون أيّ تمهيد، تمكّنت مني السيّدة آؤلو وشرعَت بالحديث في أمرٍ آخر:

- أعتقد أن على الكاتبات، في لحظةٍ مّا من حياتهن، أن يتّخذن قرارًا واضحًا. على الأقل هذا ما حدث لي، قرّرتُ ألّا أنجِب، وأن أكرّسَ نفسي للكتابة.

أخبرتني بصوتٍ هادىءٍ ومتماسك بأنّه كان عليها للوقوف على أقدامها ككاتبة، ولكي تكتب بحريّة وغزارة، أن تختار ألّا تحظى بأطفالٍ من إنجابها. قالت:

- كنتُ محظوظةً، إذ أنّ زوجي قد دعمني في هذا الخيار الصّعب. كان من المستحيل المضي في قرارٍ كهذا لولا تأييده.

انقبضَ بطني. لا تسأليني، أرجوكِ. لكنها سألَت:

- ماذا عنكِ، هل الأمومة أمرٌ يراودك؟

المانيفيستو الذي كتبته في الباخرة يومضُ في عينيّ بأحرُفٍ وهّاجة وكبيرة. قد يكون هذا هو الوقت المناسب لإلقاء بعض الأسطر منه. لكن قبل أن تواتيني الفرصة، راحت جوقة أصوات الفوضى تُغنّي، وكأن أحدًا قد كبسَ زرّ التشغيل. همستُ في جُعبتي:

- أوصصصص... اخرسنَ يا بنات بحق الله.

قالت السيّدة آؤلو:

- عفوًا، هل قُلت شيئًا؟.

أجبتها شاعرةً بالحُمرة تجتاح وجهي:

- لا، لا.. أعني، بلى، كنت في الواقع أتهامس ونفسي فحسب، لا شيء مهم.

ثُمّ سألَتني السيّدة آؤلو دون أن تترك لي فرصةً للتخلّص من هذه الورطة:

- و ما الذي كنتِ تهمسين به لنفسك؟

بلعتُ ريقي بصعوبة حتى أنّها سمعَتْ هي الأخرى صوتَ الارتجاع في حلقي.

لم أجرؤ على القول: كنت وحسب أوبّخ الفتيات الأربع بداخلي، أنت تعرفين، إن لهنّ آراءً متماكسة حول الأمومة، كأيٍّ من المواضيع المهمّة الأخرى في حياتي.

لم أجرؤ على القول: هناك مجموعةٌ صغيرةٌ من الحريم بداخلي. عِصابَة نساء يتشاجرن باستمرار على أتفه الأمور ويختصمن، يتحيّنّ الفرصة ليمزّق بعضهنّ بعضًا. إنهن مخلوقات بالغة الصغر، بحجم الأنملة تقريبًا، يبلُغن من الطول من أربع إلى خمس إنشات، ويبلغ وزنهن من عشر إلى أربع عشرة أونصة. هذا هو حجمهن بدقّة. ويجعلنَ حياتي تعيسة. غير أنني لا أعرف كيف أحيى من دونهن. يخرجن ويختبئن كيف شئن. كل واحدة منهن اتّخذت زاوية من روحي لإقامتها. ولا أستطيع أن أخبر عنهن أحدًا. وإن فعلت، فسيجعلن منّي عُرضةً للتشخيص بالشيزوفرينيا. لكن، أليست «الشّخصية» في صميم تعريفها نوعًا من الشيزوفرينيا؟

لم أجرؤ على القول أنّ كلّ واحدة في جوقة أصوات الفوضى تدّعي أنّها شخصيّتي الحقيقية، ولذا، لا ترى الأخريات إلاّ بوصفهنّ منافسات لا غير.

عميقٌ عدم استساغة بعضهنّ لبعض، حتّى أنّ الواحدة منهنّ

لو أُعطيت الفرصة لاقتلعت أعيُن الأخريات. إنّهنّ أخواتٌ باللحم والدم، بيد أنهن يتصرّفن بدمويّة قوانين السلطان محمد الفاتح؛ لو أن إحداهن اعتلت العرش، فإني أخاف أن يكون أوّل ما تقوم به هو التخلّص من شقيقاتها مرّة واحدة وإلى الأبد.

زمنيًا، لا أعرف أيّهن جاءت أوّلًا، ومن ثَمّ مَن تَبِعَ مَن. البعض منهن أوسَعُ حكمة من البعض الآخر، ولا يعود ذلك إلى ما بلغتْهُ من عُمر أكثر من كونه عائدًا إلى أمزجتهنّ. أظن أنني اعتدت على سماع أصواتهنّ يختصمنَ في رأسي طوال الوقت.

لم أجرؤ على قول أيّ من ذلك. وبدلًا منه، دفعتُ بسؤالٍ في المعركة، وتلك أسهل طريقة للخروج من هذا المأزق:

- أخبريني يا سيّدة آولو، لو كان عند شكسبير أختٌ موهوبةٌ بالكتابة بشكل لا يُصَدّق، أو أنّ عند الشاعر الفضولي البغدادي أختًا موهوبةً بالشّعر مثله تمامًا، فما الذي كان سيجري لأولئك النسوة؟ هل كُنّ سيكتبن الكتب؟ أم يُربين الأطفال؟ أظنّ أنّ ما أفكّر فيه هو: هل كان بإمكانهن القيام بالأمرين معًا؟

قالت بنبرة مرتفعة قليلًا:

- هذا سؤالٌ قد تناولتُهُ منذ زمنٍ بعيد، والإجابة التي توصّلتُ إليها بوضوح هيَ: لا. لكنّه زَمَنُكِ الآن يا عزيزتي، إنه وقتك لكي تُجيبي عن هذا السؤال. هل تعتقدين أن بإمكانك التوفيق بين الأمومة ومهنة الكتابة، معًا، وبموازينَ عادلة؟

أُختٌ موهوبة

تقول فيرجينيا وولف في كتابها «غُرفةٌ للمرءِ وحده»، إنّه لَم يكُن في وسع امرأةٍ، أيّة امرأة على الإطلاق، أن تكتب مسرحيّات شكسبير في زمنه. ولتوضح حجّتها، ابتكرَت امرأةً خيالية وقدّمَتها كأخت لشكسبير. اسمها «جودث». لنفترض للحظة أن جودث هذه كانت شغوفةً بالمسرح كما كان شكسبير، وتتمتّع بالموهبة نفسِها. فماذا سيكون مصيرها؟ هل كان لها أن تُسَخّر حياتها في تنمية موهبتها كما فعل شكسبير؟ تقول فيرجينيا:

الجواب هو لا، لأنّ هناك أنظمةً وقوانينَ مختلفة لكلٍّ من الرجال والنساء. تستطيع جودث أن تكون موهوبةً كيفما تشاء، مولعةً بالآداب والفنون كيفما تُحب، بيد أن طريقها ككاتبة سيكون مرصوفًا بالعقبات، صغيرها وكبيرها. ستمر بوقت عصيب لتجد فسحة متذبذبة بين الزوجة الاجتماعية والزوجة الرّفيقة والأمّ المخلصة التي عليها أن تكونهنّ جميعًا. والأهم من ذلك أنّها لن تجد، وهي متمزّقة بين واجبات الأمّ والزوجة، أيّ وقت للكتابة. سينقضي يومها مستغرقةً في أعمال المنزل الروتينية: الطبخ والكي والاهتمام بالأطفال والتبضّع للمنزل والاعتناء بكل مسؤولياتها العائلية، وقبل أن تنتبه، ستجد نفسها امرأةً منخولة: يتسرّب وقت العالم كلّه من ثقوب حياتها. وحتّى تلك اللحظات النادرة التي تجد نفسها فيها وحيدة، فسوف تكرّسها

للاسترخاء والتخلّص من التوتّر. كيف لها أن تكتب؟ متى ستقوم بذلك؟.

منذ البدء، كانت الفُرَص المُتاحة لشكسبير محظورة على جودث. في عالَم تُثبّط فيه عزائم النساء عن تنمية فرديّتهن، ويُلَقّنّ بأنّ دورهنّ الأساسي في الحياة هو الوقوف كأم وزوجة صالحة فحسب، عالَم فيه النساء مجرّد أصوات في حيّز الثقافة الشفهيّة، ولكن لا أحد ينظرّ إليهنّ داخل الثقافة الكتّابيّة، لذلك فإنّ الكاتبات يبدأن اللعب منذ الخسارة: صفرًا مقابل سَبعة.

لنقُم الآن بطرح سؤال فيرجينيا وولف على الشرق الأوسط.

محمد بن سليمان، أو الفضولي البغدادي، أحد أشهر أصوات الشّرق، عُرِفَ كشاعر في القرن السادس عشر وهو جليلٌ حتى اليوم عند العربِ والفُرس والأتراك على حَدٌ سواء. لنفترض أنّ عند الفضولي أختًا موهوبةً تصغره عمرًا، ومن المرجّح في الحقيقة أنّ له أختًا كهذه- واسمها فيروز، وهو لونُ عينيها أيضًا.

فيروز هذه بارعة، مغامرة بالفطرة، عاكفة على التعلّم وتفور بالأفكار. مجعّدة الشعر، ناعمة الابتسامة وذهنها مزدحم دومًا بأسئلة مُتشابكة. وكالصور في المرايا المتقابلة، تتضاعف أفكارها دون توقّفٍ، وتتداخُ في فضاء لا نهاية له. ينسكبُ الخيالُ من كلماتها كالمياه المنسابة من أقواس القناطر، نقيّة دومًا، ودومًا حُرّة.

تُحبّ القصص، وكُلما زادت المغامرة وارتفع الخطر، ناسَبَها ذاك أكثر. لا تتوقف لحظة واحدةً لا ليلاً ولا نهارًا عن إلقاء القصص عن قراصنة يحملون جماجمَ بشريّةٍ والياقوتُ يتلألأ في محاجر أعينها، وعن سجّادات سحريّة تطير فوقَ أسواق التوابل، ومغارات كريستاليّة، وعَمالقة خُضْر برأسَين يتحدثون لغةً مُبهمةً على كُلّ الآذان ما عَدَا

أذنيها. تروي هذه القصص، دون توقف، ترويها لأمّها وجدّتها وعمّاتها وخالاتها. وعندما لا يطيقون الاستماع إليها أكثر، تذهبُ لترويها للضيوف والخَدَم وأيّ أحد تسمعُ حسّه في المكان.

يومئ كِبارُ العائلة برؤوسهم، مُصيخين السّمع:

- أيّتها الجنيّة الصغيرة، إنّ خيالك أعمق من المحيط، كيف تجيئين بكل هذه الحكايا؟ هل تتسللين مُمتطيةً قمّة «جبل قاف» في منامك وتسترقين السمع إلى حديث الجنيّات هناك حتى مجيء الصباح؟

تتساءل فيروز ما هو ذاك المكان المسمّى بجبل قاف. إنها لتودّ الذهاب إليه ورؤيته بأمّ عينيها. العالم مليء بالألغاز، وهنالك زوايا في الأرض تذكّرك بالجنّة. إنها تعرف ذلك لا لأنها خَبِرَته، بل تعرفه بالبداهة. لقد قرأت آياتٍ من القُرآن عن الجَنّة، حيثُ يُحَلّى داخلوها بأساور من ذهب، وثيابٍ من سندس أخضر. وأكثر ما يُسلّيها هو إطباقها لأجفانها لتتخيل نفسها مرتدية أنعَمَ الأردية، تخشخش خلاخل كاحليها وهي تتمشّى، تشقّ مجاري مياهٍ باردةٍ، تقطف من الأشجار فاكهةً الواحدةُ منها أكبر من بيض النعامة.

الحُلْمُ فتاةٌ ورديّة الوجنتين، أخّاذةٌ كحورية البحر، ولعوبٌ مثلها أيضًا. لو تقدّمتَ لتحملها بين ذراعيك، لانزلقَت منك، ليّنةٌ وخفيفة، مثل سمكة، أو مثل السّراب الّذي خُلقت من مادته. ولا مصير لأولئك الذين يشتاقون إلى لمسها، غيرَ استنزاف حيواتهم.

أمّا الحقيقةُ فليست سوى عجوز بشعرٍ رماديٍّ كالسماوات العاصفة، عجوز بلا أسنان، تبعث ثرثرتُها القشعريرة في الأجسام. هي ليست قبيحة، ليسَ تمامًا، بيدَ أن فيها شيئًا مُريبًا وغير مريح، وهو ما يجعل النظر إلى عينيها أمرًا في غاية الصعوبة.

الحُلمُ هو الحُضن الحميم لفيروز، صديقها المُقرّب. وهُما يلعبان، يضحكان ويتبادلان النكات، وهُما يعدوان معًا، فيما الحقيقةُ تراقبهما من بعيدٍ بعينين مزمومتين.

قالت الحقيقة: «اقتربَ اليومُ الذي سيخرُجُ فيه هذا الحُلمُ المُدلَّلُ من الباب، وسأسترخي على ذلك العرش، مكانه. ستلعب فيروز مع الحلم لبعض الوقت فقط. فسرعان ما ستصبح امرأةً، وسيكون لِزامًا عليها حينئذ أن تفترق عن حبيبها وصديق لعبها ذاك».

استيقظَت فيروز في أحد الصباحات، فوجدت بللاً غريبًا بين ساقيها، ورأت بُقعةً حمراء تُلطّخُ ثوبَ نومها. انقبضَ قلبها بشدّة وعُنف. اجتاحها الرّعب من أنها قد جرحَت نفسها بشيءٍ ما دون أنْ تدري. وهكذا أسرعَت راكضةً إلى والدتها وهي تشهَقُ وتبكي. وما كادت تنقضي بضع لحظات لم تهمس خلالها بغير كلمات معدودات في أذن أمها، حتى دوّى صوتٌ وتلقّت فيروز صفعةً على خَدّها أيقظتها إلى الأبَد.

قالت لها أمّها بنظرةٍ رحيمةٍ في عينيها لا تتماشى أبدًا مع حِدّة صوتها: «اهدئي».

همسَت فيروز مذعورةً: «ما الّذي حدث يا أمّاه! ما الأمر؟»

أجابَت: «يحدث هذا لكل النساء. لكن لا تُخبري أحدًا بذلك. ولا سيّما أشقّائك. خُذي هذه الثياب واذهبي لتنظيف نفسك».

ردّدَت فيروز مُتشكّكة: «يحدث هذا لكلّ النساء؟».

قالت أمّها: «هذا صحيح. ويعني أنّك لم تعودي طفلة بعد الآن. عليكِ أن تُراقبي تصرّفاتك. لا يمكنك الركض في كل مكان والقفز على الحبل. لا يمكنك الحديث بصوتٍ عالٍ أو القهقهة. أنتِ الآنَ امرأة.»

متى؟ ولِمَاذا؟ كيف انتقلَت من الطفولة إلى النضج؟ لطالما ظنّت أنّ عليها – لتصير امرأة – أن تقطع طريقًا مُتعرّجًا تقفُ على جانبيه الأشجار، وهي تشقّه خطوة خطوة، تتعرّف إليه وتتهجّاه. لماذا لم يقل لها أحد إنه لم يكن – في الحقيقة – غير فَخٍّ، باب سحريّ تخطو منه فتهوي بغتةً دون أن تعرف عن وجوده أصلًا؟

تشعُرُ فيروز بالوساخة والذّنب. لا لأمرٍ قامَت به، ولكن لِما هيَ عليه. أمرَتْها جدّتها ألّا تلمس القرآن حتى يكُفّ النزف بين ساقيها عن الجريان، وتُطهّر نفسها تمامًا.

هكذا بدا لها أنّ الله، حتّى الله، لم يعُد يُريدها.

الوجع. هذا كلّ ما تشعُر به فيروز. بهَت لونُ وجهها ورحلَت الابتسامة من عينيها. تلك الفتاة غير المبالية التي يتردّد صدى ضحكتها في أرجاء المنزل مثل دزّينة أجراس رنّانة، وُضعت مكانها امرأة ثقيلة الجسد. رأسها مُطأطئ، ووجهها غائمٌ بالأفكار.. فيروز في أرض غريبة حتى ولو كانت جالسةً إلى مجمرة المنزل، مع الواقع.

كبارُ السّنّ في العائلة، لا يرفعون أعينهم عنها، يتهامسون فيما بينهم عن خُطّاب مُحتملين. الخطّابات يأتين ويذهبن، حاملاتٍ مُكعّبات راحة الحلقوم ملفوفةً في مناديل حريريّة. وعلى الرغم منْ أنّ والديها يساومان حول تكاليف عرسها، فإنّ كلّ ما يهمّ الآن هو أن تظهر فيروز بشخصيّة دَمِثة ووقورة. ولكن مهما كانت الرقابة عليها شديدة، لا يمكن لوالدَيها إيقافها عن الركض إلى الطابق العلوي وحشر أنفها في شبابيك النوافذ. إنها تبقَى هناك حتى تترك تلك الفتحات علامات على وجهها فيصبح كَقِنّ الدجاج، مستنشقةً شذى أعشاب الأرض العطريّة محمولًا على الريح من الوديان البعيدة.

لو أنها تستطيع فقط أن تسير خارجةً من البيت لتجد قافلة تأخذها

إلى مكان أبعد من مدينة كربلاء، إلى نهايات العالم. أرادت أن تذهب إلى المدرسة كأخيها الفضولي، وأن تدرس التوحيد والتفسير والفلك والخيمياء. لو أنها فقط تستطيع السّير في الطرقات بفخر وهي تحملُ تحت ذراعيها كتبًا ومعاجمَ بحجم الطّوب. لو أنّ والديها يقولان لها فقط: «أحسنتِ يا فيروز، ستصبحين شاعرةً عظيمةً كأخيكِ بمشيئة الله».

تكتم فيروز سِرًّا لم تُذعهُ لأيّ أحد. إنها تكتب الشعر منذ سنوات طويلة. في البدء، كانت تدوّن ما يُثقل قلبها فحسب، بلا أيّة توقعات، وكأنها تتحدّث إلى نفسها. ثم أدركَت، بمُضيّ الوقت، أنّ الكتابة بالنسبة إليها أكثر من تزجية للوقت، إنها شغَف.

تتقدّم كتابتها كمرض أصابَ جسدها وروحها وانتشر فيهما. وفي أكثر الأوقات، يجيئُها الإلهام في الفجر دون سواه. تنهضُ قبل انبلاج الصباح، تضع شالًا ناعمًا على منكبيها، ثم تأخذها الكتابة. أولئك الذين يسمعون وقعَها الناعم في غرفتها، يظنّون أنها قامت للصلاة. إنهم لا يعرفون أنها تقوم بأمر شبيه بها، فالشّعر عندها صلاةٌ حقيقيةٌ تنهضُ من أعماق الروح، مُشمّةً نحو قوّة بعيدةٍ، أعلى وأقدَس. لولا الشعر، تقول فيروز، لكان الله في وحدة قاسية.

إنها تقرأ الأعمال الشعرية لشعراء آخرين، ولا سيّما الإيراني حافظ والتركي نظامي، وهي تُثمّن أيضًا شِعر أخيها، وقد مرّت اليوم على إحدى قصائده وحفظتها فورًا، تقول:

«ليس في العالم سوى الحُب. أمّا المعرفة، فهي إشاعَةٌ فحسب..»

وعلى الرغم من حُبها للقصيدة، فإنّها لم تستطع الاعتقاد بأنّ رجُلًا ومتأدّبًا في النحو واللغة يذهبُ هذا المذهب في كتابة الشعر. فبالنسبة إلى فيروز، وكلّ من حُرِمَ من المدرسة، المعرفة بالتأكيد أكبر

من كونها إشاعة.

إنّها عطشٌ مُتحرّق.

هنالك محظيّةٌ كبيرةٌ في السّن، امرأةٌ سمراء البشرة كخشب الأبنوس، كانت ترعى فيروز منذ يوم ولادتها. عندما تمشي، تتسحّبُ في الغرفة بصمت كخيط حرير، وعندما تتحدث، تنبسُ همسًا ليس إلّا. في أحد الصباحات، بينما كانت تُقطّبُ شرشفَ دانتيل وتحيكُه، التفتت فيروز إلى مُربيّتها وقالت: «أريدُ أن أذهب إلى المدرسة، أحبّ أن أصبح شاعرةً عظيمة.»

أجابتها بحبور: «حقًّا!»، ونهداها الكبيران يرتجّان من الضحك.

قالت فيروز وفي صوتها بعض الألم: «لماذا تضحكين؟.»

فأجابت المُربّية بنبرةٍ صارمةٍ هذه المرّة: «دعيني أُخبركِ بهذه القصّة أوّلًا..»

وكانت هذه قصّتها: في أحد الأيّام، كان جُحا يعمل في حقل بطيخ، عندما توقف ليرتاح قليلًا تحت شجرة جوز، همسَت له نفسه وهو ينظر إلى أعلى: «ربّي، إنّني حقًا لا أفهم أساليبك في الحياة. لماذا جعلتَ هذا البطيخ الضخم، ينمو قريبًا من الأرض على أغصانٍ نحيفة وضعيفة، وتُعلّق هذا الجوز الصغير القليل على أغصانٍ ثخينة؟ أما كان أجدى لو عكستَ الأمر؟.» وفورَ انتهائه من حديث النفس هذا، هبّت ريحٌ قويّة وتساقط بعض الجوز من الشجرة على رأسه. فصرخَ جُحا من الألم. وهكذا عرف خطأه، وهوَ يُدلّك رأسه من أثر الكدمات. قال: «إلاهي أرجو أن تسامح لساني السليط، الآن فقط عرفتُ لماذا لم تُدلي البطيخَ من الأشجار، فلو أنك وضعتَ البطّيخ مكان الجوز، لما كنتُ الآن على قيد الحياة. دع كلّ شيء في مكانه، أرجوك، فأنتَ أعلَم مني بكلّ شيء».

أنصتت فيروز وهي تتنفّس بصعوبة: «وما شأني أنا بهذه القصّة؟».

قالت المربّية: «أيّتها الفتاة المجنونة. ألا تُدركين؟. مَن سمع قط عن امرأة شاعرة؟ هناك سبب لجعل الله المرأة على حالها هذا، ومن الأفضل أن نحترم ذلك ولا نسائله، إلّا إذا أردنا أن يُمطر البطيخ على رؤوسنا!.»

تمشّت فيروز عصرَ ذلك اليوم في الحديقة، اجتازت البئر نحو قنّ الدجاج في الزاوية، فتحت بابه الخشبي الصغير، ودلفت وهي تستنشق الرائحة اللاذعة للأرض والغبار والوسخ. لم يُعرها الدجاج ولا الديك أيّ اهتمام. قنّ الدجاج هو غرفتها. هذا المكان، بساكنيه المزعجين ورائحته الحادّة، هو مُتنفّسها الوحيد. تحت طاسات طعام الدجاج وشرابه، هناك صندوقٌ مخمليُّ البطانة، تحفظُ فيه قصائدها.

أخذت الصندوق بعد أن مسحت عنه الغبار، وذهبت لرؤية أخيها.

قال الفضوليّ وملامح الدهشة مرتسمة على وجهه وهو يشاهد أخته تقف مترددةً على بابه: «أهلًا بأختي الصغيرة! ما الذي جاء بك؟.»

مدّت إليه قصائدها، والابتسامة على شفتيها مشدودة كوتر من أوتار العود: «اقرأها الآن من فضلك، هلّا فعلت؟.»

و قد فعل. الوقت يُبطئُ ويأخذ إيقاعات مختلفة، كالسّير أثناء النوم. وبعد مُضيّ ما بدا أنّه الدّهرُ كلّه، رفع فضولي رأسه، وفي عينيه لمعةٌ جديدةٌ لم ترها من قبل.

سألها: «من أين جئتِ بهذه القصائد؟.»

أشاحَت فيروز بوجهها وعينيها اللامعتين بعيدًا عن أخيها. لم تجرؤ على قول الحقيقة. وإلى جانب ذلك، أرادتْ أن تعرف ما إذا كانت قصائدها جيّدة على أيّة حال. وهل تملكُ الموهبة حقًّا؟

قالت: «إحدى الجارات جاءت خلال الأيام الماضية، وهذه القصائد لابنها. إنها ترجوك أن تُلقي نظرةً عليها وأن تُخبرها، بكل صدق، ما إذا كان ابنها موهوبًا أم لا.»

عَبَرَ ظِلٌّ وجهَ الفضولي كأنّه شَكَّ في صحّة ما تقوله فيروز، لكنه قال بصوت ملؤه الهدوء والثقة: «قولي لتلك الجارة إنّ على ابنها المجيء لمقابلتي فورًا. إنه يتمتّع بموهبةٍ مُذهلة.» وراحَ يُمسّدُ لحيته البُنّيّة الكثّة بهدوء.

خَفَّت فيروز من السعادة. إنها تُخطط لتُخبر أخيها الحقيقةَ عندما تحينُ اللحظة المناسبة. وإذا استطاعت إقناع أخيها بموهبتها، فإنّه سيستطيع إقناع باقي أفراد العائلة. وسيفهمون ما تعنيه الكلمات لها. الإيمان بالشعر يعني الإيمان بالحُب. الإيمان بالشعر يعني الإيمان بالله. كيف لأحدٍ أن يُنكرَ ذلك؟.

إلّا أن اللحظة التي انتَظَرَتها لم تأت أبدًا. فبعدَ عدّة أسابيع من تلك المحادثة، تزوّجت فيروز من رجُل دينٍ يكبُرها بثمانية عشرَ عامًا.

وغنّت النساء في ليلة حنّائها، على إيقاع الطبول وقرع الدفوف. في البدء، رقصنَ وتضاحكنَ بسعادة في العَلَن، ثُمّ تنضّنت وجوههنّ وأشحنَ بها بعيدًا مُخفيات دموعهنّ المالحة. ففي أيام العرس، خلال احتفالات النساء، هناك حقيقة واحدة فحسب، في ذلك الوقت تحديدا، حقيقة مفادُها: الحُزنُ والفرحُ، اسمانِ مختلفان لشيء واحد.

كانت طفلةً بالأمس

تسبحُ في بحرٍ من الرسائل

تنزِفُ الشّعر،

ثم انتشرت بُقعةٌ في ثوب نومها،

مُظلمةٌ وغامضة.

وخلال نبضة واحدة، رفّة جّفن واحدة، صارت امرأة،
وصار اسمُها
فاكهةً مُحرّمة.

ونظرًا إلى علاقات زوجها، فقد تقرّر أن يستقرّ الزوجان في اسطنبول. انتُزعَت فيروز من بيتها وأهلها وطفولتها. لم تذهب، وهي تُغادرُ المنزل، لزيارة قنّ الدجاج للمرّة الأخيرة. لم تعُد تهتم. مُخبّأةً في حُفرة، تحت طاسات الحبوب، ذهبَت قصائدها إلى الهباء. سِرّها الكبير أضحى غُبارًا، غُبارًا منثورًا.

وبعد أشهُرٍ في إسطنبول، جلسَت فيروز في المَضيف على البسفور، تنظُرُ إلى المياهِ الغامقة النيليّة. إنها تكتُمُ فمها بكفّها، لكنها لا تتقيّأ هذه المرّة، فقد مضت سبعة أسابيع على حملها. إنها تأمَلُ أن تُنجب صبيًّا ليحمل اسمَ والده على مَرّ الأجيال وإلى آخر العالم. ومن حين إلى آخر، تهمسُ شعرًا، بيد أنها لا تدوّنه. تنتشرُ الكلمات التي تتنفّسها في الريح كظلالٍ لحُلمٍ مُهشّم كان لها، لكنها لم تعُد تتذكّره جيّدًا.

مَن يدري كم امرأة كفيروز عاشَت في تاريخ الشرق الأوسط؟ نساء كان بإمكانهن أن يُصبحن شاعرات أو كاتبات، إلّا أنه لم يُسمح لهنّ بذلك. نساءٌ خبّأنَ قصائدهن في قنّ الدجاج أو صناديق المهور، حيث فسدَت إلى الأبد. وبعد سنوات طويلة، وهُنّ يحكين القصص لحفيداتهن، قد تقول إحداهن:

– كُنتَ مرّةً أكتُبُ الشِّعر! هل تعرفنَ ذلك؟

– وما ذاك يا جدتي؟

– الشِّعر؟ إنه مكانٌ ساحرٌ، خلفَ جبل قاف!.

– هل بإمكاني الذهاب إلى هناك أنا أيضًا؟ هل أستطيع ذلك؟

- بلى، تستطيعين ذلك يا عزيزتي. لكن لا يمكنك المكوث هناك.
زيارةً قصيرةً وحسب. هذا فقط ما يُسمَحُ به لك.

وستقولُ ذلك هامسةً، وكأنّ ما قالته، إلى هذا الحدّ، إحدى حكايات العفاريت.

ربما لم يكن السؤال الواجب طرحه: لمَ لم يكُن هناك الكثير من الشاعرات والكاتبات في الماضي. بل السؤال الحقيقي هو: كيف استطاعت حفنةٌ من النساء أن يخُضنَ طريقهن في عالم الأدب وسطَ كل تلك الظروف؟.

إذا جئنا إلى موضوع تقديم فُرَص متساوية للنساء مثل فيروز، فإن العالم لم يتقدم في هذا الشأن كثيرًا، أو لم يتقدم إلى القدر الذي يبدو عليه. يَسري إلى اليوم ما قالته فرجينيا وولف: عندما يقرأ أحدٌ عن امرأة تملّكتها الشياطين، أو عن امرأة حكيمة تبيعُ الأعشاب، أو حتى عن رجُل بارز وخلفه أمّه، فإنني أظنّ أننا قد وقفنا حينها على دَرب روائيّة تاهَت، أو شاعرة عظيمة، صامتة ومغمورة مثل جين أوستن، أو إيميلي برونتي، وقد أنهكَت ذهنها وأدخلته مرحلة اليأس بمَهَام الجَلي والغسيل، نادبةً طُرُقَ الحياة، مخبولةً من وطأة التعذيب الذي تضعها تحته موهبتها المظلومة.

هناك قاعدةٌ عاشت إلى اليوم، ولا تزال صحيحةً، في الوَسَط الثقافيّ: الكُتّاب الرّجال يجيؤونَ إلى الأذهان ككُتّابٍ أوّلًا، ثُمّ كرجال. أمّا الكاتبات، فإنهن إناثٌ أوّلًا، ومن ثَمّ كاتبات.

المَزيدُ من الشاي

- هل أنتِ على ما يُرام؟

سألت السيّدة آؤلو:

- تبدينَ على بُعدِ أميالٍ من هُنا!

فابتسمتُ شاعرةً بالذنب:

- أوه، حقًّا؟!

وبنظرةٍ فاحصةٍ مرّرتها على الطاولة، عرضَت عليّ كوبَ شاي، وقالت:

- لا تعارُض بين الكتابة والأمومة. ليس هكذا بالضبط. إنهما فقط، صديقتان لا تفي إحداهما للأخرى على الدوام.

يتصرّفُ عقلي الآن كجهازِ حاسوبٍ أصابه العطب؛ أسماءٌ وصورٌ تتقافزُ على الشاشة، لا علاقةٍ تربط بعضها ببعض ولا تنسيق. أفكّرُ في الكاتبات اللواتي هُنّ أيضًا أمّهات: نادين غورديمير ومارجريت آتوود وآني برولكس وأنيتا ديساي وجومبا لاهيري ونعومي شهاب ناي وآن لاموت وماري غوردن وآن رايس والأسطورة كرستينا بيجو جوسو.. عددٌ ضخمٌ من الكاتبات أنجبنَ مرّةً وحسب، أو مرّتين. وهناك أيضًا من أنجبنَ ثلاث مرّات وأربع أمثال أورسولا لي جوين.

ولكن هناك أيضا، في الوقت ذاته، عددٌ كبيرٌ من الشاعرات والكاتبات من لن يُنجبنَ أطفالًا لأسبابٍ يرونها وجيهة: إيميلي

ديكنسون وفرجينيا وولف وإيميلي برونتي ودوروثي باركر وليليان هلمن وآين رايد وجيرترود ستاين وباتريشا هايسميث وجانت وينترسون وإيميلي تان وساندرا ميسنيروس وإليزابث جيلبرت.

وهناك من الكاتبات من أنجبنَ وتبنّينَ في نفس الوقت، والألمع من بينهنّ امرأةٌ لم تكُن كاتبة باهرة وحسب، بل ناشطة في الحراك الحقوقي المُطالب بالمساواة العِرقية والجنسية، امرأةٌ بقلبٍ واسعٍ وحاصلة على جائزة نوبل في الآداب، إنها بيرل بوك.

استمرّت بيرل بوك في ملاحظة أن نظام التبنّي في أمريكا يُفرّق بين البيض وبين الآسيويين والسّود لصالح البيض. وهكذا قررت عام 1950م أن تُحارب هذا النظام وتُساعد مَن لا حيلةَ لهم ولا قوّة. وبعد صراع طويل، أسّست بيت الضيافة: أوّل مركز تبنّي عالمي لا عِرقي، فغيّرتْ بذلك حيوات ما لا يُحصى من الأطفال. وفي خِضَمّ قيامها بذلك كُلّه، لم تتنازل عن الأدب، ولم تُبطئ من وتيرتها في الكتابة. بل على العكس تمامًا، فقد استحثّت أمومتها ونشاطها الحقوقي مهنتها ككاتبة.

وأخيرًا، هناك كاتبات من المُحتمل أنهنّ قد أردنَ الإنجاب، إلّا أنّ أزواجهن لم يكونوا راغبين في ذلك، فلم يُنجبن. ويعتقد الكثير أنّ هذا هو حال الكاتبة البريطانية المعروفة آيريس مرداك. يُقال إنّ زوجها جون بيلي لم يرغب قط في إنجاب الأطفال فاستسلمَت لرغبته. وبعد وفاة مرداك، نُشرَ كتابٌ عن حياتها أضاءَ هذه الجهة المُعتمة من علاقتها بزوجها، ما أحدثَ ربكةً في الوسط الثقافيّ آنَذاك.

إنّي أُحاولُ أن أجد مُعادلةً ذهبيّة، تنطبق على أغلب الكاتبات، أو حتّى عليهنّ جميعًا، لكن من الواضح أنّه لا وجود لمثل تلك المعادلة.

بدأت ج.ك.رولينق بكتابة سلسلة روايات هاري بوتر بعد ولادة

ابنها، وأهدت ما لحق ذلك من كتب إلى ابنتها الرضيعة. تقول إنّ الأمومة هي مصدر إلهامها. قد يَفترضُ أحدٌ منّا أن أمًّا تكتبُ عن السّحر والخوارق لابُد وأنها تقصُّ ذلك على أبنائها عندما تدُسّهم في أسرّتهم، بيد أن ج.ك.رولينق تقول إنها لا تؤمن بالسحر والشعوذة! بل فقط بالدين. لا أعرف إلى أيّة درجة يسهُل عليها تسيير أمور منزلها، لكن يبدو أن رولينق بارعةٌ حقًّا في صَهر الأمومة والكتابة معًا.

وهناك توني موريسون التي كان لديها صبيّان صغيران تربيهما وحدها عندما بدأت الكتابة. لقد أمضَت سنواتٍ طويلةً لا تستطيع أثناءها الكتابة في ساعات النهار، فموعدها مع القلم والحبر يحل قُبَيل الفجر، قبل موعد استيقاظ أطفالها. وبقدر ما كانت حياتها صعبة في ذلك الوقت، فقد اعتصرت الإلهام، حسب قولها، من كُلّ مهنةٍ زاوَلَتها.

في أحايين كثيرة، يبدو أن أكبر جائزة تأمَلُ كاتبةٌ في الظفَر بها، ليست بوكر أو أورانج، بل مُربية دافئة القلب ومُخلصة. إنه حُلمٌ مُشتركٌ بين كاتبات كثيرات، أن يسمعن هذه الكلمات الأربع السحرية: (والفائزة بمُدبّرة المنزل هي...). ولا عَجَب أن تكون من بين المِنَح المالية التي فازت بها سيلفيا بلاث منحةُ مُربية! - مالٌ تستطيعُ به أن تستأجرَ مُربيةً ماهرة تعتني بالبيت كي تجد الوقت والطاقة للكتابة.

ولكن لا بدّ، حينها، من الانتباه إلى الوجه الآخر من العُملة. وذلك ما طرحته ساندرا سيسنيروس في كتابها المُحرّض على التفكير (مُلاحظاتٌ لكاتبٍ شاب)، إذ تتناولُ سؤالَ الطّبَقة، والكاتبات والشاعرات اللواتي حَضينَ بخادمات لهُنّ وحدهن. تقول: أتساءلُ ما إذا كانت مُدبرة منزل إيميلي ديكنسون الإيرلنديّة قد كتبَت الشّعر أو أنها كانت تُسرّ برغبتها في الدراسة وفي أن تصيرَ شيئًا آخر إلى

ديكنسون وفرجينيا وولف وإيميلي برونتي ودوروثي باركر وليليان هلمن وآين رايد وجيرترود ستاين وباتريشا هايسميث وجانت وينترسون وايميلي تان وساندرا سيسنيروس وإليزابث جيلبرت.

وهناك من الكاتبات من أنجبنَ وتبنّينَ في نفس الوقت، والألمع من بينهنّ امرأةٌ لم تكُن كاتبة باهرة وحسب، بل ناشطة في الحراك الحقوقي المُطالب بالمساواة العِرقية والجنسية، امرأةٌ بقلبٍ واسعٍ وحاصلة على جائزة نوبل في الآداب، إنها بيرل بوك.

استمرّت بيرل بوك في ملاحظة أن نظام التبنّي في أمريكا يُفرّق بين البيض وبين الآسيويين والسّود لصالح البيض. وهكذا قررت عام 1950م أن تُحارب هذا النظام وتُساعد مَن لا حيلةَ لهم ولا قوّة. وبعد صراع طويل، أسّست بيت الضيافة؛ أوّل مركز تبنّي عالمي لا عِرقي، فغيّرتْ بذلك حيوات ما لا يُحصى من الأطفال. وفي خضَمّ قيامها بذلك كُلّه، لم تتنازل عن الأدب، ولم تُبطئ من وتيرتها في الكتابة، بل على العكس تمامًا، فقد استحثّت أمومتها ونشاطها الحقوقي مهنتها ككاتبة.

وأخيرًا، هناك كاتبات من المُحتمل أنهنّ قد أردنَ الإنجاب، إلّا أنّ أزواجهن لم يكونوا راغبين في ذلك، فلم يُنجبن. ويعتقد الكثير أنّ هذا هو حال الكاتبة البريطانية المعروفة آيريس مرداك. يُقال إنّ زوجها جون بيلي لم يرغب قط في إنجاب الأطفال فاستسلمَت لرغبته. وبعد وفاة مرداك، نُشرَ كتابٌ عن حياتها أضاءَ هذه الجهة المُعتمة من علاقتها بزوجها، ما أحدثَ ربكةً في الوسط الثقافيّ آنَذاك.

إنّي أُحاولُ أن أجد مُعادلةً ذهبيّة، تنطبق على أغلب الكاتبات، أو حتّى عليهنّ جميعًا، لكن من الواضح أنّه لا وجود لمثل تلك المعادلة.

بدأت ج.ك.رولينق بكتابة سلسلة روايات هاري بوتر بعد ولادة

ابنها، وأهدت ما لحق ذلك من كتب إلى ابنتها الرضيعة. تقول إنّ الأمومة هي مصدر إلهامها. قد يَفترضُ أحدٌ منّا أن أمًّا تكتبُ عن السّحر والخوارق لابُدّ وأنها تقصُّ ذلك على أبنائها عندما تدُمّهم في أسرّتهم، بيد أن ج.ك.رولينق تقول إنها لا تؤمن بالسحر والشعوذة! بل فقط بالدين. لا أعرف إلى أيّة درجة يسهُل عليها تسيير أمور منزلها، لكن يبدو أن رولينق بارعةٌ حقًا في صَهر الأمومة والكتابة معًا.

وهناك توني موريسون التي كان لديها صبيّان صغيران تربيهما وحدها عندما بدأت الكتابة. لقد أمضَت سنواتٍ طويلةً لا تستطيع أثناءها الكتابة في ساعات النهار، فموعدها مع القلم والحبر يحل قُبَيل الفجر، قبل موعد استيقاظ أطفالها. وبقدر ما كانت حياتها صعبة في ذلك الوقت، فقد اعتصرت الإلهام، حسب قولها، من كُلّ مهنةٍ زاوَلَتها.

في أحايين كثيرة، يبدو أن أكبر جائزةٍ تأمَلُ كاتبةٌ في الظفَر بها، ليست بوكر أو أورانج، بل مُربية دافئة القلب ومُخلصة. إنه حُلمٌ مُشتركٌ بين كاتبات كثيرات، أن يسمعن هذه الكلمات الأربع السحرية: (والفائزة بمُدبّرة المنزل هي...). ولا عَجَب أن تكون من بين المنَح المالية التي فازت بها سيلفيا بلاث منحةُ مُربية!- مالٌ تستطيعُ به أن تستأجرَ مُربيةً ماهرة تعتني بالبيت كي تجد الوقت والطاقة للكتابة.

ولكن لا بدّ، حينها، من الانتباه إلى الوجه الآخر من العُملة. وذلك ما طرحته ساندرا سيسنيروس في كتابها المُحرّض على التفكير (مُلاحظاتٌ لكاتبٍ شاب)، إذ تتناولُ سؤالَ الطّبَقة، والكاتبات والشاعرات اللواتي حَضينَ بخادمات لهُنّ وحدهن. تقول: أتساءلُ ما إذا كانت مُدبرة منزل إيميلي ديكنسون الإيرلنديّة قد كتبَت الشّعر أو أنها كانت تُسرّ برغبتها في الدراسة وفي أن تصيرَ شيئًا آخر إلى

جانب اعتنائها بالمنزل. وتُتابع سيسنيروس: ربما كان على مُدبرة منزل إيميلي ديكنسون أن تُضحّي بحايتها ليكون بإمكان ديكنسون أن تحيى حياتها مُغلقَةً عليها الباب في الطابق العلوي، في زاوية غرفة نومها حيث كتبت قصائدَها الـ 1775. فبقدر ما يتجنّب الوسط الأدبي الحديث عن هذه الأمور الدنيويّة، يبقى للمال والطبقة القدرةَ نفسَها على منح الامتياز والقوّة لبعض الناس دون سواهم.

علينا أن نُعيرَ اهتمامًا هنا للأطفال أيضًا، لا أمّهاتهم الكاتبات فحسب. لقد سارَ ابن سوسان سونتاج المدعوّ ديفد راييف على خُطى والدته، وصارَ كاتبًا ومُحرّرًا. في الحقيقة، كان هو مُحرّر أمّه لفترة. ولطالما تحدّثت كيران ديساي هي الأخرى عن علاقتها الكتابيّة الطويلة بأمّها أنيتا ديساي. وكذلك فعل، غاي جونسون ابن أحد الأصوات الشعرية المحبوبة في أمريكا على اتساعها مايا آنجيلو، حين اختارَ هو أيضًا أن يصير شاعرًا كأمه.

رُحتُ أقولُ لنفسي: لو أنّ هؤلاء الأبناء قد كَرِهوا لأيّ سبب يُذكَر عالمَ أمهاتهم، لَمَا ساروا في طُرُقاتهم نفسها. أعتقد، في نهاية المطاف، أن الكاتبات لسنَ أمهات رديئات.

لكنني، وأنا أقول ذلك، أعرفُ أنّ هناك أمثلةً على عكس ما ذكرتُ، حالات من الصعب جدًا الحديث عنها. هناك كاتبات تمتّعنَ بمواهب رائعة إلا أنهنّ لم يكُنّ كذلك في أمومتهن. لا نعرف الكثير عنهن. فالعلاقة التي تبدو مُثيرةً للحسد في الظاهر، تقولُ حقائقَ أخرى تختبئ خلف الأبواب المُغلقة. خلف الفوتوغرافات الرائعة والواجهات البرّاقة، هناك أفئدةٌ مسحوقةٌ لا نعرفُ عنها إلا اللمَمْ.

أحد الأمثلة المعروفة: موريل سبارك.

سبارك، بلا شك، إحدى أهم المؤلفات المُلهِمات في القرن الماضي.

كتبت أكثر من عشرين رواية والكثير من الأعمال الأخرى، بما فيها كتب الأطفال، والمسرحيات والقصص. وعندما رحلَت عن هذا العالم في عُمر يُناهزُ الثمانية والثمانين عامًا، حضر جنازتَها حشدٌ من الأصدقاء والأهل وناشري الكتب والمُحرّرين والنُقّاد والقُرّاء دون أن ننسى الصحفيين، عالَمٌ بأسره حضرَ جنازتها، ما عدا شخص واحد فقط: ابنها روبن.

يحتارُ المرء. ماالذي اتّضح لابنها في ذلك الوقت، ابنها الوحيد، عندما عرف أنها قد رحلَت عن الحياة بلا رجعة، ليرفض الذهاب لجنازتها؟. كم يتطلّب أمرا كهذا من الألم والمعاناة؟ وكيف لأمٍّ، تعرفُ أنها ستموتُ قريبًا، أن تقضي أيامها الأخيرة وهي تدري أنها ليست على وِفاقٍ مع وحيدها؟ كم تكبّدت من الحُزن والوجع لتتّخذ مثل هذا القرار؟

وُلِدَت سبارك في إدنبورغ، ورحلَت عن بلدها بعدَ فترة وجيزة أعقبَت زواجها، لتستقرّ في روديسيا في زيمبابوي، حيثُ عُرِضَت على زوجها وظيفة أستاذ هناك. وفي عام 1938م أنجبا ابنًا. لا أعلم ما إذا كانوا أكثر تعاسةً من العائلات التي تعيش هناك مِن حولهم، ولكنّ سبارك سرعان ما قرّرت العودة إلى بريطانيا.

لقد رحلَت وحدها. هل شعرَت، حين سارَت مبتعدةً عن ابنها ذي السنوات الستّ، بأنّ هذه هي أصعب لحظة في حياتها؟ أم أنها اعتقدَت، بكُلّ براءة ووفاء، بأنها ستعود قريبًا مرّة أخرى؟ وعلى آيّة حال، فإنّها لم تعُد. وكَبُرَ روبن على يد أبيه وفي أحضان جدته.

وبمُضي الأعوام، اتسعت المسافة بين الأم وابنها. لكنّ روبن لم يردْ الفعل إلا الآن، بعد أن أصبح رجُلًا ناضجًا، وذلك حين أعلن عن رغبته في اعتناق اليهودية، هكذا ليقطع آيّة صلة باقية بأهله. أمّا سبارك،

التي كانت وقتها كاثوليكية مُخلصة، فإن ردّة فعلها جاءت عنيفة إزاء محاولة ولدها إثبات أنّ جدّته (وبالتالي أمّه) كانا في الحقيقة يهودًا. لقد زعمَت أنّ ابنها قام بذلك بحثًا عن الإثارة والفضيحة كي ينال منها وحسب. بعدها، أضحَت علاقتها به متأزّمة حتّى أنّها أجابت صحفيًا سألها ما إذا كانت قد قابلته قَط، قائلةً: طالما أبقى نفسه بعيدًا عني، فليفتعل ما يشاء.

و هكذا ظَلّ كُلٌّ منهما مبتعدًا عن الآخر.

في الخارج، خلف الستائر نصف المُسدلة، تجري الرياحُ مُسرعةً في الشوارع، يخرُجُ من أوراق شجر الأكاسيا حفيفٌ عبرَ أنوار المساء المائلة. وبموازاة الريح المسرعة، يُسرِعُ الوقتُ أيضًا. إنه الآن يجري حثيثَ الخُطى حتى أنني أشعر بنوبة ذُعر وكأنني تأخّرت عن أمر ما، لكن ماهو بالضبط، لا أعرف. كم أبلُغ من العُمر؟ خمسةٌ وثلاثين. بدأت الأرقام بالارتفاع كعدّاد الأرقام الدوّار في مضخة تعبئة البنزين: ستة وثلاثون، سبعة وثلاثون، ثمانية وثلاثون، تسعة وثلاثون.. إلى كم سنة أخرى أستطيعُ تأجيل قرار الإنجاب؟ الساعة على الجدار، الساعة في رأسي، الساعة في قلبي، الساعة في رحمي، كلها تدُقّ في وقتٍ واحد. وبغتةً، يجتاحُني إحساسٌ غريبٌ وكأنّ كل تلك الساعات قد أُعِدّت لتقف كلّها في لحظة ما: الآن!.

في تلك اللحظة بالضبط، بدأت النساء الصغيرات داخلي يطرُقنَ علي جدران صدري بعنف. أردن جميعهن الخروج. أردن أن يعقدنَ معي اجتماعًا طارئًا.

ولكي أقوم بأفضل ما أستطيعه لأبدو واثقةً ومتماسكة، وثّبتُ على قدميّ وسألت:

- أعتذر، هل بإمكاني استخدام دورة المياه؟

قالت السيّدة آؤلو، مُتفحّصةً وجهي بعينيها البُنّيتين الغامضتين:

- بالطبع، البابُ هُناك إلى اليسار.

لكنني لا أملك لا الوقت ولا الإرادة لأشرح لها أيًّا ممّا يحدث لي. اندفعتُ إلى دورة المياة وأغلقتُ الباب خلفي، وأدرتُ صنبورَ المياه كي لا يتناهى صوتي إلى سمع السيّدة آؤلو وأنا أتحدّثُ مع نفسي. همستُ:

- حسنًا، بإمكانكنّ الخروج الآن.

صمتٌ مُطبقٌ. على المنضدة أمامي شمعةٌ عطريّةٌ برائحة التفاح الأخضر. أرمُقُ شُعلتها تتهفهَفُ جَرّاءَ تحرُّكاتي المتوترة.

- مرحبًا؟ لتخرُجنَ، هيّا!

أعرفُ أنني أصيحُ، لكن ما الذي بوسعي فعله عَدَا ذلك؟. كان هذا قبل أن يجيبني صوتٌ غارقٌ في الخمول:

- أوف، توقفي عن الصراخ وكأنك تُعانين من مغص، إذا سمحتي!.

أتساءَلُ أيّة واحدة من عناصر جوقة أصوات الفوضى تحملُ هذا الصوت، لكنني فضّلتُ ألّا أسأل:

- لماذا لا تخرُجنَ لي؟ ظننتُ أنكُن تُرِدنَ عقد اجتماع عاجل، لقد حبستُ نفسي في دورة مياهٍ من أجلكن في بيتٍ لستُ فيه سوى ضيفة.

- لقد أردنا أن نجتمع، إلّا أننا أدركنا أنه وقت العشاء، فذهبَت كُلّ واحدةٍ منّا إلى منزلها لتأكُل لُقمة. لذا، لا نستطيعُ أن نخرُجَ الآن هكذا.

- أوه، رائع.! هذا ما كان ينقُصني..

- لا تكوني نَزِقَة. أقول لكِ أمرًا؟ لمَ لا تهبطين إلينا هُنا بنفسك يا حبيبتي؟

خلافًا لشخصية آلكس في بلاد العجائب، لا أحتاجُ أن أتجرّع دواءً سحريًا كي يتضاءلَ حجمي حتى أصير كإصبع لأتمكّن من الترحُل في عالم آخر، إذ لم يكُن جسدي من أراد الترحالَ، بل ذهني. أستطيعُ أن أتخذ أيّة هيئة أردتها وأبقى في نفس الوقت دونَ هيئة على الإطلاق. وبعد أن فكّرتُ في ذلك، أخذتُ نَفَسًا عميقًا، واختطفتُ الشمعة عن منضدة دورة المياه، ونزلتُ الدرجَ المُغطّى بالطحالب داخلي، إلى حيث تقبع زنازينُ روحي.

لقد حانَ الوقت لحديثٍ صارمٍ مع نسائي الصغيرات الأربع.

الحريمُ اللواتي بداخلي

المكانُ في الأسفل مظلمٌ وضبابي. تبدو روحي، بمتاهات أزقّتها هذه وممرّاتها السّرية، مَوقعًا مثاليًا لرواية مُرعبة أو فيلم عن مصّاصي الدماء. أدركتُ، وأنا أنظر يُمنةً ويُسرةً، أنني مشوّشةٌ بالكامل. لقد مشيتُ هذه الطرق المسدودة والشوارع الخلفية المُعتمة مرّاتٍ ومرّات، لكنّني ما أزال أضيعُ داخلها إلى الآن.

هناك تقاطع في البُعد، تنشقُّ عنه أربعة مسالك. وأنا أرمشُ، رفعتُ الشمعة إلى مستوى عينيّ وحدّقتُ في الضباب الثخين غَير المُرحِّبِ بي. أيّ مَسلَكٍ أتّخذُ الآن؟ أحاولُ أن أفكّر في آلة ضخمة، آلة دوّارة، بين البوصلة ودولاب الحظ. هذا تمرينٌ ذهنيٌّ أقومُ به عندما أتذبذب. رغم أنني لست واثقةً من أنه يساعدني حقًا. في عَين عقلي، أدرتُ العَجَلة بأقوى ما استطعت، انطلقَت مُسرعةً، ثم انتظرتها تُبطئ وتُبطئ، حتى وقفَ مسمارها مُشيرًا إلى الحرف (غ). قرّرتُ سريعًا أن هذا يعني أن أتجه غَربًا. وبانقيادٍ تام، اتجهتُ إلى ذاك السبيل..

هُناك، في مدينة دقيقة التنظيم مثل بروكسل، في شقة أنيقة وحديثة التصميم، مفروشة باعتدال، تعيشُ الآنسة العمليّة القصيرة. إنها جانبٌ مني، الجانب الذي يتمتّعُ بمنطقٍ سليم وواقعيّة عالية. ضغطتُ على جرس بابها، وبينما كنتُ أنتظرُ أن تتحقّقَ من هوّيتي عبرَ كاميرا المُراقبة على الباب، سمعتُ طنينًا، وانفتح قُفل الباب لأدخل. ها هيَ! تجلسُ إلى طاولتها مُفعمةً بالحيويّة في ملابس

رياضيّة. أمامها على الصّحن شطيرةٌ من جُبنة الماعز وشرائح من الدجاج التركي المدخّن على قطعة من الرغيف الأسمر. والى جانب الصحن مقدارٌ قليلٌ من شراب الكوكا الخاص بالحِمية. إنها تراقبُ وزنها منذُ عرفتها. يكاد طولها لا يتجاوز أحدَ عشر سنتيمترًا ونصفًا، ويكاد وزنها لا يتعدّى نصف كيلوغرام. ترتدي ملابس عاديّة ومُريحة: قميصًا مُنشّمًا لونه بيج، ونظّارةً بإطارٍ كاملٍ أحمر، وبنطالًا بُنيًّا كثير الجيوب لتُبقي أشياءها في متناول يدها. تَدسُّ قدماها في صندلٍ جلديّ. شعرُها الأشقر الداكن قد قُصّ كي يكون قصيرًا ولا يحتاجَ لأيّ تصفيف وجُهد؛ يكفيه أن يُغسَل وحسب (سائل الشامبو وسائل ترطيب الشعر ممزوجان في عُلبة واحدة!). أمّا تجفيف شعرها فهو أمرٌ بعيدٌ تمامًا عن الحدوث.

قالت بمرَح:

- «يا هلا! الكبيرة وصلت..». ما الذي جَرَى لكِ؟ شكلُكِ مُريعٌ للغاية.

أجبتُ مُتذمرةً:

- بلَى، شكرًا.

سَألت:

- «طيّب، وش جديدك؟»

ولسبب ما لا أستوعبه، تُحب هذه الفتاة أن تتحدث بسُرعة، كأنها تُطلقُ كلامَها من مسدس، تحشُرُ فيه أيضًا تعابيرَ عاميّةً وأخرى سوقيّةً أحيانًا.

قلتُ:

- آه، يا آنستي العمليّة الصغيرة، يجبُ أن تُساعديني.

- «نوبروبلم»! النجدة في طريقها إليكِ!

- هل تناهى إلى سمعك السؤال الذي ألقته عليّ السيّدة آؤلو؟ لا أعرف كيف أجيبُ عليه. هل من الممكن أن أكون أمًّا جيّدةً وكاتبةً رائعة في نفس الوقت؟ هل أنا راغبةٌ في الإنجاب؟ إذا كان الجوابُ لا، فَلِمَ لا؟ وإذا كانَ نعم، فمتى ولماذا وكيف؟

قالت وهي تربّتُ بمنديلٍ على فمها لتُجفّفه بعد تناولها الطعام:

- «أووووه، يا بنت! الموضوع سهل! لا تعملي من الحَبّة قُبّة!» تستطيع الفتاة أن تصير كاتبةً و«ماما» أيضًا، لِمَ لا؟ كل ما تحتاجينه هو أن تضمي كامل ثقتك بي.

- حقًّا؟

- نعم. إليكِ ما ستقومين به. ستقسمين وقتكِ إلى شطرين: وقت للكتابة ووقت للحضانة.

ثُمّ توقّفت، وبنظرةٍ شقيّةٍ تقيسُ بها مدى قبولي لِما تقول، وأضافت:

- هذا يعني أن عليكِ البدء بارتداء ساعة اليد!

أجبتُ:

- أنت تعرفين أنني لم أرتد ساعة يد قط؛ الساعات، واللون الأبيض، والفجل، ثلاثة أمورٍ سأبقى هاربةً منها إلى الأبد.

قالت بغموض:

- حسنًا، هناك أمرٌ وفي هذه الحالة قد تُرحّبين به. فربّما يكون في هذا الأمر حَلُّ مُشكلتك.

- ما هو؟

- الانفصام!

وحالما رأتني جافلةً، راحت تضحك:

- فَصلُ حبوب الحنطة عن قشرتها.

ثم أردفَت:

- ذلك بالضبط ما عليكِ القيام به.

مرّةً أخرى يُضحي وجهي بلا تعابير. ومرّة أخرى تبتسمُ هي بثقةٍ كأنها تشعر بنبض العالم كله تحت سبّابتها.

- «يا بنتي شوفي الموضوع كِذَه: العقلُ الإنساني يُشبِه أدراج المطبخ؛ الأواني الفضيّة في درج، والمناديل في آخر، وهكذا. اتبعي نفس التصميم. عندما تدخلين وقت الحضانة، افتحي درجَ الأمومة، وعندما تدخلين وقت الكتابة، افتحي درجَ الرواية. هكذا ببساطة. أغلقي درجًا وافتحي الآخر. بلا اشتباهٍ ولا تناقض. ودون أن يَبْريكِ الهَمّ. كلّ الشكر للانفصام!».

- واو! كان ذلك رائعًا. بيد أنّ هناك تفصيلاً صغيرًا لم تأتِ عليه. أثناء انشغالي بالكتابة، من سيعتني بالأطفال؟

قالت بنخوة في صوتها:

- وكأنّ هذه مُشكلة تُذكَر! مرحبا! هنا عصر العولمة! بحركةٍ صغيرة من إصبعك تستطيعين أن تجدي مُدبِّرة منزل؛ فلبينيةً أو من المالديف، أو حتى بلغارية.. بإمكانك اختيار جنسيتها إن أردت.

حشَرَت الآنسة العمليّة القصيرة كفّها في أحد جيوبها ثُمّ قدّمَت لي ورقة:

- انظري، أعددتُ لكِ قائمةً بكُلّ المعلومات التي تحتاجينها؛ أرقامُ هواتف وكالاتَ تأجير مُدبّرات المنازل وجليسات الأطفال وأيضًا أرقام الحضانات وأطباء الأطفال. عليكِ أيضًا أن تجدي مُساعِدَةً لتُجيب عن رسائلك الإلكترونيّة. ستجعلُ من حياتك جَنّةً. ولو فكّرتي في إيجاد سكرتيرة والحصول على مُسَجِّلة

صوت، فستتوقفين عن الكتابة باليَد مرّةً واحدة! «شُفتي كيف؟».

وبقلبٍ مُثقلٍ سألتها:

- ما الذي تقصدينه؟

- أقصدُ أنّك بدل أن تكتبي رواياتك، احكيها لهم وحسب. المُسجّلة ستُسجّل صوتك. ولاحقًا، ستطبع سكرتيرتك النَصّ كُلّه. أليس هذا عمليًا؟ هكذا تستطيعين أن تُنهي روايةً دون أن تُضطري لمُغادرة أطفالك.

قلتُ لها مُمسكةً أعصابي قدر ما استطعت:

- من باب السؤال فقط، كيف سأتمكّن بالضبط من تحمُّل نفقات مُدبّرة منزل ومساعدة وسكرتيرة؟

قالت:

- أوه، تبدين سلبيّةً جدًا. أنا هُنا أُقدّم حلولًا عمليّة لمشاكل حقيقية وأنتِ لا تنظرين إلّا للأمور التافهة.

فانفجرت مُعترضةً:

- لكن المال مُشكلة حقيقية.

ولوهلة صمتنا، ولم يصدر عن أحدنا أيّ صوت. كُنّا نعبُسُ ونتجهّم. ثم استأنفتُ الحديث:

- وزيادة على ذلك، حتى لو كنتُ أملكُ المال، ما زلتُ لا أستطيعُ القيام بما اقترحته. إنه ضد قيَم العدالة والحرية الّتي أؤمن بهما بشكلٍ مُطلَق. لا أستطيعُ أن أُجيّش كلّ هؤلاء الناس لخدمتي، وكأنني مِهراجا.

قالت الآنسة العمليّة القصيرة بتهكُم:

- الآن تتحدثين بلا منطق. ألا تعرفين أنّ كلّ كاتبة ناجحة، هي

مهراجا؟

- كيف جازَ لك أن تقولي ذلك؟

فردّت عليّ:

- كيف لك أنت أن تُنكري ذلك؟ تذكّري تلك الكاتبة الذّئبة التي تُجلّيتها كثيرًا!

وحالما نويتُ سؤالها عن المرأة التي تتحدّث عنها، خطرَ لي أنها تعني فرجينيا وولف.

- هل تظُنين أن سيّدتك تلك لديها «غُرفَةً تخصّها» فحسب؟ بالطبع لا. كان لديها طبّاخةً تخصّها، وخادمةً تخُصّها، ومُزارعً يخُصّها، دون ذكر مُدبّرة شؤونها الخاصة! إنّ مُذكّراتها مليئة بالاعتراضات على خَدَمِها الكُثر.

مُثقلةً بالفضول، سألتها:

- منذ متى تقرأين عن حياة الكاتبات؟

اطّلاعُ الآنسة العمليّة القصيرة يقتصر على نوعين من المواضيع فحسب: الكفاءة والعمليّة! عناوين مثل: كيف تكسَبُ أصدقاءً وقلوبًا، ومفتاحُ النجاح الساحق، وعشر خطوات للوصول إلى القوّة، وفَنُّ معرفة الناس، وأيقظ المليارديرِ بداخلك، وسرُّ الحياة الهانئة. إنها تلتهم كتب تطويرِ الذات كَحَبّات الفُشار. لكنها لا تقرأ الروايات إطلاقًا. الخيالُ، في عينيها، ليسَ عمليًّا.

قالت تدافع عن نفسها:

- إذا كان من فائدة فيها، فأنا أقرؤها.

- وما هي فائدة المرأة الذئبة تلك؟

حدجتني بنظرة استصغارٍ قاتمة:

- اعتادت سيّدتك على كتابة أوامرها لخَدَمها على قُصاصات من ورق الخُردة؛ المهام التي تريدهم إنجازها، والأطباق التي تريدهم أن يُعدّوها، والثيابُ التي تريدها أن تُغسَل. كل ذلك تكتبه لهم. هل تتخيّلين؟ لقد عاشوا معها تحت سقف واحد، وبدل أن تتحدث إليهم، قامت بالكتابة لهم.

قلتُ خانعةً:

– حسنًا، لكننا لا نعرفُ الحكاية كما تراها هي.

– كُلّ شيءٍ كان دومًا ما تراهُ هي من الحكاية. هي وحسب. «لأنها الكاتبة يا حبيبتي».

لا أشعُرُ بأنني أريد الشجار معها. في يدها مسطرة، وفي جيبها آلة حاسبة، وفي رأسها حشد من الخطط. هذه هي الآنسة العمليّة القصيرة، لقد اعتادت على القياس والحساب والتخطيط لكل شيء. أخذتُ القائمة التي أعدّتها لي وغادرتها مُسرعةً، وأنا أشعرُ بالضيق.

أدرتُ العجلة مرّةً أخرى، فتوقّفَت على حرف الـ(ش). وهذه المرّة، اتجهتُ شرقًا.

هناك، في مدينة تشبه في روحانيتها جبلَ آثوس المقدّس في اليونان، تجلسُ السيّدةُ الدرويشة خلفَ باب خشبي- رأسها محنيٌّ بخشوعٍ، وأناملها تُقَلّب خرزَ سبحةٍ للصلاةْ. أمامَها على الصينية طاسَةٌ من حساء العدس وقطعة رغيف، وكأس معدنيٌّ ممتلئٌ ماءً. فهي تقنَعُ بالقليل فحسب. وعلى رأسها عمامةٌ مرتخية بعض الشيء، إلا أنها تشدُّ إلى جبهتها حصاةً كبيرة. يمكنُ رؤية بعض ما تغطيه من شعرها من خَلَل العمامة. ترتدي رداءً بلون الجادِ الأخضر يخُطُّ على الأرض، وسُترة داكنة الخُضرة، وتنتعلُ شباشبَ من قماش الكاكي.

عندَ دخولي عليها، لاحظتُ أنّها كانت تُصلّي، فتسلّلتُ بخفّة وأنصتُّ لدعواتها: «إلهي، أيها الجمال والحب النقي، اجعلنا منَ الّذين يُسبّحون باسمك، الواجدين الخلاص فيك. لا تجعلنا نقضي حياتنا في الأرض بأعيُن معصوبة، وآذانٍ مسدودة، وقلوبٍ خُتمَت عن الحب».

تبسّمتُ لسماع كلماتها، وأكملتُ تبسُّمي لِمَا قالته بعد ذلك:

«رجوتُكَ إلهي أن تفتحَ عينَ ألف الثالثة على الحُب، وزِدْ سعتها لاحتضان الحَقّ. جَوهَرُ كَونك هو الاقتران، رجوتُكَ ألّا تحرمها من الاقتران بحُبك».

قلتُ: «آمين».

جفلَت، وانقشعَت عن أفكارها كالستائر. لكنها عندما رأتني أقفُ هناك، كشفَت عن ابتسامةٍ، ووضعَت كفّها على صدرها في امتنان. قلتُ:

- أحتاجُ إلى مُساعدتك. هل تناهى إلى سمعك السؤال الذي طرحته عليّ السيّدة آولو؟ لا أعرفُ كيف أجيبها.
- سمعته بالطبع، ولا أعرفُ لماذا أنتِ مذعورة هكذا. يقول الله إنّه يضعنا في امتحانات جميلة. هذا ما يطلقه على الصعوبات التي نواجهها في الحياة. امتحان جميل. لا داعي لأن تُسرعي نحو الإجابة لأن الإجابات كلّها نسبيّة. فما يُناسبُ شخصًا ما قد لا يُناسب الآخر. وبدل هذه الأسئلة المفضفاضة عن الأمومة والكتابة، اسألي الله أن يُجري عليك ما هو في صالحك.
- ولكن كيف لي أن أعرف ما هو صالح لي؟

تجاهلَت سؤالي وأكملَت:

- لا يهمّ ما إذا كنتِ قد أنجبتِ أطفالًا أم كتبتِ كتبًا، أو بعتِ

الفطائر في الشارع، أو وقعت عقدَ عمل بمليون دولار، ما يهمّ هو أن تكوني سعيدةً ومُكتفيةً من الداخل. هل أنتِ كذلك؟

قلتُ: «لستُ أدري».

أخذَت السيّدة الدرويشة نفَسًا عميقًا ثم قالت:

- إذن، دعيني أسألك سؤالًا آخَر: هل تلك الروايات التي كتبتها هي حقًا رواياتك؟ هل أنتِ مَن أوجدها؟

- بالطبع إنها رواياتي. كتبتها صفحةً صفحة.

- كتبَ جلال الدين الرومي أكثر من ثمانين ألف قصيدة رائعة، ولم يقُل عن نفسه أبدًا إنّه مَن خلقها، ولم يرَ نفسه قط شاعرًا. بل قال إنه مُجرّد آلة، مَعبَر لإبداع الخالق، اللّه.

قلتُ بعُنف أشدّ ممّا أردت: «أنا لستُ الرومي».

التقَت أعيُننا للحظة ثُمّ أشحتُ عنها بعيدًا في توتّر. لا أُريدُ أن أمنح أحدًا صفة المؤلّف لرواياتي، حتى ولو كان اللّه نفسه.

قالت السيّدة الدرويشة:

- دعيني أخبرك بهذه القصّة: في ليلة مّا، اجتمعَت فراشاتٌ على إحدى الرفوف، يُشاهدنَ شمعةً مُضاءة. احترنَ في سرّ طبيعة الضوء، فأرسلنَ واحدةً منهنّ لتفحّصه. حامَت الفراشة الكشّافة حول الشمعة أكثر من مرّة ثم عادَت بهذا الوصف: «كان الضوء مُشعًّا». بعدها، ذهبَت فراشةٌ أخرى لتتفحّص الضوء أيضًا، وقد عادَت بوصف آخَر: «كان الضوء دافئًا». وأخيرًا، تطوّعت فراشةٌ ثالثة للذهاب، لكنها عندما وصلَت إلى الشمعة لم تتوقف كرفيقاتها، بل حلّقَت مُندفعةً نحو لهب الشمعة تمامًا. لقد تلاشت هناك. وحينها فحسب، عرفَت طبيعة الضوء.

قلتُ مُنذرةً السيّدة الدرويشة:

- تُريدينني أن أقتل نفسي؟

- لا يا عزيزتي. أريدك أن تقتلي غرورك.

- إنّه الأمر نفسه، أليس كذلك؟

تنهّدت السيّدة الدرويشة، ثُمّ حاولَت معي مرة أخرى:

- أريدك أن تتوقّفي عن التفكير، توقّفي عن التجريب، توقفي عن التحليل، وابدئي بعيش التجربة. حينها فحسب ستعرفين كيف توازنين بين أن تكوني أمًّا، وأن تكوني كاتبة.

- حسنًا، ولكن ماذا لو...

- لا مَزيدَ من «لو» بعد الآن. هل قالت الفراشة «لو»؟

- حسنًا. أنا لستُ الرومي ولست فراشة. أنا إنسان ذو عقل وأربع نسوة قِصار يَعِشْنَ بداخلي. لذا، من المؤكّد أنّ طريقتي في التعامل مع مثل هذه الأمور ستكون أكثر تعقيدًا.

فقالت السيّدة الدرويشة وهي تمضَغُ بعضَ الرّغيف:

- أوه، آها..

إنّها الـ «أوه، آها..» التي تعني أمرًا واحدًا: «أنتِ لستِ مستعدة بعد. كفاكهةٍ تحتاج المزيد من الوقت كي تنضج، مازلت صلبة من الداخل. اذهبي، ولتنطهي قليلًا بعدُ، ثم سنعاود الحديث مجددًا..».

نهضتُ مُتثاقلةً، استأذنتُ للانصراف. وسِرتُ، هذه المرّة، إلى الجنوب.

هُناك، في مدينة تُشبه في اكتظاظها طوكيو، وخلفَ بابٍ مُحكَم الإغلاق بثلاثة أقفال، تقبَعُ الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوح، الآنسة العنيدة والمُدمنة على العمل. طولها أحد عشر سنتيمترًا، ووزنها ثلاثمئة غرام

فحسب. إنها الأكثر نحولًا من بين النسوة الأربع القصيرات بداخلي، على الرغم من أنّها تأكُل دائمًا، تأكُلُ أكثر ممّا يبدو عليها أنها تأكله، لكنها بطبيعتها ذات وزنٍ لا يزدادُ أبدًا. إنها مهووسةٌ بالقول: «الوقتُ ليس مالًا، الوقتُ هو كل شيء».

ولكي لا تُضيعَ وقتًا، تتناولُ المُكسّرات والرّقائق والكثير من الفيتامينات كمُكمّلات غذائيّة بدلًا من طَبخِ عشاءٍ وإعداد مائدة، لذلك لم أرَ أمامَها مُذ دخلت عليها غيرَ علبة بسكويت وصحن من مُكعّبات صغيرة من الجُبن والقليل من عصير البرتقال بالجَزَر. وكانت إلى جانب صحنها رُقاقةٌ من أقراص فيتامين ج وأخرى من حبوب شجرة الجنكو. وذلك هو كلّ عشائها.

من بين كل ما قاله الرجال والنساء منذ بدء الخليقة، هناك جملةٌ واحدة قالها تشيخوف اتخذتها شعارَ حياتها: «ذلك الّذي لا يرغبُ في شيء، ولا يأمَلُ في شيء، ولا يخافُ من أي شيء، لا يستطيعُ أن يصيرَ فنّانًا». لهذا هي تشيخوفيّة مُخلصة. إنها ترغَبُ وتأمَلُ وتخاف؛ ينتابها كلّ ذلك، بوفرة، وفي الوقت نفسه أيضًا.

ترتدي الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوحُ تنّورةً نيليّة تكاد لا تُجاوزُ رُكبتها، وتحتها سُترة تُناسبُ بلوزةً حريريّةً عاجيّة اللون، وحولَ عُنقها عقدان من اللؤلؤ. تضعُ على وجهها الأبيض كالثلج كريمَ أساس، وأحمَرَ شفاه داكن. شعرها الكستنائي مشدودٌ إلى الخلف وملفوفٌ على شكل كعكة مُحكمة الوثاق، إلى درجة لا تستطع معها أيُّ شعرة أن تطفُرَ أو تتهدّل منها. اعتنَت بكل جديلة من شعرها، ثبّتتها وملّستها كالعادة. أمّا أسنانها فهي تلمعُ كالبرسلان، مصطفّةٌ باستقامة كاللآلئ الثمينة. ولها شخصيّة مُصمّمة، شخصيّة حازمة وساعية إلى ما تُريد.

قلت لها:

- أيتها الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوحُ، هلّا ساعدتِني من فضلك؟ لقد سمعتِ ما قالَته السيّدة آؤلو، فما هو جوابك؟

تجهّمَت في وجهي، وعقدَت حاجبيها النحيفين:

- كيف لكِ أن تسأليني هذا السؤال؟ الأمرُ واضح، أنا ضد قرار الإنجابِ جُملةً وتفصيلًا. فمع كُلّ ما نُريدُ القيام به وتحقيقه، لا نملكُ وقتًا على الإطلاق للأطفال.

نظرتُ إليها بعينين مُتّسعتين وبريئتين وتستدرّان العطف، ثُمّ قلت:

- لكنني زُرتُ السيّدة الدرويشة قبلَ دقائق وقالت إنه لا معنى للركض المسعور خلف الحياة وأشيائها.

قالت بتهكّم:

- انسي أمرَ هذه الضئيلة الخَرِفَة. ما الذي تعرفه حقًّا؟ ما الذي تُدركه من رغبات الدنيا؟ لقد فقدت عقلها في مكانٍ ما داخل مُسَبَح الصلاة التي تُقلّبها طوال اليوم.

ألقمَت نفسها قطعة بسكويت وحبّةَ فيتامين، وأخذت رشفةً من العصير لينساب ذاك كله إلى جَوفها.

- اسمعي يا حبيبتي، دعيني أوجزُ لكِ فلسفتي في الحياة: هل سُئلنا ما إذا أردنا المجيء إلى هذا العالم؟ لا. لم يهتم أحدٌ برأينا في هذا الموضوع. لقد سقطنا في أرحام أمهاتنا وخُضنا مشاقّ الولادة، وها نحنُ ذا، هُنا، وبما أننا جئنا بهذه الطريقة المَرَضيّة، هل هناك من أمرٍ أكثر سموًّا من رغبتنا في أن نترُكَ خلفنا ما هو قَيّمٌ ويستحقُّ الخُلود بعدَ رحيلنا عن هذا العالم؟.

أجدُ نفسي أومئُ إليها من صميم قلبي. بيد أنه كُلّما استمرّت في

الحديث ازداد التيه الذي أخوّضُ فيه.

- للأسف، هناك الكثير من الحيوات المسحوقة في رتابة الملل. يا للتعاسة! على المرء في الحقيقة أن يسعى ليصير مميّزًا. علينا أن نُصبح خالدين ونحن على قيد الحياة. عليك أن تكتبي روايات أحسن وأن تُطوّري موهبتك أكثر. «تحتاجين إلى العمل بلا توقّف ليلًا ونهارًا، أن تقرئي بشكل متواصل وأن تدرُسي وأن تمتحني قُدرتك... فالسّاعات ثمينةٌ، ساعةً ساعةً...».

سألتُ والشكّ يملؤني:

- أهو تشيخوف مرّة أخرى؟

قالت بنبرة صارمة:

- أنطوان بافلوفيتش تشيخوف.

و لكي تواصل نُقطتها جيّدًا، أعادَت اسمه، ولكن بالرّوسية هذه المرة.

تنهّدتُ: «بلى».

- أُنظُري، لقد أجريتُ حساباتي: لو كتبتِ روايةً جديدةً كُلّ عام خلال السنوات العشر القادمة، وألقيتِ مُحاضرةً كُلّ شهر، وحضرتِ كلّ الفعاليات الأدبيّة المُهمّة في أوروبا وجُبتِ العالم، حينها، وخلال ثمانية أعوام وشهرين، ستكونين قد بلغتِ الأعالي في حياتك المهنيّة.

قلتُ مُستاءةً:

- أوه، أعطني مُهلةً هنا من فضلك. هل تظنّين الأدبَ حصان عَدو؟ هل تظنّينني آلة؟

قالت دون مبالاة:

- وما الضير في ذلك؟ أن تكوني آلةً خيرٌ من أن تُصبحي إحدى الخضروات! بدل أن تعيشي مثل صُرّة بقدونس، بلا طموحٍ ولا حياة، عيشي باندفاعِ الآلةِ في العمل، ولكن بلذّة.

- وماذا عن الأمومة؟.

قالت مشدوهةً وكأن كلمة «الأمومة» قد تركت طعمًا سيئًا في فمها:

- الأمومة.. الأمومة.. من الأفضل أن تتركي الأمومة للنساء اللائي ولدنَ ليُصبحنَ أمّهات. كلانا يعلم أنك لست كذلك. الأمومة ستخرّب كلّ خططي المستقبلية. عِديني الآن، قولي إنّك لن تصبحي أمًّا، هيّا!.

نظرتُ إلى الأفق، تمنّيتُ لو أنني في مكانٍ آخر. وأثناء الصّمت الذي تلا كلامها، نهضَت الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوحُ ببطء، تمشّت نحو حقيبة يدها وأخرجت منها ورقةً صغيرة.

قلتُ عندما مدّتها نحوي:

- ما هذه؟

- هذا عنوان، عنوان طبيبٍ نسائي ممتاز. خمّني ما الذي حدث! لقد حجزتُ لكِ موعدًا معه سلفًا. إن الطبيب يتوقع وصولك يوم الثلاثاء في تمام الساعة السادسة والنصف.

- ولكن لماذا؟

لمَت عينا الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوحُ، وصارَ صوتها حنونًا بشكلٍ غريب:

- لأننا نُريدُ أن نتخلّص من هذه المشكلة مرّةً واحدةً وإلى الأبد. هذه العمليّة التي ستجرينها ستُبعدُ كُلّ تلك الأسئلة الوجوديّة التي ما تزال تُفسدُ عقلك. لقد قرّرت أن أجعلك عقيمة.

صرختُ والحُمرة تجتاحُ وجهي غَيظًا:

- هل أنا قِطّة شوارع أمامكِ أم ماذا؟!

تجاهَلتني غير راضيةٍ واستدارَت عني:

- الأمرُ عائدٌ إليكِ.

أعرفُ أن عليّ السيطرة أكثر على غضبي، لكنّني لم أتحمّل. وما زلتُ مُتبرّمة. غادرتُ مُخيّم حملتها البيطريّة هذه، واتجهتُ شمالًا.

هُناك، خلف باب معدنيٍّ مُنمّق، في مدينة تُشبه نيويورك في صخبها، تعيشُ الآنسة المثقّفة الساخرة. تُغطّي ستائرُ رهيفةً بلون العنب نوافذَها التي تتشابك عليها خيوط ناعمة من شِباك العناكب. أمّا الجدران فمكسوّةٌ بملصقات تشي غيفارا ومارلون براندو.

دائمًا ما ترتدي أزياء «الهيبيز»؛ ملابسَ رثّة تخُطُّ على الأرض، فوق سترات الهنود الحُمر التي تتناظرُ النقوش على جانبيها وتتطابق. تلُفُّ أوشحةً حريريةً حول عنقها وتُزيّنُ يدها بأساورَ من كُلّ لونٍ تصطفُّ حتى كوعها. تخرُجُ من مسكنها ذاك، من وقتٍ إلى آخر، كي تحصُلَ على وشمٍ جديدٍ أو ثقبٍ آخر في جسدها. وبالنسبة إلى شعرها القصير حتى آخر رقبتها، فهو رهنٌ مزاج اليوم؛ قد تتركه محلولًا على كتفها، أو تلمّه وترفعه إلى أعلى كيفما اتفق. تمارسُ رياضتَي اليوغا والريكي، وقد وصلت فيهما لإلى مراحل متقدمة. وتحاولُ، عن طريق علاج الوخز بالإبر، أن تكفّ عن التدخين. فإذا لم تكن تُدخّنُ سيجارةً أو سيجارًا، فإنها تمضغ علكة تبغ.

حقائب يدها أكياسٌ مبعثرة، تحشُرُ فيها العديد من الكتب والدفاتر وكل أنواع المكسّرات. وهي لا تضعُ مكياجًا في العادة، ليس لأنها ضدّه، ولكن لأنها حين تضعُ قلم الكحل أو أحمرَ الشفاه في حقيبة

يدها، لا تستطيع أبدًا أن تجده ثانية.

تتبع الآنسة المثقفة الساخرة هذه الأيام حِمية مُختلفة. أمامها صحنٌ من السبانخ العضويّة، والكوسة العضوية، وخضروات منوّعة ممزوجة بالزعفران. إنها تُحبُّ النباتات وعلى شَفَا أن تصير نباتيّةً خالصة. لقد مَضَت سنواتٌ منذ تناولَت لحمًا آخرَ مرّة، أكان أحمرَ أم أبيضَ. إنها تدّعي أننا حين نأكل حيوانًا إنّما نمتصّ خوفه من الموت. وظاهريًا هذا هو السبب الذي يجعلنا نصاب بالأمراض كلها. وقد خُلقنا، على العكس، كي نأكل بسلامٍ الخضروات الورقية، كالسبانخ والملفوف والجرجير والكرنب.

قلتُ:

- مرحبًا أيتها المثقفة الساخرة.

ردّت ملوّحةً لي بيدها دون مبالاةٍ:

- السّلام يا أختي.

- أحتاجُ أن أستشير عقلك في أمرٍ مهم.

- حسنًا، جئتِ إلى المكان الصحيح. فأنا عقلٌ خالصٌ!

- جيّد. ما هو رأيك في الأمومة.

قالت:

- «وما الفائدة من طرح أسئلة مُنمّقة كهذه، عندما يكون معلومًا أن الجميع يستمعون لما يريدون سماعه فحسب». لقد كتب فيتجنشتاين عن حدود اللغة لسبب وجيه. عليك أن تقرئي كتابه (تراكتاتوس).

قلت:

- لا أملك وقتًا الآن لأقرأ (تراكتاتوس). إن السيّدة آؤلو في

مجلسها تنتظر مني إجابةً ما. يجبُ أن تُنجديني الآن.

- حسنًا إذن. أنا أشجّعك على التفكير في أمر الحَسَد!.

- بالله عليك! قولي شيئًا آخر.

- ليسَ الحسَدُ إحساسًا بسيطًا. عُذرًا. الحسد معضلةٌ فلسفيّةٌ عميقة. في الحقيقة، إنه مهمٌّ إلى درجة التأثير في مجرى تاريخ العالم. لقد أعادَ جان بول سارتر جذرَ العنصريّة والخوف من الغرباء إلى الحسد.

- خَوفي أنني لا أفهمُ كلمةً واحدةً ممّا تقولين. هل بمقدورك أن تتحدثي إليّ بشكلٍ أوضح؟

- حسنًا، سأصوغ الأمرَ بشكلٍ أبسط: العُشبُ أكثر اخضرارًا دومًا في الضفة الأخرى.

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني أنك لو أنجبت طفلًا، ستظلّين في حَسَد دائم من النساء اللائي لم يُنجبن ووضعن كامل تركيزهن في أعمالهن الإبداعية. وفي المقابل، لو اخترتِ أن تصُبي كاملَ حياتك في مهنتك، فستحسدين النساء اللائي أنجبن. لا يهم أيّ دربٍ تسلكين. ستجدين عقلك في هوسٍ دائم بشأن الدرب الذي أهملتِ اختياره.

سألتها:

- وهل هناك من طريقٍ للخروج من هذه الورطة؟

حرّكت رأسها بيأس:

- يكمُنُ الحَسَد في جذر خوفنا الوجودي. أُنظري إلى تاريخ بني آدم، كل تلك الحروب وذاك الخراب. هل تعرفين ما الذي قالوه عندما توقّفت الحرب العالمية الأولى؟ قالوا إنّها الحربُ التي

ستُنهي كل الحروب! وبالطبع لم يحدث ذلك. لم تنته الحروب لأنّ هناك ظلمًا وتفرقة، وبدلًا من الاشتغال بحَلّ لذلك، أنتجنا سُلطةً ذات عوائد اقتصادية غير متساوية، تسبّبت في اشتباكاتٍ عرقيّة ودينية. ونحنُ إلى الآن موعودون بمزيدٍ من التعارضات التي لم نعرف لها مثيلًا في التاريخ.

أخذتُ نفسًا عميقًا:

- أنتِ تُصيبينني بالاكتئاب.

قالت مُشيرةً بسبّابتها إلى وجهي:

- عليكِ أن تكتئبي. فأن تعيشي يعني أن تتورّطي في الوحشة. ليس من قبيل الصدفة أن بول كلي رسم لوحة (ملاك التاريخ) كما هي! ملاكٌ وحيدٌ جدًا دون ذرّة أملٍ ممكنة. تَذَكّري النظرة في عيني ذاك الملاك. أنصحك بشدة أن تقرئي كتابات والتر بينجامين عن...

اعترضتُ:

- أنتِ تجعلينني أكتئبُ أكثر.

حَدّقَت فيّ كأنها تراني للمرة الأولى:

- أوه، فهمتُ الآن. في عصر الإنترنت والوسائط المتعددة، لم يعد أحدٌ يملك الصبر والوقت للمعرفة العميقة. حسنًا، سأعطيك الزبدة.

- أرجوك!

- ما أقصده هو: لا يهُم أيّةَ امرأة ستصيرين، لأنّك ستتمنّينَ دومًا لو أنّك الأخرى. ووفقًا للفيلسوف الفرنسي العظيم إيمانويل ليفيناس، فإن جوهر الأخلاق هو النقطة التي نلتقي عندها

بالآخر وجهًا لوجه. طبعًا، من موقفٍ ظاهري، نستطيع أن نتحدث عن الـ«آخر» الذي في الـ«أنا».

همهمتُ:

- آه، أوهوه..

- اقرئي هايدغر لتعرفي أنّ الإنسان، أيّ إنسان، لا يمكن أن يؤخذَ بالاعتبار إلاّ في علاقته بالأشياء والظروف المحيطة به. مفتاحُ الوجود كله هو أن تكون حاضرًا، أي أن تكون في العالم.

ثم اتّسعت عيناها الخضراوتان الداكنتان:

- لذا، جوابي عن سؤالك التافه، هو التالي: لا يهمّ ما ستكونين عليه حقًّا.

قلت لها محاولةً إخفاء الخيبة من صوتي:

- ما الذي تمنينه؟

قالت بثقةٍ مألوفة:

- أعني أنّه لا يهمّ ما إذا كنتِ ستنجبين دزّينةً من الأطفال، أم أنك لن تنجبي أبدًا. الأمرانِ متطابقان. سينتهي بك الأمر إلى حَسَد الآخر على اختياره المخالف، وستشعرين بعدم الرضا الوجودي. لا يعرف البشر كيف يرضون. كما قال سيوران، نحن محكومون جميعًا بالسقوط داخل ذواتنا والبقاء يائسين.

نسمة باردة انسلّت من النافذة المفتوحة. الشمعة في يدي ترتجف بحُزنٍ وأنا أقشعرّ. كان صوت الآنسة المثقّفة الساخرة مشدودًا بمُتعةٍ وثقةٍ خدشت أذني. فبدأت أبتعد عنها.

- هيييه، أنتِ، إلى أين تذهبين؟ عودي إلى هنا، لم أنتهِ منك بعد..

قلتُ:

- ولن تنتهي أبدًا. وداعًا الآن.

صار الوقت متأخرًا، والآنسة المثقفة الساخرة قامت باستنزافي بعمق حتى أنني لم أعد أقوى على الوقوف وسماع كلمة واحدة أخرى في هذا الشأن. أصعدُ الدرج نحوَ الواقع، درجتين درجتين، ألهثُ وتتدافعُ أنفاسي. رميتُ نفسي في دورة مياه السيّدة أوْلو من جديد. تحرّكتُ بسرعة لأغسل وجهي، إلّا أن الماء الجاري من الصنبور كان دافئًا جدًا، وإعادة وزن حرارته تتطلّب طاقةً لم أعُد واثقةً من امتلاكها الآن. لذا أغلقتُ الصنبور، وقمتُ بما في وسعي عائدةً إلى المجلس لأبدو هادئةً ومتماسكة.

لا يزال السؤال الذي طرحته عليّ السيّدة أوْلو قبل قليلٍ عالقًا في الهواء بيننا. بيد أنني لا أحيرُ له جوابًا. ليس الآن.

قلتُ:

- إممم.. شكرًا جزيلًا لكرم ضيافتك، ولكن عليّ المغادرة الآن.

- حسنًا، سُعدتُ بلقياك؛ امرأةٌ لامرأة، وكاتبة لكاتبة.

وحالما خطوتُ خارجةً إلى الشارع، لمحتُ الفتاتين الفجريتين تجلسان في مكانهما نفسه. عرفتُ، من خلال النّشوة الطافحة من وجوههنّ، إنهنّ يتحدثن في شأنٍ ما يُثيرُ حماستهنّ. لكنهنّ سكتن عندما رأينني.

صاحَت نحوي إحداهنّ:

- هيييه، أنتِ.. لماذا تبدين مُحطَمةً هكذا وفي أسفل سافلين؟

أجبتها:

- رُبما لأنني هناك بالفعل!.

ضحكت المرأة:

- تعالي، أعطني كفّكِ، وسأدلّك على سبيل الخروج..

قلتُ:

- انسي أمرَ قراءة حظّي. لا أحتاج سوى سيجارة، لنُدخّن معًا.

وكأنني اقترحتُ أن نسرق بنكًا!. صِرنَ بغتةً صارمات الوجه ومشتبهاتٍ بي، وينظرن إليّ بأعيُنِ الشك. تجاهلتُ نظراتهنّ وجلستُ إلى جانبِ الرّصيف وأخرجت علبة سجائري من الحقيبة. حينها، ارتسمت ابتسامة على شفتَي الفجريّة التي عَرَضَت عليّ قراءة كفّي، ثم انزلقت إلى جواري، وبعد ثوانٍ فقط، انضمّت إلينا الفجريّة الأخرى.

كان الظلام يهبط، مبتعدًا عن نافذة غرفة معيشة السيّدة آوْلو، وكنت رفقة الفجريات بائعات الورد جالسات على حافّة الرصيف بأرجُلٍ مُتقاطعة، نُدخّن السجائر، فيما كانت تعلونا سحابة ناعمة من الدّخان، ماكثة فوقنا ومتراخية. شعرتُ، للحظة، أن العالم مُسالمٌ وجميل، كأن لا وجود لأمرٍ يستدعي القلق، ولا أسئلة تنخُرُ الرأس.

امرأة القمر

تزوّج تولستوي عام 1862م امرأةً تصغره بستة عشر عامًا: صوفيا أندريفنا بيرس. وعلى الرغم من أنّ هذا الزواج قد عُرِفَ لاحقًا بأنه أحد أتعس الزيجات في تاريخ الأدب، فقد يكون ما جمعهما، في السنيّ الأولى من علاقتهما على الأقل، هو الحُب والشغف. جَرَى وقتٌ قد ضَحِكا فيه معًا؛ هو يُشبه في ضحكه حصانًا يعدو بسُرعة فائقة، وتشبه هي خيلةً تخُبُّ في اصطبلها، مسكونة بالخجل والإثارةْ. أنجَبا، جرّاءَ هذا الاقتران، ثلاثة عشر طفلًا (تسعة عشر في بعض الدراسات). مات خمسة منهم وهم بعدُ أطفال، وحَمَلَت صوفيا مَهمّة تربية الأطفال الثمانية الباقين (أو الأربعة عشر). قضت جزءًا هائلًا من شبابها إمّا حاملًا أو مُرضعة.

كانت شبيهةً بالقمر في تحوّلاته، وهو يشعّ بوجه السماوات المكتظة بالنجوم. كان جسدها يتغيّر كلّ دقيقة خلال اليوم، كلّ أسبوع، كلّ شهر؛ تنتفخ، تتكوّر حتى الامتلاء، ثم تنخرط تمامًا لتمتلئ من جديد. كانت صوفيا امرأة القمر.

وحين كان تولستوي في غرفته يكتب على ضوء قنديل الزيت، كانت صوفيا تُلهي الأطفال لئلّا يُقاطعوا والدهم. إن ما كتَبَتهُ من يوميّات تحملُ شهادةً على إخلاصها. استغربَت صوفيا كثيرًا عندما طلب منها تولستوي ألّا تتذمّر منه إذا وجدت أنه يقضي بعض الوقت دونَ

مزاولة الكتابة، حتى أنها كتبَت في دفتر يومياتها: «ولكن كيف يمكنني أن أتذمَّر؟ ما الحقّ الذي أملكه أصلاً؟». ليلةً بعد ليلة، عامًا بعد آخر، عَمِلَت جاهدةً لتجعل مَهمّة الكتابة أسهل على زوجها. ففي الساعات التي لا يستهلكها الأطفال، كانت سكرتيرةً له؛ لم تقم فقط بجمع أوراق رواية (الحرب والسلام) وحفظها، بل أعادت كتابة المسوّدة كاملةً سبعَ مرّات. وقد قلقت مرّةً، بعد حادثة إجهاضٍ تركَتها عليلةً وطريحةَ الفِراش لأيّام، من أن زوجها، بسبب مرضها، لن يستطيع الكتابة. لقد ألهمَته ودلّلته وأعانته. هذه حقيقةٌ يصعُبُ ذكرها عندما نرى عُمقَ الضغينة التي انزرعت بينهما لاحقًا في الحياة.

ثم كتبَ رائعته (آنا كارنينا)- الرواية التي تبدأ بالسّطر الأكثر اقتباسًا في عالم الأدب: «تتشابه العائلات السعيدة. أما التعيسة، فلكلٍ منها تعاسةٌ على طريقتها». سؤالٌ واحدٌ يطرحه مؤرّخو الأدب وأدباء السِّيَر بهَوَس، وهو إلى أيّ حدٍّ تداخلت حياة تولستوي الخاصة بأحداث الرواية. أيّ مخاوف لتولستوي، فيما يخص زوجته وزواجه، وجدت طريقها إلى (آنا كارنينا)؟. رُبما كان الكاتب المغمور وقتها في الرابعة والأربعين، وقد ساق حكايته إلى مياه الفجور والغواية العاصفة ليُنذر صوفيا التي كانت وقتها في الثامنة والعشرين فحسب. ربما، عبرَ الكتابة عن النتائج الكارثية التي قد تعانيها سيّدة من الطبقة الراقية جرّاء خياناتها، أرادَ ببساطة أن يُحذّر زوجته.

وكأنّ فجورَ امرأةٍ متزوجةٍ ليس شيطانيًا بما يكفي، فعندما لا يعيش العاشقان فوقَ هضبةٍ معزولة، بل وسط العالم المتمدّن، تصبح الخيانة ذنبًا أبعد لا يُغتفر. في المرة الأولى التي صارح فيها أليكسي أليكساندروفتش زوجته، قام بذلك بشكل واضح: «أريد أن أخبرك بأن نتيجةَ لا مبالاتك وقِلّة حذرك هي أن سيرتك ستغدو على كل لسان».

تخرج الأمور عن السيطرة لا لأنّ امرأةً تُكِنُّ مشاعرَ لرجُلٍ غير زوجها، ولكن عندما يصبح ذلك معروفًا بين الناس.

يجوزُ أيضًا أن يكون تولستوي، خلال روايته، لا يبعث الرسائل إلى زوجته فحسب، بل كان يُعلّم بناته ذوات الأعمار المختلفة درسًا في الأخلاق. وبشكلٍ مستغرب كان للرواية تأثيرٌ فيه أكثر ممّا كان في زوجته وبناته؛ فقد دخلَ في نوبة عذابٍ معنوي، كانت الأولى من سلسلة نوبات انتهت إلى تمهيد طريقه نحو عذاباتٍ وجوديّة من نوعٍ آخر، عذاباتٍ قصفَت أساس زواجه نفسه.

لا أهميّة لنتائج تحليلنا لما حدث بعد ذلك، فهذا القَدَرُ الحقيقي منها يكفينا: لم تنظر صوفيا أبدًا إلى آنّا كارنينا بوصفها صورة لها، إيجابيةً كانت أم سلبية. فالشخصية الخيالية التي ترتدي الأرجواني الداكن، والتي تمنّت أن تعيش سعيدةً كالهيروين في رواية إنجليزية، والتي تعمل على كتب الأطفال وتُدخّن الأفيون، حتّى لو كانت شبيهةً بصوفيا بعض الشيء، لم تكن على كلّ حال شبيهة بها بشكلٍ واضح. وعلى الرغم من الظنون التي كتمها زوجها، فإنّها لم تهجره إطلاقًا ولم تُحبّ رجُلًا آخر غيره. بل على العكس، لقد ظلّت مُرتبطةً أشد ما يكون الارتباط به وبأسرتها. إلى أن دفعها ذلك عن الحافّة. تُنجبُ طفلًا كُلّ عام، ومع كل طفلٍ تصيرُ صوفيا نَزِقَةً بعض الشيء ويتعرّضُ زواجُها لمصيبة أخرى.

لا يمُرُّ يومٌ دون جدالٍ يغمر بإزعاجه أرجاء البيت، تجفُّ طاقات الزوجة والزوج جَرّاء مُشاحنات بائسة على أمورٍ ليست أكبر من ذرّة غبار. هكذا، خاضَ تولستوي ضَبابًا كثيفًا في زواجه لعدة أعوام. وقد كان الجنسُ طريقةً لإعادة اللحمة، ولكن عندما اضمحلّ هذا العُنصر هو أيضا –بنفس القدر لكليهما– وبدأ الضباب بالانقشاع، لم يستطع

تولستوي أن يتحمّل ما كان يُخفيه بعد ذلك.

عندما أطلّ تولستوي على روح زوجته، رأى الشباب والرّغبة والطموح، ولم يُرضِه ما وجده. وعندما أطلّت صوفيا على روح تولستوي، رأت التمركُز على الذات ممزوجًا ببذار الإيثار، ولم تستشعر كيف يمكن أن يؤثر عالمه على حياتهما المشتركة مستقبلًا. حَدّقَ فيها وتساءلَ، كيف لها وهي التي كبُرَت في نِعمَةٍ وترعرعت في بيئةٍ حَسَنَة أن تكون لها مثل تلك الرّغبات؟. وحدّقت فيه وتساءلت كيف يستطيعُ وهو المُدلّل والمحترم أن يُحبّ أيّ شيءٍ فوقَ حُبّه لها؟ سواءٌ كان حُبّه ذاك للكتابة أم حتى لله نفسه.

ومثلما عانى الدكتور فرانكنشتاين ليتخلّص بنفسه من المخلوق الذي صمّمه وبناه، جعلَ تولستوي من تلك الفتاة المفعمة التي تزوّجها منذ سنوات زوجةً تعيسة ومولعة بالخصام.

حاولَ لفترةٍ أن يتحمّلها، إلّا أن صبره نفدَ بسُرعة. شَكَى في رسالةٍ لابنته أليكساندرا إالفوفنا من صوفيا التي تتجسس عليه دائمًا، باستراق السمع والتنصّت. شَكَى اعتراضاتها المتواصلة وأوامرها الدائمة وسعيها لتسييره كما يحلو لها. ثمّ، وخلالَ نَفَسٍ واحدٍ، كتبَ أنه يُريدُ التحرُّر منها. هكذا بغتةً ودون تراجع، أقصى نفسه عن زوجته وعن كُل ما يرتبط بها.

هكذا ببساطةٍ، غادر في أحد الأيام.

في تلك الظهيرة، وللمرّة الأولى منذ وقت طويل، شَعُرَ بالحُريّة إلى جانبه، لا بوصفها مفهومًا مُجرّدًا أو فكرةً تطلّب الدفاع عنها، ولكن بوصفها شيئًا حاضرا، قريبًا وصلبًا وملموسًا. لقد مشى. لقد وثبَ وقفز. وبعلوْ صوته غنّى أغانيَ لم يسمع بها أحدٌ من قبل. الفلاحون الذين يعملون في الحقول المجاورة شَهِدوا تولستوي، أكثرَ الروائيين

الروس احترامًا وتقديرًا، يقومُ بأعمالٍ تتنافسُ في الجنون، ولم يُخبروا عنها أحدًا. وجزاءً لهم على صمتهم، ودعمهم، في تلك الليلة نفسها، قَرَّرَ تولستوي أن يتبرَّع بممتلكاته وثروته كلها للفقراء. الرجل الذي جاء من طبقة أرستقراطية، الرجل الذي عاش تحت سقف صلب طوال حياته، يقومُ الآن بنثر كل امتيازات موقعه الاجتماعي في الهواء.

عندما علمت بذلك صوفيا، الحاكمة، قالت هائجةً: وحده الأحمق من يُبدِّد ثروته بهذا الشكل. لقد كانت واثقةً- وحده الأحمق الذي ليست له زوجة ولا أطفال ليهتم بهم. بعدها، وهي في عِزِّ كَدَرِها، أعلنَ تولستوي على الملأ عن غسل كفّيه من أشياء العالم الماديّة. وتبرّع بكل أمواله، وأراضيه، وهَجَرَ الولائم التي لطالما أُولِعَ بها، وأقسمَ ألّا يأكل اللحم وألّا يصطاد ولا يشرب، وأن يعملَ عملَ حِرَفيّي القُرى.

راقبَت صوفيا تحوّلاته برُعب شديد. النبيل الذي تزوّجَته، الكاتب الذي قدّرَته والزوج الذي حملت منه أبناءها، ذهبَ مع الريح! وصار مكانه فلاحٌ رديء الملابس وتسكنه البراغيث. كانت تلك إهانةً في صميم قلبها تمامًا.

قالت عن عادات تولستوي الجديدة إنّها «عاداتٌ مُظلمة»، كأنها تتحدث عن وباء مَكين، أتلَفَ أسرتهم. تشقّقَت شفتاها من المض، والتوى فمُها بتعاسةٍ وصار وجهها يُشيرُ إلى عُمرٍ أكبر من عُمرها، وعانت من انهياراتٍ عصبيّة متتابعة. ويومًا ما، سألها ابنُها ليف ما إذا كانت سعيدة. استغرقها الجواب على هذا السؤال البسيط وقتًا، لكنه سؤالٌ طافح بالتحدّي والاستفزاز، وأخيرًا قالت: نعم. لقد كانت سعيدة. فسألها ابنها: ولماذا إذن يبدو على وجهك أنّك قتيلة؟.

مهما تكُن قوّة الحُب التي جمعت مرّةً زوجًا وزوجة، فإنّها لا تستطيع أن تتّسع للمرأة والرجل اللذين سيُصبحانهما لاحقًا، ما يتسبّب في

غضب مُشترك واستياء مثل جُرح ينزفُ في الداخل بصمت.

وأخيرًا، في خريف عام 1910م، بعد أشهر معدودة من تطليقه رسميًّا لزوجته سرًّا، ووَهَبِ حقوق نشر رواياته لمحرّره، سقط تولستوي مريضًا بالالتهاب الرئوي. يخبو داخلًا إلى وعيه، ويخبو خارجًا منه، بنفس الشكل الذي خَبَى فيه وهو يدخل حياة زوجته ويخرج منها بعد عقود. ماتَ في محطة قطار بعد أن فَرّ من مُشادّة أخيرة في المنزل. وأيّة رمزية يحملها ذلك؟ فالكاتب الذي بدأ أدبَه بادعاء أن السعادة الحقيقية تكمُنُ في حياة العائلة، انتهى به الحال إلى أن يبتعد عن عائلته، وعنها.

لزمنٍ طويل، نُظِرَ إلى صوفيا كمُجرّد أُمٍّ وزوجة. أمّا مشاركتها العظيمة في أسطورة تولستوي الأدبيّة فلا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها. قمنا مؤخرًا فقط برؤيتها تحت ضوء جديد ككاتبة يوميّات ومُفكّرات وامرأة أعمالٍ حُرّة- ويمكن تقديرها كمَوهبة وكامرأة غير أنانية، لديها الكثير من القُدُرات والأحلام التي لم ندركها بعدُ.

الفصل الثاني

رياح التغيير

ما يعرفه صيّادو السمك

مضى شهران. إنها السادسة صباحًا في يوم من أيّام الأحد، أسير على ساحل البحر. كنت دومًا من المبكرين في النهوض من النوم، وما أزال، فالاستيقاظ بعد شروق الشمس يجعلني أتبرّم بعض الشيء. وفوق هذا، أشعر حينها أن العالم كله راح يصطخب منذ مدة ولم أستطع اللحاق به، كأنني قد وصلتُ الحفلَ في آخره.

لهذا أنا، في قمّة صحوي ذاهبة للتنزّه سَيرًا على الأقدام. وهناك سوايَ بالطبع من أشكال الحياة قد استيقظت في هذه الساعة المبكرة؛ نوارس البحر وقطط الشوارع وهُواة صيد السمك والإسطنبوليون جميعًا. أتنزّه، ومن جهاز الـ iPad الخاصّ بي تصدح أغاني آمي واينهاوس، وفي جيبي فُشار (أعتقد أن الفشار، في عالم أفضل من هذا، سينجح في الوصول إلى قوائم أطباق الفطور). أمشي مُتأهّبة، أستعيدُ متأملةً حياة صوفيا تولستوي.

للهواء من حولي صفاءٌ بلّوري، والسماء النيليّة تتدلّى من فوقي، مُجعّدةً بغيوم كورودٍ متفجّرة التفتّح، تَدرُجُ نحو هضاب إسطنبول البعيدة. تبدو هذه المدينة وكأنها قد استعادت شبابها، صافية كعروسة خارجة من حمّام عرسها. يستطيع المرء أن يرى أنّ هذه المدينة ليست هي نفسها تلك التي تدفع أهلها إلى الجنون يومًا بعد يوم، تبدو الآن فاتنةً وخلّابةً ومُغرية أيضًا، مدينة مغموسة في العسل. أظنّ أن إسطنبول تكون في أجمل أوضاعها عندما لا نكون، نحن الإسطنبوليّين،

في شوارعها ومن حولها، وهذا سببٌ آخر للنهوض مبكرًا.

على خطى الساحل المؤدّي إلى منطقة بيبك، كان هناك قرابة ثلاثين صيّادًا، بدءًا بالصبية المراهقين وصولا إلى الأجداد بمكاكيزهم، وقد اصطفّوا جميعا ممتدّين في خط مستقيم قبالةَ البحر كخرز مسابيح الصلاة، يقفون متجاورين ومعهم دلاء بلاستيكية وجِرار مملوءة بديدانٍ تتلوّى، وأعينهم مثبتة على الأفق، أمّا أصابعهم فناشبة حول حبال الصّيد.

لا يتحدثون أبدًا ولا يتندّرون. كل واحدٍ منهم ينتظر، بشكلٍ محضٍ، وفي صبر، الأسماكَ كي تجيء وقد أغواها الطعم.

بعد ساعة ارتفعت الشمس، لكنني لاحظت أنها كانت برفقة أحد ما؛ كان القمرُ لا يزال هناك، بعد أن قضّى يومًا أو يومين والخجلُ يلفّهُ من امتلائه. وكانت عيناي منصبتين على السماء. ألا يعرف القمر أنه في المكان الخطأ، وفي الوقت الخطأ أيضًا؟ وفيما كنت أنظر إلى هالته الباهتة، تناهت إليّ صورة صوفيا من جديد.

تساءلتُ: لو كانت صوفيا روائية، هل كان تولستوي سيُعينها كما أعانته؟ هل كان لينسخ مسوّدات زوجته المرّة تلو الأخرى؟ هل كان ليأخذ الأطفال للتنزّه، ويُلبّي كل حاجاتهم، حتّى تتمكن زوجته من الحصول على ساعاتٍ أكثر من الهدوء والصفاء لتتنمر في الكتابة وفي ما تكتب؟.

مُثقلة بهذه الأسئلة، سرتُ إلى الحديقة التي تتوسّطُ الحَي المجاور. الملعب هناك يكتظ بالأمهات والأطفال والرُّضّع خلال النهار، لكنه يُقفرُ في هذا الوقت. استرحتُ جالسةً على أحد المقاعد، أرقب بضع يمامات تتهادى هُنا وهناك. إنها تلتقط فُتات الرغيف المُهمل من شقوق الأرض.

وبغتةً، انطلقت صرخة شقّت الفضاء، جذبتني خارج بلاد الخيال التي سرحتُ فيها. فوثبتُ على قدمي، وقلبي ينبسطُ وينقبضُ بعُنف:

- مَن هُناك؟

وبينما كنت أنتظر إجابة عمّا حدث، ارتفعت صرخة أخرى، مُلعلعة وعالية، متبوعة بصوت ارتطام، كأنّ شيئًا ما قد تُرك فسقط، أو أن أحدًا لُطِمَ بقوّة. تصدُرُ الأصواتُ من مكانٍ ما خلف أغصان شجرة التوت تلك، على بُعد خطواتٍ من مكاني. وبدافع الفضول، لا الحذر فحسب، اقتربت من تلك البقعة ببطء.

- النجدااااة..

أعرفُ هذا الصوت النسائي، لقد سمعته في مكانٍ ما، لكن أين بالضبط؟ لستُ أذكر.

- «إنتي سدّي حلقك. ساعديني أنا بدالها».

إنه شخصٌ آخر من يصرُخُ هذه المرّة. هل هناك سيّدتان تُختطفان في نفس الوقت؟

صاحَ الصوت الأوّل:

- أليس من أحدٍ هنا لينقذني من هذه السّليطة؟

ماذا؟ يبدو لي أنهما سيّدتان تحاول إحداهما خطف الأخرى!

انقدحَ الصوت الآخر بفظاظة:

- «إيش؟». أنتِ من يُرعبني الآن. لقد تعبتُ منكِ وبلغتُ أقصاي من وقوفك الدائم في طريقي. لمَ لا تسافرين في إجازة؟ اذهبي إلى ديزني-لاند..

- ولماذا عليّ أنا الرحيل؟ أنتِ من يجبُ عليه الرحيل. لقد تحمّلتُ كفايتي منكِ وأنتِ تشوّشين ذهنَ ألِف بأفكارك الرعناء.

حالما سمعتُ اسمي، تجمّدت، وأرهفتُ سمعي جيدًا.

- ذاك لأنكِ تريدين التأثير فيها، لكنني لن أدع ذلك يحدث.

«على جثتي. فهمتي؟».

إلى هنا اكتفيت من استراق السمع، تقدّمتُ وأزحتُ الأغصان جانبًا، فإذا بهما، تقفان على جذع الشجرة، وكل واحدة منهما ناشبة أظفارها في خناق الأخرى. إنهما فتاتان بحجم الإصبع، ولم أخطئهما أبدًا.

قالت إحداهن وهي تحاول جاهدةً أن تبتسم:

- «أووووه، إنتِ، يا كبيرتنا.. كيفك؟»

أما الفتاة الأخرى، فأبعدت كفّها الأولى عن خناق عدوّتها ورفعت الأخرى بعلامة النصر:

- من الجيّد رؤيتك يا عزيزتي!

عبستُ في وجه الفتاتين:

- الآنسة العمليّة القصيرة! الآنسة المثقّفة الساخرة! ماذا تفعلان هنا؟

هاتان الفتاتان منذ عرفتهما وهما في حالة صدام دائم. تبدو كل واحدة منهما، للوهلة الأولى، أنها تتبنّى التفكير العقّلاني والمنطق. وهذا غير صحيح إلاّ إذا اتفقتا حول أمر ما أو تشابهتا في شيء. فبينما تريد الآنسة العملية أن تكسب تحديات الحياة بطريقة براغماتية، تهتمّ الآنسة المثقفة بالحلول السهلة. تُريدُ الأولى أن تنتهي من الأمور بأسرع وقت ممكن، بينما تهيم الأخرى بالتفاصيل، مُعقّدة الأمور، ومُفلسفةً كلّ شيء. وحيث تفضّل الأولى الوضوح والدقة، تفضّل الثانية الغموض والرمزية.

مدّت الآنسة العملية عنقها من مكان جلوسها الآن على كتفي الأيسرِ، وقالت:

- انظري لصيّادي السمك هؤلاء، يا لسخفهم، كم سمكة يظنون أنهم سيصطادون بوقوفهم هكذا؟ إنهم يمكثون الساعات الطويلة، ولا يعودون إلى منازلهم إلاّ ببعض الأسماك الصخرية الحزينة في دلائهم. كان في وسعهم بهذا الوقت الذي يقضونه أن يعملوا ويكسبوا من المال ما يبتاع لهم سمكة سلمون كبيرة!.

قالت الآنسة المثقفة الساخرة، بنبرةٍ متذمّرة، من مكانها على كتفي الأيمن:

- وما أدراكِ أنتِ؟ ما الذي يُمكنُ لأيّ براغماتيٌ أن يعرف عن الفلسفة والفنِ والأدب، والأمور التي تجعل للحياة قيمة ومعنى كي نحياها؟

سألتها الآنسة العمليّة:

- وما دخل صيادي السمك فيما تقولين؟

فجاءها الجواب:

- صيد السمك هو الذي له علاقة! إنه الصورة المُثلى لاستيعاب ألغاز الكون الأبديّة.

أومأتُ برأسي مؤيّدةً. بيد أنني، حتى أنا، لم أفهم ما يفعله صيادو السمك فعلاً! ما الذي يشعرون به، وما الحالة الذهنية اللازمة- ألّا تُسرع وألاّ تندفع؟ ما هي الدرجة المطلوبة من التواضع كي يَقْنع المرء بما يجد، وأن يسعد بالذهاب إلى المنزل وفي دلوه سمكتان رهيفتان بعد نهارٍ طويلٍ من الجهد؟.

من بين كل الأنبياء، أجدني لا أستطيع التعاطف بأيّ شكل من

الأشكال، مع النبي أيوب، أيوب الذي كان حسب القرآن الكريم رمز الصبر والتسليم السّلمي، لم أفهم أبدًا كيف أنه لم يغضب، ولم يستأ من المِحَن التي يضعه الله فيها تِباعًا. بل يبقى صابرًا وشكورًا!.

ومن دون علمٍ بما يدور في رأسي، أكملَت الآنسة المثقفة الساخرة أطروحتها:

- يظهرُ السمك في الكثير من الكتب كشخصيّات رئيسيّة!.

تسأل الآنسة العمليّة القصيرة:

- أيّ كتب؟

بالطبع، إنها تسأل «أيّ كتب» لأنه لا وجود لكتاب من بين كتب تطوير الذات عنوانه: أيقظ صيّاد السمك في داخلك!.

- «Your knowledge is nothing when no one knows that you know»

- «إيش الخرابيط ذي. مافهمت شي».

رفعَت الآنسة المثقفة صوتها فوق همهمات المدينة التي بدأت بالهدير.

- قلتُ: لا وزن لمعرفتك عندما لا يعلم أحدٌ أنك تحملها.

تبرّمت الآنسة العمليّة وقالت بصوت منخفض:

- هل هذه أحجية أخرى؟

- نقطتي هي: كيف يمكننا تتبّع مجازفات «إسماعيل» و«الكابتن إهاب» في موبي دِيك للروائي هيرمان مَلفيل دون أن نُبصرَ مكاننا الضيّق المتناهي من هذا الكون؟ وماذا عن ملحمة صراع الرغبات عند هيمنغواي بين الصيّاد العجوز والسمكة المَهولة التي لطالما شغفَ باصطيادها؟ ولنأخذ كتاب صياد سمك البحر

الداخلي لـأورسولا لي دوين- ستفكرين أضعافَ ما فكرتِ به في حياتك كلها عن أدوار الخير والشر. هل رأيتِ كيف أنَّ صيد السمك مضفورٌ بالفلسفة؟.

قالت الآنسة العمليّة:

- حسنًا، حسنًا، أستوعبُ ما رميتِ إليه. وبما أنّك فتحت الموضوع على هذا النحو، فقد ترغبين بإخبار الفلاسفة الذين يصطادون السمك هناك شيئًا عن مفهوم «الكفاءة». لابُدّ وأنّ هناك ما يقارب الثلاثين صيّادا. لمَ لا يستأجرون، على سبيل المثال، قاربَ صيدٍ معًا؟ ومن ثمّ، عندما يدخلون به البحر، ينشرون شِباكهم، وسيزداد صيدهم عشرة أضعاف؟.

أطلقت الآنسة المثقفة تنهيدةً:

- في صيد السمك عمق ما، إنّ فيه حكمة. لن تفهمي ذلك أبدًا ما دمت مشغولة بأمر الإنتاجية. لمَ أضيعُ وقتي معك أساسًا؟ لا فلسفة ولا فنّ سيخرجان أبدًا من المياه الضّحلة التي تعومين فيها.

تذمّرت الآنسة العملية:

- «إنتِ كلّك على بعضك كلام كبير بس فاضي». تتحدثين دائمًا عن العمق. «إنتِ إيش؟ غوّاصة؟».

اعترضتُ:

- يا آنسات، رجاءً..

أعرفُ أنني أحتاج إلى معالجة الأمر بحساسية مفرطة بينهما:

- دعونا لا نتجادل في هذا الصباح الجميل.

اعترضت الآنسة المثقّفة الساخرة:

- وما الضير في الجدل؟ لقد استخدم الفيلسوف الألماني إرنست بلوخ مفهومًا مفادُه أنّ أشياء الحياة لم تصل إلى شكلها النهائي بعد. هكذا، بدلًا من محاولة أن نكون كاملين، علينا أن نُمجّد فكرة أننا بلا بداية ولا نهاية، أننا في حالة من الديمومة وتوالد الأجيال، ولهذا السبب وجبَ ألاّ نُجيب عن الأسئلة، بل علينا تعميقها بالمزيد منها.

وفجأة، جاء صوت مشاكسٌ آخر من جهة المنعطف.

- هذا أكثر أمرٍ مجنونٍ سمعته في حياتي.

أدرنا رؤوسنا ورأينا الآنسة التشيخوفية الطموح تقفُ على مبعدة منا، بين أقدام صيّادي السمك. ارتعبتُ من احتمال أن يطأ أحدهمْ عَرَضًا عليها، أمّا هي فلم يكن يبدو عليها أيّ اهتمام.

- تعميق المعضلات بالمزيد من الأسئلة؟ وماذا بعد. هل تعرفين كم من الوقت استغرقه التنزّه في صباح هذا الأحد السخيف من حياتنا المهنيّة؟ أليف، كان المفترض منك أنك تكتبين الآن، لا أن تضيعي وقتك هكذا.

قلت بصوتٍ خفيضٍ كالهمس:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

قالت دون مبالاة:

- كنتُ آمُلُ أنّك قد قضيت وقتًا كافيًا لاتخاذ قرارٍ بشأن ما تحدّثنا عنه قبل بضعة أسابيع، أنت تعرفين، أمرَ استئصال الرحم؟!.

قلتُ:

- لقد جُننتِ فعلًا..

راحت الفتاتان القصيرتان تصفّقان لي مُظهرتان دعمهما.

قالت الآنسة التشيخوفية الطموح:

- إذا أردت أن تكوني امرأة القمر، فلتحملي، ولتزدادي وزنًا، ولتقلقي بشأن الرِّضاع الطبيعي، اعتني بتربية الطفل وإرساله إلى المدرسة وبعدها إلى الجامعة، وقبل أن تجدي الوقت للالتفات إلى نفسك، ستكونين قد نسيت كلّ ما يخصّ الأدب والكتابة.

أردت الاعتراض لكنها لم تدع لي أيّة فرصة:

- لا تجرؤي على القول أن عالم الأدب لا يقوم على التنافسيّة، وأنه ليس عليك أن تتدافعي فيه وتتسابقي، لأنك ستبدين ضحلةً جدًا. إذ حتى وإن لم تكوني في سباق مع كاتبين آخرين، فأنتِ في سباق مع نفسك، مع موتك.

فتحتُ فمي لأتحدث، إلا أنها قاطعتني مرة أخرى:

- ولا تنسي أبدًا أن الكاتب هو تولستوي، لا زوجته صوفيا امرأة القمر..

سألتها:

- وما الذي يعنيه ذلك؟

- يعني ما يعنيه. تذكّري تلك المرأة في الباخرة، المرأة التي كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، إلا أنها بدت في الأربعين، تلك التي جمعت وزنها وغيضها كالكعك المجاني. هل تريدين أن تُمسي مثلها؟

قالت الآنسة المثقفة الساخرة:

- تتحدثين وكأنك وحدك التعيسة في هذا العالم. في حين أنّ البشر جميعا تُعساء. فالكآبة شرطٌ من شروط الإنسانية.

تجاهلناها سويًا، ثم قالت الآنسة العمليّة القصيرة:

- هيّا! تستطيعُ المرأة أن تكون أُمًّا جيّدة وصاحبة مهنة ناجحة معًا، وأن تكون سعيدةً أيضًا.. الأمرُ بسيط؛ المفتاح هو إدارة الوقت..

تذمّرَت الآنسة التشيخوفيّة الطموح:

- بالطبع هناك نساءٌ كذلك، لكنني أدعوهُنّ ببهلوانيات السّرك؛ إنهن يُرسلن أطفالهن صباحًا إلى المدرسة، ثمّ يقمن بإعداد وجبة أومليت رائعة لأزواجهن؛ بيضتان وملعقة من الزبدة، ثم ترتدي ثيابها على عَجَل، وبالكاد تصل إلى عملها في الوقت المناسب. ثم تعودُ مسرعةً إلى منزلها بعد انقضاء النهار لتُعدّ طاولة الطعام وتُطعم أطفالها، بعدها تغيبُ عن الوعي نائمةً على الأريكة وهي تشاهد التلفاز. بلى، مثل هؤلاء النسوة موجودات، إلاّ أنهن لا يُجِدْنَ كتابة الروايات أبدًا.

قمتُ بتوبيخها على ما قالته:

- أنتِ ملكة المبالغات..

اشتعلت عيناها الداكنتان هياجًا، ثم أعطتني ابتسامةً ساخرةً وقالت:

- النقطة هي، يا عزيزتي، أنّ البهلوانيات يستطعن أن يتدبّرن أمر اللّحظة فحسب، أن يحملن واجبات الأمومة والوظيفة، إلى هذا القدر وكفى. أمّا إلى أيّ مدى يستطعن الوصول إليه في مِهَنِهِنّ، فهذا سؤالٌ آخر..

أجبتها:

- الأدبُ ليسَ مهنةً وحَسب..

قالت:

- بالضبط!. إنّه أسلوب حياة. إنّه طموح عمرٍ بأكمله. يحتاج الفنان إلى الطموح والاتقاد، إنه لا يعمل من التاسعة حتى الخامسة، بل يتنفّس فنّه خلال ساعات اليوم الأربع والعشرين كلها، وأيّام الأسبوع السبعة. لهذا عليك التفكير جديًا في أمر استئصال رحمك!.

وبعد نصف ساعة عُدنا إلى الحديقة. جلسنا على مقاعد أخرى نحنُ الأربعة، شاحبات نُغالبُ النعاس. هذا ما يحدث غالبًا عندما تلتقي امرأتان قصيرتان بحجم الإصبع. هذا الخصام والتنافر يُجفّف طاقاتنا. وفوق ذلك، فتيات الأصابع أولاء لا يعرفن كيف يختصمن كما يجب أصلًا.

- مرحبًا بالجميع! هل أستطيع الانضمام إليكن؟

إنها السيّدة الدرويشة، فجأة نبتت كالفطر على المقعد بجوارنا كنُسخة صوفيّة من السّاحر هاري هوديني.

إنها تلبسُ رداءً رماديًا كالدّخان، وحجابًا معقودًا باللون نفسه ومُثبّتًا بدبوس لهُ رأسُ لؤلؤة. أطرافُ ثوبها تتصافقُ بنعومة والنسيم. وحول رقبتها قلادةٌ تتدلّى منها كلمةُ (هُوَ)؛ أي الله كما يناديه الصوفيون، محفورةً بالخط العثماني.

رحبتُ بها:

- أهلًا بعزيزتي الصوفية، تفضّلي بيننا.

قالت:

- شكرًا، أشعُرُ بالحفاوة، أتمنى أن تشعري أنت بها أيضًا. انُظري

إلى نفسك! أنت في حالة دائمة من الترقّب والتقييم، وفي عجلة أيضًا. تحاولين أحيانًا أن تُنجزي خمسة مَهامّ الواحدة تلو الأخرى. لِمَ العجلة؟ فلتعيشي اللحظة. لا يتوَجدُ الوقت إلا هكذا. إن السبعة الذين دخلوا في سُبات لثلاثمئة سنة، أولئك الذين دعاهم القرآن بأصحاب الكهف، شعروا عندما استيقظوا بأن الوقت لم يمض سوى لبضع ساعاتٍ وحسب.

قطّبتُ في وجهها وقلت:

- هل تريدينني أن أنام؟

- أريدك أن تتوقفي عن مغالبة الوقت ومبارياته.

حاولتُ أن أعيش اللحظة بالفعل، لكنني أدركتُ أنني لا أفهمُ حقًا ما يعنيه ذلك.

- أيتها السيّدة الدرويشة

- هممم؟

- هل تظنين.. أعني، لو رغبت يوما في إنجاب الأطفال، وهذا لا يعني أنني أريد ذلك بالطبع، ولكنني أسألُ وحسب، لو جرى ذلك في حياتي يومًا ما.. أعني، نظريًا..

آخُذُ نفسًا عميقًا وأحاولُ مرّةً أخرى:

- هل تظنين أنني سأصيرُ أُمًّا حسنة؟

اتّسعت عيناها الخضراوان الداكنتان حتّى تجعّدت بَشرةُ محاجرها:

- فقط إذا استوفيتِ شروطًا ثلاثة، ستُحسنين الصنع.

- أيّة شروط؟

- في البدء، على الله أن يُريد ذلك أولًا، كي ينكتب فصلٌ جديدٌ في

قصّة حكايتك. وثانيًا، يجب أن تُريدي أنتِ ذلك، بالطبع، ومن أعماق قلبك، وشريكك بالمثل أيضًا.

- لا ضَير، وما هو الشرط الثالث؟

- للشرط الثالث علاقةٌ بصيّادي السمك، عليك أن تتهَلي ممّا يعرفون.

رفعَت الآنسة العمليّة القصيرة يديها معترضةً وقالت بنبرةٍ مُعترضة:

- صيّادو السمك مرّةً أخرى!!

نظرتُ حولي بحيرة. ما الذي من المحتمل أن يعرفه هؤلاء الصيّادون عن خيار الأمومة وتبعاته؟ ما الذي قد يعرفونه ولا أعرفه؟

قالت السيّدة الدرويشة وكأنها تكتبُ لي رسالة:

- عزيزتي أليف..

- نعم؟

- هل صادفَ وأن رأيت صيّاد سمكٍ يجري خائضًا البحر؟ ما كانَ لكِ أن تري ذلك قط، لأن المدعوّ بصياد السمك لا يُلاحق السمكَ، إنه ينتظره كي يأتي إليه..

- ما يعني؟

حيّتني السيّدة الدرويشة قبلَ أن تقول لي:

- يعني: توقفي عن الركض خلف الأمواج. دعي البحر يجيءُ إليكِ!.

حينها تمامًا، عَبَرتْ أمٌ تدفعُ عربةً أمامنا، وجَذَبَتني بذلك لأعود إلى حواسّي ومُحيطي. نظرتُ إلى طفلها- وبالرّغم مني وجدتني أبتسم.

جذبت ذراعي الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوح:

- هيّا لنذهب من هنا. ما الذي نحنُ في انتظاره حقّا؟ الوقتُ من ذهب..

قالت الآنسة المثقّفة الساخرة:

- لنذهب لقراءة روايةٍ ما..

هكذا وجهت إلينا الآنسة العمليّة القصيرة أوامرها:

- لنأخذ أقصر الطرق، لنوقف سيارة أجرة..

وبغتةً، وجدتُ نفسي لست راغبةً في رؤية أيّ منهنّ أو سماعِها، على الأقلّ لبعض الوقت. فقلت لهن بلباقةٍ لا تخلو من الصرامة:

- غادرنَ أنتن. أنا باقية.

ولحسن الحظ، بعد عدة اعتراضات، غادرت النسوة القصيرات الأربع، وهنّ يتجادلن عن الطريق الأفضل. وابتعدن ماشياتٍ على أقدامهن الصغيرة، وأصواتهن تضمحل في الهواء.

لاحظت، بالقُرب، قطة صفراء سمينة، تتبعهنّ وعيناها مسمّرتان عليهن. هل تستطيع تلك القطة رؤيتهن؟ كان هذا الظنّ للوهلة الأولى مثيرا للحماسة، ولكنّه سرعان ما أفزعني. ما الذي سيجري لو أن القطة لم تُفرّق بينهن والفئران والطيور. وبالتالي حاولت أن تبتلعهن؟ بيد أن ما يبعث على الراحة أن القطة أطبقت أجفانها واستأنفت قيلولتها مُدركةً ربما أنهن سيُسبّبن لها عُسرَ هضم. الأُمُّ الشابةُ تخرجُ رفقة طفلها من الحديقة. آخُذُ نفسًا عميقًا. ما الذي سأفعل حيال هؤلاء القصيرات؟ إنهن يجعلن الأمور أكثر صعوبةً علي. لكنني أحبهن جميعًا.

ولوهلةٍ طويلةٍ جدًا، أردتُ، أنا أيضًا، أن أكون صيّادَ سمك.

عن الشعراء والأطفال

إنها فتاةٌ أرادت أن تكون إلهً لتستطيع خلق الكون برمّته من جديد، أن تبدأه من العدم. هكذا كان شغفها بالعيش بحرارة صادقة؛ لم يكن جسدها يتّسع لها، ولا حتّى ماضيها. صارت، لفترة من صباها، مُعلّمة، بيد أن الأمر لم يطُل بها حتّى قررت أنها لا تصلح لتكون فردًا من أفراد القوى العاملة. لقد خُلقت للكتابة. هكذا عزمت على كسب عيشها من وراء الكتابة، إلا أنها لم ترضَ قط عن المبالغ التي كانت تُزجى لها من وراء ذلك، فدفعت بنفسها قُدُمًا وشقّت طريقها. لم يناسبها الصبر ولا الانتظار، لم يناسبها أن تكون صيادة سمك محترفة.

يسمّيها أصدقاؤها المقرّبون سيل، أمّا عائلتها فتسميها سيفي. وبالنسبة إلى باقي العالم، فقد كانت سيلفيا بلاث.

استمرّ موضوع زواجها من الشاعر تيد هيوز حارًا وكثير الورود في نقاشات الدارسين، والبحوث النسويّة وغير النسوية على حد سواء. اعتمد الكثير منهم على جانبها هي من حكاية الزواج وأحداثه، وآخرون اتكؤوا على جانب الشاعر منها. بيد أن الحقيقة تكمن في مكان مّا بينهما، في درجة لونيّة عَدَا الأبيض والأسود. الأوراق والكتب التي كُتبت عنهما، تكاد -رغم مرور السنين الطوال على حكايتهما- تفيض بالعاطفة، كما كانت سيلفيا نفسها، وكأنّ كُلّ كُتّاب سيرتها قد انتهوا إلى الوقوع في حبّها.

تحكي هي أنّ زواجها كان مُتحجّرًا وتسبّب لها في الكثير من الألم. غير أنّه، كالكثير من العلاقات التي انتهت بشكلٍ مشابه، بدأ بجاذبيّة هائلة بين الزوجين لم يكن من الممكن التحكّم فيها. كانا شاعرين واقعين في الحب: سيلفيا بلاث وتيد هيوز. لقد تشاركا المجازات الشعرية، والنفسيات المتضاربة، والشخصيات القوية.. هل يستطيع شاعران أن يقعا في الحُب دون أن يتنافسا على المدى البعيد؟

ليس من المستحيل وقوعُ ما يشبه ذلك. بالطبع، بيد أنه صعبٌ وباهظ التبعات. كانا يافعين، حُرّين بردوس يابسة، مُمتلئين بما يمكن أن يقوله أحدُهما للآخر، وبعالم حلُمَا بتغييره معًا. لهذا وقعا في الحبّ معا، ومن أجله حاربا دون هوادة وبلا نهاية، وأقاما حُبّهما بشغف وإصرار، وقالا وفعلا ما سيندمان عليه لاحقًا بمرارة، ويبحث كلّ منهما عن الغفران من الآخر ومن نفسه في آن واحد.. كلّ ذاك، وأكثر، حدثَ عبرَ الكلمات، الكلمات التي مثّلت زهوهما وإباءَهما معا.

هناك قصيدة كتبتها سيلفيا بعنوان (أرجو، أرجو)، الشخصية الرئيسية فيها هي طفلٌ شبيهٌ بالإله، لم يولَد بعد؛ ممتلئ وأجرد الرأس بفمٍ فاغر. ليست هذه صورةً لطفلٍ لطيف أو ملائكي، بل صورة لقوّة طبيعية تتمنّى أن تتوجد في هذا العالم وتُلح في طلب الحُب والاهتمام. إنه طفل يريد أن يكون. استخدمت الشاعرة البركان رمزًا لخصوبة الأنثى– القُدرة على التناسل والانتشار وحمل الحياة في الداخل. غير أن البركان أيضًا قوّة خطيرة ومُدمّرة. حتى وإن كان نائمًا، لا تستطيع أن تطمئنّ إليه، قد يندلعُ في أيّة لحظة. لا يمكن ترويضه. لا يمكن التنبؤ به.

مرّت سيلفيا بلاث باضطرابات عديدة طوال حياتها فيما يخص الأمومة والنسوية. في البدء، خافت من أن تكون عقيمةً وألاّ تتمكن من الإنجاب. بعدها، هجَرها النوم لليالٍ طويلة، قضّتها في البكاء والقلق

من عمليّة الولادة نفسها؛ هل سيكون الألم طاحنًا؟ هل ستنجو منه وتحيا؟. لم ينتهِ الأمر عندما أنجبت أطفالها، بل صارت قلقةً عليهم من العالم الخارجي وقسوته.

بيد أنها كانت مقتنعةً تمامًا بأن الأمومة ستُضيف الشيء الكثير لحياتها وكتاباتها. فبعد أن صارت أمًا، تحولت إلى امرأةٍ مختلفة- امرأة سنصوّرها في قصائدها ككائنٍ خارق القِوى، سحريِّ الخلود، كائنٍ صار إلى ما هو عليه بمحض لمسةٍ من طفلها، من إبهامه الوردي. كتبتْ في دفتر يومياتها:

«عليّ أوّلًا أن أقهر تجربتي في الكتابة كي أستطيع بعدها أن أتغلّب على مخاض الولادة..»

وقالت في مكان آخر:

«سأكتب كي أُتمكن من تحرير ذاتي الأعمق، ومن ثمّ أنجب الأطفال، وأتعمّق أكثر..»

وفي نهاية الأمر، يبدو أنها كانت على حق. فأعظم أعمالها هو: «آريل»، وقد كتبته بعد أن صارت أمًّا.

بعد إنجابها لطفلتها بستة عشر شهرًا، أنجبت طفلًا. وكان خيارًا حرجًا أن تمكث في البيت لتعتني بأبنائها، إلاّ أنّها أقدمت عليه. ومن حينه، تدبّرت أمرَ منزلها وأسرتها، وكتبت قصائدها وقصصها. أحيانًا، تتداخل عليها الأدوار، حتّى تجد نفسها تخربش صفحات وصفحات في دفتر يومياتها عن تغيير الحفاظات واعداد بسكويت الشوكولاتة.

لقد غمرت نفسها في أعمال المنزل الروتينية، تشاهد من الهامش ما يجري في عالمِ الأدب؛ دوّنَت عناوينَ الأعمال التي صدرت في تلك الفترة وأسماء الكُتّاب الصّاعدين والمُكرّمين وقتها، وخاصّة النساء

منهم. لم يكن الحسد غريبًا عنها، تمامًا كالغضب والفزع وتدمير الذات. وربما هذا ما جعلها صادقةً جدًا وجعل حضورها حقيقيًا ومحسوسًا لزمنٍ طويل بعد موتها. لقد كتبَت بانفتاح وصفاقة أيضًا عن الرغبات الداكنة والمدلهِمة التي لا حصرَ لها في الحياة، الرغبات التي نُميّزها جميعًا لكننا ندّعي جهلها.

شعُرَت، في خضمّ إيقاع عاداتها اليوميّ المتكرّر والرتيب، بالجذل والإحباط معًا، وهي تُلبّي واجبات الأمومة. وكان زوجها حينها قد استمرّ من وقت إلى آخر في حضور المناسبات الأدبية التي اعتادا على حضورها معًا. استمرّ في حياته كما كانت: كاتبًا شعره، وموسّعًا علاقاته، ودافعًا شهرته إلى أقصى مدى. قد لا تسبّب الأبوّة اضطرابًا هائلًا في حياة الرجل كما تفعل الأمومة في حياة المرأة. ولعلّ سيلفيا قد ظنّت أن الوضع الذي تعيشه كان خاصًا بها وبزوجها فقط.

وبقدر ما شكّل الأطفال مَجازات في أشعارها، كانت قصائدها نفسُها أطفالًا عند سيلفيا بلاث. فحينَ كانت تتحدّثُ عن أعمالها التي لم تكتمل بعد، كانت تدعوها بـ: «الأطفال الذين لم يولدوا بعد»، حتّى أنّها روَت كيف أن قصائدها تبتسم لها، وكيف أن: «جباهها الصغيرة متغضّنة من التركيز»، وكيف أنها تتغيّر كل يوم، مُحرّكةً أصابع أياديها وأقدامها الصغيرة. لم تكن أمًّا لطفلين فحسب، ولكن لألف قصيدة. ومرّ وقتٌ كانت فيه القصائد كلّها جائعةً باكيةً، تستجدي اهتمامها وإخلاصها، ومهما حاولت لأجلها، ومهما بذلت لها ما في وسعها، فإنّ تلك القصائد لم تعد سعيدة أبدًا.

شكّلَ انفصالها عن زوجها نقطة تحوّل مفصليّة في حياتها. فبَعد انكسارها العاطفي، قررت أن تتماسك مجددًا، بشكلٍ لا يمكن قهره، فأعادت اختراع نفسها، وصارت امرأةً جديدةً تمامًا. كانت طَمُوحًا،

موهوبة، ووحيدة. غالبًا ما تبدأ يومها في الرابعة فجرًا- خلال الساعة أو الساعتين اللتين تسبقان نهوض الأطفال من النوم، وتلك كانت أثمن ساعات أيامها. إنّ قصائدها الأكثر ألقًا قد كتبت خلال الشهور التي قضتها على ذلك الحال- مثل: «ميدوسا» و«أبتي» و«السيدة لازاروس»، حيث صعقت قراءها بقولها:

«الموتُ فنٌّ كأيّ أمرٍ آخر. وإنّي لأقوم به، بمنتهى الاحتراف.»

على طاولة المطبخ، في دورة المياه، على السرير، تحت الأغطية، قامت بالكتابة كيفما استطاعت ومتى ما أتيحت لذلك فرصة، تُخربش بشراسة على يدها التي لا تكتب بها، تُخربش بسرعة لا تصدّق، وكأنها تسابق القدر، تسابق كلّ الرجال الذين أحبّتهم مرة ولم تعُد تحبهم، وتسابق كُلّ ما تقصُر عنه وتزدريه.

هناك قصيدة لها عنوانها: «طفلٌ دون أب»، تتحدّث عن أب هجر منزله وزوجته وأطفاله. مشاعر الحزن في القصيدة أشدّ من الضغينة، الاستسلام فيها أشد من القتال. يستطيع المرء أن يشعر بأنّ هناك ما تغيّر في سيلفيا. لم يكُن ما خبرته شعورًا بالانتقام أو التمرّد، بل كان الأسى المتّصل بالأسى... وقد كتبت عن الفراغ الذي شاعَ في حياة أطفالها بعد رحيل أبيهم:

«غيابٌ نَمَا داخلهم كشجرة.

وعليهم أن يعتادوا عليه.»

كانت تلك المرحلة من حياتها، هي المرحلة التي ظلّت تحاولُ خلالها أن تقوم بأكثر من واجب وأمرٍ في وقت واحد، وأن تتفوّق في كل تلك الأدوار جميعًا، وبالقدر ذاته. أمّ، وزوجة، وكاتبة، وشاعرة، أرادت أن تكون كلّ شيء مرّةً واحدة، وفورًا، دون أيّ تدرُّج. ربما كانت واقعةً في حُبّ مخلوقاتها؛ أطفالها وقصائدها. استبقت بعنادٍ الإيمان بأنها

ستكون أمًّا مثاليّةً وشاعرةً لا تُضاهى؛ صارت الأمّ الشاعرة المكتملة. لم يكُن مَزجًا سهلًا، وبالأخص في أجواء الخمسينيات، عندما ظنّ الجميع أنّ على المرأة أن تختار، إمّا وإمّا. بيد أنها رفضت أن تختار.

مع ذلك، لقد أضناها الجهد لتصبح «المرأة الخارقة». لاحظت قبل وقتٍ طويلٍ أنها تضغط على نفسها أكثر من اللازم. لكنها حين تنجح في الوصول إلى مكانٍ مّا كانت تطمح إليه، تكتشف أنها قد سهَت وتخطّت آخر، وعندما تُصلِحُ شيئًا، تجدُ أن شيئًا آخر يتهاوى. ببطء وثبات، عرفت أنها ليست مثالية ولا مُكتملة. لهذا بدأت قصيدتها: «مانكانات ميونخ» بهذا السطر:

«الكَمالُ فظيعٌ، لا يمكنه إنجابُ الأطفال.»

لهذا، قامت بدفع الأموال التي حصّلتها من الجوائز والمِنَح الأدبية لمدبّرة منزلٍ كي تحمل عنها بعض العناء. وحين كانت تكتب روايتها الوحيدة: «الناقوس الزجاجي»، في محاولةٍ لتمميق اتصالها بروحها وماضيها، استحثّت، بأناة، مكامن الخوف فيها، الخوف من العقلانية ومن الشّبَه بآلاف الآخرينَ، والخوف من الجنون، من أن تكون مختلفةً بشكلٍ جذري حتّى لا يعود هناك أملٌ من الاختلاط بالمجتمع. كتبَت بالتفصيل عن الفشل الذهني، والعلاج بالصّدمات الكهربائية، وعن رتابة الحياة المدنية الخانقة:

بالنسبة إلى المرء الواقف في الناقوس المقروع- متذملًا وجامدًا كطفلٍ ميت، العالمُ هو الكابوس.

حين نشرت كتابها هذا في الشهر الأوّل من 1963م، انقسم القُرّاء حوله، وهي نفسُها انغمّت بعمق من نغمة المراجعات الأدبية التي تناولته.

وهكذا، حين نفدَ وقودها، ولم يعُد بمستطاعها القيام بالمهام المبالغ فيها التي وضعتها لنفسها، فضّلت سيلفيا الموت على أن تحيا بطريقة

يُمليها عليها الآخرون. الشخصية المُبدعة التي كانتها، بشغفها الجامح، أرادت كلّ شيء، أو لا شيء على الإطلاق.. لقد حاولت الانتحار مسبقًا عندما كانت في العشرين من عمرها، تناولت عددًا كبيرًا من الأقراص المنوّمة ودخلت على إثر ذلك في غيبوبة. بيد أنها، في ذلك الوقت، أرادت الموت على يديها وأرادت أيضًا أن يتمّ إنقاذها. أمّا هذه المرّة، فقد أرادت الموت وحده، أرادته هو وحسب.

كان صباحًا باردًا في الحادي عشر من الشهر الثاني لعام 1963، صباحًا يفوحُ مللًا ولا يحثُّ على غير الانعزال والوحدة. وبعد أن اطمأنّت على طفليها في سريريهما، وتركت لهما كفايتهما من الحليب والرغيف إلى جانبيهما على الطاولة، أغلقت عليهما الباب وأقفلته. ثمّ ذهبت إلى المطبخ، وأطلقت الغاز من الفُرن، تناولت دزّينةً من الأقراص المنوّمة، قرصًا بعد آخر. وبعد ذلك حشرت رأسها داخل الفُرن، وبينما كان الغازُ يتسرّب نحو وجهها تمامًا، استلقت في نومٍ أبديّ. كانت في الثلاثين من عمرها وحسب.

وإلى يومنا هذا، أسطورة سيلفيا بلاث لا يُمكنُ تجاهلها. في تُركيا، قابلتُ عددًا ضخمًا من طالبات إحدى الكُليّات ممّن يُقدّرنَ أعمالها إلى درجة تنظيم ليالٍ لقراءتها جماعيًا في حرم الجامعة. في أمريكا، هناك مدوّنة مميّزة اسمها: «مجموعة اللعب مع سيلفيا بلاث». وفي ألمانيا، تحدّثتُ مرّةً مع امرأة أسمَت ابنتها «آريبل» حُبًّا لها. وفي فرنسا، قابلتُ في مُنظّمةٍ عالميّة للنساء سيّدةَ أعمالٍ سألتنا جميعًا أن نرفع نخبًا لسيلفيا.

ليس هناك انتحارٌ أدبيٌّ كُتب عنه ودارت الأحاديث حوله أكثر من انتحار سيلفيا. فمنذ انتحارها، لم تتحوّل أيّة كاتبة إلى أيقونةٍ أعلى من المكان والزّمان على غرارها.

انقلابُ مُنتصف الليل

ليلةً واحدةً تفصلنا عن نهاية الصيف. أسمعُ في منامي أصواتًا. وبابًا يُفتَحُ ويُغلَقُ في مكان مّا داخل المنزل، وخُطىً على الدّرَج، وهمسًا في الظلام، وبما أنّني ظننتُني أعيشُ كابوسًا، فقد رحتُ أتمدّدُ في فراشي وأتقلّبُ، حتى وَكَزَ كتفي أحدٌ مّا صارخًا فيّ:

- أنتِ، استيقظي.

حاولتُ تجاهُل الصوت، آملةً أن تعبُرَ اللّحظة ويختفي، كعادة اللحظات دومًا، بيد أن ذلك الشخص وجّه إليّ أمرًا آخر، وبصوتٍ أعلى هذه المرة:

- انهضي، استيقظي حالاً.

فتحتُ عينيّ لأجد الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوح تقفُ أمامَ أنفي تمامًا. تسلّقَت كتفي وحَبَت على وجهي إلى أن وقفت حيث هي الآن، على ذقني، مُتخصّرة. تنظر إليّ بشيءٍ من الانتصار وجدتُه مُحيّرًا أكثر من كونه مُشوّشًا. الماكياج على وجهها لا ينقصه شيء، وشعرها مشدود ومصفوف بعناية كالعادة. تبدو، حتى في هذا الوقت المتأخر، متأهّبةً ولائقة. استغرقتُ ثانيةً إضافية كي ألاحظ أنها ترتدي لباسًا عسكريًا وعلى أكتافها شاراتُ رتبتها العسكرية. وقبل أن أحصل على فرصةٍ لأسألها لماذا تلبس هكذا، راحت تحدثني بنغمةٍ لم آلَفها من قبل:

- هناك أمرٌ شديد الأهميّة، عليك أن تنهضي الآن.

تأففتُ:

- حسنًا. ألا يمكن لذلك الأمر الانتظار حتى الصباح؟ لقد كنت مستغرقةً في النوم إن كنتِ لم تلاحظي ذلك!.

أجابت:

- أبدًا، لا يمكن تأجيله، إنّ أفضل وقت لأيّ انقلاب عسكريٍّ مُزمع حدوثه هو في ساعات الليل المُبَكِرةَ، حين يكونُ الجميعُ نيامًا، والمقاومة ضعيفة.

جلستُ في سريري وحدّقتُ فيها، مندهشةً، كحيوانٍ فاجأته كشّافاتٌ ضوئيّة:

- ما الذي قُلتِه؟

أجابت عن سؤالي المُنبَهِر بنظرةٍ باردة. لم أرها هكذا من قبل، ولا مرة واحدة خلال كل السنوات التي عرفتها فيها.

- بدءًا من هذه اللحظة، نُعلنُ انقلابنا. النظامُ في هذا المنزل قد تغيّر تمامًا.

ما الذي تحاول قوله هذا الفتاة؟ وَقَفَ شَعري حتى أطرافه، وبدأ الجَزَعُ يتصاعدُ في حلقي كالفقاعات، وأنا أحاول استيعاب الوضع.

قالت الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوح قبل أن تغادر:

- نتوقع منك الحضور خلال دقيقتين إلى غرفة المعيشة. لا تتأخري. لن يعجبك المجلس المُعَدّ لك.

مُترنّحةً من أثر النوم، غسلتُ وجهي ووضعتُ شالًا عليّ وأخذتُ الدرجَ نزولًا نحو غرفة المعيشة. كان في انتظاري مشهدٌ صاعقٌ عندما خطوتُ داخل الغرفة. أعضاء جوقة أصوات الفوضى مجتمعات هناك، وجميعهن متجهّمات. التوتُّر في الغرفة شديدٌ، حتى لكأنّني

أستطيعُ لمسه. المُسجّلة في الزاوية تُصدرُ ذاك النوع من الأغاني الذي لم أسمعه قط تحت سقف بيتي، إنها مزعجةً وعدوانيّة، كأناشيد دولة شنّت الحَربَ على جيرانها وجيران جيرانها جميعًا.

وقعت عيني أوّلًا على الآنسة المثقّفة الساخرة، وهي تجلسُ داخل سلّة الفاكهة على الطاولة، مُدليّةً قدميها، ونافخةً دُخانَ سيجارتها إلى البعيد. في العادة لا أسمحُ لفتيات الأصابع أولاءِ بالتدخين في المنزل، إلّا أنّ هناك ما يوعزُ بأنني أعيش لحظةً غير مناسبة لتذكيرها بذلك. هناك لمةً لم أعتدها في عينيها، مريبٌ ما تُخفيه، ولا أستطيعُ أن أضعَ يدي عليه لأعرفه. إنّها ترتدي معطفًا عسكريًا فوق ما تلبسه من أردية الـهيبز؛ تنسيقٌ رثٌّ لا ذوق فيه بتاتًا، أصابتني بالدوار.

ومن ورائها، رأيتُ الآنسة العمليّة القصيرة، وهي تتكئُ على عُلبة مناديل، مُرتدية سُترةً وخُفّين ضخمين أسودين، وبنطالًا جيشيًّا تُماثله في اللون خوذتها الخضراء. مُكتّفةً ذراعيها، وعاقدةً حاجبيها، تزفُرُ بصوتٍ مسموع. ولسببٍ أجهله، تتجنّبُ أيّ اتصالٍ بصريٍّ صريحٍ بي، إنها تحدق في الجدار.

وإلى جانب أصيص زهرة البتونيا، تحت النافذة، تجلسُ السيّدة الدرويشة، ضامّةً رُكبتيها إلى صدرها، وقد هربَت إحدى جدائلها من ربطة شعرها، مُسقطةً ظلّها على وجهها. وبعد أن دققتُ فيها النظر، تبيّن أنها كانت مُقيّدةً بالأصفاد إلى دولاب المدفئة.

قلتُ، وآثارُ الذُعر تُرجِفُ صوتي:

- ما الذي يجري هنا؟

قالت الآنسة التشيخوفيّة الطَمُوح:

الليلة، وبينما كنتِ نائمةً، عقدنا اجتماعًا طارئًا وتوصّلنا إلى

النتيجة القائلة بأن الوقت قد حان لتغيير كبير في نظام حياتنا. قُدُمًا، بدءًا من هذه اللحظة، غيّرت اسمي ليكون حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح، وتسلّمتُ زمام قيادة جوقة أصوات الفوضى.

وبغتةً سعلَت الآنسة المثقفة الساخرة.

فتداركَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح:

- أستميحُكِ عُذرًا، لقد تسلّمنا زمام الأمور، أي أننا، الآنسة المثقفة الساخرة وأنا، قمنا معًا بهذا الانقلاب.

لابُد وأن ما قالته كان نكتة، إلّا أنّ لفتيات الأصابع أولاءِ وجوهًا جادّةً ومُنفعلةً، وهو ما جعلني أُفضّلُ الإمساك عن الضحك.

دخلَت الآنسة المثقفة الساخرة في الحديث:

- من موقعي كرئيسة للمجلس التنفيذي في نظامنا الجديد، يُشرّفني أن أعلنَ أننّا سنُقرُّ قريبًا دستورًا يجعلُ من المستحيل، خلال السنوات الخمس والثلاثين القادمة، إزالتنا من مواقعنا. وبعد ذلك، سيتولّى أبناؤنا الحُكم.

اعترضتُ:

- هيه، أنتم، هذا أبعدُ ما يكون عن الديمقراطية.

لكن الآنسة المثقفة الساخرة تظاهرت بعدم سماعها لما قلت. إنها مُهتاجة هذه الليلة وتُحاول إخفاء ذلك، وهو ما يجعلُ حِرصها الزائد مُلفتًا. ويجعلها تبدو وكأنها تحت تأثير جُرعةٍ زائدةٍ من المقويّات. قالت:

- يسُرّني أن أُعلن عن أوّل قرارٍ تتخذه الحكومة الجديدة وهو إرساء السّلام في هذا المنزل.

نبستُ:

- لستُ أرى أيّ تغيير.

وأكمَلَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح:

- الآن وقد تمّ ترسيخ السّلام والنظام، فإنّ قرارنا الثاني هو ترحيلُكِ بعيدًا عن هذه المدينة.

أجبتُ مصموفةً:

- ماذا.. لمَ.. أين سأذهب؟

هَدَرَتْ حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح مُجيبةً، وهي مستمتعةٌ بسُلطاتها الجديدة:

- إلى أمريكا. سنذهبُ إلى العالم الحديث جميعًا.

قلتُ:

- حسنًا يا فتيات، هذا يكفي. لستُ ذاهبةً إلى أيّ مكانٍ حتى توضّحوا لي -بعباراتٍ بيّنةٍ وسَويّة- لِمَ تُريدونني أن أذهب إلى أمريكا؟

صمتوا للحظةٍ كأنهن لم يتوقعن ردّة فعلي هذه. هل اعتقدنَ حقًا أنهن جنرالات جيشٍ ولا يُمكنني مساءلتهن؟.

قالت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح:

- الأمر لا يخُصُّ أمريكا، بل يخصك أنت. كان يمكن أن ترحلي إلى أيّ مكانٍ آخر، أستراليا مثلًا أو اليابان. المهم هو أن تخرجي من اسطنبول تمامًا.

تمطّت الآنسة المثقفة الساخرة وقالت مؤيّدة:

- نحنُ ذاهبات إلى أمريكا لأنه حدثَ وأن قدّمنا مطلبَ منحَة جامعيّة باسمِكِ. ومبروك! لقد فُزتِ بها، جهّزي حقائبك.

شعُرتُ بانقباضٍ في معدتي، للتوّ أُدركُ إلى أيّ مدىً هُنّ جادّات.

أضافت الآنسة المثقفة الساخرة:

- قرّرنا أنّ عليك أخذ هذه الرّحلة حتى تزدادي نُمُوًّا ككاتبة. سيكون مُلهمًا لكِ الابتعادُ لبعض الوقت. نحنُ نقومُ بذلك لأجلك.

كررتُ وراءها:

- منْ أجلي؟

حتى لو أنها ميّزَت نبرة الازدراء في صوتي، لم يبدُ عليها أيّة علامة انزعاج أو امتعاض، أبدًا. قالت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح:

- سأكون صادقةً معك، لقد خطّطنا لهذا الانقلاب منذ فترة ليست ببسيطة. غير أنّ تصرفاتك الأخيرة غير المنطقية، هي التي جعلتكِ وحدَكِ المسؤولة عن تسريع العمليّة.

سألتُ، مُحافظةً على هدوئي قدر المستطاع:

- وما تلك التصرفات غير المنطقية التي أشرتِ إليها؟

قالت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح، وفي صوتها رجفةٌ من التعاطف:

- لم يكُن وضعك الذهنيّ مؤخّرًا على خير ما يُرام. لقد كبتْنا كُلّ هذه السنين كي تستطيعي النهوض كروائية. لم نبتعد عنكِ ولم نقم باستغفالك. قد يظنّ الناسِ أنّ الرواية تظفَرُ هكذا بضمّ الوقائع ومزْجها ببساطة في خَطٍّ حكائيٍّ واحد، لكنها ليست كذلك أبدًا. وراء كُلّ كتابٍ كدحٌ وعناء، ووراءه الشيء الكثير من الفرح والتعاسة معًا.

قلتُ:

- حسنًا، لمَ تُثيرين هذا الموضوع الآن؟

رفعَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح ذقنها عاليًا وأقامت

أكتافها، مثل أبطال الحرب، وقالت:

- هل قُمنا بكلّ ما قمنا به لأجل لا شيء؟ كيف تجرُئين على رَمي سنوات العرق كلها هكذا، بضربةٍ واحدة؟

اعترضتُ:

- انتظري لحظة. لَم أرمي أيّ شيء، من أين تجيئين بهذا كله؟

- من تصرفاتك بالطبع. كنت أراقبك لبعض الوقت. هل تظنين أنني لم ألاحظ؟

انفجرتُ في وجهها. لم يعُد بإمكاني تصنُّع الهدوء ولا محاولته:

- ماذا.. لاحظتِ ماذا؟!

- أستطيعُ أن أرى أنك تفكرين جديًّا بالإنجاب.

سألتُ:

- بحق الله، هل يدورُ كُلّ ما قمتم به حول هذا الأمر؟

قالت:

- نعم يا سيّدتي. أنتِ تتساءلين: هل يمكنني أن أُمسيَ أُمًّا؟ ما الأم التي سأكونها؟ إنني أتقدّم في العمر، وساعتي البايولوجية تَرِنّ. كلّ هذه الأفكار المؤذية تتردّد في رأسك، ولا أرى إلى أين ستقودك بالضبط. هل تظنّين حقًا أنّني لم ألاحظ كيف نظرتِ إلى ذلك الطفل؟

سألتُ مشككة:

- وكيف بدوت؟!

- كانت عيناك تتلألآن.

حاولت الدفاع عن نفسي:

- وما الضير في ذلك؟ هل..

لكنها قاطعتني فورًا:

- هناك سببان فقط كي تنظر امرأةٌ بعينين وقادتين إلى طفل امرأة أخرى؛ إمّا أنها تريد أن تعودَ طفلةً مجددًا، أو أنها تريد أن تصبح أمًّا. وخوفي أنّ السبب الثاني هو ما أنت فيه.

تدخّلت الآنسة المثقفة الساخرة:

- من الواضح أنك، لو بقيتِ هُنا في الجوار، ستضلّين الطريق.

سألتُ مُرتابةً:

- أضلّ عن ماذا؟

وبصوتٍ واحدٍ أجابت الآنسة المثقفة الساخرة ومعها حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح:

- عن مسارك الأدبي بالطبع، عن التحوّل إلى كاتبة ومثقفة كبيرة.. سبيلُك لذلك هو الكتابة والقراءة فحسب.

أجدُ نفسي مدهوشةً من عرضهم البطولي هذا أكثر من كُلّ ما نفثوه عليّ؛ مُنذُ متى صارت هاتان الفتاتان صديقتين؟

التفتُّ إلى الآنسة المثقفة الساخرة، رسمتُ ابتسامةً على شفتيّ وقلت:

- ظننتُ أنك لست ضدّ الأمومة. قُلت إنّها لا تُشكّل فرقًا. قُلتِ إنّنا بائسون بطريقة أو بأخرى.

أجابت وهي تومئ برأسها:

- بالضبط. لقد قرّرت الآن أنه من الأفضل أن تكوني كاتبةً بائسة عن أن تكوني كاتبةً وربّة منزل وزوجةً وأمًّا بائسة.

بدأ رأسي يدور. وبدأتُ أتساءَلُ: ماذا عن الآنسة العمليّة القصيرة؟ لقد كانت صامتةً بشكلٍ لم أعهده. وعندما لاحظَت نظراتي الفضولية

نحوها. قامت –بدافعٍ من الشعور بالذنب– باللعب بسحّاب سُترتها.

سألتها:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟ لطالما ظننتك إلى جانب الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق الحُر!

أقرّت:

- بلى، لستُ من هواة المجالس العسكرية، إلا أنني خضعتُ لإغواء المعيشة المريحة.

- أيّة معيشة مريحة؟

- حسنًا، في البدء لم أكن متحمسةً للانقلاب. لكنني بعد تفكيرٍ حريص رأيت المنافع التي سأجنيها من الذهاب إلى أمريكا، فالحياة هناك أكثر استقرارًا وتنظيمًا. ستُلبّى حاجاتي كلّها بطريقةٍ أفضل. هل يبدو لك ذلك براغماتيًا؟

قلتُ:

- هذا يُدعى انتهازيّة، لا براغماتية.

قالت الآنسة المثقفة الساخرة:

- لا داعي لكي تبتئسي. لو أخذنا وقتنا في قراءة نظرية هابرماس المدعوّة بـ(الفعل التواصلي)، لأدركنا أننا جميعًا نستطيعُ التعايش معًا. فبما أن النظام العقلاني والفعل العقلاني ليسا شيئًا واحدًا، وبما أنّنا –نحن فتيات الأصابع– أفراد أحرار، فإنّنا نستطيعُ أن نتواصل معًا عبرَ السببيّة التواصلية، وأن نتوصّل إلى فهم مشتركٍ للأمور.

قالت الآنسة العمليّة القصيرة:

- «أوهووووه، ماني عارفة عن إيش تتكلم ذي،» لكنني أوافقها

الرأي على أيّة حال!

لا أصدق ما أسمعه! لطالما ظننتُ أنّ أعضاء جوقة أصوات الفوضى متابينات، بيد أنّ الاستيلاء العسكري، كما يبدو، قد وحّدهم.

حينها فقط نظرت إلى السيّدة الدرويشة، وقد كانت لا تزال تجلس على الأرض، بعينين مُمتلئتين بالوَجل ووجهٍ غارق في التفكير والتأمل. وهي الوحيدة التي لا ترتدي بزّةً عسكرية من بين فتيات الأصابع.

همستُ:

- وماذا عنها؟

ضايقَ هذا السؤال الجلّادات من حولي. وبعد سكون مُريبٍ لم يطُل كثيرًا، قدّمَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطّمُوح جوابًا:

- لسوءِ الحظ، لم تؤيّد السيّدة الدرويشة انقلابَ منتصف اللّيل الذي قمنا به، وعلى الرغم من كل محاولاتنا الجادّة لإقناعها، لم نستطع تغيير رأيها. أخبرتنا بأنها لن تُحاربنا ولن تقف في طريقنا، لكنها لن تدعم مسعانا مهما كانت الظروف.

سألتُ:

- ولمَ هي مقيّدة إذن؟

- حسنًا، كان ذلك خطأها. حاولَت تنظيمَ مُظاهرة سلميّة، مُلقيةً نفسها تحت أقدامنا مثل غاندي المُعمّم، ولم تترُك لنا خيارًا آخر سوى اعتقالها.

ثم أضافَت الآنسة المثقفة الساخرة:

- إنها الآن سجينةٌ سياسية.

لا أصدّق ما تسمعه أذُناي. لقد تمادت فتياتُ الأصابع كثيرًا، ولستُ أعرفُ كيف أعيدُ السيطرة عليهنّ -طبعا هذا لو افترضنا أنني

سيطرتُ عليهنّ يومًا- أريدُ التحدث مع السيّدة الدرويشة على انفراد، عليّ أن أنتظر اللحظة المناسبة لذلك.

ظلّلت الغرفةَ عباءَةٌ من الصمت، السـاكرُ يجوبون المكان، وداعية السلام المكثّفة تجلسُ أرضًا، وأنا أحدّق إلى الأسفل. وأخيرًا، اقتربت منّي الآنسة العمليّة القصيرة وسلّمتني مظروفًا.

سألتُ:

- ما هذا؟

- إنّها تذكرة الطيران. ستغادرين غدًا. ستكون فكرةً سديدةً لو بدأت فورًا بإعداد حقائبك. لقد دوّنتُ لكِ قائمةً بما تحتاجين إلى أخذه معك.

- موعد الطائرة قريبٌ جدًّا! لكن إلى أين سأذهب بالتحديد؟ وأيّة منحةٍ تلك التي فزتُ بها؟ إني لا أعرفُ شيئًا!!

وجاء الجواب من حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح:

- تسعون دقيقةً عن مدينة بوسطن، هناك كُليّةٌ رائعة اسمها تلّة هوليوك. ستذهبين هناك، إلى حَرَم جامعيٌّ للفتيات فقط!.

تدخّلَت الآنسة المثقفة الساخرة قائلةً باعتزاز:

- لقد فُزتِ بمنحةٍ تُعطى لعدد محدود من الفنّانات والأكاديميات والكاتبات من حول العالم. إنّ هذا الحرم الجامعي مِحْوَرٌ ثقافيٌّ نشط. سترين ذلك.

لم أستطع العودة إلى النوم بعدها. قلبي يأمرني أن أُقلِعَ إلى أبعد مكانٍ في العالم بحلول الصباح. ولكن، كم من المسافات التي عليّ ركضها لأبتعد عن جوقة أصوات الفوضى التي بداخلي؟. تذوبُ شجاعتي الآن كالشّمع الدافئ. أجلسُ قلقةً ومضطربة، أراقب شروق

الشمس. في ذلك الضوء الرقيق، كل شيء يتبخّر من حولي بسُرعة:
الليل، الأسماء، الأماكن...

في تلك اللحظة، عرفتُ بعظامي وروحي أن الصّيفَ قد بلغ نهايته،
ليس بالتدريج، أو بشكلٍ لا يُدرَك، بل خلال لحظةٍ واحدةٍ فقط، بقفزةٍ
مفاجئة هائلة.

رُبما كُلّ صَيفٍ هكذا، يذهب ويذهب، بلا أحداث، وبكسل، وحالما
تعتاد على إيقاعه البليد، ينقطع وينتهي، تاركًا إيّاكَ غيرَ مُستعدٍّ بتاتًا
للخريف البارد.

كل ما أعرفه هو أن فصلًا جديدًا في طريقه إليّ.

الفصل الثالث

العقل في مواجهة الجسد

حيثُ تتنزّهُ الجنيّات

وبعدَ ساعة من مغادرة الفتيات الثلاث المرتديات بزّات عسكريّة الغرفة، لكي يُجهّزوا أمتعتهم، كان عليّ أن أنقذ المعتقلة السياسية. لذلك تسلّلتُ نحو الأسيرة وكأنّني بطلةٌ في فيلم حربٍ إسمه: إنقاذ العميلة السيّدة الدرويشة!، تسلّلتُ بحذرٍ ودون إصدار أيّة ضجّة، وبمساعدة مِقَص، قطعتُ عُقدة قيدها. فحرّكت رسغيها وغالبت التعب لكي توجّه لي ما يشبه الابتسامة، ثمّ قالت بوَهن:

- شكرًا عزيزتي.

وبعد انتهائي من عمليّة التحرير هذه، خرجتُ من المنزل سرًّا. أنا أمشي وهي مقرفصةٌ في حقيبتي، تُطلّ برأسها من حينٍ إلى آخر لتنظر حولها. وفي اللحظة التي وصلنا فيها إلى الشارع، بدأتْ بالاعتراض:

- لا أصدق أنهنّ يفعلن ذلك بي. هل فقدنَ عقولهنّ؟ لقد تخطّينَ هذه المرّة كُلّ حَد..

أنصَتت إليّ السيّدة الدرويشة بحاجبين مرفوعين، ولم تقُل شيئًا. تابعتُ:

- والآن يُردنني أن أُقلع إلى أمريكا، هكذا ببساطة، ودون مقدّمات. تَدرين؟ رُبما علينا، أنتِ وأنا، أن نحمل السلاح ونُنظّم حركة مقاومة سرّية ونُسقط هذا النظام الجديد. سيفزعن رُعبًا!.

قالت السيّدة الدرويشة:

- أنا سِلميّة. لا أحمل السلاح. متى ما واجهك غريمٌ وخصم، انتصري عليه بالحب. هذا ما علّمنيه غاندي.

- مع تقديري واحترامي العميقين، لكن علينا ألاّ ننسى بأن السيّد غاندي لم يُقابل حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح.

- رغم صحّة ذلك، فإن الفيل لا يستطيع أن يبتلع قنفذًا.

- هل كان غاندي من قال هذا؟

- لا. إنه أحد شعارات ربيع براغ. إذا كُنتِ قادرةً على ترديد شعارٍ كهذا عام 1968 أمام المدرّعات السوفياتية، فأنتِ قادرةٌ على ترديده مجددًا أمام فتيات الأصابع الخاصّين بك.

لم تكُفّ أبدًا عن إبهاري، هذه المرأة الصوفية التي تسكنني.

سألتني السيّدة الدرويشة:

- اُنظري حولك يا أَلِيف، ما الذي ترينه؟

عابرون مسرعون إلى نهاية الشارع، وكُتّابٌ يقفون بثبات في حفلاتٍ تغُصُّ بهم، وباعةٌ متجوّلون يبيعون حقائب مغشوشةً لمُصممين عالميين، وأطفال الشوارع وهم يصقلون زجاجَ السيارات الفارهة التي توقفها أضواء الإشارات الحمراء، ولوحات إعلانات تُسوّقُ لطُرُقٍ سريعة للربح والمعيشة الفارغة. إنها مدينةٌ من المتناقضات الأبدية.. هذا ما أراه حين أنظر حولي في اسطنبول.

قالت السيّدة الدرويشة:

- حسنًا، والآن اُنظري إلى نفسك، ما الذي ترين؟

امرأةٌ منقسمة من الداخل، نصفها شرقي، ونصفها غربي. امرأة تعشق عالم الخيال أكثر من الواقع؛ أحبطتها العبارات الواهمة، عامًا بعد عام، والصداقات الخاطئة وعلاقات الحُب الضالة.. لا تزال

تعيش وجع أنها كبُرَت بلا أبٍ إلى جوارها. امرأةٌ كسرَت قلوبًا وانكسر قلبها مرارًا، تلك التي تهتمُّ كثيرًا لما يقوله الآخرون، وتخاف من فكرة أن الله ليسَ مُهتمًا بها حقًا، وتسعدُ وتعيشُ كمالها، فقط عندما تكتب الرواية. وبعبارةٍ بسيطة، إنها امرأةٌ قيد الإنشاءِ!. ذاك ما أراه عندما أنظر إلى نفسي. إلّا أن لساني لا يتماون معي لأُدلي بهذا الاعتراف. وفي صمتي الجاثم، قالت السيّدة الدرويشة:

- عليك أن تقبلي الكون ككتابٍ مفتوحٍ ينتظرُ قارئَهُ. على المرء أن يقرأَ كل يوم، صفحة بعد صفحة.

كان صوتها هادئًا وخفيضًا، حتّى أنّني شعرتُ بالحرج من غيظي الذي فاضَ مني قبل قليل.

- أخبريني، كيف يمكنني قراءة ذلك كل يوم؟

قالت السيّدة الدرويشة وكأنها تُمسكُ بفنجان قهوةٍ غير مرئي بين كفّيها، تقرأ منه حظوظي:

- هُناك رحلةٌ تقرعُ بابك. ونسوة الأصابع الثلاثة الأخريات لن يدعنك في حالك حتى تغادري اسطنبول. سيقلقونك صباحًا وليلًا.

تنهّدتُ بصوتٍ عالٍ وقلت:

- أوه، أعرفُ ذلك جيدًا.

قالت السيّدة الدرويشة:

- أعتقد أن عليك، يومًا ما، أن توقّعي معاهدة سلام معنا جميعًا. السبب الذي يجعل نسوة الأصابع يتخاصمن حولكِ هو أنك أنت تخاصمين بيننا؛ تظنين أنّ بعضنا أهمُّ من البعض الآخر، لكنّنا في الحقيقة لسنا سوى انعكاساتٍ لكِ. كلنا واحدٌ هو أنتِ.

- تُريدين منّي ألّا أُفرّق بينك وبين حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح؟ إنكما مختلفتان تمامًا!

- ليس علينا أن نتشابه ونتطابق حتى لا تُفرّقي بيننا. فنحن نتشارك جميعًا الماهيّة نفسَها. لو أنّكِ فقط تستطيعين فهم هذا حتّى تدركي أن كل صوت داخلك هو جزء منك، من مُحيط الدائرة التي أنتِ مركزها. دون ذلك، ستبقين في الشّتات. وَحّدينا لتهتدي.

- تطلبين مني أن أحتضنهنّ، هؤلاء الحمقاوات، لقد أجروا انقلابًا عندما كنتُ في النوم، بحقّ الله! أجدُ أن داعية السلام، دائمًا وأبدًا، هو مَن يثقُ بالمُستبد والطاغية، ولم يحدث العكسُ قطا!.

أومأت لي السيّدة الدرويشة وابتسمت ابتسامةً دافئةً كالعناق:

- رُبّما.

رُحتُ أرمُقُها منتظرةً أن تُفسّر أو تشرَح. وحينها، جرت على لسانها هذه القصة:

- «يُحكى أنّ فلاّحا صينيًا فقد حصانه الوحيد الّذي كان يساعده في أعمال الحقل. فجاء إليه جيرانه في العشيّة يواسونه في مصيبته قائلين: أيّة مصيبة حلّت بك! فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري! في اليوم التالي رجع الحصان إلى صاحبه ومعه ستّة جياد بريّة أدخلها الفلاّح إلى حظيرته. فجاء إليه الجيران يهنّئونه قائلين: أيّ خير أصابك! فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري! في اليوم الثالث عمد ابن الفلاّح الوحيد إلى أحد الجياد البريّة فأسرجه عنوة واعتلى صهوته، ولكنّ الجواد الجموح رماه عن ظهره فوقع أرضا وكُسرت ساقه. فجاء

الجيران إلى الفلاّح يواسونه قائلين: أيّة مصيبة حلّت بك. فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري! في اليوم الرابع جاء ضابط التجنيد في مهمّة من الحاكم لسوق شباب القرية إلى الجيش، فأخذ من وجدهم صالحين للخدمة العسكرية وعفّ عن ابن الفلاّح بسبب عجزه. فجاء إليه الجيران يهنّئونه قائلين: أيّ خير أصابك! فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري!»[1]

سألتني السيّدة الدرويشة:

- هل ترين ما أرمي إليه؟

أجبتُ:

- أظنُّ ذلك!

- أُريدُك أن تتعاملي مع المنحة الجامعية بوصفها فُرصة، لا أمرًا مفروضًا عليك. لا يهم حقًّا إن كانت في تركيا أم الولايات المتحدة. المهم هي الرحلة التي تطوينها بداخلك. لن تسافري إلى أمريكا، بل ستسافرين في أعماقك. فكّري في الأمر على هذا النحو.

إنّها تتمتعُ بثقة غامرة وصفاء سريرة. يُعجبني فيها ذلك. قد تكون على حق. عليّ أن أتعلّم العيشَ في كلّ يوم بسلام، سلام تامّ مع أصواتي الداخلية. لقد أدركني التعب من معاركي المستمرة معها.

بسُرعة وعلى عجلة، لوّحتُ لسيّارة أُجرة. قلتُ للسيّدة الدرويشة فاتحةً لها باب العربة:

---

(1) خيّرنا في ترجمة هذا المقطع، نقلَ ترجمة فراس السواح له نقلا حرفيًا، لأنّه أكثر دقّة من الحكاية التي أوردتها ألف شفق.

أُنظر: لاوتسو، كتاب التاو، صياغة عربية للنصّ، تقديم وشرح وتعليق: فراس السوّاح، دار علاء الدين، دمشق، 1998. ص 9.

- هيّا لنذهب.

- إلى أين؟

أجبتُ مبتهجة:

- إلى محطة القطار!.

قالت بضحكة خافتة:

- هل قررتِ الذهاب إلى أمريكا بالقطار؟

هززتُ رأسي:

- أريدُ فقط الذهابَ واستنشاق روائح القطارات..

أردتُ فقط أن أقضي بعض الوقت في المحطة- أستنشقُ شذاها الغريب اللاذع؛ عطور الناس المسرعين في كلّ اتجاه، والرائحة الثقيلة النفّاذه للمُعْوزين والمهتوكين بأحلام الثراء، والإشارات المنعشة لجهات جديدة. فكلّما شعرتُ بحاجة للتفكير في أحجية ما، أو أردتُ مراقبة العالم.. كلّما استيقظَت المرأةَ البدويّةُ الرحّالة بداخلي، ذهبتُ هناك. المطاراتُ مُجدبة جدًا، إنها نظيفة ومُتحكّمٌ بها مُقارنةً بمحطات القطارات، حيثُ قلوب المحرومين لا تزال تنبض.

مبنى محطة حيدر باشا عتيق وساحر، ومزدحم بالذكريات. وككل المباني القديمة الفاتنة، له هو أيضًا جنيّاته، وله أشباحه. يَحُطّون على النوافذ العالية ويرمقون المسافرين في الأسفل. يشهدون الأزواج ينفصلون، والعُشّاق يلتقون، والعوائل تجتمع، والأصدقاء يتفرّقون.. ينظرون إلى الألف مأزقٍ ومأزق لأبناء آدم وبنات حواء، ينظرون إلينا ونحنُ لا نزالُ نحاول الحياة.

ماذا لو ذهبتَ هناك وسرتَ مباشرةً إلى منتصف المحطة، ووقفتَ ساكنًا في منبع الضجّة تمامًا، بعينين مغمضتين؟ أَنْصِت جيّدًا، فسوف

تسمع جنيّات المحطة وأشباحها يتهامسون، ينبسون بكلمات غريبة كالشّعر، كاللغات المنقرضة. سيتناهى إلى سمعك أنهم يقولون، كما قال الشاعر الإغريقي قسطنطين كفافي:

لن تجد أرضًا جديدةً،

لن تجد بحارًا جديدة..

المدينة تتبعك

وستجولُ أبدًا في الشوارع ذاتها..

نساءٌ يُغيِّرنَ أسماءهُن

كنتُ في الثامنة عشرة عندما قررتُ تغيير إسمي. كنتُ سعيدةً باسمي الأوّل بشكلٍ هائل: أليف. وهو اسمٌ معروفٌ للفتيات في تركيا. إنه الحروف الأوّل من الأبجدية العثمانيّة: «أ». هذا الحرفُ موجودٌ في اللغات العربية والفارسية واليهودية والتركية.. وإلى حدود معرفتي، هو الحرف الوحيد الذي يُطلَقُ كاسم على النساء. خلال السنة نفسها، قرأتُ كتاب بورخيس: «الألف». تعرّفتُ على وصفه البصري لرسم الحرف، إنه بصريًا نُقطةٌ لا يمكن تتبّعها في فضاء يضُمُّ النقاط جميعها. ليس وصفًا سيئًا! هكذا ظننت. كنتُ أخطو دونَ تردد بكُلِّ غرور الشباب فيّ، واستمتعتُ بفكرة أن أكون مربوطةً بحرف، رغم أنني أحببتُ لو عانقتُ الأبجدية كلها.

لكنها قصّةٌ أخرى تلك التي تتعلق بلقب عائلتي. لطالما أغاظني أننا، كنساء، من المتوقع منّا بدءًا أن نَرِث ألقاب عوائل آبائنا، ومن ثم أزواجنا. وبما أنني كبُرتُ دون أن أرى أبي، فإنّني لم أستطع أن أفهم، طوال حياتي، لمَ عليّ أن أحمل لقب عائلة أبي؟ ولأنني اتخذتُ قرارًا بعدم الزواج أبَدًا، أي أنّني لن أحملَ لقبَ زوجي على الإطلاق، فقد انتهيتُ إلى أنّ نظام ألقاب العائلات هذا لا ينطبق علي.

كنتُ أتفكّرُ في هذه المفارقة لفترة طويلة، حتى اختارت مجلّة أدبيّة تركيّة مرموقة إحدى قصصي للنشر. مُحرر المجلة، رجُلٌ مثقفٌ في أواسط الأربعينات من عمره، اتصل بي وهنّأني ورحّب بي في جماعة

الأدب التي قال عنها:

- لا تختلف هذه الجماعة الأدبية عن غابةٍ مغرورة الكائنات.

وهو ينهي المكالمة، طلب مني أن أُعلمهم ما إذا كانت هناك أيّة تغييرات طفيفة أريد إجراءها على القصة قبل موعد طباعة المجلة.

أجبتُ بعُجالة:

- نعم، لقب عائلتي، سأغيّره.

- هل أنتِ على وشك الاقتران؟ تهانينا!

قاطعته:

- لا، ليس بهذا الشكل، لقد قررت أن أعيد تسمية نفسي.

صدرَت عنه ضحكة منخفضة، تلك التي تصدر عن الناس عادةً عندما لا يعرفون ما عليهم قوله. ثم قال، ببطءٍ وبصوتٍ عالٍ، كأنه يتحدث إلى طفلٍ يعاني من مشاكل في السمع:

- أوكي، وكيف تريديننا إذن أن نكتب اسمك؟

فاعترفتُ له:

- لستُ أدري بعد، إنه قرارٌ مصيري. عليّ أن أُمعنَ التفكير فيه.

صمتٌ مُريبٌ سادَ الجانب الآخر من الهاتف، وبعدها أطلق المُحرر ضحكةً أخرى:

- حسنًا، لا بأس، فلتتقدمي ولتقومي بما تريدينه. وما الضير في ذلك؟ ألستِ امرأة؟ لا سبب إذن يُجبرك على أخذ الأمر بجديّة بالغة، إذ حتى لو اخترتِ أكثر الأسماء شاعريّةً لقبًا لكِ، فسينتهي بك الأمر إلى لقب زوجك أيًّا كان.

أجبتُ:

- أمهلني يومًا، سأجد لقبي الذي سأحمله إلى الأبد، سواء تزوجت

يومًا أم لا.

كلُّ اسم هو معادلةٌ فاتنة. تتراقص الأحرف فيه معًا، ولكل حرف طريقته في الالتفاف والابتهاج، وكل واحد منها مجهولٌ كالأحرف الأخرى، وتُدبّرُ مؤتلفةً الألغازَ والأحاجيَ التي تحملها الأسماء. الأحرف مثل مشعوذات في الظلام، تُضيفُ الحرفَ إلى الحرف، عُنصرًا إلى عُنصر، حتّى تتشكل اللغة التي عُرفنا بها وَوُهبنا نطقها. هنالك أسماءٌ تقفزُ بنا عاليًا في السماء، وأخرى تزنُ ثقلًا هائلًا على كواهلنا، وبمكرٍ تجُرّنا إلى أسفل.

يعيشُ الرجالُ دون الشعور بالحاجة إلى تغيير ألقابهم. يُعطى لهم في لحظة الولادة ما يُعرَفون به إلى الأبد. لقبٌ ثابتٌ وراكز. إنهم يَرِثون ألقابهم من آبائهم الذين ورثوها من أجدادهم، ثم يمررونها بدورهم إلى أبنائهم وأحفادهم.

بالنسبة إلى النساء، سواء أدركن الأمر أم غابَ عنهن، فإنهن رحّالات بين الألقاب. يجدن ألقابهن اليوم هنا، ثم يرقبنها ترحل غدًا. تقوم النساء خلال حياتهن بتعبئة أوراق رسميّة بمعلومات مختلفة، يتقدّمن بطلب جوازات جديدة ويبتكرن أكثر من إمضاء. يمتلكن لقبَ عائلة واحد وهُنَّ بنات، ولقبًا آخر بعد زواجهن. ثم يرجعنَ للقبهن الأول عندما يتطلقن- إلاّ أنهنّ يحتفظن أحيانًا بألقاب أزواجهن السابقين لأسباب عمليّة. لا تجعل أمور الحياة بالضرورة أسهل- وعليهن أن يتأقلمن مع لقب آخر تمامًا إذا تزوّجنَ مرّةً أخرى.

للرجال إمضاءٌ واحدٌ ثابت، إذ فورَ أن يبتكر الواحد منهم إمضاءً يعجبه، يستطيعُ الإبقاء عليه حتى الموت، دون اضطرارٍ لتغيير ولو انعطافة واحدة فيه. أما النساء، فلديهن على الأقل إمضاءٌ واحدٌ قديم وآخر جديد، ويخلطن بينهما في بعض الأحايين: إمضاء العزباء،

وإمضاء المتزوجة، وإمضاء المطلّقة.

مرّت الكاتبات بسلسلة من عمليات تغيير الأسماء. إنّ فاطمة توبوز، الروائيّة العثمانية في الفترة المتأخرة من القرن التاسع عشر، كتبت قصصها ورواياتها غالبًا في السّر، لأنّها لم تُرد أن تُغيظ زوجها وعائلتها بأفكارها الاستقلالية الحُرّة. وفي يوم ما، توقّفت عن استخدام اسمها الحقيقي في عملية النشر، وبدأت تُكتب تحت اسم مستعار: إحدى النساء!.

لأن هذا حقًا ما كانته: امرأة، أيّة امرأة، كل النساء. التخلّص من اسمها كان بمثابة التحرر من المرساة التي تشدّها إلى اليابسة. عندما كفّت عن أن تكون السيّدة فاطمة توبوز، وصارت إحدى النساء، حينها فقط أمسَت حُرّةً للإبحار أينما رغبت.

ظهرت في تركيا رواية رومانسية عام 1950 بعنوان: «صبايا صغيرات» لمؤلّفها فنسنت يوينغ. تصدّرَ الكتاب سريعًا قائمة أكثر الكتب مبيعًا، وغطّت أخباره وسائل الإعلام بشكل واسع. وجه الاستغراب أنه لم يكن أحدٌ يعرفُ المؤلف. لم يستطع أيُّ صحافيٍّ أن يُجري مقابلةً معه أو يحصل على تصريح منه. ثلاثة أمور فقط كانت معلومةً عنه: أنه أمريكي، ومسيحي، ورجُل. قرأ الأتراكُ الكتابَ بتلك الخلفية في أذهانهم.

جرت السنوات، وفي يوم من الأيّام، تمّ الإعلان عن مؤلّف ذاك الكتاب فإذا هو في الحقيقة امرأةٌ تُركيّةٌ مُسلمة، تُدعى نهال يينوبله.

عندما سُئلَت لمَ اختارت أن تخفي هويتها، جاء جوابها آسرًا:

«كنتُ أنا نفسي صبيّةً صغيرةً عندما كتبتُ الرواية. وضعتُ فيها قدرًا لا بأس به من الشهوانية، التي تُعتبر غير ملائمة للفتيات اليافعات أمثالي وقتها. لذا، اخترتُ اسمًا مستعارًا لرجُل. وأثناء ذلك، كان

هناك اهتمامٌ متعاظمٌ بالروايات المترجمة. لذا قررتُ أن يكون كاتب روايتي أمريكيًا. وادّعى ناشري أنها تُرجمَت عن الإنجليزية».

أن ننشُرَ نحنُ النساء كتابًا تحت اسم رجُل من قَبيل «فنسنت يوينغ» أو تحتَ اسم مُستعارٍ مثل «إحدى النساء»، فذلك يُلبسنا درعًا نحمي به أنفسنا. ونحتاج إلى الحماية أكثر عندما نكتب عن الجنس أو الأنوثة والجسد. لم أعرف أي كاتبٍ على الإطلاق صارعَ في كتابته للمشاهد الجنسية والصور الجسدية كي لا تغتاظ منه أمه أو جدته (أو حتّى عماته الكبيرات وخالاته وجيرانه أو أيّ شخص من أقاربه الأبعدين). وإن كان هناك بعضُ الكتّاب، فلا بُدّ وأنهم قليلو العدد. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ القلق بشأن أخذ تصريح لكتابة قصة -شخصيةً كانت أم عائلية- هو من شأن الكاتبات وحدهنّ حول العالم. هذا هو الحصار الهائل الذي كتبَت عنه مارغريت آتوود في مقالها المُحكم السبك عن العمّات الكبيرات. لقد كتبَت:

«شعور النساء بالحصار يكون على أشُدّه داخل العائلة.. ويزيدُ كلّما كانت العائلة قويّة ومتماسكة».

من تركيا إلى كندا، من المجتمعات الصناعية إلى المجتمعات ما بعد الصناعية، تجتازُ الكاتبات الكثير من الحدود الخفيّة؛ في الزواج والملاقات العائلية وقاعة الدرس والمجتمع. وكل اجتيازٍ يُشكّل سببًا لتغيير لقب العائلة وإخفاء الهوية الجنسية.

وليس من باب الفراغ أنّ كاتبةً معروفةً أخرى، ربما أعظم روائيّة في العصر الفيكتوري، انتخبت اسمًا مستعارًا ذكوريًا لها- لقد كانت ذات عزم معقود، وعقلٍ راجح، وكانت مُحافظةً أيضًا. إنها ماري آن إيفانس، المعروفة باسم جورج إليوت. كان لبريطانيا القرن التاسع عشر حصّتها من الكاتبات- إلّا أن أغلبهن كُنّ يكتبن عن

الرومانسيات والحُب وآلام القلب المُحب، مواضيع شاعَ الاعتقاد بأنها تناسب النساء. أمّا بالنسبة إلى جورج إليوت، فقد كَرِهَت كُلّ تلك الكتب جهارًا. أرادَت أن تكتُبَ وأقدامها تقف موازيةً لأقدام الرِّجال. أرادت أن تكتب (كرجُل)، لا (كامرأة).

عدم تذوّق جورج إليوت لأدب النساء كان حادًّا ولا يعرف الخجل، حتى أنها نشرت مقالًا عام 1856 بعنوان: «روايات سخيفة بأقلام روائيات». قامت بتقسيم الروايات التي كُتبت بأقلام نسائية، حسب درجة سخافتها، إلى أربعة أصناف: زَبَدي، ومُمِل، وتَقي، ومتحذلق. أستمتعُ شخصيًا بقراءة هذه المقالة المثيرة، لا لكي ألقي نظرةً على العادات الأدبية في العالم الغربي، بل أيضًا لأعرف إلى أيّ حدٍّ يمكن لكاتبة أن تسيء الحديث عن بنات جنسها.

لم يكُن مستغربًا من إليوت أن تتقدّم عن صفّ النساء الأخريات. ففي رسالة لها للفيلسوف وعالم الأحياء هربرت سبنسر، تحدّت المجتمع التقليدي بجُرأة، وعزلَت نفسها جانبًا عن بني جنسها:

«أعتقد أنه لا وجود لامرأة قبلي كتبَت رسالةً كهذه، ولستُ مُستعرّةً منها، لأنني واعيةٌ بأنني -تحت ضوء السببية والمراجعة الحقيقية- أهلٌ لاحترامك ولُطفك مهما اعتبروا فعلي مشيننا ومهما كانت النعوت التي سيصمني بها أولئك الرجال الوقحين ونساء الأذهان السفيهة».

وعلى نحوٍ مُماثل، شعرت الأخوات الثلاث «برونته» بالحاجة إلى إعادة صياغة أسمائهن، فاخترنَ ألقابًا تبدأ بالأحرف الأولى لأسمائهن: صاغَت شارلوت اسمها كورير بيل، وصاغت آن اسمها أكتون بيل، أمّا إيميلي فصارت إيليس بيل. من الأسهل تلافي الإجحاف الواقع على النساء عندما تتبنّى الواحدة منهن اسمًا يُمكنُ إطلاقه على الرجال والنساء على حدٍّ سواء. لعبت الأخوات هذه

اللعبة الخبيثة إلى أطول فترةٍ استطعنها. كان تحديهنّ الوحيد هو كيف يموّهنَ الأمرَ على ساعي بريد القرية عندما يجيءُ بالطرود. وانحلّت المُعضلة بالتأكد بجعل المُرسلين يمثون رسائلهم إلى: كورير بيل، عناية السيّدة برونته!.

كاتبةٌ أخرى انتقت اسمًا مستعارًا من الأسماء المشتركة بين الرجال والنساء، هي الأسطورة جورج ساند، رغم أن المرء قد تنتابه فكرة أنها أرادت التخلص من اسمها الطويل جدًا لا أكثر: أمانتين أورو لوسيل دوبن برونس دوديفانت.

تزوّجت جورج ساند من بارون م. كاسيمر دوديفانت عام 1822م. وبعد بفترةٍ وجيزةٍ من إنجابها طفلين منه، انفصلت عنه. رحُبَت ساند بوضعها الجديد، وضعِ الانفصال والتحرُّر من قيود المجتمع. ولكونها مُطلّقة وعزباء وغنيّة، أتيحَت لها فرصة أن تكون أكثر جُرأة من بقية النساء، وأن تخطو خطواتٍ لم يفكّرن في مجرّد الحلم بها.

واحت ساند ترتدي ملابس رجالية- وهو أمرٌ تناوله بلهفة ومُتعة صانعو الشائعات. وكامرأة أرستقراطية، كان واجبها المَدَنيّ يُحتّم عليها أن تكون شديدة الأناقة والمحافظة، وأن تمطي انتباهًا خاصًا لهندامها وحديثها وتصرّفاتها، بيد أنها قامت بعكس ذلك ببساطة، لقد ارتدت أرديةً رجالية مُريحة وعملية. وكان شغفها بتدخين الغليون فضيحةً أكبر. ففي عصرٍ كان يُتوقّع من المرأة فيه أن تكون مطيعة، وسيّدة اجتماعية، ولا شيء آخر، تجوّلت ساند في الجوار ببزّات رجالية، رافعةً الغليون في فمها، والأفكار الثورية تعتملُ في رأسها. كانت مثل شجرةٍ فارعة تجذبُ الضوء من كل الجهاتِ، جذبت الانتباه والحنقَ أيضًا. ففي النهاية، لقبها الأرستقراطي قد أُخذَ منها. بيد أنه لم يستطع أحد أن يُصادرَ الاسمَ الذي اختارتهُ لنفسها. فقد كانت،

جورج ساند، ولا تزال.

وكما قال عنها مرّةً أيفان تورغينيف، إنها كانت: «امرأةً طيّبة القلب، ورجُلًا شُجاعًا».

مرّةً، وقعَت جاين أوستن في الحُب. كانت امرأة تنتقد النساء اللواتي يتزوّجنَ من أجل الثروة والوجاهة أو الشعور بالأمان، مؤمنةً تمامًا بأن المرء يتزوّج فقط عن حُب. وعلى الرغم من ذلك، على الرغم من أنها أحبَّت من بادَلَها الحُب، فإنّ الفروق الطبقية جعلت زواجهما محظورًا ومستحيل الحدوث. كان اسمه توم ليفوري- شابٌّ لم يكن يملك شيئًا سوى اسمه، والذي سيصيرُ فيما بعد رئيسَ المحكمة العُليا في إيرلندا. وفي رسالةٍ مؤرّخة في الشهر الأول من عام 1796م موجّهة إلى أختها كاساندرا، اعترفت أوستن أن توم هو حُبّ حياتها، إلا أنها أضافت بسرعة: «عندما تتسلمين هذه الرسالة، سيكون الأمر قد انتهى. تسيلُ دموعي لهذه الفكرة الحزينة». وبقلبٍ منفطرٍ، عادت إلى زاويتها، إلى كتاباتها.

قالت:

«أظن أنني أتباهى بكوني، مع كل غروري المحتمل، أكثر امرأةٍ تجرأت على أن تصير مؤلفة، رغم جهلها ومعلوماتها المغلوطة».

لم يكن ذلك صحيحًا بالطبع، وهي تعرف ذلك. كانت أوستن عليمةً بمواضيع شتى، فقد تعلّمت على نحو رائع على يدي أبيها -كان كاهنًا- وإخوتها وعمّاتها وخالاتها، ومن ثمّ من خلال قراءاتها التي لا تنقطع. كانت حادّة اللسان وميّالةً للهَرَج والسُّخرية.

وبعد سنوات، عُرِضَ عليها الزواج مرّةً أخرى، لكن هذه المرة من قِبَل رجُلٍ مُحترم بكل المقاييس. بالرغم من أنها مهووسة بـ«وحدتها الرائعة»، هكذا كانت تسمّي عزلتها، فإنّها قبِلَت العرض. وأخيرًا

ستصبح زوجة، وستبني أسرةً وتديرُ بيتًا. بهذه الأفكار والآمال ذهبَت إلى فراشها مبكّرًا للنوم. وعندما استيقظت صباحَ اليوم التالي، كان أوّل ما قامت به هو إرسال رسالة اعتذار إلى خاطبها. قرّرت ألاّ تتزوج.

لطالما تساءلتُ عمّا حدث تلك الليلة. ما المكان السريالي الذي زارته جاين أوستن في أحلامها والذي غيّر رأيها؟ هل خاضَت عدّة كوابيس؟ هل تخيّلَت نفسها تُنظّف درجَ بيتٍ ورقيٍّ مكوّنٍ من مئة طابق بدَلوٍ مليءٍ بالحبر؟ تُنظّف وتُنظّف وتشاهدُ كل درجةٍ تتفتت؟ ما الذي جعلها تقرّر ألاّ تسير في ممشى العرسان؟.

من بين كل الكاتبات الأمريكيات الأوائل، هناك واحدةٌ تتربع مكانًا خاصًا في قلبي، إنها كارسون مكولرز. ربما لأنني قرأتُ أعمالها في وقت كنت فيه أكتشف العالم وأسبرُ أغوارَ نفسي. كان لكلماتها تأثيرٌ عاصفٌ عليّ. قرأتُ لها: «القلبُ قنّاصٌ وحيد» في سنتي الأخيرة من المرحلة الثانوية، غرقت في عنوان الكتاب أكثر من اسم المؤلّفة. كنتُ قد اشتهرتُ في السنة التي قبلها، لبضعة أسابيع على الأقل، إذ كنتُ للتوّ قد وصلت إلى أنقرة من مدريد، حيثُ قضيتُ سنوات مراهقتي. تحمّسَ زملائي في الفصل عندما علموا بأنني أستطيعُ التحدث بالإسبانية وأنني شاهدتُ مصارعةً للثيران. إلا أن انطوائيتي لم تستغرق طويلًا حتى بزغت، وتبدلت تلك النظرة المتعاطفة في أعين الطلاب تدريجيًا إلى اللامبالاة، ومن ثم إلى التصنيف والابتعاد. ظنّت الفتيات أنني لست اجتماعية، وظنّ الأولاد أنني غريبة أطوار، وظنّ الأساتذة أنني متحفظة، ولم أثق بأحد سوى الكتب. وفي ذلك الوقت تحديدًا، تعرّفتُ على كارسون مكولرز.

كنتُ فتاةً تركيةً لم تذهب قط إلى أمريكا، وقصص الناس الوحيدين في الغرب الأمريكي قد حرّكَت أعماقي. لكن كان هناك أكثر

من ذلك، إذ بعد عشرين صفحةً من الكتاب، متُّ فضولًا لأعرف من الذي يستطيع الكتابة هكذا.

لقد وُلدَت باسم لولا كارسون سميث. وباختصار اسمها إلى كارسون لم تكن تحاول أن تصير ملفتة وحسب، بل تحاول الوقوف على أرض ضبابيّة حيث يصعب على قُرّائها معرفة جنسها. كانت شخصًا لم يختلط بسهولةٍ بأقرانه، وكانت توصم بالجلافة. وبدل أن ترتدي جواربَ نسائيّة مغرية وأحذية بكعوب عالية وتنانير ضيّقة، كما كانت الموضة في الثلاثينيات، فضّلت أن تتجوّل بجوارب عاديّة وطويلة بأحذية تنس، سعيدةً بمفاجأتها لزملائها. وعلى الرغم من عدم مبالاتها بما استقرّ من عادات التجمّل حولها، فإنّ ما يُثير الغرابة حقًا هو أنها عندما التقت بحُبّ حياتها، رفيز مكولرز، كانت نظرتُه هي أوّل ما صعقها فيه:

«شعرت بصدمة، صدمة الجمال النقي، عندما رأيته أوّلَ مرّة».

وعلى الرغم من أنّ علاقتهما قد مرّت بصعوبات وشكوك متبادلة كثيرة، فقد انفصلا كلّ منهما عن الآخر لفترة ثُمّ اقترنا مرّةً أخرى- وبقيا زوجين لعشرين عامًا تقريبًا، حتى يوم وفاته.

وهكذا هو، تاريخ العالم الأدبي، مزدحمٌ بنساءٍ غيّرنَ أفكارهن، وأقدارهن، بل، وأسماءهُنّ أيضًا.

في الصباح التالي اتصلتُ بالمحرر.

قال مُتحفّزًا:

- أهلًا أليف، من الجيّد سماع صوتك.

توقّفَ قليلا بعدها، ثم تابع:

- هل غيّرت اسمكِ الآن؟ هل عليّ مناداتك باسمٍ آخر؟

قلتُ:

- في الحقيقة، هذا ما اتّصلت لأجله، لقد وجدتُ لي اسمًا. وأريدُك أن تمهرَ قصّتي باسمي الجديد.

قال:

- أوكي..

ثمّ أضاف، ببطء كالمرّة السابقة وبصوت عالٍ أيضًا. عندها عرفتُ أن هذه طريقته في الحديث عندما لا يرى إلى أين تقوده المحادثة.

- بماذا تشعرين وقد تخلّصت من اسمك القديم؟

قلتُ:

- إن هذا هو الجزء السهل، الصّعبُ حقًا هو البحث عن بديل.

قالَ بتعاطف:

- هممم.. إممممم..

- لقد قضيتُ وقتًا طويلًا أبحثُ في حيوات الكاتبات، وأُطالعُ الكلمات في القواميس، وأقرأُ النوادر الأدبية، بحثًا عن اسم غريب. لا أعني غريبًا على نحو ابن ديفد بوي، الذي أسماه زويا، أو فرانك زابا، الذي أسمى أحد أطفاله وحدَة القمرا. يبدو أنّ وجود الاحتمالات اللامتناهية والمجهولة المُتاحة عند محاولة تسمية مولودٍ جديدٍ هو ما يجعله أمرًا أسهل إلى حَدٍّ ما من إعادة تسمية نفسكَ القديمة، تلك التي أمسَت معروفةً ومُقيّدة.

سألني:

- عندَ ديفد بوي طفلٌ اسمه زوي بوي؟

قلتُ:

- نعم!

- حسنًا، تابعي من فضلك.

- حَسَنٌ، أحببتُ مرّةً رجُلًا كان يُحب أن يدعوه الجميع بالكأس نصف الملآنة! لأن تلك كانت فلسفته في الحياة. حتى أنه كتب اسمه هكذا في أوراق الامتحانات، مُعرّضًا نفسه لردود فعلٍ ضاحكة من قِبَلِ الأساتذة. بيد أنه تخرّج وذهبَ للتجنيد، وعندما عاد، لم يكُن يريدُ أن تكون له أيّة علاقة بالكأس نصف الملآنة!. لقد عادَ إلى اسمه القديم: كايا، أو الصخرة!.

قال المحرر:

- أوكي!

قلتُ:

- على أيّة حال، قررت أنه ليس علي أن أذهب بعيدًا. في الواقع ليس عليّ الذهاب إلى أيّ مكان. من الأفضل لي النظر إلى ما لديّ هنا والآن. عِوَضًا عن حمل لقب أبي، قررت أن أحمل اسمَ أمي؛ اسمها الأول سيكون لقبي.

قال:

- لستُ متأكدًا تمامًا من أنني فهمتك.

شرحتُ:

- الفَجر! أمي اسمها شَفَق. سأجعلُ من شفق لقبي منذ اليوم فصاعدًا.

وبعد شهر تقريبًا صدرَ عدد المجلة، ورأيتُ اسمي الجديد لأوّل مرّة مطبوعًا. لم أشعر بالغرابة. ولم يبدو أنه غريب. بدا مناسبًا جدًا، كأنّي واسمي قد وَجَدنا بعضنا أخيرًا في هذا العالم المزدحم بالظلال والأصداء.

الرّاكبة الهاربة

في اليوم الأوّل من سبتمبر 2002م، أقلعت رحلة الطيران التركي من اسطنبول إلى نيويورك، وكنتُ واحدة من رُكّابها. الطائرة ممتلئة إلى آخرها بطُلّاب كُليّات ودراسات عُليا ورجال وسيّدات أعمال، ومدرّبين وصحفيين وأكاديميين وسوّاح، وحديثي زواج في شهر عسلهم.. وإلى جانب الأتراك والأمريكان، كان هناك روسٌ وهنودٌ وبلغاريون وعرب ويابانيون ممّن جاؤوا عبرَ رحلات ربط من مطارات أخرى كي يقلعوا على هذه الرحلة. كانت هذه زيارتي الأولى للولايات المتحدة. أفكر بأنابيز نن، عندما وطئت أقدامها الولايات المتحدة عام 1914م حاملةً آلةَ كمانٍ تخُصُّ أخيها في يد، ودفتر يوميات ينتظرُ أن يُملأ في يدها الأخرى. أبتسمُ للفتاة الصغيرة الفضولية المُطلّة من عَين ذهني، أنابيز نن، حتى شدّ انتباهي أمرٌ ما، فكففتُ عن الابتسام.

رجُلٌ يافعٌ، فارعٌ ونحيل، على بُعد صفّين أمامي ويبتسمُ نحوي ابتسامةً عريضةً هادئة. كان يظن أنني أبتسمُ له. ولا سبيلَ أبدًا لأشرح له بأنني كنتُ أبتسم لأحدٍ آخر في خيالي. ومن أجل ألّا أطيلَ سوء الظنّ هذا، انزلقتُ على مقعدي بما يكفي لأخفي وجهي بين دفتي كتابٍ عنوانه: «في مديح الرّجال الحساسين ودراسات أخرى».

وبعدَ تناولي الطعام بقليل، سلكتُ الممرّ بين المقاعد ذاهبةً إلى دورة المياه. وبطرف عيني أنظر إلى ما يقرؤه بقيّة الركاب. أمُدّ رأسي يمينًا وشمالًا لأستطيع قراءة عناوين الكتب التي يقبضون عليها.

ألاحظ بعض الغربيين يقرؤون كتبًا عن تركيا أو اسطنبول- بما فيها إحدى رواياتي، ويأسرني ذلك، فأغلب السوّاح يقرؤون عن البلد الغريب قبل أن يذهبوا إلى زيارته، والقليل منهم فقط من يستمر في القراءة عنه بعد الانتهاء من زيارته. كانت هناك دورتا مياه متاحتان، وفورَ أن فتحتُ بابَ أقربهما إليّ ودخلت، تجمّدتُ في مكاني. فهناك، إلى جوار علبة الصابون السائل، عند حوض الغسيل، تقف إحدى فتيات الأصابع. وما إن هممتُ بالقول «عُذرًا» والمغادرة، حتى صاحَت:

- لا، أرجوك، ابقي.. أريدُ التحدث معك.

نظرتُ إليها بتساؤل. إنها تشبه الأخريات، أعضاء جوقة أصوات الفوضى، ليسَت أطول منهن، بل ربما تَزِنَ أكثر منهن. وجهها لطيفٌ ومدوَّرٌ وذو نَمَش. ذقنٌ مسنونٌ، وشَعرٌ بلون القهوة التركية، وعينان لشدّة زرقتهما تُغرقانك فيهما. لا تضعُ مساحيقَ تجميلٍ على وجهها، سوى كُحلٍ والقليل من الماسكَرا على رمشيها الطويلين، وتصعُبُ رؤية ذلك حقًا. يبدو أنها في بدايات الثلاثينات أو منتصفها، وأنا متأكدةٌ من أنني لم أرها من قبل قطلا.

- من أنتِ؟

قالت بنبرةٍ فيها شعورٌ بالإهانة:

- ألا تُميزينني؟

تفحّصتها من رأسها إلى أخمص قدميها. ترتدي فستانًا زبرجديًا ينتهي عند ركبتيها. وحذاءً أحمرَ بلا كعبين، وحزامًا بنفس اللون، وجواربَ بنيّةٍ فاتحة طويلة من نايلون. شعرها المجعّد معقودٌ للخلف كذيل الفرسِ بربطة شعرٍ بسيطة. وَجنتاها ريّانتان وممتلئتان من وزنها الزائد، لكنها تبدو متقبّلةً لجسدها وفي سلام معه. لا يُحيطُ بها ذاك الهواء المتوتّر الذي يُحيطُ بالآنسة العمليّة القصيرة، حسّابة

السمرات الحرارية تلك.

قالت أخيرًا:

- .. أحد أصواتك الداخلية.

- حقا؟ لم يحدث أن رأيتك من .. هل جئت توًا؟

قالت:

- في الحقيقة، رافقتُك منذ أن كنتِ طفلةً تلعبين في بيت الدُمى.

وحين سألتها عن اسمها في وسط الحيرة والذهول. أجابت:

- يدعونني ماما الرُّز بالحليب!.

انفجرتُ ضاحكةً حتى رأيتها قد اكفهرّت، فابتلعتُ ضحكتي ورسمتُ وجهًا جادًا.

قالت ببرود:

- أرى أنّ اسمي قد أمتعك!.

- أعتذر، لم أكن أقصد الإساءة إليك.

سكتُّ، شاعرةً بالذنب، فابتسمَت لي قائلةً:

- ما صعقني هو أنك لا تجدين ما هو مُضحكٌ في أسماء الأُخريات. لا تضحكين على حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح، أو الآنسة المثقَّفة الساخرة، أليس كذلك؟

إنها مُحقة. لم أجبها بشيء.

قلّبَت يديها عاليًا لتشرح ما تقصده، وأكملت:

- هذا هو اسمي لأنني أموميّةٌ وحَنُون.

قلتُ بصوتٍ خافت:

- حقًّا؟

- بالطبع! أستمتعُ بتعليق أجراس القصب في الشرفة، والاعتناء

بأزهار البيغونيا في أصيصها الصغير الأنيق، وتخليل الخضار صيفًا، وصُنع مُربّى الجريب-فروت الوردي.. وأمورٍ أخرى، كما تعرفين، مثل الإبقاء على نيران البيت مشتعلة. أعرفُ كيف أزيلَ بُقعَ الحبر من السجّاد، وما الذي عليك فعله عندما ينسكبُ زيتُ زيتون على سترتك الأحب إلى قلبك، وكيف تنظفين بقعة شاي ناشفة، والكثير من الحيل الأخرى. أُعدُّ الفطائر والحلويات. وللتوّ، في الشهر الذي نحنُ فيه، تمّ انتخاب إحدى وصفاتي للعرض في برنامج مصوّرٍ عن الطبخ، وقد أطلقوا عليها اسم: وصفة ماما للرُّز بحليب الجنة!!.

مضت دقيقةً تقريبًا لم أنبس خلالها ببنت شفة، واثقةً من أن هناك خطأ ما، مُحاوِلَةً إيجاد أسلوب لطيف كي أخبرها بذلك. لا سبيل لأن تكون فتاة إصبع مثلها ضمنَ أصواتي الداخلية. فأنا أفتقد مهارة كسر بيضة لأعدّ طبق أومليت. ولا أملك الصّبر لأغلي الماء لأجل شُرب الشاي. أكرَه أعمال المنزل والواجبات التي ترافقها، وأتجنّبها بقدر ما استطعت، صرتُ محترفةً في الهرب منها. لا داعي لأن يعرف أصدقائي هذه المعلومة، لكنني أستطيع العيش في غرفة دون تنظيفها لأيّام، وحتى لأسابيع عديدة، وإذا صارت الحياة صعبةً حينها، فإنّني أفضّل تركيبَ ديكورٍ جديد في الغرفة على تنظيفها: وإذا صار المنزل كلّه قذرًا إلى حدٍّ مقرز، فإنّني أفضّل الانتقال إلى منزلٍ جديد على أن أضطر لكنسه ودعكه وتلميعه. أُحبُّ أن أعيش مثل نَزيلِ فندق، خفيفَ الحركة ومُسترخ على ظهره: أحب النوم في فراشي عارفةً أنه لن يكون علي أن أغسل شراشف فراشي وأكويها في اليوم التالي.

لَوَت ماما الرُّز بالحليب شفاهها وبوّزَتها كأنها استطاعت سماعَ ما دارَ في رأسي.

- لم تسمحي لي بالحديث ولو لمرّةٍ واحدة قطلا لقد ألقيت بي في مستودع ظنونك البعيدة، ونسيتِ وجودي تمامًا. انتظرتُكِ كلّ هذه السنوات، انتظرتُ أن تتقبّليني وتُحبّيني كما أنا.

حينها، تقدّمت موجةً مرتفعةً من الذنب، وراحت تلطُمُ حوافّ ذهني. شعُرتُ أنني والدةٌ محافظة ومتحجرة الأفكار، وقد تبرّت من ابنها إلى الأبد لأنه شاذٌ جنسيًا، وادّعت أنه لم يوجَد يومًا. هل هذا هو ما قمتُ به للجانب الأمومي الساكن فيّ؟.

سألتها:

- وماذا عن فتيات الأصابع الأخريات، هل يعرفنك؟

فأجابت ماما الرُّز بالحليب:

- بالطبع يعلمن بوجودي! بيد أنهن يُفضّلن عدم إخبارك عني وعن الفتاة الأخرى أيضًا.

- ماذا تقصدين بقولك الفتاة الأخرى؟

لكنها تجاهلت سؤالي وتابعَت:

- مثل كل الفتيات الشابّات، أنا أيضًا أريد الزواج، أن أرتدي فستانًا أبيضَ وخاتمًا ذا جوهرة لامعة.. أن أُربّي أطفالًا وأدفع عربات التسوّق في متاجر الأغذية. لكنك أبعدتِ رغباتي جميعها واستصغرتِها بشدّة إلى درجة أنني لم أستطع حتى أن آتي على ذكرها. لقد أرغِمتُ على السكوت وتمّ نُكراني وقمعي.

أُفكِّرُ مرّةً أخرى بأناييز نن، المرأة القوية التي قالت مرّةً:

«الحياةُ الماديةُ لا تُثيرُ اهتمامي».

لقد آمَنَت بأنه لا يمكنها، وهي الكاتبة والناقدة، أن تُصبح ربّة منزل. كانت تتمتع بجانبٍ جامحٍ وصعب المراس في شخصيّتها،

أسلوب حياتها فوضويٌ جدًا وجمعت حولها أكثر من عشيقٍ في وقتٍ واحد. قالت مرّةً:

«تتسعُ الحياة وتضيقُ بقَدر إقدامنا عليها».

سألتني ماما الرُّز بالحليب:

- ما الذي تفكّرين فيه؟

قلتُ بطرف لساني، متوقعةً أنها لن تعرف ما سأقول:

- أفكر بأنابيز نن.

لكنها ميّزت ذلك وقالت باصقةً الكلمات في الهواء:

- هؤلاء الكاتبات، طليعة الصّف، الحادّات.. هل تعرفين ما هي مشكلتك الحقيقية؟ أنك تقرئين كثيرًا، هذه هي علّتك.

- انتظري لحظة، أيّ نوعٍ من النقد هذا الذي تقومين به؟

بيد أنها هاجت، وأكملتْ كلامها عن تأثيرات الكتب الفظيعة في روحي، وهو ما جعلني أذهبُ بعيدًا في البؤس.

- لقد أقنعتِ نفسك بأنه لا يمكن أن تكوني امرأةً عادية. لِمَ تتفاظين من الناس العاديين؟

أحسستُ بأن هذا النقاش راحَ يأخذ منحىً منطقيًّا. فحاولت أن أرتّب أفكاري وأعبّر عنها بدقّةٍ ورَويّة:

- إممم... لطالما قالت الآنسة المثقفة الساخرة إنّ سببَ كلّ الكوارث التي وقعت على الإنسانية وما تزال، هم الناس العاديون. وتقتبسُ أيضًا من أقوال الفيلسوفة اليهودية حنّة آرنت، التي جعلتنا نرى أن الفاشيّة قد تقدّمت ونَمَت على أيدي الناس العاديين حاملِي النوايا الحَسَنة، لا على أيدي السيّئين أصحاب الأيادي الشريرة.

قالت، مُديرةً عينيها في محجريهما:

- يا إلهي، هل ترين ما تصنعين بنفسك؟ أتحدثُ هنا عن الزواج والأمومة والكمك، وتجيبينني مشيرةً إلى هتلر والنازيين؟

مُحتارةً، تثاءبتُ في وجهها دون أن يرفَّ جفني.

ولكنها تابَعَت الحديث:

- انسي أمرَ فتيات الأصابع الأخريات، لقد أخذنَ من عمرك سنوات طويلة. إيّاكِ وأن تُقلّلي من جمال العادي، من البحث عن المُتع البسيطة. نستطيع معًا أن نحصُلَ على الكثير من المتعة.

- حقًّا! وكيف ذلك؟

تحزّمَت وقالت:

- نستطيعُ الذهابَ إلى أسواق المزارع في عُطَل نهاية الأسبوع، وابتياع أطعمة عُضويّة. نستطيع أن ننتظر أمام أبواب الدكاكين فجرًا ونحن نحمل سلالنا معنا، ثم نندفع إلى الداخل في الثانية التي تشرَعُ أبوابها كي نحصُلَ على المواد المخفّضة قبل أن تذهبَ للآخرين وتنفد. نستطيعُ أن نُزيّن منزلنا من أسفله إلى أعلاه بالشموع المُعطّرة، والورود المتناسقة الألوان. ثقي بي، ستُحبين ذلك. هل قُمتِ مرّةً بإعداد طاولة عشاء خلابة؟ هل تعرفين كم هو مُثلجٌ للصّدر عندما يرفع أصدقاؤك وأهلك من شأن مهاراتك في الطّهو لأنها لا تُضاهى؟.

وقبلَ أن أجد وقتًا كافيًا لأعطيها جوابًا صريحًا، سمعنا ضجّةً مفاجئةً عند الباب. فتحتُ الباب قليلًا وألقيتُ نظرةً إلى الخارج.

ففوجئت بطابور طويل أمام باب دورة المياه. وفي مقدمة الطابور تقف حضرة جناب التشيخوفيّة الطَّمُوح، مرتديةً بزّتها العسكرية

الخضراء المسوّدة، مُتململة تنقُرُ الأرض بحذائها العسكريّ، شديدة التوتر، وتبدو في حاجة ماسّة لاستخدام دورة المياه.

فارتسمت ظِلالٌ من الرُّعب على وجهِ ماما الرُّز بالحليب، وقالت:

- آه! لا! إلا تلك المتوحّشة!..

سألتها:

- ما الذي تريدين مني القيام به؟

- أرجوك، لا تخبريهنّ بأنني هنا، سيُقطّعنني إرَبًا، هؤلاء الساحرات.

إنها على حق. إصرار حضرة جناب التشيخوفيّة الطَّمُوح وتشاؤم الآنسة المثقفة الساخرة وعدم قدرة الآنسة العمليّة القصيرة على تحمُّل أيّ أمر يستغرق أكثر من عشر دقائق. سوف يُمزّقن ماما الرُّز بالحليب. أحتاجُ أن أحميها من أخواتها.

- لا تقلقي، أنتِ في مأمنٍ معي. لن أنبس بكلمةٍ عنك.

ابتسمَت بدفء، وأخذَت كفّي وضغطت عليها بحنوّ. لم تكُن أصابع يديها مشذّبة الأظفار ومُعتنىً بها مثل الآنسة العمليّة القصيرة، وليست مُزيّنةً بالخواتم مثل حضرة جناب التشيخوفيّة الطَّمُوح، أو متآكلةً بعض الشيء مثل الآنسة المثقفة الساخرة. إنّ أصابعها خشنةٌ من العَمَل، ورديّة وممتلئة. وأنا حائرةٌ بشأن الوِدّ الذي ينتابني نحوها. أليس غريبًا أنني أشعُرُ بحاجةٍ لإحاطتها بعنايتي وبشيءٍ من الأمومة في حين أنها هي الجانب الأمومي منّي؟.

سألتها:

- انتظري لحظة، كيف ستتمكنين من الدخول إلى الأراضي الأمريكيّة؟ هل حصلت على تأشيرة دخول؟

أجابت:

- لا أحتاجُ تأشيرةَ دخول. لا تُفتّشُ فتيات الأصابع في المطارات على الإطلاق.

أستطيعُ الآن أن أرى السبب بوضوح. فمن الصعب أن تجد شريحةً إرهابيّةً في إحدانا!!.

قالت:

- لستُ قلقةً بشأن العالم الخارجي، أَبقِي على فتيات الأصابع السّاحرات بعيدًا عني وسأكون بخير.

- أوكي.

- أرجوكِ، عِديني بأنّك لن تسمحي لهُنّ بتحطيمي مرّةً أخرى.

أمعنتُ التفكير هنا!! كيف سأتجنّب إجابة طلبها هذا، وكيف سأخرجها من دورة المياه هذه دون أن تنتبه إلينا فتيات الأصابع الأخريات. مرّت الطائرة بمطبّاتٍ هوائيّة، وأعلنَ الطيّار عن وجوب عودة المسافرين إلى مقاعدهم وربط أحزمة الأمان.

وبعد ثوانٍ فقط، فتحتُ الباب. اختفى الطابور واستطعتُ أن ألمح حضرة جنابِ التشيخوفيّة الطَمُوح تجلسُ على مقعدها.

أخبرتُ ماما الرُّز بالحليب:

- السّاحلُ خالٍ الآن، تستطيعين الخروج.

قالت، ونبرةٌ جديدةٌ تطفو في صوتها:

- سأفعل، لكنك لم تعديني بعد.

كانت لحظةً من تلك اللحظات التي أعرفُ أن عليّ فيها أن أكون صادقةً تمامًا وأن أقول الحقيقة. ولكنني لم أقدر على ذلك، ولو من باب الرحمة أو حتى الجُبن النقي. هكذا قلتُ لها ما أرادت سماعه

مني، رغم أنني أعرفُ عميقًا في داخلي بأنني لن أستطيع الالتزام بذاك الوعد.

- أُقسمُ أنني لن أدع فتيات الأصابع الأخريات يقممنكِ مرّةً أخرى.

أضاءَت وجهَها ابتسامةً عريضة:

- شكرًا، عرفتُ أنني أستطيعُ الوثوق بك.

ثم سمعتُ نفسي أسألها:

- بالمناسبة، من هي تلك الفتاة الأُخرى التي جئتِ على ذكرها سابقًا؟

- ستلتقين بها عندما يحينُ الوقت المناسب.

- لكن لماذا هي مختبئةٌ عني؟

- إنها لا تختبئ عنك. ولم أختبئ عنك أنا أيضًا. إنّك أنتِ التي لا تعترفين بوجودنا. وجّهتِ انتباهك كاملًا لسنوات طوالٍ نحو الآنسة العمليّة القصيرة وحضرة جناب التشيخوفيّة الطموح والآنسة المثقفة الساخرة والسيّدة الدرويشة وحسب.

قلتُ وكأنني لا أعني ما قلته:

- إني أتفهّمُ ذلك.

- أوكي، علينا الذهاب الآن.

- حسنًا، إنه لمن الجيّد أنّ حدثَ والتقينا.

قالت:

- وأنا سعيدةٌ بلقائنا أيضًا.

واحمرّ وجهها:

- أظن أنني سأراكِ مرّةً أخرى في الجوار.

وانسحبَت من دورة المياه مبتسمة. وبقيتُ في دورة المياه لثوانٍ معدودةٍ أخرى، أرتجفُ قليلًا- ولستُ أعرفُ ما إذا كان ذلك بسببِ المطبّاتِ الهوائية أم بسبب الحيرة التي تلعبُ برأسي.

هكذا استوعبتُ أنني لا أعرف نفسي جيدًا. لقد فضّلتُ، خلال حياتي كناضجة، بعض الأصوات بداخلي على حسابِ أصواتٍ أخرى كانت بداخلي أيضًا. كم بقيَ من الأصوات الداخلية هناك لألتقي بها؟.

عُدتُ إلى مقعدي.

وهذا كل ما فكّرتُ فيه، حتى حطّت الطائرة في مطار نيويورك.

مادبةٌ احتفاليّة

حتّى بعد مرور أكثر من خمسين عامًا على وفاتها، لا تزال سيمون دي بوفوار أيقونةً في تاريخ الحراك النسوي. أثناء جنازتها عام 1956م، تداول آلاف المشيعين عبارةً لا تُنسَى:

«تدينون لها بكل شيءٍ يا نساء العالم».

عبارةٌ لخَّصَت شخصيتها وما تركته من إرثٍ أسطوري. قد لا تتفق أفعالها مع كل ما كتبته وقالته، وقد لا تعجبك حتّى شخصيتها، إلا أنك لن تستطيع قطعًا أن تغمض عينيك عن أعمالها وتَرِكَتها الثقافية:

«لا تولَدُ المرأةُ امرأةً. ولكنها تسعى لتصير امرأة».

هذه مقولتها الأشهر. لقرونٍ متعاقبة، قيل للفتيات إنّ أهمّ أدوار حيواتهن هي ممارسة الجنس وحمل الأطفال ورعايتهم. إنّهنّ محكومات بمهامهنّ الصغيرة تلك، المحكومة بالحرص على استمرار النوع البشري على الأرض. لا تُشَجَّعُ الفتياتُ أبدًا على تحصيل العلم وتنمية مهاراتهن، ولو حدث ذلك فهو القليلُ النادر. الأمومة في فرنسا الأربعينيات واجبٌ دينيٌّ إلى حدٍّ كبير، واجبٌ مقدّسٌ ولا يُساءَلُ على الإطلاق. عرفَت سيمون دي بوفوار ما الذي كانت تتحدث عنه وتنتقده، فهي ربيبة أُمٍّ كاثوليكية شديدة الإخلاص للكنيسة.

كان منها أن شنّت حَربًا شعواء على قِيَم البرجوازية، وساءَلَت مؤسسات الزواج والأمومة بنَفَسٍ طويل. قالت إنّ نساءً كثيراتٍ أردنَ

إعادة اكتشاف أنفسهن عبرَ أطفالهن- حاجة نفسيّة لم تتشاركها معهن بشكلٍ علني. كانت هي وسارتر زوجًا مُلتزمًا ولكنّه حُر- كانا مستقلين، يعتمدان على نفسيهما ومكتفيان بذاتيْهما عن سواهما. الحياة الزوجية البرجوازية مليئة بالأكاذيب والاحتيال والالتزام الخادع المُسمّى بالوفاء. هكذا قررا ألّا يُكررا أخطاءَ والديهما، فعقدا اتفاقًا، وهو أن يُطْلِعَ كلّ منهما الآخر على كُلّ شيء.

كانا منفتحينَ على فكرة تجارب الحُب العَرَضيّة. وآمَنَت سيمون بأن الأمومة لا تناسب الحياة التي اختارتها ككاتبة ومثقفة. فهي تحتاج إلى الوقت والتركيز والحُريّة لتُلاحق أهدافها. في كتابها: «الجنس الآخر»، كررت دي بوفوار مقولة هيغل المأثورة: «إنّ ولادة الطفل تعني موتَ والديه». ورغم ذلك، رغم مشاعرها القوية ضد الزواج والأمومة، فإنّ كتاباتها ظلّت تحملُ مسحةً من حقيقة مخفيّة؛ لو أن سارتر أراد أطفالًا، فستصير أمًّا لأجل إرضائه. لقد عَشِقَته. وهي ترى شمسًا لمجتمع جديد تبزغ من أعماق عينيه. إنه الرجل الوحيد الذي فاق احترامُها له عشقَها له- الرجل الذي كان عليها أن تشاركه أفكاره وأعماله كمئات الناس، وبعضهم نساء أكثر جمالًا وتوقًا له منها. إلا أنها عرفت كم كانت هي مميزة في عينيه. فمنذ اليوم الذي تقاطع فيه طريقاهما عام 1929م عندما كانا طالبين في جامعة إيكول نورمال سوبيريور، مَثَّل سارتر الكثير لها- الأنيس، والعاشق، والأب، والابن، والمُعلّم، والصديق المُقرّب والحُلم المستحيل.

على المرء ألاّ ينخدع بألقاب التصغير والتحبب التي كانت تدعوه بها في رسائلها: «رجُلي الصغير»، و«عزيزي الكائن الضئيل». بل إنّه كان عظيمًا عندها. كان رجُلًا لا تُناديه طوال الوقت إلاّ بألقاب التبجيل والتكريم. ولو أنّه أراد أن يُنشئ أسرةً، لكان أمرًا ستقوم به

لأجله، حتى لو كانت تعتقد بأن الأمومة لا تناسب أمثالها. ورغم أنها تأذّت من خيانات سارتر لها، فقد استمرّت بالالتزام بالعهد الذي قطعته له والدفاع عنه. كانت سيمون دي بوفوار ذاتَ تحليلاتٍ مُتقنةٍ وتناقضاتٍ غير متوقعة.

وإن كان المجتمع الواسع ليس مستعدًا لينظُر إلى الأمومة تحت ضوءٍ نقدي، فإنّ الدوائر الثقافية –المنفتحة والأكثر تقدمًا وفقًا لتعريفها– لم تكن على استعداد أيضًا لذلك النقد، دون ذكر عدم التكافؤ الذي يرجّحُ لصالح الرجال. كان هناك صمتٌ في عالم الكتب في ما يخص مواضيعَ اكتئاب ما بعد الولادة ومتلازمة ما بعدَ الحَيض. وبالمثل، يندُر أن تجد أحدًا قد كتبَ عن مثلّث برمودا: الزوجة المثالية، مدبّرة المنزل المخلصة، والأم المُنكرة لذاتها. وكيف أن مبدعاتٍ لا عدد لهن قد اختفينَ في هذه الدوّامة البرمودية.

في وسط كهذا، قوبلت دي بوفوار بإجحاف كبير وتحامُل متجذّر وابتذال عميق. تحدثت وكتبت بحماس عن كيفيّة اضطرار النساء على الاختيار بين العقل والجسد.

وانتقدت بشكلٍ مُساوٍ أولئك النسوة اللواتي يُؤمنّ بعدم تساوي الجنسين، ويَرينَ أنفسهنّ تابعاتٍ لنظرائهن من الرجال. ولاحظت قائلةً:

«حتّى أتفه الرجال وأكثرهم ضآلةً، يرون أنفسهم أشباه آلهةٍ أمامَ أيّة امرأة».

كان ذهنُها أكولًا وقلمها حادًّا، وشخصيتها جدليّة بامتياز. قالت مرّةً إنّ كُره كثير من أبناء الطبقة الوسطى لها أمر طبيعيّ جدّا: «فلو أنهم لا يشعرون كذلك، لشككتُ في نفسي!».

لم تكن ناشطات الحراك النسوي الغربيّات، وحدهن، من ساءَلنَ

رومانسية الأمومة وقداستها. بل كان هناك في الشرق، أيضًا، نقاشاتٌ حامية حول هذا الموضوع. ناشطاتُ الحراك النسوي في اليابان وضعوا مصطلح «غريزة الأمومة» محلّ النقاش. وقالوا إنّ مصدر الفهم الشائع للأمومة وأدوارها وواجباتها هو ثقافيّ بالأساس قبل أن يكون طبيعيًا وجسديًا.

الكاتبات اليابانيات حَقَنَّ النقاش بدماء جديدة، مُسائلات في رواياتهن الصُورَ النمطيّة للجنسين. نشرَت يوكو تسوشيما عام 1983م كتابها: «طفل الحظ» الذي صوّرت فيه شخصيّةً نسائية شجاعة، يابسةَ الرأس، حُرّةً، مُنشَقّةً، تتمزق بين الواقع الذي يعيشه قلبها ومُثُل المرأة التي تعلّمَتها من المجتمع. وعلى الرغم من أنها لا تُصنِّف نفسها ناشطةً نسوية، فإنّ تسوشيما قامَت باكتناه ثيمات الجنسين والحياة الجنسيةَ في أعمالها. قد تكون متصلةً روحيًا بمؤلّفة يابانيّة أخرى من القرن الماضي، وهي توشيكو تامورا التي تُعَدُّ من أوائل الكاتبات في اليابان وأفوَههنّ. توشيكو التي أنشَأت جائزةً أدبيّةً للكاتبات مدعومةً بعوائد أعمالها بعد موتها المفاجئ عام 1945م. ففي قصّةٍ عنونتها بـ«كاتبة»، وصفت تامورا مشهدَ زوج كاتب، يوبّخ بغضب زوجته التي تحاول جاهدةً كتابة فقرةٍ ما. يُعلِنُ الرّجُل أن النساء كاتباتٌ رديئات، إذ أن تردّدهن وعدم وثوقهن الدائمين يجعلانهنّ يرمينَ بمئة ورقة لينجحن في كتابة عشر صفحات وحسب. ويفضي هذا الكلام إلى تصوّر مفاده أنّ الرجال يُمارسون الكتابة لأسبابٍ أكثر جديّة وجدوى، ولهذا فهم كُتّابٌ صادقون، أما الكتابة عند النساء فهي مجرّد هواية.

هناك كاتبةٌ تركيّةٌ مُشابهةٌ أيضًا في الأدب التركي، صوتها النادر لا تزال أصداؤه ترن إلى يومنا هذا بعد سنواتٍ طويلةٍ على موتها. فخلال الأجواء المشحونة بالصراع في السبعينيات، عندما كانت الدولة

منقسمة بين يساريين ويمينيين، ساءلَت سيفجي سويسال، بذكاءٍ حادٍّ ونَثرٍ لائق، الأنظمة الأبوية في كل النواحي. كانت كاتبة الشخصيات النسائية الواقفة على العتبة بين العقل والجنون، بين المجتمع والفَرد، نساءً يُحَضِّرنَ الطعام والمائدة ثم يَسرنِ مُبتعدات ليُتحن مجال الأكل للرجال أولًا، مُقدّمات تضحيات لا نهاية لها، مُنكرات ذواتهن بعفوية.. ابتكَرَت شخصيات نسائيّة تعاني من شرخ الانقسامِ بين العيش لأجل الآخرين وبين اتباع قلوبهن. وكانت إحدى شخصياتها التي لا تُنسى هي «طَنط روزا»، وعنها كتبت:

«تركت طنط روزا رسالة. تركت خلفها ثلاثة أطفال، أحدهم لا يزالُ رضيعًا، وتركَت وصفة طعام: كيفَ يتم تحضير الوزّ المشويّ وفطيرة التفاح. وتركت للخَدَم معلومات عن طريقة تنظيف فرش الطاولة، وعلّمتهم أيضًا فَنّ ترتيب الرفوف. تركَت حديقةً صغيرةً يتسامق فيها عَبّاد الشمس، وبيتًا بدَرَج خشبيٍّ وسقوف عالية وساعة حائط من إرث الأجداد، وزوجًا يذهب إلى الكنيسة كُلّ صباح أحد، ويندسّ في فراشها كُلّ ظُهرِ أحد. تركَت جارات بقبعات كبيرة مفرودة ولامعة، لهن أطفالٌ بأنوف تمتلئ بالمخاط وأزواجٌ وإوَزٌّ مشويٌّ على موائدهن.. تركت ثديها الأيسر خلفها، الثدي الذي يُغَطّي قلبها، ثم سارت مبتعدة».

شخصيات سويسال النسائية، تُمثّلُ الضدّ تمامًا من صورة المرأة المثالية في المجتمع التركي بكُلّ نواياها وأسبابها. ها هُنا نساءٌ يُخطئن، ويتعثرن في طرقاتهن ويجرحن رُكبهن، ولكنهنّ يتدبّرن، في كل مرة، وعلى نحوٍ ما، أمرَ النهوض من الجديد.

كتبَت في رواية أخرى عن امرأةٍ تُدعى «أويا»، شخصيّة متشظيّةً بعمق ما بين رغباتها والتزاماتها:

«سأذهبُ إلى البحر. إلى أيّ شاطئ. أرى المشهد الرائع يضيء على امتداد طريق الساحل الذي يبدأ في ألانيا متقوّسًا صعودًا حتى بحر أيجة. مشهدٌ يُشيعُ أمامَ عينيها الزُرقَة والاتساع والبحر والصخور والغابات. ثم بدأت تتساءل: ماذا عن زوجها؟ ماذا عن منزلها؟ ماذا عن أطفالها؟ ومسؤولياتها الأخرى؟ وبغتة، في تلك اللحظة نفسها، لم تكن هناك زرقة، ولا اتساع ولا غابات. هناك وحسب واجباتها التي تتزايدُ، تزحفُ نحوها وتجتاحُها بلا هوادة».

أعددْتُ في ذهني مأدبةً في الجنة. طاولة مديدة، مُدّت عليها فَرشَةٌ لها بياضُ الثلج. سكاكين وملاعق وشوك لامعة وشمعدانات فضيّة، وثُريا كريستالية هائلة وبراقة تتدلى من السقف حتى تصل منتصف المائدة تمامًا. وهناك إوَزٌّ مشوي، ورُزٌّ بالزعفران وحلوياتٌ تُذيبُ اللعاب في الفم موزّعةً على صحونٍ كبيرة. تجلسُ سيمون دي بوفوار على كرسي في أحد طرفيّ المائدة، وعلى الرغم من أنها بدت عابسة، فقد كانت في الحقيقة سعيدة. إلى يمينها تجلسُ توشيكوتا مورا مرتديةً نظارتها اللامعة، تأكل بعيدانٍ خشبيّة رُزًا مقليًا، واضعةً فكرةً في كُلّ حبة رز. أما إلى يسارها، فتجلسُ سيفجي سويسال، غير شاعرةٍ بجوعٍ قارس، بيد أنها، هي أيضًا، في مِزاجٍ جيّد، تُدندنُ بخفوت، وترشُفُ النبيذ من حينٍ لآخر.

امرأةٌ فرنسيّة، وأخرى يابانية، وأخرى تركية،- ثلاث كاتبات هائلات العزم، ثلاث شخصيات فريدة ومستقلّة، عِشنَ في عوالم متباعدة، إلا أنهن تحدثن اللغة نفسها- هل من الممكن أن يكُنّ حقًا على مأدبة العشاء الآن في الجنة؟. أُحبُّ تصديق ذلك.

بحثًا عن آلهة الأمومة

في الثاني من سبتمبر، نزلتُ من حافلة تحملُ على جانبيها حروفًا كبيرةً مبهرجة، تُقرَأ: بيتر بان. يُناسبُ الاسمُ مزاجي. أشعرُ أنا أيضًا أنني مثل «طفلٍ لا يريد أن يكبر». وهذه البلادُ بموقعها المجهول هذا، وطقسها المتقلّب قد تكون أرضَ المستحيل. أجُرُّ حقيبتي الزرقاءَ خلفي، وأحملُ معي صندوقًا قفصيًّا للقطط، إلا أنني لا أحملُ أيّة قطة، بل فتيات الأصابع!. ورغم عدم اعتراضهن على طول الرحلة وقد استغرقت إحدى عشرة ساعة من اسطنبول، فإنّهن لم يتوقفن عن التأفف والتقيؤ.

وفي اللحظة التي وطئت فيها قدمي الرصيف، شعرتُ بالصمت في الحَرَم الجامعي كصفعةٍ على الوجه. اعتادت أذنيّ على فوضى الأصوات المستمرة وإيقاع اسطنبول المجنون إلى درجة أنني خفتُ أن أصابَ بالصمم. أرى أناسًا هناك، لكن لا أحد يصرخ، لا أحد يصيح أو حتى يُصفّر. يبدو أنّ السناجب نفسَها تسيرُ على رؤوس أصابعها كي لا تُصدرَ صوتًا يُزعجُ الصمت. يُزعزعُني هذا السكون.

لكن الحرمَ لطيف. إنه واسعٌ ومُعشوشب على امتداد النظر. هناك أشجارٌ سامقةٌ وضخمةِ الجذوعِ في كل مكان، تتحدّثُ بنعوض شَرِس. هناك العشرات من اللغات المُتحدّث بها هنا- كانت الكليّةُ ولا تزال منزلًا لأكثر من ألفَي طالِبة من سبعين بلدًا تقريبًا. واحدة من بين كل ثلاث طالبات هي أجنبيّة، مثلي.

هذه الكلية العالمية المذهلة بزغت عام 1837م نتيجةَ حِكمة امرأة واحدة ورؤيتها الثاقبة. قامت مُعلّمةٌ مثاليّة تُدعى ماري ليون بالترافع عن حَق الطالبات في تعليم يوازي في المستوى والجودة تعليم الطلاب. في وقت لم يكن يُسمَحُ للنساء فيه حتى بالتصويت، كانت آراؤها راديكاليّة. ثابرَت ماري ليون، وبعد معاناة طويلة وعدد لا متناه من العقبات، تدبّرت أمرَ جمع الأموال المطلوبة لإنشاء الكليّة. وحتى يومنا هذا، تنتعش روحُ ماري ليون في كل مُتخرّجة جديدة من كليّة جبل هوليوك التي تدفع بآلاف الخريجات كل عام. كانت كُليّة جبل هوليوك وجارتها كُليّة سميث عَصَبًا في الحراك النسوي الأمريكي خلال الستينيات والسبعينيات. ولا تزالُ تقاليد الكلية جاريةً عندما انضممتُ إليها. فبالإضافة إلى الناشطات النسويات، هناك ناشطات ما بعد النسوية وأنصاف نسويات (اللواتي يُقدّرنَ النسوية حَقّ قدرها لكن لا تستهويهن الناشطات النسويات بالضرورة). هناك أيضًا مُعتنقاتٌ لديانة الويكا، الباحثات عن الاتحاد بآلهة الأمومة والخصب، وأيضًا عددٌ لا بأسَ به من الناشطات السحاقيات وعاشقات الجنسَين معًا.

كتبتُ عن الحرم الجامعي، بما فيه من سناجب وسحاقيات، في صحيفة تركيّة واسعة الانتشار ومعروفة باتجاهها المحافظ. ومن الطبيعي إذن أن تجيء ردود الفعل متباينة. وعلى الرغم من أنّ الثقافة التركيّة لا تتضمّن طبقًا واحدا يُحضَّرُ من السناجب، فقد انتابت الدهشةُ قُرّائي في تركيا -على ما يبدو- من حقيقة أن لا أحد يصطاد السناجب لطبخها هناك أكثر من دهشتهم لمشهد سير السحاقيات مشتبكات الأيدي اثنتين اثنتين، وقد استبشرتُ بذلك وأخذته كعلامة تقدّم ثقافيّ في الوطن.

هناك مُلصقٌ في الحرم جذبَ انتباهي منذ يومي الأول- يُصوّر

الملصق امرأةٌ عاملة ترتدي بزّةً زرقاء بالكامل، وتعقد على جبينها ربطةً ملوّنة بالأبيض والأحمر، أما كُمّها فمطويٌّ للأعلى كاشفًا عن ذراعٍ مفتولٍ وعَضَلي مثل ذراع باباي رجُل البحار. امرأة المُلصق هذه تُزيّنُ جدران الحرم الجامعي بشماراتها القائلة: «تستطيعين النجاح»، و«تستطيعين أن تقفي شامخةً وأن تكوني قويّةً في هذا العالم الذي يقوده الذكور!».

في اليوم الثاني، استكشفتُ المبنى الذي سيصيرُ مكاني المفضل طوال إقامتي هناك؛ المكتبة الهائلة المزوّقة، غوطيّة التصميم. كان حُبًّا منذ أوّل وهلة! بدءًا بالكتب المخطوطة باليد، إلى كتب الأدب الحديث، من الفلسفة السياسية إلى علوم النبات.. جُلتُ الممرات، أتحسّسُ الكتب وأشمّها.

ولكن، لا أحد هامَ في المكتبة وعشقها أكثر من الآنسة المثقفة الساخرة. فمنذ اللحظة التي حددتُ فيها موقع مبنى المكتبة، المبنى الشبيه بقلعة رابونزل من بعيد، قفزَت بسعادةٍ ومرح وصاحت بأعلى صوتها حتّى بحّت.

يعبُرُ الخريف، والشجرُ يذرفُ أوراقه الأولى، صابغًا الحرم كلّه بالأحمر والبُنّيّ والكهرماني. في الصباحات، أذهب رفقة الآنسة العمليّة القصيرة للجري. وفي أحد الأيام، أثناء عودتنا، توقفنا عند المكتبة. وجدنا الآنسة المثقفة الساخرة تجلسُ على أحد الرفوف، منحنية على كتاب مفتوح. إنها تقبض على قلم رصاص مبريّ، وتتكئ عليه كعمودٍ لتتنقلَ أفقيًا من رَفٍّ إلى آخر. ولديها أيضا سلالم من حبال لتتسلقَ نحو الرفوف العُليا. أساور معصميها وأقراط أذنيها التي تتخذ شكل رمز السلام، تُصَلصِلُ كل مرّةٍ تتحرّك فيها بين الأرفف. ومكتوبٌ على قميصها الأسود الذي ترتديه فوق بنطال جينز: «ضدَّ

الحرب، ضدّ المرقية، ضدّ الكراهية».

قالت لي:

- أهلًا بأختي.

وفي اللّحظة ذاتها، عبسَت قليلًا في وجه الآنسة العمليّة القصيرة. فمنذ أن جئنا إلى أمريكا والخلافات بين فتيات الأصابع قد طفت مجددًا إلى السطح. ذابَ الائتلاف المؤقت الذي تشكّل بينهن.

سألتها:

- ماذا تقرئين؟

قالت:

- الجليّ والمُضمر في معاني الثورة.

جالت عينا الآنسة العمليّة القصيرة بنظرةٍ حائرة من مكانها على كتفي.

- قصّةٌ أخرى عن صيادي السمك؟

قالت الآنسة المثقفة الساخرة:

- إنه كتابٌ للناقدة الفرنسية جوليا كريستيفا، إنها إحدى مُفكّرات الصف الأول في وقتنا.

- امرأةٌ ذكية؟

- إنها تعتقد أن عقدة أوديب تمثل مفتاحًا لفهم المرأة.

ثم تابعت الآنسة المثقفة الساخرة بنبرةٍ ليس فيها من الضيق بقدر ما فيها من الغطرسة:

- فتاة يافعة، معجبة بأمّها، وتُقلّد كل ما تفعله. ولكنّها تكتشف لاحقًا أنّها لا تملك عضوا ذكريا. فتشعر بالنقص والعيب كالمَخصيين. ولتعوّض ما تظنه تشوّهًا، تبني علاقةً أقوى بأبيها.

والأمّ التي كانت محبوبةً ومحطَّ إعجاب حتى ذلك الحين، تُركن جانبًا، ويُنظر إليها كمُنافسة. هناك فتيات يُطوِّرنَ، بدءًا من هذه المرحلة، عقدة كُرههن لأمهاتهن.

نُصتُ إليها، أنا والآنسة العمليّة القصيرة، دون أن ننبسَ بكلمةٍ واحدة، ولا حتّى بنَفَس.

- الكاتبات متأثرات بعقدة أوديب أكثر ممّا قد تظنين. هل تعرفين، على سبيل المثال، لمَ صارَت سيفجي سويسال روائية؟ لقد بدأت الكتابة في عمر الثامنة عشرة غَيرَةً من عشق أبيها لأمها. رأت أمّها غريمةً لها، واعتقدت أنها بكتابتها وخيالها ستتمكنُ من الفوز بالمكانة الفُضلى عند أبيها.

قلتُ:

- أوه، حقًا؟

أردفت الآنسة المثقّفة الساخرة بنبرتها الموحية بمعرفة كلّ شيء:

- أوه، بلى. هذا ما كتبَته في مذكّراتها. يُريدُ كُلّ طفلٍ أن يعود للالتحام بجسد أمه. وهذه بالطبع أمنية مستحيلة. هذه «الوَحْدَة» ذهبَت منذ زَمَن، تلاشَت إلى الأبد. ولكنّ الطفل لا يستطيع إلاّ أن يشتاق إليها. النظام الرمزي المتمثل في الأب، يرتبطُ به مَن ليس بمستطاعه أن يُعيدَ الالتحام بجسد أمه.

وأكملت الآنسة المثقفة الساخرة وابلها من الحديث:

- ولكي يكون بالمستطاع العيش ضِمْنَ ذاك النظام الرمزي الأبوي، نقوم بقمع خيالنا، ونجعل رغباتنا معتدلةً ونتعلم كيف نكون عاديين. ومهما بلغت جهودنا وعانينا الصعوبات، فإنّه لا يمكن إخمادُ خيالنا على الإطلاق. إذ نجد الأمر يطفو إلى السطح مجددًا في أكثر الأماكن غير المُناسبة وأكثر الأوقات حَرَجًا.

سيميائيَّةُ الأُم تصعَدُ ضد النظام الرمزي الأبوي.

قالت الآنسة العمليّة القصيرة:

- أمورٌ مُعقدة! ما الغاية من جعل الحياة معقدةً هكذا؟ هؤلاء المفكرون الفرنسيون ليسوا عمليين أبدًا. لا غرابة إذن من الكآبة التي تغرقُ فيها الأفلام الفرنسية!.

حدّقت الآنسة المثقفة الساخرة إلى فتاة الإصبع أمامها بنظرة متعالية لكنها لم تقُل شيئًا. التفتت إليّ بدلًا من ذلك:

- تتحدث كريستيفا عن ثلاثة طُرُقٍ أمام الطفل كي يصنع هويته: الأولى، أن يُعَرِّفَ نفسه أمام أبيه ونظامه الرمزي. الثانية، أن يُعَرِّفَ نفسه أمام أمّه وسيميائيتها. والثالثة، أن يجدَ تعريفًا مهزوزًا بينهما.

حاولتُ ادّعاءَ أني أتابع ما تقول وأفهمه، إلاّ أن حيلتي لم تنطلي عليها:

- هل تفهمين ما أقول؟ إذا قمتِ بتبنّي الطريقة الثالثة، تستطيعين حينها أن توظّفي الأب الرمزي وسيميائية الأم معًا في أعمالك.

سألتها:

- إممم.. وهل من كاتبٍ قامَ بذلك من قبل؟.

- بالطبع يا أختي. ألقي نظرةً على كتاب فرجينيا وولف: «الأمواج». كانت تكتب تمامًا عند هذا التوازن الخَطِر.

لم أعترض هنا. قد يكون ما قالته صحيحًا، وقد يكون خاطئًا. فكتابة الرواية مثل نهرٍ مُتقلّب بتيارات قوية. لا يُحَدِّثُ المرءُ نفسه وهو ينسابُ في تيار ذاك النهر مُوَشْوِشًا: سأضيف الآن رشّةً من النظام الرمزي الأبوي، ممزوجةً بشيءٍ من سيميائية الأمومة. أبدًا، لا تُمَلَكُ الأمورُ هكذا أثناء كتابة الرواية. فالكاتب غارقٌ حينها حتى قمّة رأسه

بمَهمّة الوقوع في الحب مع شخصياته التي يخلقها.

وهذا ما لا تفهمه الآنسة المثقفة الساخرة. يكتب الروائيون دون تفكير. الإيمان والفكر يجيئان لاحقًا، عندما يَزِنُ النُقّاد الأدبيون ودارسو الأدب كلّ جملة في ميزان النظريات الأدبية والنقدية. وعندها، عندما يطّلعُ القُرّاء على هذه النظريات، تتملّكهم فكرة أن الروائيين يقومون عمدًا بخلق قصصهم على تلك الصورة النظرية- وهذا ليس صحيحًا.

قالت الآنسة العمليّة القصيرة:

- هناكَ أمرٌ لا أفهمه.

قالت الآنسة المثقفة الساخرة بتهكم:

- لا أستغربُ هذا منك!

- أنتِ مهووسةٌ بالنظريات الحائمة حول الأمومة. كلّ هذه الرمزيات والسيميائيات.. بيد أنك ستقفين على وجهك عندما يحينُ وقتُ العَمَل والتشميرِ عن السواعد.

قالت الآنسة المثقفة الساخرة:

- سيقودُني عِلمي!.

- «ياالله عاد! اسمعي بس»، أنتِ لا تعرفين حتى كيف تغيّرين حفّاظة. قد لا أعرف شيئًا عن نظرياتك تلك، لكنني أستطيعُ اللحاقَ بمَهَام الأمومة والإحاطة بها بسرعة تفوق سرعة سبيدي غونزالس.

رموش الآنسة المثقفة الساخرة تتحرك بطريقة تشي بأنّ ما سمعته لم يعجبها نهائيًا. وعلى هذا الحال تركتُهن يتجادلن ومشيتُ خارجةً من المكتبة.

جُلتُ أنحاءَ الحرم الجامعي. فالتخلص من نسوة الأصابع، لبعض الوقت، يُضيء قلبي ومِزاجي. مثل إسفنجة بقدمين، أسيرُ متشرِّبةً كُلَّ تفصيل أراه، وكلَّ صوت أسمعه وكلَّ رائحة أشمّها، أحفظ ذلك كله داخلي. هذا ما يحدث عندما تكون غريبًا، تجمعُ التفاصيل كأنها أصدافٌ بَحريّة على شاطئ.

وقفتُ في طابور الكافيتيرا وخلفي زَوجُ مِثليّات. إحداهن قصيرة بشعرٍ أحمر برتقالي ومنفوش، والأخرى طويلة جدًا وفي آخر أشهر حملِها. تقدّمنا ببُطء، بوصةً بوصة من الأرض، حاملات أطباقنا نحو قسم الحلويات. عندما وصلنا هناك، صاحَت المرأة القصيرة فيّ بشكلٍ مفاجئ:

- أوما هل تمانعين لو حصلنا على هذه القطعة؟ فقد بقيت واحدة فقط!.

هناك، على رَفٍّ زجاجيٍّ، حيثُ تُشيرُ المرأة، بقيَت كعكة توتٍ واحدة. فتراجعت عنها:

- بالطبع، تفضّلي.

قالت المرأة القصيرة غامزةً إليّ:

- شكرًا! شكرًا! منذ الصباح وشيري تتوقُ لتناول كعكة التوت هذه.

قلت:

- أوه، هي حامل؟ يا للروعة!

قالت شيري واضعةً يدها على بطنها المنتفخ:

- نعم! طوله ستة أقدام، وهو لاعب شطرنج محترف وبطلٌ في كُرة المضرب، وفنانٌ موهوب، ودرجة ذكائه في اختبار الـ IQ هي 160!. وهو أيضًا مهتمٌ بالبوذية وفلسفة الشرق الأوسط.

- عفوًا؟!

أوضحَت:

- أقصدُ الأب. لقد انتقيناه من بين الآلاف في بنك الحيوانات المنوية. سأنجبُ طفلًا رائعًا!

هناكَ أمرٌ يُرعبني في كلّ هذا الإعداد المسبَق والدقيق للغاية. ربّما ليس من المستغرب أن تبحث النساء عن رجالٍ يتبرعون بحيواناتهم المنوية، وفي نفس الوقت هم أصحّاء وأغنياء ويتمتعون بشخصيّات مؤثّرة وذوو كاريزما جذّابة. ولكن بالنسبة إلى طفلٍ سيكبُرُ دونَ أبٍ، ما الذي سيعنيه ذاك كله على الإطلاق؟ ما الذي يعنيه لطفل لن يلتقي أبدًا بوالده البيولوجي؟ وأيضًا، كل الأمور التي نفتقدها في الحياة، مثل العيون الزرقاء والجسد المفتول وفصاحة النقاش، قد تساعدنا في تطوير مزايا أخرى مطمورةٍ في دواخلنا، فالمواهب تولَدُ في الظّلال دون إلحاح عليها. إن البحث عن أطفالٍ مثاليي الكَمَال، يُضيعُ الدورَ المفاجئ للطّفرات، للصُّدَف والغيبيّات في تطوّر ذواتنا.

عُدتُ ليلًا إلى غرفتي. مساحةُ المكان الذي أقطنه تبلغُ مئةً وثلاثين قدمًا، ويحوي منضدةً صغيرةً كمطبخ، وحَوض استحمامٍ لا تستطيعُ لضيقه أن تغسل سوى نصف جسدك فيه. كانت تسكُن قبلي هنا رسّامةٌ هنديّة- لا تزال رائحة لوحاتها عالقةً على الجدران. وقبلها، سكنَت هنا عاملةُ اجتماعٍ زيمبابوية. شَهِدَت الغرفةُ عشرات النساء من مختلف أقطار العالم. تركت الرسّامَةُ الهندية خلفها بُقَعَ طلاءٍ وقلمَ حبرٍ مُعقّد التصميم. والطالبة الزيمبابوية تركت قناعًا مُخيفًا على الجدار، عاكسًا ظلًا أبنوسيًا نحيلًا وطويلًا.

ما الذي سأتركه للطالبة القادمة مكاني العامَ المُقبل؟ ستقول: كانت هنا، قبلي، كاتبةٌ تُركيّة. لا أجد شيئًا سوى الكلمات أتركها لها.

ربما سأترك خلفي إحدى أفضل الكلمات التركية بالنسبة إليّ، والتي توجد أيضًا في الإنجليزية: قِسمَة «Kismet».

أستلقي على سريري. في هذا النهار تحديدًا، يبدو أن العُزلة التي لطالما استمتعت بها تُظلِمُ مزاجي. ما الذي أفعله هنا الآن بالضبط، بعيدًا عن اسطنبول، عن أحبابي، عن المكان الذي تجري فيه رواياتي، عن أصدقائي وأمي ولغتي؟ هل ما أفعله هنا، بشكل أو بآخر، يشبه إلقائي بنفسي في مياه مجهولة لأختبر قدرتي على العَوم؟.

وماذا لو أنني لم أستطع ذلك؟

أستدعي الآن أمي متحدثةً عن الطريقة التي كنتُ بها جيدةً جدًا في عزلتي: وكأنك لا تحتاجين أحدًا! لكن عليك الاعتماد على أحدٍ ما، فليس أسوأ من الاستقلال التامّ.. القليل من الاتكالية مُفيد.

فاجأني أن تجيء هذه النصيحة من امرأة لطالما رفضت أن تتزوج مرة أخرى وبقيَت في أنظار المجتمع «امرأةً دون رجُلٍ يحميها».

النساء في عمري تمكنّ من الحصول على أزواج وأبناء وسِلال تنزُّهٍ يصعدنَ حافلات بيتر بان، ويَجُلنَ حسب رأيي في أرض المستحيل. تقومين بمثل هذه الأمور في أوائل العشرينيات، عندما تكونين للتوّ قد تخرّجتِ من المدرسة و«حياتك» لم تبدأ بعد. لا تقومين بتلك الأمور وأنتِ في منتصف الثلاثينيات. كان من المفترض الآن أنني أحظى بالاستقرار وأعيش نوعًا من النظام. النساء في عمري يَخْضَبنَ بِبَيض مخفوقٍ مع أسَرهنّ صباحًا، ويُشاركنَ في طقوس اجتماعيّة يُكررنها بحُب. ولا أزال أنا معقودةً بذيل الرياح الهائمة حولي، مثل طائرة ورقية انقطع حبلها.

يبدو على فتيات جوقة أصوات الفوضى أنهنّ راضيات هنا، تُقدمُ كُلّ واحدةٍ منهن على ما تُحب. الآنسة المثقفة الساخرة لا يبدو أنها

ستغادرُ المكتبة أبدًا. تذهبُ، في أوقات راحتها، لحضور مؤتمرٍ أو ورشة عمل. أمّا الآنسة العملية القصيرة، فلم تنقطع عن دروس الكمبيوتر: باور–بوينت واكسل ولينكس. رأيتُ السيّدة الدرويشة آخر مرّة تتأمّل هنا في طبيعة المكان الفاتنة. وبالنسبة إلى حضرة جناب التشيخوفية الطَمُوح، فإنها مأخوذة دائما بالكتابة على الإنترنت، وتتقدّمُ بطلبات المشاركة هنا وهناك، إنّها تجد ما يشغلها على الدوام.

كل واحدةٍ مشغولةً في عالمها، لكن أين ماما الرُّز بالحليب؟

لم أرها منذ لقائنا في الطائرة. ربما لم تأتِ إلى أمريكا. ربما لم تستطع أن تجتاز بوّابة فحص الجوازات في نهايةِ الأمر. أو ربما تاهت في نيويورك. أوجَعني قلبي بغتةً. هل يمكن للمرء أن ينسى جانبًا منه لم يكُن على علم بوجوده أصلًا؟ نعم، أنا قمتُ بذلك.

أثناء سقوطي في النوم، كنتُ أفكّر فيها، ماما الرُّز بالحليب. وتمنّيت لو أنني عرفتُها من قبل.

سَوِيّةٌ من الخارج

قالت مرّة المغنية كورتني لوف:

«في الجزء الأكبر من حياتي اليومية، أُحب أن أتصرّف بشكل سَوِيّ، بطريقة مُثلى- حتّى لو كنتُ منهوكةً ذهنيًا ومستنفدةً بالرؤى المريضة للعنفُ والإرهاب والجنس والموت».

نحنُ بخير طالما أننا نتظاهر بذلك، طالما أننا ندّعيه من الخارج. لكن ما الذي يعنيه حقًا أن تكونَ سَويًّا؟ ما هي بالضبط المرأة السويّة؟ ما الصفات النسائية التي تُعتبر طبيعية؟ وما هي الصفات الأخرى التي تُصَنّف على أنها ثقافية؟ هل مُقدّرٌ على الفتيات، جينيًا، أن يكُنّ أموميات وراعيات وعاطفيات؟ أم أنّ عوائلهن ومجتمعاتهن من يُشكّلنهن على هذا النحو؟ أم أنه أمرٌ آخر، تكون فيه الصفات الطبيعية والثقافية متضافرةً بشدة إلى الحدّ الذي يصعب معه البَتّ في أيّ تقسيم لتلك الصفات المشكّلة للمرأة؟.

تأتي الصّفاتُ دومًا على شكل زَوج. هناك الصفة وهناك عكسها، هناك الصفة وما يقابلها. لكل جميل في العالم، هناك بالتأكيد مقابلٌ قبيح. رُبما، في التحضير للطوفان الكبير، استقلّت الصفات سفينة نوح زوجًا زوجًا، كما فعلت الحيوانات تمامًا. لهذا نميلُ على الدوام للتفكير في المصطلحات بشكل ثنائي. إنّ كان هناك تعريفٌ ثابتٌ لما تمّ التعارف عليه على أنه «النسوية المثالية»، فشكرًا لذاك التعريف الذي ترسّخ على أنه تعريفُ «الرجولة المثالية». كلا التعريفين، وما يترتب

عليهما من توقعات، مروّعان بشكلٍ أو بآخر لكلا الطرفين، للرجال والنساء على حَدٍّ سواء.

نشأتُ ناظرةً إلى نموذجين مختلفين من النساء. هناك أمي- امرأةٌ مُتعلّمة، وحداثية، وغَربيّة التمدُّن، إنها امرأةٌ تُركيّةٌ علمانية، عقلانيّةٌ على الدوام، ومستقيمة الحديث والتوجهات. وفي الجهة المقابلة هناك أمها، جدّتي التي اعتنَت بي هي أيضًا، لكنها لم تكُن مُتعلّمة، كانت روحانيةً أكثر، وبالتالي أقل عقلانية بالتأكيد. لقد كانت امرأةً تقرأ بقايا فناجين القهوة لترى المستقبل، تنظُرُ إلى رصاص يذوبُ مُشَكِّلًا صُوَرًا غامِضةً لتفقأ عين الشيطان. كثير من الناس كانوا يجيئون لزيارتها، أناسٌ تنفجر وجوههم ببثور الشباب، أو تُغطي أياديهم الثآليل. وكانت جدتي تتبسُ ببضع كلماتٍ عربيّة، ثم تأخذ تفاحةً حمراء وتطعنها بعددٍ من أشواك الورد يساوي عدد الثآليل التي تريدها أن تختفي. وبعد ذلك، ترسمُ دائرةً حول كل شوكةٍ بحبرٍ أسود.

من بين أكثر ذكريات طفولتي حياةً هي التفاحات الحمراء، وأشواك الورود والدوائر السوداء. وفي الحقيقة، لم أجد، بين كل الناس الذين رأيتهم يزورون جدتي لتُشفي بشرتهم، مَن خرَج من مجلسها غير سعيد أو غير متشاف. لقد سألتها كيف أمكنها فعل ذلك، هل هذه هي قوّة الصلاة؟. أجابتني قائلةً: نعم، الصلاة نافعة، ولكن عليك الانتباهُ أيضًا لقوّة الدوائر!.

تعلّمتُ منها، من بين أمور أخرى كثيرة، درسًا مهمًا: إذا كنت تريد أن تدمّر شيئًا ما، أكانَ تشوّهًا أو ثؤلولًا أو حتى روحًا بشريّة، فإنّ كلّ ما تحتاج إليه لتقتلها هو أن تحيطها بالجدران.

سوفَ تجف.

هناك العديد من الدروس المشابهة «غير المنطقية» في حياتي،

والتي أعتزُّ بها وأُقَدِّرها حتى اليوم. بالنسبة إلى الشخص المنطقي جدًا، يبدو ذلك عماءً تامًا، وأكثر من ذلك، قد يبدو جنونًا مَحضًا. يعلّمنا المجتمع وتعلّمنا الثقافة كيف نكون بالضبط أسوياء ومقبولين. كانت طريقة علاج جدتي شائعةً وعاديّة لأكثر الناس المقيمين في مناطق الطبقة الوسطى من أنقرة في بداية السبعينيات، قد يكون هذا بالنسبة إلى شخص من فيينا أمرًا سوقيًا، إلا أن الناس يختلفون في فهمهم لما هو سَوِيٌّ ومَقبول وما هو غير ذلك. لم تؤمن أمّي قط بالقوى الخارقة للطبيعية، القوى التي تؤمن بها جدتي بشكل أكثر من حميم. كانت تقول إنّ «القهوة هنا لنرشفها، لا لنقرأها». أمّا أنا، فلطالما ظننتُ أنّ هناك رَشاشًا من السّحر في الحياة والحب، وأن الفتى الذي يبدو للوهلة الأولى أميرًا وسيمًا، قد يتحوّل في لحظةٍ ويُسَخَطُ بسهولةٍ إلى ضفدع قبيح.

وطبعاً، مثلما يعلمُ الكُتّابُ جميعًا، فإنّنا لا نحتاج، عندما ننشَغلُ بالسّرد، إلى تسييج أنفسنا بحدود المنطق. ولكن العكس هو ما نريده، الاندفاعُ للغوص بمقدمة رؤوسنا في بحيرة اللامعقول. البحيرة التي تبدو، لفرط كثافتها، بلا قرار. نستطيعُ الكتابةَ عن القِوى الخارقة، والسحر، والجنيّات. هناك مساحةٌ للجميع في الأدب. وهذا لا يتعارض مع أننا، في حياتنا اليومية، نتقيّد بقوانين مختلفةٍ تمامًا، قوانينَ تشكّل عالمنا المنطقيّ والمتصلّب.

خلال قرونٍ طويلة جَرَت على المعمورة، كان المتوقّع من الفتيات والنساء أن يلتزمن بقائمة صفات ثابتة، بينما يُقاس الفتيانُ والرجال بقائمة أخرى. وإذا جَمعَ أيٌّ أحدٍ صفات من كلا القائمتين مهما كان الزمان الذي يعيش فيه أو المكان، فإنّ حياته ستتعقدُ بشكلٍ رهيب. لذلك يُقال، إلى يومنا هذا، عن المرأة التي توصم بالحزم، إنّها

«رجولية»، وستواجه متاريسَ صلبة من ردود الفعل الخشنة، تمامًا كما سيحدث للرجل الذي يوصم بأنه «أنثوي». وكلما كان المجتمع محافظًا، يكونُ من النادر فيه أن تتقاطع القائمتان وأن تلتقي الصفات في أحد من أفراده. ما أشرسَ الحياة!. ومع ذلك، يبقى تحديد العلاقة بين الجنسين وتعريفها أمرًا محصورًا في المجتمعات التقليدية. وعلى الرغم من تغيّرها المستمر، أعني تلك المجتمعات، فإنّ المُشكلة تبقى كونية ومنتشرة. فمنذ الأساطير القديمة وحتى كتب المصوّرات الحديثة، من الحكايات الشعبية إلى الإعلانات التجارية، وهذه الثنائية في التفكير تتشعّب يوما بعد آخر في كل جانبٍ من جوانب حياتنا.

الرجل	المرأة
عضلي	رقيقة
خشن	خجولة
حاضر	غائبة
ثقافة	طبيعة
النهار	الليل
منطقي	عاطفية
العقل	الجسد
لمسي	حسيّة
عمودي	أفقية
السفر	الاستقرار
متعدد العلاقات	وحيدة العلاقة
أفعال	أقوال
متجرّد	ذاتي
تمجيدي	رثائي

وبشكل مستغرب بما فيه الكفاية، اعتادت النساء أيضًا على التفكير في أنفسهنّ وفقًا لتلك الصفات المُحددة. إنّ العلاقات التي ينشئها بعضُنا بالآخر، وأحاديث النفس التي نُجريها في دواخلنا، والطريقة التي نُربّي وفقها بناتنا، مثقلةٌ بظلال تلك الانشطارات بين الصور المُثلى للجنسين.

ما هو القَدْرُ الطبيعيّ من النسويّة التي أحملها؟ ما هو القَدْرُ الاجتماعيّ من النسوية الساكنة فيّ؟ وفي سَعيي لأن أصيرَ أُمًّا، ماهو الجزء من الأمومة الذي يُعتَبَرُ فَيضًا من الداخل؟ وما هي الأجزاء المفروضة من الخارج؟ أهي الصدفةُ المحض هي التي جعلتني أبدأ التفكّر في الأمومة عندما بلغتُ منتصف الثلاثين؟ أهي ساعتي البايولوجية هي التي بدأت ترنُّ وتُنذرني؟ أم أن ما بدأ بالإسراع والانفلات مني هو التوقيتُ الاجتماعي، التوقيت الذي يُجبرنا نحن النساء على مقارنة بعضنا ببعض وقياس حيواتنا وفقًا لذلك؟.

عندما يبدو كل شيء مثقلاً بالميراث الثقافي، كيف لي أن أعرف ما إذا كان ما أشعر به وأفكر فيه طبيعيًّا؟ ومن قال إنّه ليس إملاءً مفروضا عليّ من الوسط الذي أعيش فيه؟

الجلوسُ على الحافة

وُلدَت زيلدا فتزجيرالد في الرابع والعشرين من يوليو عام 1900م، في ألاباما. كانت طفلةً نَطّاطة، لا تهاب شيئًا، وقد حَظِيَت بحُبٍّ عارم من أمّها إلى درجة أنها كادت تُفسدها بالدلال. أمّا والدها البعيد عنهما، والدها الذي كان قاضيًا ذا مهابة لا تضاهى، فلم تحظ منه بأيّ اهتمام وعناية. تأرجحت طفولتها بين هاتين العاطفتين المتناقضتين. يُمكنُ الكشف عن شخصيتها وإيضاحها بشكلٍ نابضٍ من خلال ورطةٍ طفيفةٍ تسببت بها في طفولتها:

تلقّت الشرطة المحلية اتصالًا في أحد الصباحات بأن هناكَ طفلةٌ تسيرُ على حافّة سطح أحد المباني. عندما وصل رجال الشرطة إلى الموقع، وجدوا زيلدا الصغيرة تنتظرهم جالسةً على الحافة. وبعد الكثير من المشاحنات بينها وبينهم، تمكّنوا من إنزالها عن الحافة. بيدَ أن الحقيقة التي تُخفيها الحادثة قد اتضحت لاحقًا. لقد كانت زيلدا نفسها هي من اتصلَ بالشرطة. في البدء، أجرَت الاتصال، وبعد ذلك ذهبت إلى السطح، واعتلت الحافة، ثم جلست هناك منتظرةً أن يتم إنقاذها. وصار هذا دائمًا هو أسلوب حياتها. حتى عندما صارت امرأةً ناضجة، استمرّت في ذهابها إلى الحافة، حيث تَرقُّبُ بهدوءٍ الفزعَ الذي تثيره حولها.

المقالات والكُتُب التي تناولت زيلدا فتزجيرالد لم تخرج قط عن الدوران على ثلاثة محاور:

1. لقد كانت زوجة الروائي ف. سكوت فتزجيرالد وعشقه العظيم.

2. لقد كانت، حتى هي، موهوبة.

3. لقد كانت تخضع لعلاج طبيٍّ مكثّف، فقد عانَت من الاكتئاب وانتهى بها الحال إلى الموت في مصحّة عقلية.

زيلدا وسكوت فتزجيرالد التقيا عند نهاية الحرب العالمية الأولى. ولكُلٍّ منهما تصوُّرٌ مختلفٌ عن لقائهما الأول. وجدَ الرجلُ المرأةَ جذّابةً وذكية، إلا أنه شعر بالتشوّش جرّاء بساطتها في التودد للشبان الآخرين واستمرارها في ذلك. كان انطباعه الأوّل عنها مُضطربًا.

أمّا المرأة، في الجهة المقابلة، فقد وجدت الرّجُل ذا كاريزما جذّابة وموهبة وذهن شَرود. كانت زيلدا من النوع الذي عليه أن يمشق ذهن الرجل أولًا، قبل أن تحبّه وترتمي في أحضانه.

تزوّجَا في أبريل من عامِ 1920م، محفوفين برياح الطموح والانجذاب المتبادل. عندما سأل صحافيّ سكوت فتزجيرالد عن الشيء الذي كان يثير شغفه على الدوام، أجاب بأنه شغوفٌ بحُلم كتابة رواية لم يُكتَب مثلها قط، والبقاء على حُب زوجته العزيزة إلى الأبد. إلا أنهما، منذ البدء، رأيا نفسيهما أندادًا. ولم تساعد زواجهما حقيقة أن كل واحدٍ منهما يَسهُلُ عليه تناول زجاجة الخمر عند أضأل محنة أو ألم. وبمرور الوقت، كبُرَت خلافاتهما لتكون قاسيةً ومؤذيةً جدًّا.

الكحول والسجائر وحياة الليل.. لم يكونا غريبين على الحياة في سرعتها. إلا أن إدمانهما الأعظم قد كان لحبهما. لقد تزوّجا، وعَشِقَ كل واحدٍ شريكه حتى حاربه وشوّهَهُ في علاقة تشبه قطار الموت. كانا واعيَين بنقاط ضعف كلٍّ منهما، ويجيدان بالتالي إيذاء بعضهما. تجدهما في لحظةٍ يُطلقان صرخات الحرب، وفي اللحظة

التي تليها يركبان سيارتهما ويقودانها بسرعة عالية في شوارع ذات منعطفات حادة وخطيرة. أَحَبّا تحدّي القَدَر. ولأنّهما زوجٌ مُبدع، مشهور، زوجٌ طائرٌ بلا هوادة ويعشق تدمير هذه العلاقة نفسها، فقد صارا مَحَطّ أنظار الإعلام. ومن غير المستغرب أن يكون الكثير مما كُتِبَ عنهما غير صحيح. هناك شائعات وتخمينات خاطئة، والقليل من الصحافيين فقط من كان لديهم الوقت والرغبة لفصل الحقائق عن الأكاذيب.

في السنوات اللاحقة، أمسى سكوت فتزجيرالد مشهورًا حدّ الجنون، يصعدُ بسُرعة الدرجَ الزجاجي لمَعْبَد آلهة الأدب. المُدهش هو أن شخصياته التي كتبها وكتب عنها والسّمات التي صبغها بها كانت إلى درجة كبيرة من وَحي زيلدا. بعض شخصياته تكلّمت كما كانت زيلدا تتكلّم. هل «سرقَ» بعضَ الأفكار من زوجته؟ هل سرقَ مقاديرَ صغيرة من كتاباتها؟ لطالما كانت زيلدا تقرّ متهكّمةً، من وقت إلى آخر، بأنّ أسطُرًا من يوميّاتها التي تتركها في البيت، تظهرُ فجأةً في روايات زوجها- وأحيانًا مقاطع بأكملها!. في مراجعة أدبيّة لها عن رواية زوجها: «الجميلة والملعون»، كتبتها لمجلة «منبر نيويورك»، قامت بالتصريح بهذا التلميح علانيةً:

«بدا لي أنني ميّزتُ في إحدى الصفحات مقطعًا لي كتبته في أحد دفاتر يومياتي القديمة. دفترٌ اختفى بشكلٍ غامض بعد فترة وجيزة من زواجي. وميّزتُ أيضًا نُتَفًا من رسائل بدت لي مألوفةً بشكل مبهم رغم مرور الكتّاب تحت يدي المحرّر. في الحقيقة، أظن أن السيّد فتزجيرالد- هكذا يُحب أن يُكتبَ اسمه- يعتقد بأنّ على السرقات الأدبية أن تبدأ من البيت أولًا».

قد يكون كلُّ كاتبٍ نشّالاً على نَحوٍ ما! يستلُّ الإلهامَ من الحياة

الواقعية، مثل طائر المقعق الذي لا يستطيع أن يمسكَ نفسه أمام الأجسام اللامعة، يفردُ الكُتّابُ أجنحتهم على وسعها في السماء الرحبة، باحثين عن أمور للكتابة عنها. وعندما يجدون موضوعًا ما، ينتزعونه انتزاعًا. وكيفما قلّبنا النظر، يبقى موضوع «براءة الاختراع الأدبية» بين سكوت وزيلدا فتزجيرالد أمرًا لم يقع البتّ فيه إلى اليوم.

الشهرة والامتياز أمران لم يجلبا سوى القليل من السعادة لسكوت فتزجيرالد. رأى نفسه مُحاطًا بنساء عشقنه، ونُقّاد يُصفّقون له، وصحافيين رأوا في كل حركةٍ منه موضوعًا غضًّا لتناوله. وهكذا بدأ بالإكثار من الشرب. عندما لا يكون بصدد التفكير في روايته القادمة، يُغلق عقله عن العالم، وعندما لا يكتُب، فهو يشرب شُربًا ثقيلًا حتى أن النوم يصرعه في أماكن عشوائية. كانت زيلدا غير سعيدة بقَدر بؤسه تمامًا. لم يستطيع كلّ منهما أن يُسْعِد الآخر، ولم يستطع أيضًا أن يدعَه يذهب في سبيله. مثل طائرتين ورقيتين تشابكت خيوطها والتفّت بعضها على بعض، ظلّ كل واحدٍ منهما يتقلّب ويتثّنى على ساعد الآخر.

كانت الصداقة التي نَمَت بين سكوت فتزجيرالد وارنست هيمنغواي أثناء ذلك أمرًا قد بَلبلَ مؤرّخي الأدب. لم يكُن ممكنًا الفصل بينهما لفترةٍ طويلة– كاتبان بوهيميان يفقدان الوعي من الشُرب معًا. هذه الصداقة كانت من ذاك النوع الذي لم يُعجب زيلدا. فقد رأت في هيمنغواي رجُلًا مُعتدًا بذكورته، قاتلًا نفسه، وذا غرورٍ منتفخ إلى حدٍّ بعيد. اعتقدَت أنه لا يصلح رفيقًا صالحًا لزوجها. وبمرور الوقت، انتهت تلك الصداقة.

غَيرَةُ زيلدا على زوجها كانت أسطورية. عاشت الحسدَ نوبةً نوبة، حتى قامت بحرق ملابسها وإفساد أمتعتها وتدمير ما يُحيطُ بها. مرّةً، في حفلٍ مزدحمٍ بالأنيقات، خلعَت عن رقبتها عِقدَ مجوهرات ورمته

في ماء مَغليٍّ في محاولة لصُنع «حساء بالمجوهرات!». يُعميها الغضب. وفي ليلة أخرى، عندما لاحظت أن زوجها يهتمُّ بإيزادورا دانكن ويوجّه انتباهًا خاصًّا وسخيًّا لهذه الراقصة الاستعراضية، صنعَت مشهدًا بالسقوط من أعلى الدرج الرخامي حتى أسفله، وفي الوقت الذي حملوها فيه عن الأرض، كان الدم يُغطيها تمامًا.

أنجبا طفلةً واحدةً أحبّاها وفضّلاها على كل شيء- سكوتي، المولودة في أكتوبر 1921م وعاشت تحت رعاية مُربيّة أطفال. عندما كانت زيلدا لا تزال تحت المُخَدّر أثناء ولادتها، هَمهَمَت بكلماتٍ تقول:

«أتمنى أن تكون فتاةً ذات حُسنٍ، ومُغفّلة بعض الشيء. جميلة ومُغفّلة صغيرة!».

سيظهر نفس التعبير في رواية: «غاتسبي العظيم» على لسان ديزي عندما تتحدث عن ابنتها. والحالة هذه، كالمعتاد، أدبٌ مُستلهمٌ من الحياة الفعلية.

بعد إنجابها سكوتي، أجهضَت زيلدا ثلاث مرات. لحُبها الهائل لابنتها، لم ترغب في إنجاب طفلٍ بعدها، أو على الأقل ليس بهذه السرعة. لم يكُن للطفلة أيُّ دور في حياة أبويها، لم تُبطئ من حياتهما وأسلوبهما السريع، ولم تُخفف من سخونة نزاعاتهما. في السنوات الأخيرة لزواجهما، كانت زيلدا تبحثُ دومًا عن أمورٍ لتفعلها، اهتمامات خارج محيط زوجها ومَملكته. حاولت لفترةٍ حضور دروسٍ لرقص الباليه. إلا أن زوجها ازدرى مسعاها، وقال إنّ ما تقوم به مضيعةٌ للوقت. وفي آخر المطاف، لم يستطيع حتى الباليه أن يجعل زيلدا سعيدة.

حينها بالضبط، بدأت تشعر بالغَيرة، لا من النساء المحيطات بزوجها، بل من كتابات زوجها نفسه. حاولت المرّة تلو الأخرى تشتيت

انتباهه في الساعات التي يقضيها عاكفًا على التأليف. كان الأمرُ واضحًا بالنسبة إلى الجميع عداهما، إنّهما لن يستطيعا الحياة في منزلٍ واحدٍ بعد ذلك. أرادَ سكوت فتزجيرالد أن يُبقي على زوجته في المنزلِ. كانَ قلقًا من أنها لو عاشت وحيدة، ستتوددُ للرجال من جديد أو تجد لها عشيقًا- فقط لتعود إليه، لتُطلق الألم الذي في قلبها.

يُشَبّه جلال الدين الروميُّ العقلَ ببيت الأشباح. يأتينا كلّ صباح زائرٌ جديدٌ وغير متوقَّع. هذا الزائر يأتي أحيانًا على شكل فرَح، أو يتزيّى أحيانًا بزيِّ الحُزن. بالنسبة إلى زيلدا فتزجيرالد، فإن بيت أشباحها استضافَ كل الزائرين غير المُحببين: السيّد قلق، السيّد الانهيار العصبي، السيّدة استياء، السيّدة مرارة...

أخيرًا، في يونيو 1930م، بعد أشهرٍ من دخولها في نوباتٍ من الانهيارات العصبية، والهلوسة ومحاولة انتحار، تمّ تشخيصها بالشيزوفرينيا وأُخذَت إلى المَشفى. أمضَت آخر ثماني عشرة سنةً من عمرها تحت رعايةٍ نفسيّة. هناك رسالةٌ كتبتها لسكوت بعد فترةٍ وجيزةٍ من دخولها المصح، لا تقول الرسالةُ الكثيرَ عن حالتها النفسية فقط، بل أكثر من ذلك، تكشفُ عن أسلوبها المَرِح والصاخب:

«مهما كان الذي جرى، أعرفُ من داخل قلبي أنّ الحياةَ لُعبةٌ قذرةٌ وَبِلا رَيْب؛ أنّ الحُبّ مُرٌّ، ولا شيء فيه غير المرارة، وأمّا ما يبقى عداهُ فهو ما يجنيه متسوّلو العواطف على هذه الأرض..»

وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن جلوسها في المَشفى قد أطلق يدها للإبداع من جديد. كتبَت دون انقطاع في هذه الفترة- يوميات وقصص ورسائل. لم تكن ترسم لوحاتٍ جميلةً وحسب، بل كتبت أيضًا شبه مذكرات أسمتها: «دَع رقصةَ الفالس لي». بصدقٍ رفيع، كتبت عن الفتاة التي كانتها، فتاةِ مُتَع الحب والإبداعات، لكن أيضًا

الفتاة الجنوبية العاملة، وكتبَت عن تحولاتها الداخليه بعد الزواج. وقد أفضَت أيضًا بالجزئين المتناقضين في شخصيتها: الجزء المستقل وغير المهتم، والجزء الآخر المُحتاج إلى الحب والأمان.

وحالما انتهت زيلدا من روايتها، أرسلتها إلى نفس الناشر الذي يتعامل معه زوجها. لم يكُن زوجها وقتها قد اطلع عليها. وعندما عَلِمَ بذلك، تمايزَ غيظًا. ففي الفترة التي كان يكتب أثناءها روايته «رقيقٌ هو الليل»، كتبت زيلدا روايتها، ونَسَجا روايتيهما من أحداث مُشتركة بينهما (قصة اضطراب زيلدا الذهني، والسنوات التي قضَياها معًا في باريس وريفيرا). تقاطعَ الكتابان بشكلٍ كبير. ولذا، نشأ صراعٌ حادٌّ بينهما مُتداعيًا من علاقتهما الزوجية والفنية، وفي النهاية خضعت زيلدا للأمر ووافقت على إعادة كتابة روايتها. عندما نُشرَ الكتاب بشكله الجديد بعد المراجعة، لم يستقبله النقاد بحفاوة، وباعَ نسخًا محدودةً فقط. هبطت معنوياتها، ولم تنشر كتابًا بعد ذلك قط.

. استأجرَ زوجها مساكنَ بالقُربِ من المَصَحّات العقلية التي تنقّلَت بينها زيلدا ليكون قريبًا منها حتى في أوقات انهماكه في الكتابة. قَضَيَا الأعوام اللاحقة لا يلتقيان إلا في الأيام التي يُسمح فيها بالزيارة، بين الكبسولات والأطباء والعلاج. ماتَ سكوت عام 1940م جرّاءَ سكتة قلبية. وبعد ثمانية أعوام، نشبَ حريقٌ في مصحّة عقليّة في آشفيلي، شمال كارولاينا. ومن بين المَرضى الذين فقدوا حياتهم في ذلك الحريق كانت زيلدا فتزجيرالد.

قالَ فوكنر مرّةً إنّ كلمةَ نَعي الكُتّاب في جنازاتهم بسيطةٌ جدًا:

«لقد ألّفَ كُتُبًا، ثم مات».

لكن ماذا عن الكاتبات مثل زيلدا فتزجيرالد: لقد جلست على الحافة، رقصت مع نفسها حتى انكسار القلب، رسمت العالم بألوانٍ

مذهلة، اعتنت بينتها، أحبّت بشغف عالٍ، كتبت قصصًا، ثم ماتت.

ترك سكوت وزيلدا سؤالًا كبيرًا خلفهما لم يُجيبا عنه: لو أنهما لم يَلبسَا بعضهما حَدّ الالتحام، هل كان من الممكن لهما أن يعيشا مُدّةً أطول؟ أو يؤلّفا كُتبًا أعظَم؟ لستُ أدري. أشعُرُ في بعض الأيام بأنهما لو جعلا من حياتهما أسهل ممّا كانت عليه، لكان هنالك فرقٌ كبيرٌ بالطبع؛ وهناك أيامٌ أخرى أقولُ فيها إنّ قضاء الأيام براحةٍ ودونَ تعب لم يكن ليُغيّر شيئًا. النتائج هي نفسها.

لم تكُن زيلدا فتزجيرالد امرأةً «سَويّة» تتبعُ التقاليد المتعارفة في ما يليقُ بكل جنسٍ من الجنسين. لم تكُن أيضًا حداثيّةً صارخة، ولم يشكّل لها الغيابُ أو الاحتشام كأسَ شاي تستلذُّ به. ولكن لو عاشَت عكسَ ما كانت عليه، لو أنها كانت أكثر استقرارًا وأمانًا في حياتها، هل كانت لتكتب كُتُبًا أكثر؟ كُتُبًا أفضل؟ هل كان ليُحتفى بذكرها في أيامنا هذه بشكل أبهى وأوسع؟.

وأنا أكتب ما أكتبه الآن، أظن أن العكس هو الصحيح. ربما من خلال معاركهما المستمرة، والتذبذب في علاقتهما، وجُرأتهما على الذهاب أميالًا بعيدةً عن العلاقة الزوجية التقليدية والمتعارف عليها، استطاعا الكتابة، زيلدا وسكوت، تمكنّا من الحب والحياة بأكثر الأشكال المُتاحة في زمنهما عُمقا وبهاءً.

شجرةُ العقل

يقع مركز الدراسات النسوية في كلية تلّة هوليوك في بيت واسع ذي ثلاثة طوابق، بيت بُني على الطراز التقليدي لنيو إنجلاند. والغرفة التي أقطنُها تقع في البناء نفسه، في الطابق الأول المنفرد بمدخل آخر خاصّ به. أما الطابق الثاني، فيحوي مكاتب أعضاء هيئة التدريس والزمالة. الجدران والأسقف نحيفةٌ جدًا حتى لتسمع أحاديثهم، وعلى الأرجح أنهم أيضًا يسمعون زعيقي مع نسوة الأصابع- وهكذا لَفَتَ انتباهي أن بعض أعضاء هيئة التدريس ينظرون إليّ، من وقتٍ إلى آخر، بنظرة ارتياب وقلق.

هناك بابٌ مُتداعٍ يَصِلُ غرفتي بالمركز. المرّة الأولى التي طبخت فيها القرنبيط في مَطبخي، امتلأ القسم كله برائحة الطبخ وظلّ المكانُ مُنتنًا لأيام. تتسابُ الروائح من ألواح الباب الشبيهة بالألواح الورقيّة، وتنتشر في كلّ زاويةٍ ورُكن. حاولتُ تحضيرَ وجباتٍ أخرى أبسط وأقل ضَوعًا بالروائح من سابقاتها- لكنّ النتيجة لم تختلف. ففي مكانٍ يحتسي فيه الجميع مشروبات عضوية، وأخرى رخيصة، ومَنقوعَ أعشاب شايٍ مُضاد للأكسدة، يبدو عَبيرُ قهوتي التركية نفسُه قويًا جدًا ولا يُمكنُ احتماله. لذا، هجرتُ المطبخ كليًا، ورحتُ ألتهمُ الفواكه ورقاقات الشابورة والماء فحسب.

وفي المساءات التي يغادر فيها الجميع المبنى، أبقى وحيدة هناك. إنه لشعورٌ مريبٌ ذاك الذي يغزوك عندما تبقى وحيدًا في مبنىً هائلٍ

ونَشط كهذا، يَحتلُه الصمت بغتةً وتحتله الظلمة. في الليل، عندما أحاولَ النوم، أقبضُ على نفسي مرتبكة. ولكن ليس في هذه الليلة. فقد اخترت أن أقضّي هذا المساء في حوض استحمامي الضيّق، فيما تتسرّب إضاءة خافتة من النافذة المفتوحة، وأنا أرقُبُ نُدَفَ الثلج تنهمرُ من أعماق السماء على حرم تلّة هوليوك. أغطية الثلج هذه تجعل من الأرض كوكبًا آخَر، لذا فإنّني أجلس هنا مسترخيةً ومتناغمة كما لم أكن قط في الشهور الماضية.

قد يكون حوض الاستحمام ليس المكان المناسب للإطلال على منظر طبيعي بهذه الرومانسية، بيد أنه المكان الوحيد في المبنى كله حيث أستطيعُ التدخين- من دون الآخرين، والأهم من ذلك، دون أن تلتقط أجهزة إنذار الحرائق الدخان. قد تسامحني النسويات هنا، المهووسات بالحياة السعيدة الصحية، عن رائحة القرنبيط، لكن لا أظن أنهن سيعذرنني عن رائحة سجائر المالبورو الخفيفة.

وبما أنّ الحاجةَ أمُّ الاختراع. فقد أقمتُ، في دورة المياه بعد فترة وجيزة من وصولي هنا، لَوحًا أكوي عليه ملابسي، وأحكمتُ إغلاقَ سلّة مخصصة للتخزين بعد حَشوها بالوسائد لأجعل منها كُرسيًا مُريحًا. هنا أكتُبُ عمودي الصحفي وقصصي. أُغلقُ على نفسي، أفطُرُ وأتغدّى وأتعشى تُفاحًا أحمرًا، وأدَخّنُ السجائرَ ملءَ فؤادي.

وها أنا مجدّدًا، في هذا الليل الشتائي، ماكثة هنا، أكتُبُ وأُطلّ من النافذة، حتى أخرجني صياحُ استغاثة من عالمي الخيالي:

- المساعدة! المساعدة! هناك لص!.

وضعتُ السيجارة جانبًا، تركتُ دورة المياه وقرأتُ الساعة التي تجلسُ عند فراشي. إنها تشيرُ إلى الثالثة وثماني دقائق صباحًا. نزعتُ القناع الإفريقيّ عن الجدار واندفعتُ نحو الصوت دون أن أفكّر

في ما سأقوم به حقًا. لم يكُن ذلك لأنني خُلقتُ من معدن بطولي، ولو كنتُ شُجاعةً حقًا في هذه اللحظة فذاك لأنه ليس عندي أدنى عِلمٍ بما يجري. وليس هناك وقتٌ للوقوف والشعور بالرعب.

– هناك لصٌّ في السطح! ساعدوني!

الآنَ ميّزتُ الصوت. إنّه صراخ الآنسة المثقّفة الساخرة. وجدتها طافيةً داخلَ إناء مزهريّةٍ مثل طائر قرقف بلا أجنحة، مختبئةً بين أزهار أعياد الكريسماس، ووجهها شاحبٌ مثل شبح.

– ما الذي يجري؟ لماذا تصيحين؟

– عُدتُ للتوّ من المكتبة. كنتُ أسيرُ وحدي في الظلام عندما رأيته! أحدٌ ما يسيرُ على السطح!

– ربما كانت إحدى فتيات الأصابع تتمشّى هناك.

– لا، يستحيل ذلك. ألا ترين؟ جميعنا هنا!.

ألقيتُ بنظري خلف كتفي. إنها على حق. فعندما هرعتُ من سريري كُنّ جميعهن يصطَفِفنَ ورائي– السيّدة الدرويشة مرتديةً ثوبَ نومها الطويل، وحضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح في طَقم الكوماندوز الأخضر الغامق، والآنسة العمليّة القصيرة ترتدي بلوزةً مُريحة. أرهفنا أسماعنا، وتناهى إلينا صوتٌ غريبٌ من مكانٍ ما من المنزل.

قالت الآنسة العمليّة القصيرة:

– اسمعوا، دعونا نتصل بالشرطة.

ففي اليوم الذي انتقلنا فيه للعيش هنا، قامَت بتسجيل أرقام مراكز الشرطة والإطفاء والإسعاف في ورقةٍ ألصقتها على الثلاجة.

قالت السيّدة الدرويشة:

- انتظروا، دعوني أذهب لألقي نظرةً أولًا.

لكن حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح اعترضت فورًا:

- أبدًا، أنتِ آخر من أسمع له القيامَ بذلك.

سألتها السيّدة الدرويشة بهدوء:

- ولِمَ ذلك؟

- أعرفك جيّدًا. أيًا كان من سترينه على السطح، ستقولين لنفسك «لقدر أرسل لنا الله هذا اللص لسببٍ» وسينتهي بك الأمر إلى دعوة ذاكَ الصعلوك إلى العشاء! قلبك ضعيف الشكيمة لمهمةٍ مثل هذه. الأفضل أن أذهب أنا.

إن لديها نقطة هنا! أعترف. فقد كانت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح هي الأشجع من بين أعضاء جوقة أصوات الفوضى وما تزال. ولكن منذ أن صارت الرأس المدبّر لخطة الانقلاب، تضاعفت وقاحتها.

قلتُ:

- حسنًا، اذهبي أنتِ.

فسحبَت، وهي في غاية التركيز على مهمّتها، شَوكة طعامٍ بلاستيكية كسلاح واندفعت في الظلام.

لم يمض الكثير على اختفاء حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح في الظلام حتى تناهت إلينا ضجةً من السطح أربكت سكون الليل الهاجع. وأخرجتِ السناجب القاطنة في الأشجار المحيطة بالمركز رؤوسَها من الحُفَر الشجريّة، محاولةً استيعابَ ما يحدث. وسرعان ما قفز بعضهم عن الشجرة واختفى.

كان صوت حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح يتناهى إلينا متقطّعًا وهي تصيح في شخصٍ ما. ولكنّ الواضح أن نغمة صوتها

تتضح بالغضب والنفور. وأيًّا كان الشخص الآخر، فلم يكن يبدو عليه أنه يتشاجر معها، أو حتى يحاججها.

وبعد عشر دقائق، عادت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح نازلةً السلالم، وحاولتْ طعنَ ثمرة يوسف أفندي بشوكتها البلاستيكية، وهي تتّقد غضبًا. فشَهِدنا جميعًا الشوكة تتكسرُ نصفين.

سألتها:

- ما الذي حصل؟ من كان؟

قالت:

- انُظري بنفسك.

ثم استدارت نحو الباب مهمهمةً:

- هل ستدخلين أم لا؟

ببُطء، وخجل، كأنها تُهيّء نفسها للاختفاء في الظلمة الكثيفة، تقدّمَت إحدى فتيات الأصابع نحونا. ميّزتها فورًا. إنها ماما الرُّز بالحليب.

- أهلًا بك!

حملتُها فورًا ووضعتها على راحَة كفّي.

سألتنا حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح:

- أنتما الاثنتان تعرفان بعضكما؟!

قلتُ مُتأنيَةً:

- إمممم.. حسنًا، لقد... لقد تقابلنا مرة.

سألت الآنسة التشيخوفيّة الطموح مقطّبةً حاجبيها وعابسة الوجه:

- أوه، حقًا؟ متى التقيتما؟ وكيف حدث ذلك دون علمنا؟.

بما أن أفضل وسيلةٍ للدفاع هي الهجوم، انفجرتُ في وجهها:

- في الحقيقة، أنا من يحقّ له طرح هذا السؤال عليكن. لمَ لم تأتين، طوالي حياتي، على ذِكر ماما الرُّز بالحليب وإخبَاري بأنها موجودة؟

قررت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح النَّظرَ بشكلٍ مختصر فيما طرحته:

- ما الذي كُنتِ تظنين أنك فاعلة لو أخبرناك؟ أيّ خيرٍ سيأتينا من ذلك؟.

قلتُ بإصرار:

- ليَ الحقُّ في معرفة أنّ لديّ جانبًا أموميًا.

قالت الآنسة المثقفة الساخرة متذمّرةً بينها وبين نفسها:

- تمامًا! هذا ما كان ينقصنا. لقد اجتزنا مُحيطًا كاملًا لنهرب من هذه المرأة العِلّة. واحسرتاه، لقد وجدتنا هنا أيضًا!.

وبغتةً راودتني فكرة. هل رحيلي عن اسطنبول بتلك السرعة له علاقة بما يحدث هنا؟

فقلتُ:

- انتظروا لحظةً. توقفوا.. هل هذا هو السبب وراء إجباري على قطع كل تلك المسافة للمجيء إلى أمريكا؟

تبادلت الآنسة المثقفة الساخرة وحضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح نظرات الشعور بالذنب وتأنيب الضمير.

قالت الآنسة العمليّة القصيرة باستهجانٍ ولا مبالاة:

- حانَ الوقت للحديث الصريح! لنُخرج القطّة من قفصها!

استدارت نحوي حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح بعَينين تقدحان شررًا:

- إذن، سأقول لك ذلك أيضًا؛ لا أدري إن كنتِ تذكرين أم لا، ولكنك في أحد الأيام كنتِ تركبينَ باخرةً حيث جلسَت إلى جوارك تلك المرأة المنتفخة مع ولديها..

بالطبع أذكر ذلك. أومأتُ برأسي.

- حسنًا، ربما لم يدُر بذهنك وقتها، إلا أنّ أعماقك قد ماجَت بمصادفتك تلك المرأة. لقد كانت شابّةً وحاملةً بابنها الثالث. عندما تأمّلتها، رُحتِ تتحسرين على فُرَصك الضائعة. لقد أردتِ تقريبًا أن تكوني هيَ! لو أنني لم أتصرفَ وأدفعك لكتابة «مانيفيستو الفتاة المزباء»، لكُنتِ علقتِ في أحلام الأمومة منذ ذلك الحين، لا سمحَ الله!

- أي أنني كتبتُ ذلك المانيفيستو بسببك؟

أجابت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح وهي تسرع في الحديث تارة وتُبطئ تارة أخرى:

- نعم، بالطبع. ظننتُ أن ذلك سيكون الفصل الأخير من هذه القصة. ولكن عندما لاحظَت ماما الرُّز بالحليب أنك كُنتِ تنظرين باهتمام إلى النساء الحوامل والأمهات مع أطفالهن، قررَت أنّ هذا هُو الوقت المناسب للخروج من عزلتها وتقديم نفسها لك. حاولنا التفاهم معها، ثم هدّدناها. لكنها لم تنصَع لنا. كانت ستزعزع وضعنا الراهن وقتها. لذلك قُمنا بالانقلاب العسكري. وأجبرناك على مغادرة اسطنبول. لكن يبدو أن «السيّدة إزعاج» هذه قد لحقتنا إلى هنا!

خاطرتُ بالقول:

- لكنها عضوٌ في جوقة أصوات الفوضى مثلكنّ تمامًا! ولذلك لها نفس الحق الذي لكُنّ في الحديث.

قالت الآنسة المثقفة الساخرة وهي تُدلّكُ صدغيها كأنها تعاني من صُداع نصفي:

- شكرًا دون شُكر! لا يمكننا أن نسمح لذلك بالوقوع.

هَدَرَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح:

- لسنا نظامًا ديمقراطيًا هنا، كُنا دومًا ولا نزال نظامًا ملكيًا، والآن نحن نعيشُ تحت نظام حُكم عسكريّ مَتين.

ثُمّ التمعت عيناها بالشّرر وهي تلتفتُ نحو مُعاونتها الصديقة:

- لنعقد اجتماعًا طارئًا.

ولكي يعقد نُوّاب المجلس العسكري اجتماعهم، انتحت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح والآنسة المثقفة الساخرة جانبًا، هامسات بنغمة ضارية. وبعد مرور وقت شُبّه لي أنّه الأبد، سارا نحونا عائدات بوجوهٍ مُتجهمة، ووَقعُ أقدامهنّ على الأرض يعكسُ ما تُضمرانه.

قالت حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح:

- اتبعونا إلى الخارج.

- يا إلهي! أين نذهبُ في هذه الساعة المتأخرة؟

وبّختني:

- تحرّكي!.

ونادَت على الأخريات:

- جميعكن! هيّا بسرعة.

في الثالثة والنصف فجرًا، تطوّقنا أنظار بعض السناجب الشُجاعة، مَشينا صفًا واحدًا تحت الثلج. أسناننا تصطك، ورؤوس أصابعنا تتنمّل. مَررنا بجانب المكتبة والمهاجع.

غمغمت السيّدة الدرويشة وهي تأخذ نَفَسًا عميقًا:

- يا لهذا الكون، كم هو رائقٌ الليلة.

كيف تستطيع أن تجد أمرًا إيجابيًا لتقوله حتى في أكثر المواقف شَدًّا للأعصاب؟ إنه أمرٌ يُحيّرني فيها. رفعتها عن الأرض، حملتها ووضعتها داخل سترتي كي لا تُصابَ بالبرد. ثمّ مشينا معًا على تلك الحال حتّى وصلنا إلى شجرةٍ عملاقة.

سألتُ:

- ما هذا؟

تكفّلَت الآنسة المثقفة الساخرة بإيصال الجواب لي:

- اكتشفتُ وجود هذه الشجرة عندما وصلنا هنا. إنها مكانٌ مناسبٌ للقراءة في الأيام المُشمسة. كنتُ أُفضّلُ لو أنني أريتك إياها أثناء النهار، لكن يجب عليّ أن أفعل ذلك الآن. ركّزي انتباهك على جذع الشجرة ثم أخبريني ما الذي ترينه؟.

الغريب أنني رأيتُ نتوءًا منتفخًا على شكل ماموث ينبجس من جذع الشجرة، أو يبدو أنه خوخة جافة مائلة، أو جوزةً مُقمّمةً، كبيرةً ومُتجعدة.

حدجتني الآنسة المثقفة الساخرة بنظرةٍ جانبيةٍ طويلة:

- أخبريني، ما الذي يشبهه ذاك كله من بعيد؟

قلت:

- حسنًا.. لا أدري.. إنه، غالبًا، يشبه الدماغ، على ما أظن..

قالت الآنسة المثقفة الساخرة:

- أحسنت! إنها شجرة العقل!.

مُمهّدةً لخطابٍ ستُلقيه علينا، تسلّقَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح إحدى أغصان الشجرةِ، حيث وقفت ومدّت شفتيها في امتعاضٍ

مثل ما يفعل أيّ دكتاتور مُستصغرًا ذكاء شعبه قبل أن يُحاضرَ فيه:

- إننا الليلة نجتمع تحت شجرة العقل.

قالت بانتفاخ:

- إنها لحظةٌ تاريخية. لقد نضجَ الوقتُ لنُقرّر أمرًا الآنَ وإلى الأبد.

ورفعَت إصبع الاتّهام نحو ماما الرُّز بالحليب:

- هل تريدين أن تصبحي مثلها؟ ربة منزلٍ بائسة؟ أم أنك تريدين أن تخوضي حياتك بعقلٍ شجريٍّ هائل؟.

لا أستطيع أن أزيح عينيّ عن الشجرة. في الظلام المخملي لهذا الليل المُحاط بكل تلك الثلوج، تظهرُ الشجرة جبّارةً تخلب اللُّب.

قالت ماما الرُّز بالحليب بصوتٍ واهنٍ وهي تتشبّثُ بساقي:

- أرجوكِ، لا تستمعي إليهن.

نظرَت إليّ والدموعُ تتشكّلُ في عينيها. كم هي هشّةٌ هذه المرأة. وما أقلّ ما أعرفه عنها. لم أرها سوى مرّتين فقط بينما الأخريات كُنّ معي منذ الرابعة من عمري.

قالت ماما الرُّز بالحليب:

- نستطيعُ أن نُكوّنَ فريقًا ناجحًا.

قلتُ:

- أنا آسفة.

كانت الرياح القويّة تتقطّعُ في هبوبها مُدوّمةً نُدفَ الثلج في الفضاء. وكنتُ أشعُرُ بأنّني في حبكة رواية «دكتور جيفاغو». لستُ في روسيا الآن، وليس هناك أضأل احتمالٍ بأنّ ثورةً بلشفيّةً ستجتاح هذا الحرم الجامعي، إلاّ أنّ هناك مشاعرَ عارمةً تجتاحني وتعتمل في دواخلي.

وأخيرًا حشدتُ شجاعتي وقلتُ لها:

- لو كنتُ على محك الاختيار هنا، لاخترتُ شجرة المقل دون تردد.

أجهشت ماما الرُّز بالحليب وهي تقول لي:

- ولكنك قطعتِ لي وعدًا!

قلتُ مرّةً أخرى، غير قادرةٍ على النظر في عينيها:

- أنا آسفة.

قفزَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح عن الشجرة، وحطّت على الأرض، وتقدّمت نحوها الآنسة المثقفة الساخرة مكشّرةً وصارخةً من الفرح:

- كفّك!

شُركاء في الجريمة. إنّ لهن حركات معيّنة يؤدينها بعد أن يَصْفقا كفّيهما بعضِهما ببعض: «كفّك»، حركاتٍ معقدة باليدين، والأصابع تتشباك وتتنافَذ، حتى أننا ظللنا ننظرُ إليهن فاغراتٍ أفواهنا من الدهشة!.

وعندما انتهى العرض، تنفّست السيّدة الدرويشة الصمداء، وخلعت الآنسة العمليّة القصيرة نظارتها، وبدأت تُكَمّمهما بنرفزةٍ واضحة، أمّا ماما الرُّز بالحليب فراحت تبكي في صمت.

قالت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح:

- هيّا، قولي ورائي: رحلتُ بعيدًا، طويتُ المسافات..

كرّرت وراءها. في حَرَم تلّة هوليوك المُغطّى بالثلج، تحت شجرة المقل خاطفة الأنفاس، أقسمتُ لنفسي بهذه الكلمات التي أملَتها عليّ: «رحلتُ بعيدًا، طويتُ المسافات، وجعلتُ الكتابةَ محوَرَ حياتي.

أخيرًا، توصّلت إلى قرار بين عقلي وجسدي. منذ الآن فصاعدًا، لا أريد سوى أن أكون ما يُمليه عليّ عقلي. ليس للجسد بعد الآن أيّة سلطة عليّ. ليس لديّ رغبةً في الأمومة، ولا أعمال المنزل، ولا واجبات الزواج. لا أريدُ الشعورَ بغرائز الأمومة ولا أن أُنجِبَ أطفالًا. أريدُ أن أمسي كاتبةً وحسب، ذاك كل ما أسعى إليه».

وإلى ذلك، من بين الكثير من الأمور التي وَعيتُها، شعُرتُ بأنّني أعيش لحظة انعطافة كبيرة في حياتي، انعطافة حادة، بينما كنت أذهب منحرفةً بحدّة، لا أدري ما الذي ينتظرني بعد المنعطف.

«للجسد أن يتعفن. للعقل أن يزهو. عسى أن يسيلَ الحبرُ من قلمي كالمحيطات لتقتات عليها الروايات التي ستنمو داخلي».

كررتُ هذه التعويذة ثلاث مرات. وعندما انتهيت، شعُرتُ بأنّني تملّكتُ من الداخل، تخدّرتُ تقريبًا. ربما كان ذلك من البرد. أو رُبما، لأنّ التعويذة التي نبستُ بها منذ قليل بدأت للتوّ من شدّة ثقلها بالغطس والغرق داخلي.

أُحجيةٌ تُسَمّى العقل

لم يكَد يمرّ أسبوعان بعد ذلك حتى بدأ جسدي بإظهار علامات التغيّر. بدءًا بشعري، اجتاحه الجفاف وأتبَعَه ببشرة وجهي وكفّيّ. إنّني أفقدُ وزني. عضلةُ بطني انشدّت وصارَت مُسطحة. وفي أحد الأيّام لاحظتُ، فجأةً، أنّني توقفتُ عن المرور بالدورة الشهرية. لم أعاني أعراضها في الشهر الأول ولا الذي بعده. في البداية لم أعِرِ الأمرَ أيّ انتباه- في الحقيقة، كنتُ مُرتاحةً لتخلصي من إحدى الغرائز الأمومية. أليسَ تخليصُ نفسي من الأعراض النسوية والغرائز الجنسية شكلاً من أشكال التحرر؟ أليس خطوة على درب التحوّل إلى عقل محض يسيرُ ويتحدث؟ أتخيّلني عالمًا مَهووسًا يُجري التجارب على مواد غريبة في مختبره المُعتم- الفرقُ هو أنني أجري التجارب على نفسي. لا أقولُ إنّني أتحوّلُ إلى وَحشٍ أخضرَ ضخم له هيأة البشر. بل أتحوّلُ إلى روائيّةٍ انطوائية، غير اجتماعية وعديمة الجنس. وذاك بدوره لا يقلّ رُعبًا عن الوحش هولك الأخضر.

في نهاية شهر مايو، كنتُ أجلسُ في غُرفة انتظار المرضى في مَشفى النساء. أقَلّبُ المجلات الموضوعة هناك، منتظرةً الطبيب النسائي، الطويل والضامر، الطبيب الذي أجرى عليّ كل اختبارات الهرمونات. وأخيرًا، نادَت عليّ المرضة.

قال لي الطبيب وأنا أدخل مكتبَهُ:

- هُنا نتائج فحوصاتٍ مُثيرة. هل تشعُرين بأيّ تحسُّن؟

أجبتُ:

- لم يتغير شيء.

قال الطبيب وهو يتحقّقُ ويقرأ نتائج التحاليل من خلف زجاج نظارته:

- حسنًا حسنًا.. لنرى ما الذي عندنا هنا. إنّ هرموناتك عادت إلى مستواها الطبيعي، ونتائج تحليل الغُدّة الدرقية ممتازة.

قالت الممرضة الواقفة إلى جانبه وكأنها لا تصدق النتائج:

- أنتِ طبيعية!

- ولكن لماذا لم أعُد أحيضُ كل هذه الفترة؟

أجابَ الطبيب:

- بالنظر إلى هذه الظروف، لا أملكُ سوى جوابٍ واحدٍ.إن عقلك يأمُرُ جسدك بالتوقف عن ذلك.

سألتُ والشّكُ يغزوني:

- هل يُعقَلُ هذا!

أجابني الطبيب وهو يُحدّق فيّ بعض الشيء كأنه يُحاول أن يُطلّ على روحي:

- أوه، طبعًا، ذاك مُحتملٌ إلى حدٍّ بعيد. عليك مناقشة هذا الأمر مع عقلك!، لو كنتُ أعرفُ بأيّةِ لُغةٍ يتحدّث لقُمتُ بذلك على الفور!.

قالت الممرضة غامزةً لي:

- سيأخذ منّا تعلّم اللغة التركية وقتًا طويلًا!.

إنهما يضحكان ضحكةً مكتومةً بتواطؤٍ وتوافقٍ تام- هذا ما يحدث

عندما يعمل اثنان معًا لسنوات طويلة. أمّا أنا، في الوقت الراهن، فإنّني أنتظر صامتةً، ولستُ متأكدةً ممّا عليّ فعله.

سألني الدكتور:

– هل يمكنك إخباري عن عملك الذي تعتاشين منه لو سمحتِ؟

– أنا كاتبة.

قال وقد شعّ من عينيه وميضٌ من الاهتمام:

– أوه، لكنتُ خمّنتُ ذلك. ما نوعُ الكتب التي تكتبينها؟

أُفضّلُ المراوغة مع هذا النوع من الأسئلة. لا أعرف بالضبط كيف أصنّف كتبي، ولست على ثقة من أنّني أريد تصنيفها أصلًا. في الحقيقة، إنه سؤالٌ شائكٌ بالنسبة إلى الكتّاب الذين يُنتجون كتبًا خارج التصنيف المتداول للأنواع الأدبية، مثل «روايات رومانسية» أو «قصص جريمة». لحُسن الحظ، كان الطبيب أقل اهتمامًا بسماع إجابتي هذه عندما لمعت فكرةٌ في رأسه:

– تخيّلي أن عقلك روايةُ جريمةٍ وتحقيقات تحبسُ الأنفاس!

– حسنًا!.

ثُمّ، بشكلٍ مباغت، أخفَضَ صوته كأنه يكشف عن سِرٍّ مُريع:

– قامَ عقلك باختطاف جسدك...

– حقًّا!

– بلى!. والآن، كل ما عليك فعله هو أن تأمريه بالتوقف. تستطيعين القيام بذلك، صدّقيني..

– أعتذر، لقد فقدتُ خَيط السّرد هنا. هل عقلي هو رواية التحقيقات نفسها، أم أنه المُحقق، أم المُجرم؟.

أسندَ ظَهره إلى الكرسي، وأطلق تنهيدةٍ عميقة، تنهيدة عميقة

جدًا. حينها أدركتُ أنه، على قَدر ما هو إنسانٌ لطيفٌ، فإنّه لا يُجيدُ التعامل مع المجازات. حاولَ أن يشرح الأمر بكلماتٍ بسيطة، لكنّه انتهى إلى تعقيد الموضوع أكثر.

لم أذهب باحثةً عن طبيبٍ آخر. ولم أخبر أحدًا عن هذا التشخيص الغريب الذي عرفته. لكنني أزورُ شجرة العقل بانتظام، باحثةً عن صفاءٍ روافيَّ لم تستطع أن تهبه لي. مُداعبةً جذورها المتينة القديمة التي ترتفعُ عن الأرض، وأرقُبُ التورُّقَ في أغصانها المتفرّعة إلى الأبد، أعيدُ تأكيد نذري تحتها وأرى الأنوثةَ داخلي وهي تهلكُ يومًا عن يوم.

كل صباح، أذهب إلى المكتبة برفقة الآنسة المثقفة الساخرة. نحنُ الآن ثخينتان كاللصوص. جرى كلّ شيء كما خططت له هي وحضرة جناب التشيخوفيّة الطموح. أجدُ نفسي أقرأ دومًا، وفي بحثٍ مُستمر. أقضي أغلب الليالي حتى ساعات متأخرة، منحنيةً على الكتب في قسمٍ من المكتبة يحتشد بكتُب عن السياسة والفلسفة الإنجليزية والأدبَ الروسي. ومتى ما تدلّت أجفاني وغلبَ عينيّ النوم، أستلقي على الأريكة الجلدية البُنيّة، الموضوعة بين صفّين طويلين من أرفف الكتب.

في أوقات راحتي، أذهبُ لحضور النقاشات والندوات التي يُعقَدُ الكثير منها في مكانٍ كهذا: «مأزق المرأة في العالم الثالث»، «النسوية وثقافة الهِب-هوب»، «الشخصيات النسائية في ديزني: هل يقومُ ميكي ماوس باضطهاد ميني؟»، وهكذا دواليك. أحضرها جميعها.

وفي المساء، أقضي وقتَ راحتي بالجلوس إلى الكمبيوتر لكتابة بعض الملاحظات وإنشاء اليوميات طوال الليل. لا أجتمعُ بأحد، ما عُدتُ اجتماعية، لا أهتمُ بأحد ولا أذهبُ إلى الحفلات وأمتنعُ عن الخروج مع مجموعات لتناول غَداءٍ أعددناه سلفًا في منازلنا. لا أسمحُ لأي شيءٍ بأن يدخُل حياتي عَدَا الكتابة والكتب.

ترقبُني ماما الرُز بالحليب من بعيد بعينين لا تخفيان تألمها لما ترى. كلما حاولتُ التواصل معها، تُدير رأسها وتنظرُ إلى الفضاء، واقفة في سكونٍ كالتماثيل. وفي بعض الليالي، أسمعها تبكي وأنا مستلقية في فراشي.

ويومًا ما، نشرَت صحيفة تركية مشهورة مقابلةً معي حول حياتي في أمريكا. تحدثتُ مع الصحافي عبرَ الهاتف لأربعين دقيقة تقريبًا. وعندما اقتربنا من الانتهاء، سألني عن الزواج والأمومة.

أجبته بأنني بعيدةٌ جدًا عن كِلا الأمرين الآن. إنها مسؤوليةٌ كبيرةٌ أن تجلبَ طفلًا إلى هذا العالم. ولكن عندما أتقدمُ في العُمر، أي بعد رواياتٍ عديدةٍ أريدُ نشرها، قد أتبنّى طفلًا، أو أرعى تعليمَ طفلٍ وأهتمُ لحاجاته وما إلى ذلك.

في نهاية الأسبوع الذي نُشرَ فيه هذا العدد من الصحيفة، كان عنوان المقابلة مُلفتًا إلى حَدٍّ بعيد: «أنا توّاقةٌ لأكون زوجةَ أبٍ!».

و إلى جانب هذا العنوان، طُبِعَت صورةٌ أُخذَت لي في إسطنبول، كنتُ واقفةً عند قصر الباب العالي، وأنا أرتدي ملابسَ سوداء بالكامل، أمّا شعري فقد شطرته الرياح القوية إلى نصفين منسدلين للوراء من الجانبين، مثلَ عُشّ الوقواق، وينحفرُ على وجهي تعبيرٌ يُشبه المآتم. وبالنظر إلى صورتي مُدرجةً مع المقابلة، بدوتُ كأنني عنكبوتٌ كبير متأهّبٌ للقفز على كُلّ أبٍ مُطلّقٍ ولديه أطفال!.

قررتُ ألا أُرحّبَ بأيّة مقابلات في الفترة الراهنة.

وتقريبًا في نفس الوقت، وكأن إلهامًا تنزّلَ عليّ من السماء، بدأتُ بكتابة رواية جديدة. دعوتها: «قدّيسُ أوّل الجنون». القصة تتناولُ الأسى مُرتديًا حِسَّ الفكاهة، والنكتة مُرتديةً تعابيرَ الحُزن. إنها تحكي عن مجموعة مغتربين في أمريكا جاؤوا من خلفيات ثقافية مختلفة،

ويناضلون للحياة ولا ينجحون غالبًا، يغزوهم أثناء ذلك حِسٌّ طافحٌ بالاغتراب. كتبتُ عن الداخلين والخارجين، عن الانتماء وعدمه، شاعرةً بأنني شجرة مقلوبة على رأسها وجذورها تُطوِّحُ في الهواء.

الفصل الرابع

إيّاك أن تقول «أبدًا، أبدًا»!

الحُب العَذب

مسؤولة التنظيف هنا مكسيكية، امرأةٌ قصيرةٌ ومدوّرة، تُدعى روزاريو. تنهضُ صباحًا لتسيرَ بالمكنسة الكهربائية في تمام السابعة على القسم الشمالي من المكتبة، حيث أجلسُ طوال الليل. ما زلتُ أستطيعُ الغوصَ في اللغة الإسبانية، وإن يكُن بشكلٍ مضطرب. تُحب روزاريو أن تسمع طريقة نطقي المضحكة للكلمات، وتصحّح أخطائي. تقومُ أيضًا بتعليمي كلمات جديدةً كل يوم، فأضحكُ خجلةً وأنا أرددها إذ أن بعضها يبدو خليعًاً!.

عندما يغلبني النوم على الكنبة الجلد البُنيّة، ليس بعيدًا عن الأعمال الكاملة لجون ويليام مستروت، لا يوقظني من نومي غير روزاريو. تجلبُ لي قهوةً سوداء وثقيلة تجعل نبض قلبي يقرع بحق لثلاث دقائق بعد أوّل رشفة. لكنني لم أطلب منها قط أن تصنعها خفيفة، أظن أنني أحبها كما هي.

سألتني يومًا، مُشيرةً إلى جهازي المحمول وكومة الكتب على الطاولة:

– لمَ تُجهدين نفسكِ في العمل هكذا؟

أشَرتُ إلى المكنسة الكهربائية في يدها وإلى الممسحة في الأخرى:

– أنتِ تكدحين أيضًا!

أومأت بالإيجاب. إنها تعرفُ أنني على حق. ثم أخرجت قلادتها

وأرتني إياها. هناك أربعة خواتم في الحليّة الفضية المتدلية من القلادة. وعندما سألتها عن معنى ذلك، قالت والابتسامةُ تشق وجهها من الأذن إلى الأذن:

- خاتمٌ لكل خِلْقَة.

إنها أُمٌّ لأربعة. لهذا هي تعمل بكدح. تريدهم أن يحظوا بحياةٍ أفضل من التي عاشتها.

سألتها:

- وماذا عن زوجك؟ «Tu marido?»

أجابتني وكأنها تُحاكي انفجار بارود:

- «marido? PUFF...»

لم أقدر أن أُميّز؛ هل ماتَ زوجها، أم أنه هجرها وذهب إلى امرأة أخرى، أم أنها لم تحظَ بزوج قط. غافلةً عن التوهان الذي كنتُ فيه، ابتسمَت روزاريو مرة أخرى ونَدستني بكوعها:

- الأطفالُ رحمة.

ثُمّ ربتت على كتفي بكفٍّ ناعمة وصديقة. شربتُ معها كوبَين من القهوة، فوقَ الأول. فأصبح نبضي يُهرول مُسرعًا.

قالت لي:

- أنت فتاةٌ طيبة.

قلت لها وفي بالي فتيات الأصابع:

- البعضُ مني طيّب.

استقبلت جوابي بجَذَلٍ ومرح صاخب، ثمّ انفجرت ضاحكة حتى كادت أن تفقد توازنها. وعندما استطاعت السيطرة على نفسها من جديد، قالت:

- عندما تنتهي من كتابك، لا حاجة لك بأن تُرسليه إلى ناشر. هُناكَ طريقةٌ أسهل من ذلك.

أجبتها وأنا أميلُ نحوها:

- حقًّا؟

أومأت وقالت:

- بالطبع! أرسليه إلى أوبرا. إذا دمغته بختمها، فلن تحتاجي إلى العمل بهذه القسوة بعد ذلك أبدًا.

سألت:

- في أمريكا، يختمون الكتب؟

أدارت عينيها في محجريهما ثم أضافت:

- «Si, claro mujer!» أنتِ لا تعرفين كم يبلغ جنون الأمريكان هؤلاء!.

شكرتُها على نصيحتها. ثمّ عُدتُ مُجددًا إلى روايتي وعادت هي إلى عَمَلها، ماشيةً مشيتها البطيئة، ساحبةً مكنسة الكهرباء ودَلوًا بعجلاتٍ فيه سوائل التنظيف، وهكذا اختفت بين أروقة الكتب. «Puff!».

زُرتُ اسطنبول في الصيف لمُدّة قصيرة. أنا هُنا لألتقط بعض الأغراض والحاجيات من شقتي القديمة، لأرى أصدقائي وأمي، لأقرأ في بعض الأمسيات وأوقّع كتبي في المدينة، ولعقد صفقةٍ مع ناشري حول روايتي التي انتهيتُ منها للتو. ثم أعود، بعدَ عشرةِ أيام، إلى الولايات المتحدة.

بيد أن الحياة مثل طفلٍ مشاغبٍ يتسلل من ورائنا ونحن نرسُمُ

خُططنا، ويسخرُ منا بتعابيرَ غريبة يصنعها بوجهه.

دعاني أصدقائي، في أوّل ليلة أقضيها في اسطنبول، إلى الشُرب في حانة تُدعى: «يعقوب»، إنها مكانٌ يتردّد عليه الصحفيون والتشكيليون والكُتّاب بكثرة. ورغمَ أنني مُصابةٌ باضطراب في النوم جرّاء الرحلة الجويّة الطويلة، وأبدو حادّة الطِّباع بعضَ الشيء، فإنّني قبلتُ الدعوة للقيامهم.

عندما دلفتُ المكان، هبّت عليّ أصواتُ الترحيب والتهليل بي، وسحابَةُ دُخانٍ كثيف. إمّا أنّ هُناك مِدخنة داخل هذه الحانة، أو أن كل واحدٍ من الجالسين ينفث الدخانَ من سيجارتَي هافانا على الأقل في الوقتِ ذاته. إنه مشهدٌ مختلفٌ تمامًا عن الحياة المقيمة في تلّة هوليوك.

مشيتُ نحو طاولة أصدقائي، أعرِفُ الجميع- عَدَا شابٌ بشعر داكنٍ ومتموّج، وابتسامة خافتة، يحتلُّ الكُرسي الواقع آخر الطاولة. قدَّمَ نفسه باسم أيوب. لم يدُر في بالي أن اسمَهُ هو نفسه اسمُ النبي أيّوب، النبيّ الذي كتبتُ فيه بعض المآخذ في الماضي. ومرّةً أخرى في حياتي، تُشيرُ نحوي الملائكة بأصابعها الحليبيّة اللون، ويتضاحكون فيما بينهم. مرّةً أخرى، أفشلُ في رؤية التناقضَ الساخر. أعَرْتُهُ اهتمامًا طوال السهرة، كنتُ أنظُرُ إليه بحَذرٍ أوّلًا، ثُمّ بفضول مُتعاظم. كُلّما طالَ إنصاتي لحديثه، كُلّما زادَ إدراكي بأنه تجسيدٌ لكُلّ ما أقصيته في حياتي وابتعدتُ عنه؛ الصّبر الصالح، التوازن المَحض، العقلانية المتّزنة، الهدوء الشفاف.. التناغُم الأنيق. إنّهُ صيّادُ سمكٍ بالفطرة.

لم يكُن يُعجبني وحسب. وجدتُ نفسي أسقُطُ رأسًا على عقب في حُبه. لكنني قررتُ بألاّ أدعَ أحدًا على هذه الطاولة، وهو على الأخص،

يعرفُ ما أُكنّه. لا أريدُ أن يرى أحدٌ ذلك. ولكي أُخفي مشاعري تلك، انقلبتُ إلى الجهة الأخرى مما يُمثّله أيوب، وذهبتُ حتى أقصاها. أتحداه بشكلٍ دائم، وأتجهّم لكُلّ تعليقٍ ورأيٍ يُبديه ، وأعارضه.

وبعد ساعاتٍ، كما يحدث دومًا في أسطنبول عندما يستهلك مجموعةً من النساء والرجال أكثر من قنينة من النبيذ، وضِعفَ ذلك من كحول «الراقي» التركي، يبدأ الجميعُ بالتحدث عن أمورٍ تُشغلُ قلوبهم. قَبِلنا اقتراحَ أن يقول كل واحدٍ منا أجمل اقتباسٍ يعرفه عن الحب.

تطوّعت إحدى صديقاتي بالبدء. قالت بنبرةٍ فخورة:

- هذه كلماتٌ تعودُ لشكسبير:

«أحِبْ الجميعَ، لكن ثِق بالقليل».

استقبلَ الجميعُ الاقتباسَ بإعجاب.

قال صديقٌ آخر:

- هذا اقتباسٌ من ألبرت آنشتاين:

«الجاذبية ليست مسؤولة عن الذين يقعون في الحُبّ».

رفعنا نخبًا لذلك.

عينا أيوب تُشعّان. لقد انضمّ الآن للّعبة، وبعد عدّة دورات، قال:

- هذا اقتباسٌ من مارك توين:

«عندما تحاولُ اصطيادَ الحُب، قامر بقلبك، لا بعقلك».

صفّقَ الجميعُ له. أنا تجهّمت. ولكنني انضممتُ للنّخب معهم.

بعد عشر دقائق، كان الجُلوسُ إلى الطاولة جميعهم ينظرون إلي، ينتظرون مني أن أنبسَ باقتباسي. حتى ذلك الوقت، كنتُ قد شربتُ أكثر من عادتي، وبدأ رأسي بالدوران. وضعتُ نظارتي على الطاولة

بثقة مزعومة وبقوّةٍ أكبر ممّا نويته. هززتُ إصبعي في الهواء وقلتُ:

«هل وقعتَ مرّةً في الحُب؟ إنه مُريع، أليس كذلك؟ يجعلك هَشًّا تمامًا. يفتحُ صدرك، ثم يفتحُ قلبك، وهذا يعني أن أحدهم يستطيعُ أن يدلف هناك ويعبث بك. يا للحماقة!».

في لحظة اندهاشهم جميعًا، لم يقُل أحدٌ شيئًا. قام البعض بالسُّعال مُدّعين أن هناك ما هو عالقٌ في حلوقهم، وبعضهم تصنّعَ ابتسامةً مؤدبة، لكن لم يرفع أحدٌ نخبًا!.

قلتُ شارحةً:

- كان ذاك اقتباسًا من نيل غايمان.

ظلّ الصمتُ مُطبقًا.

- «ساندمان»... «ستاردست»... «مقبرة الكتب»... هل تذكرون؟ إنه نيل غايمان!.

أسندتُ ظهري إلى الوراء، أخذتُ نفسًا عميقًا، وأكملتُ الاقتباس:

«تصنعُ درعًا كاملًا كي لا يستطيع أحدٌ أن يجرحك، وبغتةً يأتي شخصٌ أخرق، لا يختلفُ عن أيّ أحمقٍ آخر، يأتي ويجولُ في حياتك كما يشاء... يا للغباء!».

الجميعُ ينظُرونَ إليّ بوجوهٍ ناضحة بالازدراء. لقد أفسدتُ المتعة وغيّرتُ المِزاج من السّكرة المُبهجة إلى الجديّة المُنكّدة. نستطيعُ بالطبع العودة إلى اقتباسات الحُب المُبهجة، لكن لن يعود الأمر كما كان. كل واحد على الطاولة تبدو عليه أمارات التشوّش والانزعاج- ما عَدَا شخصًا واحدًا حيّاني بابتسامةٍ دافئةٍ وغمزَ لي، كأننا نحمل سِرًّا مُشتركًا.

مَدامْ بَصَلَة

في الحُلم، كنتُ أسيرُ في حديقة وفيرة الثمار وواسعة. فيها كلّ أنواع الزهور، والنباتات والطيور في الأجواء، لكنني أعلمُ أنني لستُ هنا من أجل ذلك كله. أكملتُ السير وفي يدي قطعة قَصَب، حتى وصلتُ إلى شجرة هائلة. جذعها من الكريستال، وأغصانها المُورقة من فضّة تتفرّعُ في كُل اتجاهٍ مثل حِليٍّ عيد الكريسماس. هناك سنجابٌ في كُلّ حُفرة في الشجرة، ينقر حبّات الجوز لفتحها. إحدى الحُفَر تبدو وكأنها فَمٌ كهف.

قلتُ للشجرة بلُطف بالغ ودهشة غامرة:

- تبدين جميلةً جدًّا! ظننت أنه الشتاء. كيف أبقيتِ على أوراقك هكذا؟!

قالت شجرة العقل:

- انقضى الشتاءُ الآن. تستطيعين أن تغادريني.

- ولكنني قطعتُ عهدًا على نفسي، هل تذكُرين؟ عاهدتُ نفسي أنّ على جسدي أن يذبُل حتى يُزهرَ عقلي. لو حنثتُ بوعدي سيغضب الله مني.

قالت شجرة العقل:

- لا، لن يغضب. أنتِ لا تعرفينه.

سألتها:

- وأنتِ، هل رأيته؟ كيف يبدو؟

لكن الشجرة تجاهلت أسئلتي وقالت:

- لكُلّ شيءٍ نهاية، وكذلك العهود. حتى أنا اقتربتُ من نهايتي الآن..

وكأنه يُعقّبُ على كلامها، أسرعت الريح في الهبوب وانهالت فؤوسٌ غير مرئيّة تدُقّ شجرة العقل. هكذا عرفتُ أنَ أغصانها من زُجاج نحيلٍ هَش. وهكذا تشظّت الأغصان، أمام ناظريّ، إلى مئات القطَع الصغيرة.

قالت شجرة العقل، رافعةً صوتها في الضجيج:

- لا يؤلمني ذلك، لا تقلقي.

فغادرتُها باكيةً، وأنا أحاول ألّا أطأ شظايا الزجاج التي تُغطي الأرض. لم أكن حزينة. ولكنني لم أستطع تحمل ذلك. وعلى هذه الحال، ابتعدتُ عن شجرة العقل.

وعندما استدرتُ لأنظر إليها نظرةً أخيرة، فُجِعتُ بأن تلك الشجرة الضخمة الماموثيّة الحجم قد تضاءلت إلى شُجيرة فيقب صغيرة.

هذا هو الحلمُ الذي راودني في أوّل ليلةٍ قضيتها مع أيوب.

وحالما أعتقتني شجرة العقل، بدأت أنا وجسدي بإصلاح الأسوارا. مرة أخرى، أشعر بتغيرات سريعة تجري داخلي- ولكن هذه المرة في الاتجاه المعاكس. صارت بشرتي أكثر نعومةً، وشعري أكثر ألقًا. الآن، وأنا واقعةً في الحُب، قررتُ أن أتعامل مع جسدي بأفضل ما أستطيع. بدأتُ بالتردد على ذه بودي شوب، أتبضّع الكريمات والزبدة والبودرة ومراهم الجسد العِطرية التي لم أبتعها في حياتي قَط.

وفي يوم ما، فجأة، وأنا أضعُ ما ابتعته من لوازمي في حمّام أيّوب، لاحظتُ شيئًا يتحرّكُ هُناك. رأيتها! تفرّستُ فيها، وعندما أدركت أنني رأيتها، اختبأت خلفَ عُلبةٍ لغَسول الوجه. فأزحتُ العُلبةَ جانبًا وأنا مشدوهة من الصدمة.

كانت بطولِ خمسة عشر سنتيمترًا تقريبًا، وتَزِنُ نصف كيلوغرام، إنها فتاةُ إصبع- إلا أنها لا تُشبه أحدًا من الأخريات على الإطلاق. شعرها الأشقر العسلي محلولٌ، ويتموّجُ نازلًا حتى خصرها. لها شامَةٌ، نُقطةٌ فوق شفتها العلوية، وتضعُ أحمرَ شفاه برّاقٍ يُذكّرُني بحُمرة البالونات الصينية التقليدية. ذراعاها داخلَ قُفّازات طويلة سوداء جلدية وضيّقة. تلبسُ خواتمَ بألوانٍ وأشكالٍ مختلفة فوق أصابعها المدسوسة في القفازات. أما جسدها، فمحشورٌ داخل فستانٍ قرمزيٍّ للسهرات. نهداها يُبرزان فتنتهما من فتحة عُنُق الفستان، وساقها اليمنى- حتى إليتها- حُرّةٌ في الظهور من خلال شقٍّ طويلٍ في الفستان. تنتعلُ حذاءً مُقمقمًا كرأس الخنجر، ذا كعبٍ عالٍ لا أعرف كيف تستطيع السيرَ به.

ودونَ أن تُعيرني أيّة نظرة حتى، استلّت حاملَ سيجارة طويل، بطريقة قد تدرّبت عليها جيدًا، وثبّتت سيجارةً عليه. ثُمّ التفتت إليّ، ورمشاها المثقلان بالماسكرا يُرفرفان.

سألتني:

- هلّا أشعلتي لي السيجارة يا حبيبتي؟

تجمّد الدم في أوردتي. مَن هذه المرأة؟

أجبتها محاولةً أن أختزل التواصل بيننا قدر المُستطاع:

- ليس عندي ما أُشعلُ به.

قالت:

- لا بأس في ذلك، حبيبتي، شكرًا على كل حال.

فتحت حقيبتها الشبيهة بعُلبة تنطبقُ وتنفتح، حقيبتها المزدانة بلؤلؤة، وأخرجت قدّاحةً وأشعلت سيجارتها. ثُمّ بدأت وهي تزمّ شفتيها تنفثُ نحوي دوائر مكتملة من الدخان، كالخواتم، واحدةً تلو أخرى.

وقفتُ، فاغرة الفم، أرقُبُ هذه المخلوقة الغريبة.

قالت بصوتٍ نصف ناعم، نصف داعر، مثل نيتا هيوورث في فيلم: «قيلدا»:

- أنت لا تُميّزينني، صحيح؟. بالطبع، هذا متوقع. متى عرفتني أصلًا؟

مالت إلى الامام، مُظهرةً خطّ التقاء نهديدها أكثر، تفاديت النظر إليها، شاعرةً بعدم الراحة. ألا تستحي هذه المرأة؟

- ولكن، يا حبيبتي، لم أكُن غريبةً عنك قط. أنا أنت. أنا عضوٌ في جوقة أصوات الفوضى. لقد تمنّيتِ أن تُحققي السلام مع جسدك، وعندما سمعتُ أمنيتك هذه، استقبلتها كدعوةٍ لي لأُقدّم نفسي لك، وها أنذا.

لم أعرف ما أقوله لها سوى:

- ولكن من أنتِ بالضبط؟

- اسمي بلو بيلي بوفاري.

قلتُ لها، باحثةً عن صفةٍ لا تُهينها:

- يبدو ذلك جيّدًا...

- شِعري؟

- نعم، نوعًا ما.. إنه متجانس.

قالت غامزةً إليّ:

- شكرًا حبيبتي.. اخترتُ اسمي تيمُّنًا بإيما بوفاري، (مدام بوفاري)، المرأة التي فعلت ما بوسعها لتهرب من سذاجة حياة الريف ورتابتها.

- هذا صحيح، لكنها، كما تعلمين، شخصيّةٌ إشكالية. أعني، إذا اعتبرتِ خيانة زوجك، وابتكار كذبات لا نهاية لها، والموت مكروبةً بابتلاعِ الزرنيخ، ليست مشكلات..

- لا تقلقي. أُفضّلُ العَيشَ بشغف، على الموت بملل.

فتحت حقيبتها مرة أخرى، استلّت مطبقةً وبحذقٍ وضعت بعض البودرة على رأس أنفها. ثُمّ رمَت نحوي نظرةً ثاقبة:

- أُحبُّ أن أضع العطور الشهوانية. أعشقُ ارتداء الفساتين التي تلتصقُ بالجسد، والقِطَع الداخلية المُثيرة، وفساتين السّاتان القصيرة للنوم. تشرّفنا، «enchanté»، يا حبيبتي..

كنت أشعُرُ بوجهي يحترق. فقلتُ لها بصوتٍ مُرتعش:

- هلّا توقفتِ عن مناداتي بـ «حبيبتي»، رجاءً!. ليس لديّ لا من قبل ولا الآنَ صوتٌ داخليٌّ مثلك. هناك خطأ ما.

قالت بعد أن سحبَت نَفَسًا من سيجارتها:

- أوه عزيزتي، أنتِ تقومي بذلك مرّةً أخرى! تُريدين أن تدفعيني مُجددًا إلى تلك الهاوية المُظلمة من التجاهل. لقد أرعبتُكِ حقًا، أليس كذلك؟

- ولِمَ تعتقدين أنني خائفةٌ منكِ؟

- لو لم تكن تلك الحقيقة، فلماذا تتجهمين في كل الصور التي التُقطَت لكِ؟ في كل مقابلة لك، تظهرين مُحافظةً وجادّة.

مُقطّبة الحاجبين، ونظرتك حالمةٌ وبعيدة. نظرة الكاتب التأملي! إغغغ..

- أوه، انتظري لحظة..

رغم أنني هممتُ بالاعتراض، فإنّني تذكّرتُ تحليلًا كتبته إيريكا جونغ. قالت إنّه ليس من الصعب هذه الأيام على الكاتبات أن يكتبن وينشُرنَ الروايات. المشكلة الحقيقية بالنسبة إلينا هي أن تؤخذ كتاباتنا على محمل الجد. واعتبرت جونغ أنّ الانحياز ضد الكاتبات باتَ واضحًا أكثر من ذي قبل في المراجعات الأدبية:

«أعرف أن ما أقوله هنا صحيح. في تركيا، تستطيع الكاتبة أن تنشُر ما شاءت من كُتُب، ورغم ذلك، يتطلّب الأمر صراعًا طويلًا وأعمالًا أكثر للكاتبة لكي تؤخذ كتاباتها على محمل الجدّ من قِبَل المؤسسات الأدبية التقليدية».

تابَعَت بلو بيلي بوفاري:

- ولِمَ لا تضعين أحمرَ شفاهٍ ناري، وترتدين فُستانًا متوَرّد اللون، وتُظهرين بعضًا من جسدك؟ هل ستتدهورُ مهنتك ككاتبة؟ هل سينقُص منكِ شيء وتصبحين كاتبة رسائل وحسب؟ أنتِ مذعورةٌ من جسدك، جسد المرأة هذا!. أخبريني، لِمَ أنتِ مذعورةٌ مني إلى هذا الحد، يا حبيبتي؟.

نشفت الكلمات في حلقي وتبخّرَت.

أردَفَت بلو بيلي بوفاري:

- أنا عكسك تمامًا. أجدُني مُعجبةً بكل ما هو مُثير وحِسّي. إني أُقدّرُ المُتَعَ الحُلوة المُنَعّمَة لنا كبشرٍ فانين. وفوق كل شيء، أنا من بُرج العقرب. التلذذيّة هي مذهب حياتي وما أدينُ به. إني

أستمتعَ بأنوثتي!.

ثُمّ هاجَت:

- ولكن بسبب نسوة الأصابع أولئك، الجاهلات، تمّت محاصرتي واسكاتي، والحَجر عليّ!.

اجتاحتني مَوجَةٌ من الذعر المحض. وبدأ العرقُ ينزُّ مني.

قالت وهي تُقرّبُ وجهها إلى وجهي:

- بالطبع تتمرّقين! أنت تُراكمين الثياب عليك قطعةً قطعة، كأنك مدام بصلة، قشرةٌ فوق قشرةٍ من الأردية، لَو أنك ارتديتِ لباسًا خفيفًا وقصيرًا، لكنتِ تشعرين الآن بشكلٍ أفضل.

هل يمكن أن تكون على حق؟ إني أتسائل. هل صنعتُ من نفسي مدام بصلة؟ ربما. امرأة ترفض أن تجذب الانتباهَ لجسدها لأنها تُريد أن تُحترَم لعقلها. امرأة ترتدي طبقات من الثياب قبل الخروج إلى الشارع. لطالما خبأتُ نفسي خلف قِطَع الثياب، واضعةً إياها دِرْعَ حماية. وفي كل مرة أقف فيها للتصوير بعد مقابلة صحفية، أتأكدُ من أنني لا أبتسمُ بشكلٍ ملحوظ، كي لا أؤخذ بخفّة في هذا الوسط الأدبي الذكوري. أحاول أنْ أظهر بمظهرٍ جديٍّ للغاية، أكبر من عمري.

قالت بلو بيلي بوفاري، وهي تدعكُ راحَةَ كَفّها بمرهم فاكهة البابايا، مثل جارية في لوحةٍ شرقيّة:

- الآن، رواياتك هذه...

- ماذا عن رواياتي؟

- أوه، لا شيء. أشعُرُ أحيانًا أنكُنّ، أيتها الكاتبات، لا تستطعن الكتابة عن الجنس بحُريّة كما يفعل الكُتّاب. مشاهدكن الجنسية دومًا قصيرة، كأنّ لا وجود لها أصلًا. مثل الأفلام

القديمة. كما تعرفين، عندما يهمُّ عاشقان بفعل الحُب، تُدارُ الكاميرا نحو جانبٍ ما؟ هذا بالضبط ما تفعلونه أنتُنّ الكاتبات في المشاهد الجنسيّة. أقلامُكنّ تُدارُ إلى جهةٍ ما!.

اعترضت:

- هذا ليس صحيحًا على الإطلاق. هناك الكثير من الكاتبات اللواتي يكتُبنَ مشاهد مهولة عن الجنسانية والشهوانية!.

- بلى يا حبيبتي، لكنني لا أتحدثُ هنا عن الروايات الرومانسية أو الشهوانية. فمجرّد بَوحي بأنني أعشقُ أردية السّاتان وأدينُ لمذهب التلذُّذ، لا يعني أنني جاهلة. واضحٌ أنني أعرف أن أغلب من يكتُب هذه الأنواع من الروايات هُنّ نساء. ولكن ليس هذا موضوعي هنا، إنني لا أتحدث عن هذه الكتب.

وقفَت، وأدارت رأسها بحركةٍ جعلت شعرها يهفو إلى الوراء:

- أنا أتكلم هنا عن الأدب الرفيع. دونَ إهانة، حبيبتي، ولكن عدد الكاتبات اللواتي يستطعن الكتابة عن الجنس بصراحة ودون مُراعاةٍ لأي شيء، لا يعدو الصّفر.

قلتُ لها، دون أن أشعر بالاقتناع التام:

- لابُدّ وأنّ هناكَ طريقةً ما غير هذه..

قالت بابتسامة شيطانية:

- أوه، طبعًا هناك. تقوم الكاتبات بالكتابة عن الجنس بحُريّة في ثلاث حالات فقط.

- و هذه الحالات هي؟

- الحالة الأولى هي المِثليّة. إذا كانت الكاتبة سحاقية وتُعلنّ عن ذلك، فماذا بقي لديها لتخشاه؟ الكاتبات السحاقيات يَمِلنَ إلى

الكتابة عن الجسد بشكلٍ أفضل من القسم الأكبر الذي أنتِ منه.

خلال الوقت الذي كانت بلو بيلي بوفاري تُكمل فيه مونولوجها المسرحي هذا، وجدتُ نفسي أسيرةَ صوتها الناعم الحريري وأنسجته المُفرطة في التعبير والتماوج. إنه لمن المتأخر التساؤل عن المقصد وراء هذه المحادثة أو إلى أين تذهب بنا، وبدلًا من ذلك، سألت:

- ولمَ تظنّين ذلك؟

- ربّما لأنهنّ حينها قد وُصِمنَ بالعار بوصفهنّ مثليّات وانتهى الأمر. يستطعن الحديث عن المواضيع الحساسة دون خوفٍ على أنفسهن. وهذا ما يجعل كتاباتهن أكثر صدقًا واثارة.

أعرفُ أمثلةً جيّدة على ما تقوله. رواية الكاتبة الأمريكية ريتا ماي براون، عنوانها «غابَةُ الفاكهة الياقوتيّة» وقد صدرت في السبعينيات وتحدّت التواطؤ الاجتماعي بالحديث عن الجنس والجنسانية، والمثليّة أيضًا. مِثالٌ آخر، رواية «بقشيشُ المخمَل» للكاتبة البريطانية ساره واترز، والتي تقولُ عن كُتُبها إنّها «تاريخٌ للمجون السحاقي».

- الحالة الثانية يا حبيبتي هي التقدم في العمر. عندما تكونين كاتبةً عجوزًا في نظر المجتمع، فأنتِ حينها حُرّة في الحديث عن الجنس كما يحلو لك. لطالما اعتقد البشر أن العجائز فوق الطبيعة. يستطعن الحديث عن الجنس من أعماق أعماقهن، وسوف يوصَمُ كلامهن في النهاية بالحِكمة!.

تحضُرُ الآن إلى البال ألكساندرا كولونتاي- الروسيّة الثورية، والمُنظِّرة الاجتماعية، والكاتبة. فعلى الرغم من تناولها الشغوف، طوال حياتها، لمواضيع حساسة، منتقدةً القيم الأخلاقية البرجوازية، محتفيةً بالحُب والجنسانية كقوى إيجابية في الحياة، فإنّها عندما تقدّمَت في العمر، عبَّرَت عن نفسها دون تحفُّظ على الإطلاق أكثر من

ذي قبل فيما يتعلق بتلك المواضيع نفسها. دافعت كولونتاي عن تحرير المرأة من رقبة النظام الاقتصادي والاجتماعي والجنسي- رؤىً لم تجعلها مستساغةً عندَ النخبة الأدبية المسيطرة. لقد طوّرَت نظريتها عن علاقات الحب والجنس الحُرّة، غير الامتلاكية، في روايتها «الحب الأحمر»، ومقالها الجدلي المعنون بـ«أفسحوا لإيروس المُجنّح»، والذي انتُقِدَ بقسوةٍ من قِبَل قادة النظام الشيوعي آنذاك.

في مقالٍ فاتنٍ، بَديعِ الصِّدق والشَّرَف، نُشِرَ في مجلة ذه نيويوركر للكاتبة باربارا كينقسولفر، قالت إنّها اعتادت على كتابة أصغر المقاطع الجنسية على الإطلاق- لأجل إضفاء مساحةٍ فاصلة وكسر حِدّة السرد لا أكثر. إلا أنها، بعد إنجابها لطفلين وبلوغها الأربعين، تَجرّأت على كتابة روايةٍ «فاسقة»، وانطلقت للحُرية.

سألتها:

- والحالة الثالثة؟

- أن تكوني طائشة- مُتأهّبةً لتُمسي حديث المدينة وحُبوبًا في مطاحن الإشاعة. عليك أن تكوني وقحة بما يكفي لعدم الالتفات لِما يقوله الناس ويفكّرون فيه عندما يقرؤون مشاهدك الجنسية.

فكّرتُ في ما فعلته إيريكا جونغ في روايتها «الخَوفُ من التحليق». مرّةً، قالت لأحد الصحافيين إنّها تقبَلَت الخوفَ كجُزءٍ لا يتجزأ من الحياة، وتحديدًا الخوف من التغيير. ولكن هذاالتصريح لم يحمِ ظهرها:

«لقد ذهبتُ قُدُمًا رغم ضربات قلبي التي تقول: عودي إلى الوراء».

توقفت بلو بيلي بوفاري منتظرةً مني أن أضيفَ شيئًا. وعندما أيقنت أنه لا شيء عندي لأقوله، أكملت حديثها بنفس الحماس:

- بالنسبة إليك، فأنا آسفة للاعتراف بأنّك لا تقفين في أيّة حالة من تلك الحالات. أتكلم بجديّة، يا حبيبتي، أنتِ في حالة متوازنة نوعًا ما. لم تكتبي أبدًا بشكل حُرٍّ عن الجسد. وبالطبعِ، أنا من يتحمّل وطأة ذلك. فوجودي كُلّه مُحاصرا.

قد تكون على حق في هذه النقطة. ولكن هناك أمرٌ لا تستطيعُ فهمه. لسنا وحدنا نحن الكاتبات من نُشيحُ بعيدًا عن المشاهد الجنسية في كُتُبنا كطريقة لحماية أنفسنا. الأمرُ نفسه ينطبق على النساء الأكاديميات والصُّحافيات والسياسيات، والنسوة اللواتي يحفرن طريقهن في عالم التجارة. نحنُ جميعًا مسلوبات الجنس والأنوثة بعض الشيء. لا نستطيعُ حملَ أجسادنا بأريحيّة في مجتمعات مُنغلقة على النساء. لكي يُنظَرَ إلينا في الأماكن العامة على أننا كاتبات «مُفكّرة»، علينا السيطرة على «أجسادنا».

أتذكّرُ الآنَ الكاتبة التركية النِّسويّة، الناشطةالسياسية والروائية خالدة أديب أديوار، قائدة أوركسترا الأدب التركي. فقد دافعت بشغف عن تساوي الجنسين وعملت على تطوير حيوات النساء، كررت أديوار ثيمةَ انشطار النساء بين أن يَكنّ جيّدات أو فاسقات في رواياتها، وغيّبَت الجنس. شخصياتها النسائية كُنّ ذكيات، ساعيات وقويات ومتحضرات جدًا حتى أنهن لم يخلعن ثيابهن حتى لأزواجهن. رابيا، بطلة روايتها «المُهرّج وابنته» كانت تُغيّر ثيابها لترتدي بيجامة النوم داخل خزانة الملابس، ومن ثمّ تذهب إلى السرير حيث ينتظرها زوجها.

في مجتمع إسلامي تقليدي، حيث يُنظَر إلى رابيا كشخصية مثالية، لا تستطيع النساء رؤية أجساد بعضهنّ إلاّ داخل الخزانات أو خلف الأبواب المغلقة. النبضُ نفسُه ينعكس في رواياتنا. بنسبة أكثر

ممّا نُريد الاعتراف بها. فنحن الكاتبات، وبخاصة غير الغربيّات، لا نرتاحُ في الكتابة عن الجنسانية.

هل سيجيء اليوم الذي أكون فيه مثل بلو بيلي بوفاري؟ هل سأضعُ أحمرَ شفاهٍ صارخ، هل سأرتدي التنانير بالغة القِصَر، وفساتينَ تُبرزُ النهدين كما تفعل؟ هل سأحرّك رأسي لأدفع شعري إلى الوراء كأنّني في دعاية شامبو؟ ربما لا. خطوتان إلى الأمام وسيعلقُ كعبي في شرخٍ من الأرض، هذا أكيد، وسينكسر. لن أنجح في ذلك أبدًا.

سألتني وكأنها تقرأ أفكاري:

- هل حاولتِ مرّةً أن تكوني مُثيرة، يا حبيبتي؟

إنه سؤالٌ استفزازي لو فكّرتِ فيه!.

في تلك الليلة نفسها، سألتُ أيوبَ أن يلتقيني على العشاء في مطعم أسماك رائق على نهر البسفور. لم أذهب هناك قط، ولكن نصحتني به صديقةٌ قالت عنه إنّه «أنيقٌ أناقة عارضة الأزياء كيت ماس».

وصلَ أيوب هناك في السابعة مساءً، وبدأ ينتظرني. في الحقيقة، كنتُ أنا أيضًا في المطعم، بيد أنني اختبأتُ في دورة المياه، مُحاولةً استجماع الجُرأة لأخرج له.

كيف انتهيتُ إلى هنا، مختبئة؟ ذهبتُ إلى مُصففة شَعر ظُهرَ اليوم، وصبغتُ شعري. شذّبتُ أظفاري أيضًا وحففتُ حاجبيَّ. كان الأمرُ ممتعًا في الدقائق العشر الأولى، لكن تملّكني الملل لاحقًا حتى كدتُ أهربُ بفوطة على رأسي ويدايَ تقطُران بماء الصابون. هناك القليل من المجلات لقراءتها في الصالون، مجلات تصفيف الشعر وحسب، المجلات التي تحملُ مئات الصور وعشرين كلمة فقط!..

لكنني أنجزتُ المهمة على الرغم من ذلك. وها أنا، شَعري

مصفوفٌ بأناقة، ووجهي يلمعُ تحت طبقاتٍ من الماكياج، ورغم أنني لم أجرؤ على ارتداء الفستان القرمزي الذي كانت ترتديه بلو بيلي بوفاري- فإنّني حشرتُ نفسي في فستان سهرةٍ طويلٍ وضيّقٍ، وبالطبع أسود، وارتديتُ حول عنقي وشاحًا من الريش.

بعد خمس وثلاثين دقيقة، خرجتُ من دورة مياه النساء إلى قاعة المطعم، ليس لأنني صرتُ جاهزة، ولكن لأن عدد النساء الداخلات الخارجات من دورة المياه في ازدياد، وجميعهن لا يوفّرنَ جهدًا للوقوف والتحديق فيّ باستغراب لا يُخفينه. لذا تركتُ مكانَ حمايتي، مُحاولةً ألّا أطأ أطراف فستاني أو أكسرَ كعبي العالي، بطول عشرة سنتيمترات، وسألتُ النادلَ أن يأخذني إلى أيوب الذي ينتظرُ هناك بصبر، وقد تناولَ ثلاث أرغفةٍ ملفوفة ونصف قطعة من الزبدة.

تحت الأنظار المتسائلة لزبائن المطعم، عبرتُ والنادل المطعمَ من أقصاه إلى أقصاه، يتقدمُ هو بثبات، وأنا أعرُجُ بعض الشيء وراءه، لستُ متزامنةً تمامًا مع مشية النادل، ولكن لوجهينا تعابير القلق نفسها.

رفع أيوب رأسه ورآني أتقدّمُ نحوه. خرجت عيناه من محجريهما، أمّا فكّه فتهدّل قليلًا، كأنه شَهِدَ مُعجزةً للتو.

قلتُ له فورَ أن جلست:

- أحذّرك! ثقتي بنفسي الآن في أضعف حالاتها، لذا لا تسخر مني.

قال بابتسامة مدهوشة تمامًا:

- لم أكُن سأقول شيئًا..

شعرتُ بحاجة لأشرح له ولو قليلًا بعضَ ما يحدث:

- هذه محاولتي لأحُلّ عُقدًا في داخلي. تعرف، عليّ أن أُصلحَ ذاتَ

اليَين وأن أوقّع اتفاقية وقف نار مع جسدي.

عَضّ شفته السفلية، لكنه لم يستطع كتمَ ضحكةٍ انفلتت منه، ثم قال:

- ألهذا أنتِ ترتدين الآن ما ترتدينه؟

وهنا وردَ إلى ذهني أن أنظُرَ إلى باقي الزبائن في المطعم بانتباه. على الرغم من أنه مطعمٌ فخمٌ للغاية، أنيقٌ وغالي الأثمان، فقد بدا من الواضح لي وللآخرين أنني أتزيّى بشكلٍ مُبالغ فيه. بدوتُ وكأنني ممثّلة مُدّعية أضاعت طريقها المفترض نحو السجّادة الحمراء.

ثم همهمتُ باستياء:

- أحتاجُ أن أسأل المطعم ما إذا كان لديهم شالٌ أو...

أُريدُ شيئًا أغطي به نهديّ البارزين ووشاح الريش السخيف هذا.
نظرتُ إلى غطاء المائدة أمامي- لكنه لن ينفع، إنه غليظٌ وفاقع البياض.

قال أيوب:

- لا تقلقي! تبدين على ما يرام. أسندي ظهرك إلى الوراء وخذي نفسًا عميقًا وحسب. سمعتُ أن الزبدة هنا عجيبة..

وهذا ما فعلت. نسيتُ كل صراعاتي الداخلية، تلك التي أعرفها جيدًا وغيرها مما لا أعرفه ولكنني موعودةٌ به. استمتعتُ باللحظة. إنها أفضل زبدةٍ تذوّقتها في حياتي.

في مَديح الذاتيّة

آين راند هي واحدة من الكاتبات القليلات اللائي استحوذن على القُرّاء عبرَ المعمورة، كانت شهرتها هي الأخيرة من نوعها. بالإضافة إلى كونها روائية، كانت أيضًا كاتبة مقال، ومسرحيّة، وكاتبة سيناريو، وفيلسوفة. التطورات الهائلة التي حدثت في الأربعينيات أسهَمتْ في انتشار فلسفتها عبرَ العالم، وأخيرًا أسهَمَ آخرٌ انهيارٍ اقتصادي في ذلك أيضًا. إنها من بين أكثر الكاتبات في عالم الأدب اللائي حظَين بحُبٍّ كبير، وبكُرهٍ كبيرٍ أيضًا.

وُلِدَت عام1905م في سان بطرسبرج، من أبوَين روسيين يهوديين؛ أليسا زينوفيفنا روزينبوم كانت طفلةً ذكيّةً وموهوبة. وكان اهتمامها قليلًا بعوالم قريناتها وبنات أهلها. فَضَّلَت قراءة الكتب على اللعب بالعرائس والاهتمام بمظهرها. في عام 1926م، وبعد تخرجها من جامعة بتروغارد بدرجة علميّة في التاريخ، رحلَت إلى الولايات المتحدة بقليلٍ من المال في جيبها وحاجةٍ مُلحّة لإعادة خلق نفسها. لم تعُد قط إلى بلدها ولم تر أهلها بعد ذلك. كأنها تقطعُ خيطًا من كُرة الصوف، اندفعت مبتعدةً عن الماضي دون شروط واضحة. وبعد فترةٍ بسيطة، أعادت تسمية نفسها، استلّت اسمها من الآلة الكاتبة التي تعمل عليها ريمنغتون راند. كان «آيان راند» هو الاسم الذي اختارته لتولد مرّةً أخرى في العالم الجديد.

كانت راند في البدء مناضلةً متحمّسة ضدّ الشيوعية. بيد أنها

أمسَت متحمسةً بنفس الدرجة لجميع رؤاها. تزوّجت ممثلًا يُدعى شارلو فرانسس أوكونور، وكتبت الكثير من السيناريوهات الهوليوودية الرخيصة. رغمَ أن أوّل كتاب شبـ   ـرات لها، روايتها: «نحنُ الأحياء»، قد جذبَ انتباهًا كبيرًا. إلا أن انطلاقها الحقيقي كان عام 1943م مع روايتها: «المَنشَأ»، والتي أخذت منها سبع سنوات لكتابتها. إبداعها العظيم تجلّى في كتابها: «الأطلس يهُزُّ كتفيه»، رواية خيال علميٍّ ورومانسي، ورواية أفكار أيضًا، حيثُ بدأت بتقديم ما دعته بالفلسفة الأخلاقية الجديدة- أخلاقية الذاتيّة المنطقية.

لم تكن مُعجبة بكانط، فقد قالت عنه:

«إنه أشَرُّ إنسانٍ في تاريخ البشرية جمعاء».

كان رَدُّها على أولئك الذين اتهموها بأنها صنعت من الفلسفة الغربية كاريكاتورًا مضحكًا أكثرَ قسوة:

«لم أجعل من كانط كاريكاتورًا. لا أحد يستطيع هذا. إنه هو من فعل ذلك بنفسه!».

بمرور الوقت، صار اسمها مُلازمًا لمواضيع الفرديّة، والرأسمالية، والعقلانية. تؤمن بثباتٍ أن على الفرد أن يختار قِيَمَهُ اعتمادًا على أسبابه هو. دافعَت عن حقِّ الفرد ضد الجماعة والدولة، وجَرَّمَت كل أشكال التدخل الحكومي (إلاَّ أنَّ اسمها الآن مشهورٌ بأنه مُدرجٌ ضمن الذين عارَضوا عمليات إنقاذ البنوك من الإفلاس).

كانت آيان مهووسة بالقول:

«لا يوجدُ إنسانٌ يستطيع استخدام عقله للتفكير عن أحد آخر غير نفسه. وظائف الجسد والروح كلها خاصّة وحميمة، لهذا لا يُمكنُ مشاركتها أو نقلها».

بشكلٍ مُبهرٍ، أعلَت من شأن «العقل» لا كأساسٍ لاختياراتنا

الشخصية وحسب، ولكن كمنشأ لمشاعر الحُب بين الجنسين المختلفين.
حتى الانجذاب الجسدي، بالنسبة إليها، كان من عمل العقل. يبدو لها أن الحب، والجنس، والرغبة، كلها رغباتٌ ذاتية لو تركها المجتمع دونَ ترويض، لكن على الرغم من ذلك، أو بالأحرى بسبب ذلك، تمْ تقديم الفرد الإنساني كشيءٍ يستحق الانجذاب والتقدير، كما هو مطروحٌ في كتابها «المَنشَأ»:

«لكي يقول أحدٌ «أنا أحبك»، عليه أولًا أن يتعلّم كيف يقول «أنا»».

أقل وصفٍ لمراجعاتها للجنسانية الأنثوية هي أنها إشكالية. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت من الكاتبات القلائل اللواتي كُنّ يكتُبنَ عن الشهوات الجسدية والجنسية دون أن تكون رقيبةً على قلمها أبدًا. لكنّ صوتها الروائي كان في بعض الأحيان تمييزي؛ «المرأة الجميلة» في رواياتها كانت دومًا «شقراء، بيضاء البشرة وذات أقدام رفيعة»- النوع من النساء اللواتي لم تكنه. كل المشاهد الجنسية تقريبًا في جميع رواياتها، فيها نمطٌ يتكرر على الدوام: تتمنّعُ المرأةُ في البدء، يُصِرُّ الرجل، أحيانًا إلى درجة استخدام القوّة، ثم، أخيرًا، تستسلم المرأة.

لم تكُن امرأةً شكّايَةً على الإطلاق، أحبَّت آيان راند أن تُغيظَ النسويات برؤاها عن النساء، وخاصة تعليقاتها عن الطريقة التي ينبغي على الأنثى أن تُقَدّرَ بها ذكرها. وبتناقضٍ صارخ، لم يكُن ذاك النمط من العلاقة ما أدارَت به زواجها.

بشكل تعاظَمَ مع مرور السنين، كان زوج راند، أوكونور، يقبعُ تحت ظلّ شهرة زوجته. لم يكن ذا موهبةٍ فارقة في التمثيل، وما كان مشهورًا عند مُنتجي الأفلام، بل كان طوالَ الوقت لا يعمل. منذ لحظة زواجهما، حقيقة أنها كانت الأكثر حظوةً وشهرةً ونجاحًا كانت عبئًا عليه. ولكي يسخر من مأزقه هذا، كان يُقدّم نفسه دومًا على أنه

«السيّد آيان راند».

في العام التالي على انتقالهم إلى نيويورك، أي 1951م، قابلَت آيان راند طالبَ طبٍّ نفسي يُدعى ناثانيل براندن. كان قد احترمها، أحبها، وربما خافها. كان انجذابه نحوها حادًا إلى درجة أنه أقامَ مؤسسةً لنشر أفكارها في كل مكان. وما بدأ على أنه انجذابٌ فكري، انتقل ليكون انجذابًا جسديًا أيضًا. كان شيئًا أشبه بالانجذاب المغناطيسي المكثف بين امرأة مشهورة وفي منتصف العمر، وفتىً غضٍّ وطَموحٍ وعاطفي. ودون أن تُخفي الوضعَ عن زوجها، بَنَت راند شيئًا فشيئًا مُثلَّثَ حُب، واضعةً نفسها في المنتصف تمامًا. أهدت روايتها «الأطلس يهز كتفيه» إلى كلا الرجلين، براندن وأوكونور.

وعلى الرغم من أنّ مشروع العلاقات هذا كان معقدًا ولم يُبقِ على الجميع سعداء، فقد استمرَ لأربعة عشر عامًا. عندما بلغت آيان راند الواحد والستين من عمرها، تركها ناثانيل لحساب عارضة فتيّة. الكاتبة المعروفة التي وسمت العلاقة الجنسية نفسها بأنها «تبادل فكري»، لم تستطع أن تقبض على فهمٍ لفعلة عشيقها الذي اختار «الجسد» على «العقل».

لم تسامحه قط. ربما كان تخلّيه عن فلسفتها هو ما آذاها أكثر من تخليه عن جسدها. في مقالة قاسية في مجلة ذه أوبجيكتيفست، أعلنت للجميع أنهما في طريقين مختلفين تمامًا. ولم يلتقيا مجددًا بعدها.

آيان راند كانت واحدةً من الكاتبات اللواتي اخترنَ مبكرًا ألا يحظينَ بأطفال. كما أن الأطفال لم يلعبوا أيّ جزء في حياتها، لم يظهروا في رواياتها أيضًا. وقد انتُقِدَت لإمساكها الكتابة عن الأطفال وعدم محاولتها فهمَهُم أصلًا، لكن لا شيء في دفاتر ملاحظاتها

يجعلنا نظُن أنها أعطَت هذا النقدَ وزنًا. الأطفال الوحيدون الذي أرادت أن تحظى بهم كانوا كتبها.

كانت كاتبةً بأفكارٍ متألقة، وامرأة بتناقضات فاضحة- تمامًا كإرثها الأدبي. ليس منَ قبيل الصدفة أنها حتى بعدَ مماتها- لم يتغيّر موقف أحدٍ منها، لا أولئك الذين كرهوها ولا أولئك الذين أحبوها. وعلى الرغم من أنها دافعت عن الرأسمالية بحماسة بالغة، فإنّها فضّلَت في حياتها الخاصة أن تحظى بعلاقات تنطلق مِن الشمولية. نظريًا كانت في جهة الحُرية الفردية والفكر النقدي. ولكن في الواقع، كَرِهَت أن يتمّ نقدها إلى أقصى حد؛ كانت تُقصي أيّ أحدٍ لا يتفق وأفكارها وتحتقره. لقد توقعت الانصياع والإخلاص من المُقرّبين منها. ورغم الحقيقة القائلة أنها ذات رأسٍ يابسة، وأن رواياتها مليئة بالنساء المستقلات، فإنّها جادَلَت في ضرورة استسلام المرأة لرجلها. أمّا حقيقة أنها لم تقم بذلك في حياتها الخاصة، فأمرٌ آخر.

مُحاربةً على الدوام، حتى عندما أصيبت بالسرطان، لم تُطلع أيّ أحدٍ على الأمر. لقد رأت حتى في مرضها خطأ يجب إصلاحه. ولقد فعلت ذلك، «صححت» نفسها، تدبّرَت أمرَ هزيمة السرطان. بالنسبة إليها، كان انتصارًا آخر للعقل على الجسد. تأكيدًا لوجهة نظرها.

لكنها، في العام 1982م، ماتت فجأةً ودون إنذار بسكتةٍ قلبية.

اليوم، يضع المهووسون بالأدب من جميع أقطار العالم، أسئلتهم على شبكة الإنترنت من خلال طرح أسئلة من قبيل: «ما المرض النفسي الذي سأعانيه لو أن آيان راند كانت أمي؟»، أو «كيف ستكون حياتي لو كنتُ زوجًا لـ آيان راند؟».

ربما هم على حق. لم تولد آيان راند لتكون أمًّا أو زوجة. لو كانت أمّا لكان من المحتمل أن تكون مهيمنة، ناظرةً إلى كل طفلٍ لها على

أنه تجربة علمية. ومن المحتمل أن نكون جميعًا مخطئين. ربما تجد في الأمومة «تبادلًا فكريًا رائعًا وكثيفًا»- كما كتبت في دفتر يومياتها على لسان فتاة تَصِفُ المدرسة والفصول. أنا مهتمةٌ بمعرفة ما الذي كانت لتفعله لو شَهِدَت ولدها يتحول إلى مراهقٍ متمرِّد.

أن تكون قد وَعَت منذ البداية أن العلاقة بين الأم والطفل، يفوز فيها الطفل على الدوام، هو أمرٌ يحملُ من المعقولية ما تحمله الاحتمالات الواردة سابقًا. ربما كان ذلك هو السبب الحقيقي وراء امتناعها عن الإنجاب. أرادت آيان راند دومًا أن تفوز.

ولادة الكتب كانت كافيةً لها.

عندما ابتسمَ البازارُ الكبير

بعد مرور عام بالتمام، كُنّا جالسَين داخل مقهى يقعُ في سوق البازار الكبير، أنا وأيوب.

لم تكُن فتيات الأصابع في أيِّ مكانٍ تطاله عينيّ، وأظن أن كل واحدة منهن تتبضعُ في دُكّانٍ مختلف. فبعد انتهائي من تلّة هوليوك صرتُ مُحاضرةً زائرةً في جامعة ميتشيغن في آن هاربر. درّستُ مناهج عن الدراسات النسوية، ورحتُ أكتبُ ببُطءٍ روايتي الجديدة: «لقيطة اسطنبول».

إنه الصيف مرة أخرى. عدتُ إلى اسطنبول. نجلسُ هنا، حُبي وأنا، بين ما هو معروضٌ من أساور الفضة وأنابيب الفلايين والسجاد والمصابيح النحاسية التي تذكّرني بعلاء الدين. تحيطنا الضوضاء. شبابٌ يدفعون عربات مُحمّلة بالبضائع، وشيبٌ يلعبون طاولة النرد، وتُجّارٌ يساومون بكل لغة عرفتها البشرية، وسُوّاحٌ يحاولون إبقاء البائعين الانتهازيين بعيدًا، صبيةٌ جُدُدٌ على العمل يحملون أكواب الشاي على صوانيَ فضيّة، وقططٌ تموء أمام المطاعم، والأطفال يطعمونها عندما يغفل عنهم الآباء- الكُل في عالمه الخاص.

وفجأةً، أمسك أيوب يدي، وسألني بصوتٍ ارتفع عن خلفيّة الأصوات الضاجّة:

– حبيبتي، كنتُ أتساءل، أما زلتِ ضد الزواج؟.

قلتُ مُظهرةً قناعةً تامة:

- طبعًا لا أزال.

ثم أردفتُ:

- نظريًا على الأقل!.

سألني بلُطف:

- وما الذي تعنيه بالضبط «نظريًا» هذه؟

حاولتُ الشرح:

- تعني بشكلٍ عام. كفكرةٍ محضة. كنموذج فلسفي.

قالَ، مُحرّكًا الملعقة في كوب الشاي:

- بلُغةٍ أبسط رجاءً..

- أعنّي أنني ضد أن يُقدم البشر على الزواج، على الأقل أغلبهم، لأنه، في الحقيقة، ليس عليهم القيام بذلك؟. لكن...

- لكن؟

- لستُ ضد أن نتزوج أنا وأنت، على سبيل المثال..

انفجر أيوب ضاحكًا- ضحكته بزغت مثل سيفٍ سُلّ من غمدٍ رفيع قبل الطعنة الأخيرة. قال:

- أظن أنّكِ للتو قمتِ بأكثر طلبٍ عكسيٍ للزواج استقبله رجُل من امرأة عبرَ التاريخ..

- هل فعلتُ ذلك حقًا؟

أومأ لي وقال بخبث:

- تستطيعين بالطبع أن تتراجعي عن ذلك..

- لكنني لن أتراجع..

قلتُ ما كنتُ أشعُرُ به حقًا:

- إني أسألك أن تتزوجني!.

اكتظّ سوق البازار الكبير بالضحك على تعارضاتي اللانهائية، راحت الرياحُ تُجلجلُ أصوات النحاسيات، وراحت ملاعق الشاي تنقُرُ أكوابها، والأجراسُ تتمايلُ وتُقرَع. مع تاريخي الحافل هذا، من أنا لأُطلق أحكامًا على تناقضات آيان راند؟.

اتسعَت عينا أيوب بودّ:

- كنتُ أمزح..

قلتُ وأنا أتنفَّسُ بصعوبة:

- اللعنة، ولكنني جادّة..

حدّقَت عيناهُ في عينيّ لوهلةٍ طويلة، كأنها تبحث عن شيءٍ ما، ثم أشرق وجهه، كانعكاس الشمس على قُبّةٍ فضيّة، قال:

- وأنا أقبل عرضك بكل سرور.. قَبِلت!.

قال أوسكار وايلد مرّةً:

«يتزوج الرجال لأنهم مُنهَكون، وتتزوج النساء من باب الفضول وحسب».

ولكن إن كان هناك من أحدٍ مُتعب هنا، فلن يكون غيري. تقدّمتُ في العمر وأنا مُنهكةٌ من تمييزاتي، كبُرتُ منهكةً من فشلي في رؤية الجمال مخبوءًا في أصغر الأمور، تعبتُ من كوني ضد الزواج والحياة المنزلية، تعبتُ من إجهاد نفسي، من حمل حقائبي من مدينة إلى أخرى ومن بلدٍ إلى بلد.

الإنجليزية، جاءت كلمة mother من أصلها اللاتيني -matri mony. الكلمة التركية المقابلة لذلك هي evlilik، وهي مرتبطة بمعنى «إقامة البيت». التجذّر والاستقرار هو شرطٌ أساسيّ في الزواج.

قلتُ له شاعرةً بالذنب:

- أنت تعرف أنني لا أستطيعُ البقاء في مكانٍ واحدٍ لفترةٍ طويلة، لا أستطيع ذلك.

قال أيوب:

- لاحظتُ ذلك.

سألته خائفةً من سماع الجواب:

- ألا يُشكّل ذلك معضلة لك؟

- حبيبتي، لقد توقفت عن توقع أن تكوني طبيعية منذ أن اقتبستِ عن نيل غايمان سطوره عن الحب.

- أستطيعُ رؤية ذلك.

أحْنَى رأسه إلى الأمام وأضاف بصوتٍ ناعم:

- سنقوم بما نستطيعه. ستكونين البدويّة الرحّالة، وسأكون المُستقر. ستجلبين لي ثمارًا سحريةً من بقاعٍ بعيدة، وسأغرسُ لك شجرة برتقالٍ في حديقة البيت الخلفية.

أشحتُ بوجهي عنه. دائمًا ما يجعل اللطف الصادق عينيّ تدمعان، ولكنها دموعٌ أستطيع إخفاءها، كما أظن. أمّا أنفي فقصةٌ أخرى وقد بدأ بالسيلان فورًا. فمَدّ لي أيوب منديلًا وسأل:

- وبما أنك المترحلة العالمية، أخبريني، في أي بقعةٍ من العالم ستوافقين على الزواج بي؟

- أريدُ مكانًا لا يتوقعون من العروس فيه أن ترتدي فستانًا أبيض.

مستخدمًا ملعقة الشاي كعصًا يؤكد بها نقاطة، قال أيوب:

- يتركنا ذلك لثلاثة خيارات لا غير: دَيرٌ للراهبات، من الأفضل أن يكون قد بُنِيَ في القرون الوسطى. أو حانة ترتادها عصابات

أغاني الروك ذوات الدراجات النارية. أو مكانٌ أُقيمَ لأحد أفلام جوني كاش. هذه هي الأماكن التي أعتقدُ أنه يمكنك أن ترتدي فيها فستان زفاف أسود دون أن يجد أحدٌ ذلك الأمر غريبًا.

تمعّنتُ في كُلِّ خيارٍ ثم سألته:

- وماذا عن برلين؟

- ماذا عنها؟

- لقد عُرِضَت عليّ زمالةٌ للذهاب إلى معهد التعليم المتطور في برلين. وقد قبلتها، وسأكون هناك لبعض الوقت العام القادم.

- إمممم.. يبدو ذلك معقولًا..

ثم صار صوته جادًّا فجأة:

- سنكون مثل شرق برلين وغربها، كلٌّ واحد مختلف عن الآخر بشكلٍ هائلٍ، ومُستقلّ عنه في الماضي، لكننا الآن نلتحمُ بدهشة عارمة!.

ما أضألَ النساء، ما أكبر القلوب

إحدى أفضل الشخصيات النسائية الخيالية في طفولتي كانت جو في رواية «نساءٌ صغيرات». جو الكاتبة. جو الحالمة. جو الرومانسية والمندفعة والمثالية والأخت المستقلّة. عندما أحرقَت أختُها آمي مخطوطةَ كتابها -نُسختَها الوحيدة- في فعلٍ انتقاميٍّ مَحض، أصابني الرعب. استغرق مني الغفران لآمي وقتًا طويلًا- حتى لو كانت جو نفسها غير بريئة؛ فبعد كل شيء، لم تقُم جو بدعوة آمي إلى مسرحيّةٍ ما، وكادت تغرقها عندما كانا يتزلجان على الجليد. على أيّة حالٍ، قصة الفتيات الأربع المولودات جميعهن في شهرٍ مارس خلال الحرب الأهلية الأمريكية لم تكن تشبه حياتي كطفلة لأمٍّ تركيّة وحيدة وغير مرتبطة، بيد أنني وجدتُ أمورًا كثيرة في الرواية مألوفةً لي- الأب الغائب، والصراع مع وضعٍ ماليٍّ يتحسّنُ ويسوء، وعدم الاعتراف بالقوانين الفاصلة بين الجنسين... تلك كانت قوّة كلمات الروائية لويزا ماي ألكوت: ابتكرَت ملحمةً عالميّةً تشاركها الناس في كل مكان. إنه لأمرٌ يتطلّبُ القيام به إلى سحرٍ مَهول، أن تُقرِّبَ صورةَ قصة مكتوبة في أواخر القرن التاسع عشر إلى القُرّاء في أرجاء المعمورة بعد مئة عام من كتابة العمل.

كانت امرأةً سبقَت وقتها، امرأةً احتضنت الشاعر غوته قريبًا إلى قلبها، كذلك كانت لويزا ماي ألكوت في روايتها، فقد فضّلَت جو وكانت تشبهها بعض الشيء: ممتلئة بالطاقة والأفكار والحركة. القصص

التي روتها في «نساء صغيرات» كانت عبارةً عن إعادة قَصٍّ لحياتها العائلية بوصفها الأخت الثانية من بين أربعة. قامت باهتمام بالغ بمراقبة الناس الذين قابلتهم، تشرّبت الحوارات التي سمعتها، ثمّ أدرجتها كلها في قصصها. تُخطط دومًا لكتبٍ جديدة، تعيشُ الأقدارَ الروائية في رأسها أولًا، وتخربشها بسرعة متى ما زارها الإلهام، كانت قد قررت أن تَجني معيشتها من وراء الكتّابة.

قالت مرّةً:

«لم أحظَ يومًا بطاولة مكتب. يَكفيني كتابُ أطلسٍ قديمٍ على ركبتيّ وفوقه ورقةٌ وقلمٌ من أيّ مكان».

عندما نُشرَت «نساءٌ صغيرات»، جلبَت لصاحبتها شُهرةً أكبر من توقعاتها المتواضعة. تغرقُ ألكوت في الكتابة حتى لتنسى أن تأكل وتشرب. رغبة قُرّاؤها وناقدوها بأن تُكملَ سلسلة الرواية قد ألهمتها وعطّلتها في آن. خططت في البداية أن جولن تُقدِمَ على الزواج، جانيةً رزقها من عَرَقِ جبينها، ولكن كان لناشرها رأيٌ مختلف. فتحت ضغط مستمرٍ منه ومن غيره، دُفعَت شخصية رجالية في حياة جو؛ إنه البروفسور بار. ورأى القارئ أن جو انشطرت بين نبضَين- حسها الذاتي بمسؤولية رعاية أسرتها، ورغبتها في إنماء فرديّتها وحُريّتها:

«سأحاول أن أكون ما يُحب أن يدعوني به، «امرأة صغيرة»، وألاّ أكون قاسية وجامحة، بل أقوم بواجباتي هنا بدلًا من الحلم بأن أكون في مكانٍ آخر..»

حالة صراع دائمة نشبت بينها وبين ما تتوقعه الأسرة منها، حتى خضعت جو في النهايةِ لأمر زواجها وحياتها المنزلية بدلًا من مهنة الكتابة- اختيارٌ مُتطرّفٌ لم تكن ألكوت نفسها لتأخذه في حياتها على الإطلاق.

أعطت ألكوت مؤسسة الزواج عينًا نزّاعةً للشك. كان واضحًا لها أن النساء اللائي يَنشُدنَ الوقوفَ على أقدامهن سيجدنَ وقتًا عَصيبًا للتأقلم مع الحياة الزوجية. باعثةً في الأذهان، في بعض الأحيان، فكرة أنّ الطريقة الوحيدة للكاتبة كي تجد حُريّتها هي أن تحيا عانسة:

«التحرُّر قَرينٌ أفضلُ من الحُب للكثير منّا..».

أختها ماي- امرأةٌ مبدعة وتشكيلية خصبة العطاء، اختارت العيشَ بعيدًا- وكانت سعيدةً في زواجها. بدَت وكأنها امرأةٌ حققت جميع أحلام النساء؛ مهنةٌ ناجحة، وزواجٌ جيّد. كانت لويزا ألكوت دائمًا ما تُقارنُ وِحدتها بالرّضى الذي تعيشه أختها، بامتلائها، قائلةً:

«كان لديها دائمًا مَرْهَمُ الأشياء، ولذا استحقت ما تعيشه».

من المُحزن أن آمي ماتت بعد فترة بسيطة من ولادة طفلتها. كانت آخر أمانيها هي أن تُرسل ابنتها التي أسمتها لُويزا ماي تيمُّنًا بخالتها، وتُلقّبها بلولو، إلى الخالة لويزا لتقوم بتربيتها والاعتناء بها.

هكذا وجدت لويزا ألكوت نفسها، دون أن تتزوّج، تُعنى بتربية طفلة، ابنة أختها. وَهَبَت حُبها كُله لهذه الطفلة، حتى أنها كتبت قصصًا قصيرةً لها، مُشكّلةً ما سيُعرَفُ لاحقًا بمكتبة لولو.

هناك قطعةٌ جميلةٌ في الكتاب الثاني من «نساء صغيرات» موسومة بـ«زوجات جيّدات»، حيث تُحلل ألكوت شخصية جو، في إحالة على ما أظن إلى حاجتها المُلحّة هي للكتابة. أعتقد أن تلك القطعة هيَ من بين أجمل ما كُتبَ لوصف العملية الإبداعية، ولا أقوى على إيقاف تشكل ابتسامة على شفتيّ كُلّما قرأتها:

«لَم تعتقد في نفسها العبقريّةَ أبدًا، ولكن عندما ناسبتها الكتابة، أسلمَت نفسها لها بطاعة كاملة، وشقّت لنفسها حياةً مرحة، دون الالتفات إلى الرغبات وأحلام الزواج وحتى الطقس السيء. إنها

تجلسُ في مأمنٍ وفرح في عالم مُتخيّل مليءٍ بالأصدقاء، أصدقاء قريبين منها وحميمين كأي الكائنات المخلوقة من لحم وعظم».

كاتبةٌ مُنجزةٌ على الدوام، وتشيخوفية بالطبيعة. قالت:

«لا أريدُ أن أحيا إذا كنتُ عديمة النفع».

وهكذا ماتت، عندما لم تقوَ على الكتابة لتقدّمها في السن، في بوستن عام 1888.

وُلدَت ماري آن إيفانس في الثاني والعشرين من نوفمبر عام 1819م، وكانت طفلةً خجولاً، وحدانيّةً، وعاطفية، وأحبّت الدراسة والقراءة. قصّة حياتها من تلك القصص الموحية- رحلةً قلبتها لتصير كاتبةً مفوّهة ويابسة الرأس ومُقلقة، يعرفها الجميع باسم جورج إليوت. عندما بلغت الثانية والثلاثين من عمرها، وقعت في حب الفيسلوف والناقد جورج هنري ليوس. كان رجُلًا متزوّجًا، ولكن علاقته الزوجية كانت «زواجًا حُرًّا»- حتى بمقاييس هذه الأيام. زوجته، آغنس، أقامت علاقةً مع رجلٍ آخر، وعندما حملت بطفل منه، كان ليوس سعيدًا ليُعلن أن الطفل هو طفله!. وعلى الرغم من أنّ الزوجين بقيا قانونيًا متزوجين، فقد توقفا كلّ منهما عن النظر إلى الآخر بوصفه زوجًا أو زوجة. جورج وماري آن عاشا معًا. تبنّت أبناءه كأنهم أبناؤُها. لم يكُن دخول الناس في علاقات خارج عقد الزواج أمرًا غريبا عن أسماع المجتمع الفيكتوري، ولكنْ إشهارهما لحُبهما بهذه الطريقة كان فاضحًا ومُخزيًا.

في وقتٍ كان فيه عدد الكاتبات قليلات، لم تكتب القصص من أعماق قلبها فحسب، بل أصبحت مساعدة مُحرر ذه مينيستر ريفيو. دعَت نفسها ماريان إيفانز لفترة، مُقَولبةً اسمها، ومُحاولةً معرفة

إحساس أن يكون لك لقبٌ مُذكّر. خلال سعيها لإبعاد نفسها عن الروائيات اللواتي كَتبنَ القصص الرومانسية، قرّرت أن عليها أن تكتُبَ تحت اسم مذكّر. لتُمجّد حُبها لليوس، أخذت اسمه، واسمَ جورج، ومن ثم ألتقطت اسمَ إليوت لأنه ناسَبَ الاسمَ الأول.

في عام 1856 بعثَ ليوس إلى ناشره قصّةً عنونها بـ«الثروة الحزينة للموقّر آرموس بارتون»، مُدعيًا أن كاتبها عاملٌ على الآلة الكاتبة عنده. فأجابه الناشر بأنه سينشُر القصة، باعثًا تهانيه للكاتب الجديد الذي سيكون «جديرًا بالنشر واستلام المستحقات». وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة إليوت الأدبية. أحبّت أن تنشُرَ تحت اسم مستعار أطول فترةٍ ممكنة، مستمتعةً بمحاسن أن تكون خَفِيّةً، وبالتالي بعيدًا عن المطالِ. سمح لها اسمها الحَرَكي بتجاوز القوانين الفكتورية بين الجنسين، والتمَسَت لنفسها حيّزًا أوسع للوجود.

وفي إحدى الليالي، في حفلة، قرأ ليوس بصوت رفيع قصّةً فاتنة كتبتها إليوت وطلبَ من ضيوفه أن يُخمّنوا أيّ نَوعٍ منّ الكُتّاب هو صاحب القصة. انتهى الجميعُ إلى القول بأن القصّة كتبها رجُل، خرّيجُ كامبريدج، ذو تعليم ممتازٍ، ومتديّن وذو بنين. (ردود فعلٍ كثيرةٍ جاءت على هذا النحوَ عندما أرسلَت قصصَ إليوت إلى كُتّابٍ آخرين. وحده شارلز ديكنز من قال إنّ الكاتبَ لا ريب امرأة. هو وحده من أتى بالحقيقة).

في تُحفتها المشهورة «مُنتصف مارس»، والتي وصفتها فرجينيا وولف بأنها: «واحده من أندر الروايات الإنجليزية التي كُتبت ليقرأها الناضجون»، ابتكرت إليوت شخصيةً مُبهرة تُدعى دورثيا. إنها ذكية، شغوف، كريمة وطَمُوح- من المحتمل جدًا أن تكون توصيفًا للكاتبة نفسها. إنه لمصدرٌ أسىً لدارسات الأدب النسوي ألاّ تحقّق دورثيا ولا

شخصيات إليوت الأخرى في رواياتها ذلك النوع من النجاح والحرية الذي حققته إليوت نفسها في حياتها. ولكن هل على الكاتبة أن تبتكر موديلات نسوية كشخصيات لتُلهم قُرّاءها النساء؟ كمثل كل الحَكّائين الجيّدين، وجدت إليوت المتعة في دمج صفتَي الجُرأة والشفقة. كتبت مرّةً:

«إذا لم يقم الفن باستظهار مشاعر العطف لدى البشر، فهو لا يقوم بشيءٍ أخلاقي».

وخلافاً للمعتقد السائد، لم تكُن تزدري كل أمرٍ أصابته لعنة أن يكون أنثويّاً. فعلى الرغم من تحلّيها بصفات ذكورية، واسم ذكوري تكتب تحت قناعه، وميلانٍ أكيد نحوَ الكاتباتِ، ووقاحة لاتُناسبُ في ذلك الوقت سوى الرجال، فإنّها استمتعت بأنوثتها حتّى أقصاها. كانت من هذا المزيج غير العادي الذي يفتن من يقابلونها شخصيّاً.

بعد وفاة لويس، تزوجت رجُلًا يصغرها بعشرين عامًا، وقد كان يشترك معها في بعض الأسس الفكرية. مثل زيلدا فتزجيرالد، وقعت في الحُب مع العقل أولًا؛ ومثل آيان راند قد تكونُ جامحة في خياناتها. ماتت بعد فترةٍ بسيطة عام 1880م، في عمرٍ يناهز الواحد والستين. دُفِنَت في مقبرة هايغيت في مساحة مُخصصة للمُنشقين عن الدين- حتى في مماتها، لم يكُن لها أن تتناسب مع شيء.

لويسا ماي آلكوت وجورج إليوت، كاتبتان معاصرتان يجمعهما شغف رواية القصص. اعتُبرت إحداهن صوتَ الكتابة النسوية، واعتُبرت الأخرى كاتبةً لا تحمل أيًا من خصائص النسويات- لقد سَلَكَا طُرُقًا غير تقليدية. وهما تذكرانني، عبرَ القرون والثقافات، بأنّ هناك مسالكَ أخرى للمرأة غير الزواج التقليدي والأمومة. قد يكونُ

الزواجُ تدبيرًا قانونيًا أو مأسَسَةً اجتماعيّةً ثابتة، أكثر من كونه كتابًا ينتظرُ أن يُؤوّل. كل قارئ يأتي بنظرته الخاصة للنص، وينتهي بأن يقرأ القصة بشكلٍ مختلفٍ عن الآخرين.

خَطٌّ أزرق، خَطٌّ وردي

بعد سنتين على قولي «أقبل بك زوجًا» في برلين، أرتجفُ مثلَ سعفة في دورة مياه المنزل في اسطنبول. بلاطُ الجدران من حولي مدهونٌ بلونٍ زمرديٍّ تتشعّب فيه خطوطٌ خضراء داكنة على شكل أشجار اللبلاب، وهو ما يناسب مزاجك تمامًا عندما تشعُرُ بأنك سعفة.

قضيتُ العام والنصف الماضيين مُحاضرةً عن دراسات الشرق الأدنى في جامعة أريزونا كبروفسور بدوام كامل. تطلّب تنقُّلي بين آن هاربر اللطيفة الجو وتوسون المُشمسة تغييرًا جذريًا لخزانة ملابسي، التي تحوي، حمدًا لله، على حقيبتَي سفر. خلال العام والنصف، تنقّلتُ كالمجنونة بين توسون واسطنبول. والآن ها أنا هنا، أجلسُ مُسندةً ظهريِ إلى حوض الاستحمام، آخذُ أنفاسًا عميقةً لأُبطئ اندفاع قلبي.

في كفّي شيءٌ صغير. ويبدو مُريبًا أن يوصم بالأهمية شيءٌ بهذه الضآلة وبهذه الأجزاء البلاستيكية، ولكن هذا هو على أيّة حال. كُتِبَ خلفَ علبته التالي: «إذا ظهر على الشاشة خطّان، فهذه علامة الحمل. وإذا ظهر خطٌّ أزرقُ واحد، فهو علامة عدم الحمل».

لكنني في هذه اللحظة أتجنب النظر إلى الشاشة، موجهةً اهتمامي لكُلّ التفاصيل التافهة الأُخرى، من قَبيل تاريخ صلاحية الاستعمال وبلد الصنع. صُنعَ في الصين. لهذا كلّفني ثُلث قيمة اختبارات الحمل المنزلية الأخرى في الصيدلية. أتساءلُ عن مدى نجاعة هذا المنتج.

ألا تقول الجرائد إنّ اللعب الصينية قد تسبّب الحساسية؟ ماذا عن اختبارات الحمل الصينية؟ هل يُمكن أن تُعطي نتائج خاطئة؟.

باهتمام بالغ بشأن موثوقية المنتج الذي في يدي أكثر من وضعي الجسدي ونتيجة الاختبار، زاغت نظرتي ووقعت على الشاشة البيضاء الصغيرة. تنفستُ الصعداء، آه يا الله، هذا جيّد. هناك خطٌ واحدٌ فقط. أزرق. لم أكن مستعدة للخط الثاني. أستطيعُ الخروج الآن. ولكن هناك شيءٌ عالقٌ في مؤخرِ عقلي، شيءٌ يقول لي ألّا أتعجّل، ليس بهذه السرعة. وشيئًا فشيئًا، والخوف يتعاظم داخلي، وكأنّه يريد أن يأخذ وقته بمُتعة، بَرَزَ الخط الوردي.

لمَ لا يظهر الخط الوردي أولًا ومن ثم الأزرق؟ أو لمَ لا يظهران معًا؟ سيُقلل ذلك من هَول التوقع والخشية. هل صمّمه الصينيون هكذا ليجعلوا الأمر أكثر إثارةً للنساء؟.

قضيتُ بعض الوقت لأستوعب بأن علي التوقف عن مُساءلة المصانع الصينية والاعتراف بحالتي الراهنة هذه. ببُطءٍ ولكن بثقة، أدركَ عقلي ما قد قَبِلَهُ قلبي بالفعل: أنا حامل.

و ماذا الآن؟ أحتاجُ إلى الحديث مع أحدهم، ولكن من؟ أوّل فكرة قفزت إلى بالي هي أن أستشير فتيات الأصابع. ولكنني أبعدتُ هذه الفكرة بسرعة. لا أستطيعُ أن أخبرهنّ بشيءٍ الآن. وبالأخص حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح، والتي، يا لخوفي منها، ستمزق الجدران. ولا الآنسة المثقفة الساخرة، لا أستطيعُ قطعًا أن أخبرها أيضًا. وتبدو فكرةُ التحدث مع السيّدة الدرويشة عرجاء. لن تدفع بنصيحة لي حَولَ كيفيّة الخروج من هذه الورطة؛ على العكس، ستدفعني لاكتشاف المخرَج وحدي. بيد أنني مرعوبةٌ رُعبًا يشُلّني عن القيام بأي شيء.

مَن أستطيعُ الحديث إليه إذا لم أستطع الحديث إليهن؟.

وهنا خطرت في بالي ماما الرُّز بالحليب، إنها الوحيدة بين نسوة الأصابع من تعرفُ كُلّ شيء عن الأطفال والحمل. ولكن أين هي الآن؟ كيف حالها؟ لم أتكلم معها منذ تلك الليلة تحت شجرة العقل. أحتاج إلى رؤيتها عاجلًا. ولكن هل ستقبل بالحديث معي؟ أنا واثقة من أنها لا تزال مستاءةً ولن تردَّ عليّ أبدًا إذا بعثتُ لها بدعوةٍ للقدوم إليّ. عليّ إذن أن أذهب وأجدها بنفسي.

مرة أخرى، آخُذُ شمعةً مُرتعشةً وأنزلُ دَرَجَ المتاهة الملتوي الذاهب داخل روحي. أجد المكان هنا مُربكًا بعض الشيء، حيث لا علامات على الطرقات، ولا إشارات مرور. لا أعرف أين تعيش ماما الرُّز بالحليب، ولم أستطع تخيّل شكلَ بيتها الذي تقطنه.

وبعد ساعةٍ من التجوالِ هنا وهناك، وجدتُ منزلها. إنه مبنيٌّ من عُلبة حليبٍ، منزلٌ مُكتملٌ بستائر دانتيل وأحواضٍ لأزهار التوليب والقرنفل والزنابق. ضغطتُ جرس الباب، فغرّدَ الجرسُ بنغمةٍ بهيجةٍ من أغاني الطيور.

سألتني عندما فتحت الباب ورأتني:

- ما الذي تريدينه؟

إنها ترتدي رداءً مليئًا بأشكال الورود، رافعةً شعرها المثبت إلى رأسها بمشابك مُلوّنة. يبدو أنها اكتسبَت مزيدًا من الوزن. وتنتعل حذاءَ بيتٍ فوشي مبقّع بدوائر. تلبسُ أيضًا مئزرَ طبخ أبيض أحمر، تتوزّعُ عليه دوائر متباعدة بنفس القَدر. خيطَت على أعلى المئزر عبارة «سوبر طباخة». هُناك رائحةٌ سماويّةٌ تتنسم من داخل بيتها، شيء حلوٌ ومن الفاكهة.

قلتُ بخنوع:

- أريدُ أن أعتذر عن تحطيمي لقلبك. لا أعرفُ كيف أُصلحُ الأمر وأجبر الكسر بيننا، وأشعُرُ أنني الآن قد تأخّرتُ كثيرًا. لكن هناك ما هو مهمّ وعاجل وأحتاج إلى الحديث معك بخصوصه. هل لي أن أدخل؟.

قالت على نحوٍ قارِص:

- آسفة، أنا مستعجلةٌ الآن ومشغولة ولا أملكُ أيّ وقتٍ لك.

نظَرَتْ إلى الوراء خلفَ كتفها، نحو طاولة المطبخ، وكأنها ستهُمُّ بصفع الباب في وجهي. ثمّ قالت:

- لديّ بعضُ الطعام في الفرن، إني أصنعُ كبابًا باللحمٍ مع نبات الخرشوف. إنها وصفةٌ خاصة تتطلب تركيزًا عاليًا. وأعدّ أيضًا عصير الفراولة بالبرتقال. لو أن العصير غَلَى لفترةٍ طويلةٍ سيتكتّل السُكّر. عليّ أن أعود إلى عملي الآن.

- انتظري، أرجوك..

نشبت الكلمات في حلقي، ولكنني تمكنت من قول جُملة مفهومة:

- اُنظري، أنا خائفة ولا أعرف ما أفعل، أحتاجُ شخصًا أتحدث إليه، ونسوة الأصابع الأخريات لن يفهمنَ ما سأقوله.. وحدكِ من يستطيع مساعدتي.

سألتني رافعةً إحدى حاجبيها:

- ولِمَ ذلك؟

- لأنني حُبلى.

أُشرِعَ البابُ على اتساعه، وانطلقَت صيحةُ فرح ثقبت الهواء، وجَرَت ماما الرُّز بالحليب للخارج إليّ، وجهها يُزهِرُ بالحياة، وذراعاها مفتوحتان. راحت تتقافزُ بهجةً في مكانها. لم أرَ أحدًا في

حياتي يستقبلُ الأنباء السعيدة بهذا الجذل، وللحظةٍ خفتُ من أنها قد فقدت عقلها.

قالت بصوتٍ عالٍ مُحدّقةً فيّ بعينين واسعتين مثل طفلٍ في خيمة سِرك:

- تهانينا!

- اسمعيني أرجوك، إنّ عقلي مشوّش وأنا حائرة لا أعرف ما أفعل أو كيف أشعر. أظن أنني لم أكن مستعدةً لهذا، أنتِ تدرين..

صاحَت مرّةً أخرى:

- رائع! عظيم! آه، ليُباركك الرحمن! تفضلي ادخلي، دعيني أقدّم لك بعض الطعام، أنت تحتاجين إلى الأكل أكثر الآن..

و خلال ساعة كاملة لم أقُم بشيءٍ سوى ابتلاع الطعام. وعلى الرغم من أنها لم تستطعْ إقناعي بتناول اللحوم، فقد جعلتني ألتهمُ قطعة كبيرةً من التشيزكيك بالتوت، ومن ثم دفعت إلى فمي حلويات منزليّة وملعقة كاملة من المربى. وعندما اقتنعَت تمامًا أنني امتلأتُ ولا يمكنني أنْ ألتهمَ لُقمةً واحدةً بعدُ، استندت إلى الوراء وصارت جديّةً فجأة. قالت:

- حسنًا، حسنًا. هكذا إذن تسيرُ الأمور. تُريدينَ الآن مساعدتي؟

لم يُعجبني التغيُّر البادي في صوتها، لكنني أومأتُ برأسي بالإيجاب.

- حسنًا، سأساعدك، ولكن عندي شرطٌ واحد.

- وما هو؟

- سيكون هناك تغييرٌ في نظام الحُكم، لم نعُد بعد الآن نعيشُ تحت حُكمٍ عسكري، هل هذا مفهوم؟ لقد انتهينا من فترة الانقلاب.

قلتُ مثلَ نعجةٍ مطيعة:

- بالتأكيد، بالطبع.. لطالما أردتُ من جوقة أصوات الفوضى أن تنتظمَ في نظام ديمقراطيٍّ كامل. ما يحدث الآن سيكون بدايةً لعصرٍ جديد.

قالت:

- بخصوص ذلك، أردتُ أن..

فجأةً انتابتها نوبةُ سُعال..

- هل عَلِقَ شيءٌ في حلقك؟

استجمعَت ماما الرُّز بالحليب نفسها وقالت:

- أريدُ أن أوضحَ أمرًا هنا ما أمكنني ذلك. لستُ أدعو إلى الديمقراطية. في الواقع، أريدُ العودة إلى الملكية مرّةً أخرى، غَدًا أنني سأكون الملكة الآن.

لابُد وأنها تمزح. كنتُ على وشك التهكُّم منها لولا أنّ شيئًا في عينيها أوقفني عن ذلك فورًا.

- هل كانت هناك ديمقراطية عندما اضطُهدت؟ لماذا عليّ أن أتغاضى وأغفر الآن عندما أكون أنا في السلطة؟. العينُ بالعين والسن بالسن. إنه وقتُ ردُّ الصاع صاعين!.

وجدت أنها صارت بغتةً مُزعجة، ومُرعبة أيضًا!. قالت:

- اذهبي واجعلي مني تاجًا ذهبيًا على رأسك. فتاتَا الأصابع خاصّتك لا تقبضان بعد الآن على الحُكم. سأجعلهما تتعفنان في سجن آلكترازا!.

- هل هناك آلكتراز داخلي.؟

- لا، ولكنني سأبني واحدًا. وأخيرًا انقلبت الطاولات! أنا النظامُ!.

في طريق عودتي، توقفتُ عند منزل الآنسة المثقفة الساخرة وأعلنتُ الخبرَ لها. أنصَتت إليّ دون أن تنبسَ ببنت شفة، وجهها شاحبٌ مثل شرشفٍ أبيض. وذهبنا معًا إلى شقة حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُّوح، وحذّرناها من الانقلاب الجديد القادم.

قالت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُّوح وقد اختفى الجبروت من صوتها:

- لا يمكنك أن تُقصينا هكذا..

كررت الآنسة المثقفة الساخرة كلامها مثل ببغاءٍ مذعور:

- لا يمكنك أن تفعلي هذا بنا..

أوضحتُ:

- لا شيء يمكنني فعله. هذا الحمل قد غيّر كل شيء. منذ هذه اللحظة، انقلابكم انتهى.

في البدء، كان هناك حُكمٌ أقليّةٍ داخلي، ومن ثم انقلاب. أما الآن، فقد احتلّت المَلَكيّة أراضي الأنا.

الفصل الخامس

الخضوع الجميل

دفترُ الحَمل

الأسبوع 5

اليومَ جلسَت ماما الرُّز بالحليب على العرش. تتمشّى والتاجُ على رأسها، وتحملُ في يدها صولجانًا ليس أطولَ من عود ثقاب. ولكي تبدو رفيعةً بعض الشيء، قامَت بانتعال الكعوب العالية. وعندما تُريدُ الذهاب من مكانٍ إلى آخر، أحملها داخل هودج. لقد اختفت تلك المرأة الخجول ومتورّدة الخدين التي قابلتها في الطائرة. وانتصبت مكانها امرأة طاغية.

أوّل قرارٍ للملكة صاحبة الجلالة هو وضع دستورٍ جديد. أوّل بند فيه هو: «الأمومة مُعظمةٌ ومُقدّسة، وتجب معاملتها على هذا الأساس»، دون سؤال، دون مساس، ودون تغيير.

. منذ الآن، أيّ انتقادٍ صغيرٍ لمؤسسة الزواج أو الأمومة، سيُعاقب صاحبه بحُكم القانون. تمّ الاستيلاء على كتب سيمون دي بوفوار وإطعامها لنارٍ كبيرة. كُتُب سيلفيا بلاث، ودوروثي باركر، وأنايبس نن، وزيلدا فيتزجيرالد وسيفجي سويسال ممنوعةٌ تمامًا. لا يُسمحُ لي بقراءة أي شيءٍ لهُنّ أثناء حملي.

قالت ماما الرُّز بالحليب:

- اقرئي «نساء صغيرات»، ستُذكّرك بأهميّة الروابط الأُسَريّة وتُهيّئك للأمومة.

اعترضت:

- ولكنني قرأتها منذ زمنٍ بعيد.

- إذن عودي واقرئيها من جديد.

أعرفُ الآن أن لا فرقَ بين القراءة وحياكة الصوف بالنسبة إلى ماما الرُّز بالحليب. فكما تستطيعُ أن تحيكَ نفس النموذج بالصوف مرارًا وتكرارًا لسنوات طويلة، تستطيعُ أيضًا أن تضع بعض الكتب على الرّف وأن «تعود وتقرأها من جديد» مرارًا وتكرارًا.

الأسبوع 6

تعلمت هذا الأسبوع أن «دُوار الصباح» لا يحدث بالضرورة في الصباح! بل في أيّ وقتٍ من اليوم.

- أشعر بالتعب يا ماما الرُّز بالحليب، أشعُرُ بالنعاس طوال الوقت- كأنني كنتُ أحملُ خيشةً من الحصى. كيف سأتحملُ ذلك؟.

دقّت الأرضَ بصولجانها مُصدرةً جلجلةً هزّت الأرض من تحت قدمي.

- ستتحملين ذلك كما تحمّلته أمّهاتنا وجدّاتنا وأمّهات جداتنا من قبل. ماذا عن الريفيّات اللواتي تلدُ الواحدةُ منهنّ في الحقول بعد أن أمضَت يومًا كاملًا من العمل الشاق هناك؟ إنها تقطعُ الحبل السري بأيّة أداةٍ متوفّرة، ودون أن تتشكّى، تعودُ مرّةً أخرى لجَرف الحقل.

هل أبدو لها المرأة البطلة هنا؟ أنا لا أستطيعُ حتى تَمييزَ الشُّمير عن الحنطة. ولكنني لم أجرؤ على تذكيرها بذلك.

قالت ماما الملكة:

- فلتشكري الله أنك لم تُخلقي في هذه الدنيا فيلةً! فلو كُنت من إناث الفيل لكُنتِ بقيتِ حاملًا 22 شهرًا حتى تلدي! اُشكُري نجوم الحظ!.

حزينةٌ لأنني لستُ امرأةً ريفية، وسعيدةٌ بالطبع لأنني لستُ فيلة!.

هذا ما شغل بالي هذا الأسبوع.

الأسبوع 8

لستُ مأخوذةً بتناول الطعام ولا التفكير فيه، مُجرّد وجبات خفيفة. ولأن الوجبات الخفيفة غالبًا ما تحتوي على نِسَب عالية من السعرات الحرارية، أظن أنّ الحال سينتهي بي مثل المرأة الممتلئة في الباخرة.

ولكي أتناول وجباتٍ خفيفة صحيّة، كان عليّ أن أتبضّعها بنفسي: بسكويتات منخفضة الدهون، كعكٌ منخفض الدهون، حليبٌ منخفض الدهون، زبادي منخفض الدهون، ورُقاقات قمح خالية من الملح. عندما وصلتُ المنزل، قفزت ماما الرُّز بالحليب علّى الأكياس متفحّصة ما تحمله.

- ما هذا؟

- لا شيء، بعض الطعام للقروشة..

رمَت أكياسي من النافذة..

- يا للعار! اخجلي من نفسك! لا ملح، ولا سكر، ولا دهون. ما هذا؟! هل نحنُ هُنا في عيادة لتخفيض الوزن؟ هل هي بلو بيلي بوفاري من تلعبُ في رأسك الآن؟ لا تجرُئي على السماع لتلك الوقحة!.

مُرتبكةً ومتألمة. حاولتُ أن أجدَ أفضل عذرٍ أقوله لها.

ختمَت الأمر هكذا:

- أولويتك الوحيدة هي أن تأكلي ما يُفيد الطفل. ما الذي سيجري لو تغيّر مقاس خصرك من 8 إلى 20؟ من يهتم؟

احمرّت وجنتاي من الخجل. هل هي على حق؟ هل جعلتُ من مظهري أولويّةً فوق صحّة طفلي؟ إنها الملكة صاحبة الجلالة التي تعلمني الحقيقة الإنسانية العميقة- للأمومة اسمٌ مُستعارٌ أيضًا: الشعور بالذنب.

ولأجل أن أمحو هذا الشعور بالذنب، ذهبتُ وأكلتُ عُلبةً كاملةً من بسكويتات البندق، في حين أنني لا أُحب البندق أصلًا.

الأسبوع 12

تظهرُ على شاشة التلفزيون المُذيعة البريطانية الإيرانية كريستيان آمانبور، وهي تُجري مقابلات مع يتامى مرض الإيدز في إفريقيا. انحَشَرَ فريق عمل سي آن آن للسُكنى في بيتٍ طيني، واضعين كاميراتهم على رُزَم من القَش. مشهدُ الأرض قاسٍ، بلا رحمة. بمنديلٍ في يدي، أتابعُ التقرير وأبكي.

هذه الأيام، يُبكيني كلّ شيء وأيّ شيء. هناك زوجٌ من الأحذية، بلونٍ أزرق باهت، يتدلى من عمود الكهرباء في المنعطف. وكلّما مررتُ بذاك العمود أشعُرُ بالأسى وتخنقني العبرة. أتصوّرُ من تعودُ إليه هذه الأحذية؟ وكيف انتهى بها الحالُ هناك؟ في المطر والصحو، إنها هناك، دائمًا هناك- في عُزلة- تتملّكها الهشاشة والوحدة.

لا تُبكيني وِحدةَ الأحذية فقط، بل حتّى استقواء الأولاد على أولاد آخرين في الملاعب العامة، وتتاتفُ القطط الضالّة على قطعة لحمٍ في

سلّة القمامة، ونحولُ البائع الكُردي الجوّال في الشوارع، البائع الذي يبيعُ عيدانَ كباب بالكستناء، والسجادة التي تضربها الجارةُ خارج نافذتها لينثال منها غُبارٌ يترشرشُ على العابرين، وذوبان الثلوج في القطب الجنوبي، وتلويث الفضاء، وما يحدُثُ في فلسطين، وقطعةُ رغيف مرميّة على الأرض. كلّ شيء وأيّ شيء يصيبني بالإحباط. ينهارُ العالمُ على كفّي مثل ذرّة رملٍ في الريح، وأيامي مصبوغةٌ بالسواد.

في أخبار المساء ظهرَت كلبة- كلبةُ تَرير بآذان بُنيّة وجسد أبيض. على عنقها أنشوطةٌ ثخينةٌ وبارزة. صاحبتها مُعلّمةُ كيمياء متقاعدة. عندما راحت المرأةُ الكيميائية تلعب بمفاتيح البيانو، جلست الكلبةُ عند أقدامها وبدأت بإطلاقِ صياحٍ متواصل.

شاهدتُ التقريرَ وترقرقت عيناايَ بالدمع.

سألني أيوب، بدأ صبره الذي اشتُهر به ينضب:

- لمَ تبكين الآن؟

قلتُ وأنا أنتحب:

- يا للكلبة المسكينة.

- ما المسكينُ فيها؟ يغلبُ الظن أنها تأكل بشكلٍ أفضل من آلاف الأطفال الذين يأوون إلى فراشهم جَوعى كل ليلة.

كررتُ وراءه بدمعٍ راحَ ينهمرُ بسُرعة:

- آلافٌ من الأطفال يأوون إلى فراشهم جَوعى كل ليلة؟.

قال أيوب بنعومة:

- آه، يا إلهي، كان عليّ ألا أفتح فمي بكلمة أبدًا.

إنه لا يستطيعُ فهمي الآن. كيف يُمكنني أن أجمله يرى كيف أنني

حزينةً لأجل الكلبة؟ أشعُرُ بالأسى لكُل الكلاب التَريرية بأناشيط كبيرةٍ حول أعناقها. رغبتنا في التحلّي بالشهرة، عجزنا عن التغلب على الفناء والموت، طردُنا من جنة عدن- رئتاي مُثقلتان بكوني إنسانة- لا أستطيعُ التنفس.

الأسبوع 16

مدّت إليّ ماما الرُّز بالحليب صندوقَ إسطوانات، وأمرَتني:

- خذي هذه الإسطوانات واستمعي إليها ثلاثَ مرّاتٍ على الأقل.

حدجتُ الصندوق ثم همهمتُ:

- ولكنني لا أُحبُّ موسيقى الأوبرا.

قالت وهي تُديرُ مُسجّلة الإسطوانات وتُعلي من صوت السماعّات:

- إنها ليست لك، إنها للطفل.

وفي لحظة، بدأت أوبرا «صيّادي اللؤلؤ» لجورج بيزيه تنسكبُ في الغرفة وتنضحُ في الجوار كُلّه.

الجارةُ التي تضربُ سجادتها المُغبرة، أخرجَت رأسها من النافذة والتفتت يمينًا وشمالًا، تُريد أن تعرف مصدر ذلك الصوت الذكوري العميق. وفجأةً بدت على وجهها أماراتُ الانصعاق حين أدركَت أن الصّوتَ الصادحَ ينبعثُ من شقتنا. زامّةً عينيها السوداوتين، عبرَت المسافة وأطلّت من النافذة على روحي المُرتعشة.

رجوتُ صاحبة الجلالة:

- هل لك أن تُخفضي من الصوت قليلًا؟

- وَلمَ ذلك؟ إنّه الدرس الثقافيّ الأول للطفل- إنه يتعلّمُ الفرنسية. هلَ تعرفين أن الجنين يستطيعُ سماع الأصوات وهو في الرحم؟

ألقمَت المُسجلةَ إسطوانةً أُخرى. فصرنا نُصغي إلى صوت أمطارٍ تنهمرُ على سقفٍ من الصفيح، متبوعًا بأصداء أصوات ماعِزٍ وأجراسٍ من بعيد.

سألتُها مذعورةً:

- ما هذا؟

قالت ماما الرُّز بالحليب:

- إنها أصواتُ أُمِّنا الطبيعة. تمّ تسجيلها خصيصًا للنساء الحوامل. إنّ لها تأثيرًا مُريحًا. إنّها عِلاجٌ طبيعيٌّ مُساعدٌ على النوم.

أجبتها مُحاولةً أن أكون منطقيةً وهادئة:

- لستُ أعاني مشاكلَ في النوم، في الحقيقة أنا أنامُ كثيرًا.

لا أعرفُ شيئًا عن الطفل. ولكن هذه الأصوات بدأت تضايقني وتُخرجني عن طوري. قلتُ:

- طيورٌ مُغرِّدةٌ في غابةٍ أسترالية تبدو لي أيضًا مُساعدًا طبيعيًا على النوم.

سألتني ماما الرُّز بالحليب:

- وما الذي تحبين الاستماع إليه إذن؟

- البانك روك، وما بعد البانك روك، وموسيقى الميتال. هذا النوع من الموسيقى هو ما أسمعه وأنا أكتب رواياتي. أستطيعُ أن أستمع أيضًا لبيرل جام، وشومباوامبا، وباد ريلجن.

قالت عابسةً:

- يستحيل ذلك. انسي أمرَ كل الإزعاج هذا. أنتِ لا تُبدعينَ روايةً الآن، أنتِ تُبدعينَ طفلًا.

وهكذا لأسبوعٍ كامل، امتلأ كوزقونشك أحدُ أقدم أحياء اسطنبول وأكثرها هدوءًا، بأصداء أصوات خوار البقر وبطبطة البط ونعيق البوم والألحان الفرنسية!.

الأسبوع 18

لم أعُد أبكي بتواتُرٍ كما كنتُ سابقًا، بيد أن كل شيءٍ الآن تنبعثُ منه روائحُ غريبة. ومثل كلب صَيد أُطلِقَ في الأدغال، بمنخرين مُتهيِّجين رُحتُ أتتبعُ خيوط الروائح من حولي: قِطَعٌ من الزنجبيل تطفو في حساء خُضرة، رائحةُ ملح البحر وحتى أنا على بُعد كيلومترات عديدة من الشاطئ، شذا جِرار المخلل في دكاكينَ تبعُد خمس جادّاتٍ عن منزلي. أسيرُ مثل جان باتيست في رواية «العطر» لباتريك زوسكيند.

من بين كل الروائح، هناك واحدةٌ تقلبُ معدتي تمامًا وتجعلني أفقدُ اتجاه سيري وأسيرُ في الاتجاه المعاكس تمامًا: جوز الهند.

مَن كان يتخيّل على الإطلاق أن رائحة جوز الهند تنبعث من جميع أنحاء اسطنبول؟ وكأن المدينة بالنسبة إليّ قد قامت فوقَ جزيرةٍ استوائية. جوز الهند ورائحته العالقة في كل شيء وكل مكان: الأكياس المُعطِّرَة المُعلّقة على مرايا سائقي سيارات الأجرة، صابون الأيادي المستخدم في دورات المياه العامة، النُّدَف البيضاء التي تُزيّنُ كعكَ المخابز، رائحة الشموع الثقيلة التي تُزيّن الدكاكين والمطاعم، والتي تُهديها محلات التسوّق الكبيرة لزبائنها. متى صار الإسطنبوليون مهووسين بجوز الهند؟.

اسطنبول جوزةُ هندٍ كبيرة مقسومة نصفين. النصف الآسيوي هو القسم الأول، والنصفُ الأوروبي هو الثاني. لا مكان هناك لأختبئ.

عرفنا اليومَ جِنسَ الطفل. إنها فتاة!.

أنا سعيدة. أيوب سعيد. وماما الرُّز بالحليب مُتحمّسة جدًا. قالت ومحاجرُ عينيها تتسع:

- تلبيسُ الفتيات أسهل بكثير، وأكثر مُتعة أيضًا!.

ترتدي الطفلاتُ الورديَّ الباهت، الورديَّ الداكن، والفوشي. أما الأطفال فيلبسون الأزرقَ الداكن، والبُني والزبرجدي. تأتي للطفلات الصغيرات بِلُعبة باربي ومجموعة من أكواب الشاي مع أغراض صَفِّها وتقديمها. أمّا الأطفال الصغار، فتأتي لهم بأسلحة الكلاشنكوف وبالشّاحنات. أتساءلُ ما إذا كنتُ سأقدرُ على تربية طفلتي بشكلٍ مختلف عن هذا.

قالت ماما الرُّز بالحليب عندما شارَكتُها أفكاري:

- ما الفائدة من إشغال رأسك بمثل هذه الأمور التافهة؟ حتى لو ألبستِ طفلتك أرديةً بلون الياقوت أو الزمرد، في اللحظة التي تذهبُ فيها إلى المدرسة ستبدأ بالإعجاب بالوردي. ستُريدُ أن تلبس تمامًا كما تفعلُ صويحباتها. وكُلّ عرائسها تحيا مُحاطةً بنفس اللون أيضًا: تعيشُ باربي في بيت وردي، دورا المكتشفة ترتدي بنطالًا قصيرًا ورديًا، وهيلو كيتي هي في الحقيقة هيلو وردي! لمَ تحاولين السباحةَ عكسَ التيار؟.

في تلك اللَيلة تحديدًا حلُمتُ بأنني أعومُ في نهرٍ ورديٍّ مثل حلوى القُطن. لم أرَ ألوانًا في أحلامي قط، على الأقل في الأحلام التي أستطيع تذكرها واستدعاءها. إنه لمن المثير أن أرى أحلامي بالألوان! حتى لو كان اللون هو الوردي.

الأسبوع 21

ذهبتُ سِرًا إلى الآنسة المثقفة الساخرة. ها هي، كعادتها، في مكانٍ صاخبٍ مثل نيويورك، خلفَ باب حديديٍّ مُنمّق، لا تزالُ تُغطّي جُدرانَها مُلصقاتُ صور تشي غيفارا ومارلون براندو. إنها ترتدي ثيابًا أخرى لكنها، كمثل غيرها، مُهلهلة ومن نوع الهيبيز. وحول عنقها قلادةٌ تزيّنها خرزاتٌ زرقاء وعنابية.

قلتُ:

- قلادتك رائعة.

- هل أعجبتك؟ لقد صنعها الريفيون الذين يَحيون على أطراف تلال ماتشو بيتشو في البيرو. ابتعتها لأدعمَ المحليين ضد الاكتساح الماحق للرأسمالية حول العالم.

لم أستطع أن أخفي ابتسامتي. اشتقتُ إلى الآنسة المثقفة الساخرة- المرأة الوحيدة من بين نسوة الأصابع التي أعرفُ أنها تستطيعُ الانتقال في أحاديثها من بساطة القلادة حول عنقها إلى تحليل عولمة الشركات خلالَ نَفَسٍ واحد.

سألتني:

- كيفَ هو صَنيعُ الحمل معك؟

- جيّد، لقد رأيتُ الطفلة عبرَ شاشة ألتراساوند، إنه شعورٌ رائع.

- إمممم..

- ولكنني أشعُرُ بنوع من الخواء الداخلي. إني أنامُ طوال الوقت، أو أبكي، أو آكلُ أوْ أشتمُ جوز الهند.

ثُمّ ارتعشَ صوتي بعض الشيء:

- الحقيقة هي أنني اشتقتُ إلى أحاديثنا العميقة.

أنزلَت الآنسة المثقفة الساخرة رأسها ناظرةً إلى قدميها وكأنهما الملومان على هذا الوضع. قلتُ:

- كُنا نتحدثُ حول الروايات والأفلام والمعارض والفلسفة السياسية. كُنتِ تطرحين مواضيعَ مختلفة، وتُلقين بالكلام البذيء على الجميع، مُنتقدةً السيطرة الثقافية.. لقد أُبعِدتُ عن الكُتُب، ما عدا «نساء صغيرات»..

أشعلَت الآنسة المثقفة الساخرة سيجارةً، ولكن بالنظر إلى وجهي، وضعتها جانبًا. تذكَّرَت أنني تركتُ التدخين.

- هل تشتاقين إليَّ حقًا؟ وكيف؟!

- وكيفَ لي ألاّ أشتاق؟

- أشتاقُ إليكِ أنا أيضًا. كُنا نقرأ معًا لساعات ونُطلقُ النميمة فيما بيننا حول الكُتاب الآخرين. كانت أيامًا رائعة. لم نعُد نقوم بذلك منذُ وقت طويل..

إنها تزنُ شيئًا في رأسها ثم غمزَت إليَّ بغتةً:

- تعالي، لنقرأ سيغجي سويسال.

قلتُ لها مُترددةً:

- لا أستطيع، إنها في لائحة المؤلفين الممنوع عليَّ قراءتهم.

انفجر وجه الآنسة المثقفة الساخرة بحُمرة الغضب وصاحت:

- لابُدّ وأنك تمازحينني. لم تعُد تلك المرأة-الماما تعرفُ حدودها. لا أحد يستطيعُ منعَ كتاب.

وافقتُها.

فتحت الآنسة المثقفة الساخرة الكتاب بشكلٍ عشوائي، وبدأت تقرأ، وأنا أستمعُ إلى صوتها مُهللةً:

«آمَنَت طنطا روزا بأنّه سيجيءُ يومٌ تكون فيه التفاحةُ تفاحة، والأبُ أب، والحرب حرب، والحقيقة حقيقة، والكذبة كذبة والحُب حُب والشبعَ شبع، والتمرُّد تمرُّد والصّمت صمت، والظلم ظلم، والأمر أمر، والزواج زواج...»

الأسبوع 22

لا أعلمُ كيف عَرَفَت الملكة صاحبة الجلالة بأنني زُرتُ الآنسة المثقفة الساخرة، ولكنها عرفت بالأمر. وبخلاف توقعاتي، لم تُعر الأمرَ بالًا.

قالت مُطلقةً تنهيدةً طويلة، وكأنها قد تعبت من التفكير:

- اشتقت إلى قراءة الكتب إذن..

ثُمّ أخرجَت من تحت معطفها صندوقًا وقدمته لي. قلتُ:

- ما هذا؟

- ابتعتُ لك هديّةً. أظُن أنها ستعجبك.

عندما فتحتُ الصندوق، سقط منه كتاب: «طفلي وأنا». يبدو أن الكتاب قد قُرئ أولًا من قِبَل ماما الرُّز بالحليب، فقد وُضِعَت خطوطٌ تحت بعض الأسطر، وبعض الفصول عُلّمَ عليها بالنجوم: «تحضيرُ غرفة الطفل»، «وصفات رائعة لأطعمة مهروسة». شكرتها ووضعت الكتاب جانبًا، سأقرؤه في وقت ما.

لم يفُت ماما الرُّز بالحليب أنني لم أتحمس أبدًا للكتاب. وهكذا، قامَت بالاعتراف:

- حسنًا، أظن أنني بالغتُ في منعي للكتب عنك، وأحرقتُ كُلّ الورق والأقلام في المنزل.

بقيتُ صامتة.

- أنت امرأةٌ اعتادَت على التعبير عن نفسها من خلال الكتابة.
لذا، لديّ اقتراحٌ لك. لمَ لا تكتبين رسائل إلى طفلتك؟
فأومأتُ بالموافقة وأنا أبتسم. كانت هذه أفضل نصيحةٍ حصلتُ عليها من صاحبة الجلالة.

الأسبوع 25

طفلتي العزيزة (بما أنني لا أعرفُ لكِ اسمًا بعد، أرجو ألاّ تُمانعي بأن أخاطبك هكذا)،

هذه أول رسالة أكتبها إليك. قرأتُ مرّةً أنّ بعض القبائل القديمة تؤمن بأن الأطفالَ هُم مَن يختارون آباءهم. ضحكتُ من الفكرة، ولكنها تبدو معقولةً الآن. أتخيلك تجلسين في السماء بين الملائكة، تُقلّبين ألبومًا جلديًّا ضخمًا، يحوي صورًا لأمهاتك المحتملات. تحت كل صورةٍ مُقدّمةٌ صغيرة. تُقَلّبُ الملائكة الصور بصبرٍ بصبرٍ طويل. تنظرين إلى كل الأمهات المحتملات بعَينَي المُشتري المُتفحّص.

تقولين: «ليست هذه.. ولا هذه أيضًا..»

طبيبات، مهندسات، ربّات منازل وتاجرات مررنَ تحت عينيك. وعلى الرغم من أن هناك مُنافسَات بملفّات عاليةِ المستوى، أمهات يقُمن بأعمالهن بحرفيّةٍ عاليةٍ وحققن الكثير في حياتهن، فإنّك تجاهلتِ الجميع.

وعندما قلبَت الملائكة صفحةً أخرى، وقعت عينك على صورتي. مرّةً أخرى، ليست صورةً جيّدةً لي، شعري غير مصفوف بعناية، وماكياجي عشوائي بعض الشيء. وأرتدي ملابسي مثل مدام بصلة، طبقاتٍ طبقات. وتحت صورتي المُقدّمة التالية: مرجوجة الرأس، فوضويةَ الشخصية، ميّالة إلى لحظات التحليق في الخيال، لم تجد

ذاتها بعد، ودائمة البحث عن أجوبة. تُحب القَص. روائية. كاتبة عمود أسبوعي. أديبة.

فقُلت، مُشيرةً بإصبعك الصغيرة نحو وجهي : «هذا خِيارٌ مُثير. دعوني أُلقي عليها نظرةً عن قُرب».

لا أعرفُ لمَ انتهى بك الأمر إلى اختياري من بين كل الأمهات المتنافسات الجيِّدات في الكون. رُبما لأنك طفلة مجنونة بعض الشيء، تجدين الملل في فكرة الأم المثالية. أو ربما لأنّك تعرفينني أكثر مما أعرفُ نفسي. رُبما وجدتِ احتمالاً أفضلَ فيّ، رَبما أردت أن تُعينيني على نفسي وجَبْرِ نَقصي. قد تكونين دليلي، وأستاذتي الأفضل.

كما قُلت، لا أعرفُ لمَ اخترتني، ولكن أريدك أن تعرفي أنني تشرّفتُ بك. أتمنى ألا أجعلك تندمين على خيارك هذا قائلةً: «من بين كل الأمهات في الكون، لِمَ اخترتُ هذه تحديدًا!».

أُمك المُحبة التي تنتظر وصولك بفارغ الصبر،

ألِف.

الأسبوع 28

أصرّت ماما الرُّز بالحليب على أن أذهب إلى حصّة لرياضة اليوغا المخصصة للأمهات. تقولُ إنّ عليّ أن أتعلم تقنيات التنفس.

قلت:

– أنا أتنفّس بشكل طبيعي، لا تقلقي.

ولكنها بقيت مُصرّة. تُريدُ للولادة أن تكون طبيعيةً ومُكتملة كما كانت ولادات جدات جداتنا في الماضي. لم أوجّه انتباهها إلى أنّ أسلافنا الريفيّات لم يكُنّ يذهبن لممارسة اليوغا قبل الذهاب للعمل!.

هناك عشر نساء في حصّة اليوغا. تسعٌ منهن ترتفع بطونهن حتى أنوفهن. إمّا أنهن اقتربن من نهاية فترة الحمل أو أنّ تمرينات اليوغا تجعلك تنتفخ مثل منطاد. رُبما في سَعيها لتعليمنا تقنيات التنفُس، تقومُ المُدرّبةُ بنَفخنا بالهواء.

المرأة الوحيدة في الغرفة التي لم تكن حاملًا هي المُدرّبة. برازيلية سَمراء بشعرٍ طويلٍ ومُجعّد، وذات جسدٍ رياضيٍّ وروحٍ مَرحة. ابتسامتها اللؤلؤية تُحييني وهي تُقدّمني إلى مجموعة المُتدربات:

- دعونا نُحَيي ألِف وطفلتها في دائرة الحُب هذه.

قالت ذلك وأغلقت عينيها، مُبحرةً في عالم آخر.

حَييتُ المجموعة بدوري، ولكنهن جميعًا ما زلنَ مُطبقاتِ أجفانهن.

قالت المُدرّبة:

- سنقومُ أولًا بتنقية طاقة الشاكرا. علينا أولًا أن نُحصّنَ طاقاتنا الذاتية. ومن ثم سوف نتدرب على تقنية البرانايامـا التنفّسية. سنشعُرُ بارتفاع السوشومنا إلى رأسنا ومن ثم نتحد بالساهاشارا.

ودون أن يكون لدي أيّة فكرة عمّا يجبُ أن أفعله، رُحتُ أُقلّدُ ما تفعله الأخرياتُ تمامًا. جلستُ مُتقاطعة القدمين على الأرض، أغمضتّ عينيّ وحاولتُ التركيز على هذه اللغة الجديدة.

قالت المُدرّبة:

- حاولو الآن أن تشعروا بالهالة التي تُحيطُ بأجسادنا مثل قفازٍ دافئ. هل تشعرون كم هي رقيقة، أرق من الحرير؟

ويا للغرابة، أستطيعُ أن أشعُرَ بشيءٍ حقًا، حضورٍ جديد، بيد أنه لا

يُحيطُ تمامًا بجسدي ولكنه يقومُ بوكز كتفي.

- لنقُم جميعًا بتحيّة هذه الطاقة الناعمة الجديدة الخاصّة بنا.

همستُ:

- سُعدتُ بلقائك!.

ثُمّ جاءني جوابٌ أذهلني تمامًا:

- وأنا أيضًا!

أعرفُ هذا الصوت. وبتشكك فتحت إحدى عينيّ لأجد حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح تقفُ على كتفي الأيسر مُحدّقة إليّ.

همستُ لها مُحتدّةً:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

- أوه، لا شيء. لم نتحدث معًا لوقتٍ طويل وكنتُ أتساءلُ ما الذي كُنت تفعلينه بحياتك.

- حسنًا، ها أنا.

- لابُد وأنك تملكين وقتًا وفيرًا لكي تضيعيه في السُّخف الذي تقومين به الآن. تركتِكِ كاتبةً وروائية. والآن انظري إلى نفسك.

لم أعرف كيف أجيبها، لذلك سكتُّ وانتظرتُ جملتها التالية.

- هيّا! عليك أن تكتبي القصص الآن. حكايات وأفكار ومشاريع روائية، عالم الخيال كله... كلها تنتظرك أنت. ما الذي تفعلينه هنا مُطلقةً الشاكرا، تتمتمين بكلمات هنديّة لا تستطيعين حتى نطقها بالطريقة الصحيحة. آه، لو كنتِ سمعتني، لما حدث هذا كله.

أثناء ذلك، كانت المُدرّبة تقول بحماس:

- «يوغا» تعني «الاتحاد» باللغة السنسكريتية. هدفنا هو اتحاد

الجسد بالذهن بالروح.

زفرَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَموح:

- ماذا عن اتحاد نسوة الأصابع؟ نحن نعاني تحت أسوأ نظامٍ ملكيٍّ على الإطلاق.

- آه، عزيزتي، اسمحي لي هنا.. نظامك العسكري كان أسوأ من ذلك..

قالت المُدرّبة:

- والآن سندخلُ جميعًا في تناغم مع الذات.. حيثُ سنتأمّلُ حتى آخر عظمةٍ في القلب، ونصبح مُتحداتٍ مع الكون..

قالت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح:

- أنا راحلة. ابقي أنتِ هُنا واتّحدي مع من شئتِ بـ 250 ليرة في الحصة!.

وقفزت إلى حافة النافذة غير مُعيرة أيّ اهتمام لمحاولاتي لأشرح لها ما يحدث، حيّتني تحيّةً عسكريةً، ثم غادرَتْ. أغمضتُ عينيّ وحاولتُ التركيز في التمرينات لكنني لم أستطع. لم أعُد قادرة على العودة إلى أجواء المجموعة. قد تكون حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح على حق. لأدع جانبًا الاتحاد مع الكون، أنا لم أقوَ حتى على الاتحاد مع نسوة الأصابع الخاصّات بي.

الأسبوع 22

خرجتُ للتبضع مع ماما الرُّز بالحليب، وقضينا ساعات طويلة في محلات بيع مستلزمات الحضانة. لم أكُن أعرفُ من قبلُ أن هناك خطًا كاملًا في مجال الأزياء للأطفال! بصرعاتٍ جديدة ومستحدثة على الدوام. إنها ملابسٌ ظريفةٌ ومرتفعة الثمن، خاصة إذا وضعت في

البال أن كل قطعة ملابس ستُرتدى لأسابيعَ معدودةٍ وحسب، دون ذِكرِ تلك التي تتلوّثُ بالقيء واللعاب السائل والبول.

أتساءلُ كم نحتاجُ حقًا من هذه البضائع؟ بَطٌّ بلاستيكي يُصدرُ صفيرًا في حوض الاستحمام، مُدفّئات للبطن مصنوعةً من أنسجة طبيعية، أروابُ استحمام للصيف صديقةً للبيئة، أروابُ استحمامٍ للشتاء صديقةً للبيئة أيضًا، أجراسٌ خاصّةٌ للتعليق على عربات الأطفال، فُرَشٌ غيرُ سامةٍ لتنظيف البطات البلاستيكية في الأحواض، قطعٌ مُصمّمةٌ على شكل دينصورات، توضعُ أسفلَ الأبواب كي لا ترتد بقوّةٍ عند إغلاقها، مُلصقاتٌ مُشعّةٌ في الليل على شكل نجومٍ وكواكب لتتدلّى من سقف غرفة الرضيعة..

كل هذه القطع الصغيرة المتناثرة اللانهائية تجتذبُ ماما الرُّز بالحليب مثل مغناطيس. تجري من محلٍ إلى آخر ببطاقتي الائتمانية في يدها، مُقررةً أن تصرفَ كُلّ قرشٍ أملكه في شراء أشياء ورديّة لطيفة للطفلة. لقد تاهت في هستيريا التبضُّع إلى درجة أنّني أوَدُّ الهربَ منها. ولكن إلى أين؟ هل تستطيعُ امرأةٌ حامل أن تهرب من جانبها الأمومي؟.

الأسبوع 34

هذا الأسبوع تعلّمتُ كم هو مُهمٌّ موضوع ذكاء الطفل للمرأة الحامل. حضرة صاحبة الجلالة مهووسةٌ بالأمر. حبّاتُ أوميغا3-، كبسولات زيت السمك، وأقراصٌ أخرى تبعثُ روائح شنيعة كثيرة.. إنها تحشُرُ ذلك كلّه في فمي ظنًّا منها بأنني لو استهلكت منها عددًا كافيًا، ستولدُ الطفلةُ بمعدّل ذكاءٍ مُرتفع.

قالت:

- الكافيار هو الأفضل. لو أكلت الحامل ملعقتين كاملتين من الكافيار كل يوم، فهناك فرصة لأن يولد طفلها عبقريًا.

- وفقًا لنظريتك هذه، فإن من يسكنون حول بحر قزوين يجبُ أن يكونوا عباقرةً بدرجة مهولة.

هشت بيديها سخريتي كأنها تدفعُ عنها حشرةً في الهواء، وأمرتني:

- قومي بما آمرك به وحسب.

لا أفهمُ هذا الهوَس حول موضوع معدل الذكاء. إذ ليست ماما الرُّز بالحليب وحدها المهووسة بذلك، ففي غرفة انتظار الطبيب، وعلى شاشة التلفاز، وفي مواقع التصفُح والمدونات الشبكيّة، والصحف، وكل مكان، تبحث الحوامل طوال الوقت عن طُرُقٍ لزيادة معدل ذكاء أطفالهن.

شرعتُ بالحديث:

- لنفترض للحظةٍ بأن نظرية الكافيار ومعدل الذكاء هذه صحيحة.

قالت ماما الرُّز بالحليب:

- حسنًا..

- لنقُل إنّ الأمهات التركيات تمكّنّ من خلق هذا الطفل الخارق الذكاء. ماذا بعد؟ وُلِدَ الطفل، وصارَ كبيرًا بما فيه الكفاية للسير والتحدث ولنكتشف بأنه موهوبٌ بحق؛ متذوّق للموسيقى والتشكيل والنحت والفنون أو الرياضيات. يُحب القراءة، أيضًا، وانتهى من قراءة الكلاسيكيات جميعها في سن الخامسة.

سألت ماما الرُّز بالحليب مرتابةً:

- ما الذي تحاولين قوله؟

- نقطتي هي، ما الذي سيحدث لأطفال بيوض الأسماك هؤلاء في مُحيط لا يُقدّر الفروق الفردية والمواهب غير العادية؟ كم من السخرية هناك، أن نرغبَ بطفلٍ ذكي وفي نفس الوقت لا نُريدُ الاعترافَ بأنه مختلف؟

قرعَت ماما الرُّز بالحليب صولجانها بالأرض بحدّة:

- كفى! أعرفُ من أين تأتين بهذا التأفف والتوجّع، كُنتَ تختلفين إلى الآنسة المثقفة الساخرة من وراء ظهري، أليس كذلك؟

احمرّت أذُناي، وتوقفتُ عن قول المزيد.

الأسبوع 36

إنها الحقيقة. لقد عاودتُ زيارتي للآنسة المثقفة الساخرة أكثر من مرة بخُبث. أسدلنا علينا الستائر، أغلقنا الأبواب وتحدثنا عن الكتب- كما كنا نفعل في الأيام الجميلة الماضية. مثل مثقفين عريقين تبادلنا التذكر والاحتجاج على الجميع، رافعات رؤوسنا عاليًا، شاعراتٍ بأننا أكثر المصابيح الكريستالية اشتعالاً في ثُريا المجتمع. أنقلبُ من الضحك عندما ترمي الآنسة المثقفة الساخرة شرشفَ سريرها على كتفها وتقبض على حبّة فاصلويا خضراء كصولجان؛ إنها تُحاكي صاحبة الجلالة تمامًا!.

يومًا ما، قالت بلا مقدمات:

- هل تساءلت يومًا لمَ تستخدم الأمهات ضميرَ الملكية «نا» عندما يُردنَ سؤالَ أطفالهن عن أمرٍ ما؟

- ما الذين تعنينه؟

- هيّا استحضري من ذاكرتك شيئًا، إنهن يتحدثن هكذا: «هل اتسخنا؟» أو «هل عطشنا؟» أو «هل بلّلنا ثيابنا؟».

مددتُ رقبتي إلى الأمام وأصغيت باهتمام:

- إذا تعثّر الطفل، تذهبُ له الأم قائلةً: «آه يا صغيري، هل سقطنا؟ لم يحدث شيء، ذلك لا يوجع»، كيف لها أن تعرف أنّ السقطة لم توجع الطفل؟ فليست هي من تعثرت، بل الطفل!.

- بلى، ما تقولينه صحيح.

- للطفل جسدٌ منفصلٌ عن أمّه، ولهذا فلديه وجودٌ مُختلف. الكثير من الأمهات، ببساطة، لا يستطعن الاعتراف بهذا.

قلتُ موافقةً بشدة:

- هذا صحيح تمامًا.

ثم راح صوتها يلينُ قائلةً:

- لهذا، كوني نفسك. لا تدعي ماما الرُّز بالحليب تجعلك من أمّهات كُرات الثلج الزجاجية.

- ما الذي تعنينه بأمهات كرات الثلج الزجاجية؟

- أنتِ تعرفين، هؤلاء الأمهات أنصاف الهستيريات اللواتي يتحدثن مع أطفالهن بصوت لعبة الضفدع حتى وإن لم يعودوا أطفالًا! مَن تُريدُ أن تُرضع ولدها حتى يذهب إلى الكليّة! لقد فقدن عقولهن بالأمومة. إنهن يعشن في فراغ. عالمهن كله هو كُرة ثلج زجاجية؛ ملوّنةٌ ومبهرة من الداخل، لا شك، لكنها محميّة بشكلٍ مبالغ فيه، ودونَ هواء. إيّاك وأن تكوني واحدة من...

تركَت الجملةَ عالقة دون أن تُكملها.

قلتُ بصوت الواثق:

- من؟ أنا! أبدًا!

- هناك خطٌّ رفيعٌ بين الأمومة والفاشية.

- ثقي بي، كوني مطمئنة.. لن أحشُرَ الطعام أبدًا في فم طفلتي. إذا لم ترغب في الأكل، فلن تأكل. سأهبها مساحةً واسعةً وحُريّةً كبيرة منذ البداية. سترينَ أيّ أمٍّ ديمقراطيةٍ سأكون.

تنفّست الآنسة المثقفة الساخرة الصمداء وقالت:

- جيّد. هذه هي المرأة التي أعرفها.

الأسبوع 38

تعلّمتُ هذا الأسبوع أن جسد الحامل ليس ملكها، بل يخص جميع النساء.

عندما كنتُ أتبضعُ في البقالة في أحد الأيام، جاءت امرأةٌ كبيرةٌ في السن من لا مكان وبدأت تتحقق من حاجياتي في عربة التسوُّق!

- أوه! أنت تشترين الباذنجان!!

قالت ذلك ووجهها مذعور وفي عينيها نظرة شفقة.

قلتُ بحذر:

- نعم..

- ولكن الباذنجان يحتوي على النيكوتين..

قالت ذلك واستدارت إلى صبيٍّ يعملُ في البقالة، وقالت له كأنه مسؤولٌ عن هذا الخطأ:

- كيف تسمح لها بأخذ الباذنجان؟ خذه وأعده إلى مكانه، هيًا..

أومأ الصبيُّ برأسه، خاضعًا لسُلطة المرأة. ودون أن يستشيرني في شيء، أخذَ الباذنجان من عربتي.

قالت المرأة العجوز:

- أعطها بروكلي بدل ذلك..

ومرّةً أخرى فعل الصبيُّ ما أُمِرَ به.

- وبعض السبانخ أيضًا. يا إلهي إنها صحيّة. أوه، ولا تنسي الفليفلة. مهما كان ما تطبخينه، ضعي الفليفلة الخضراء دومًا.

ارتمى في عربة تسوّقي مُغلّفٌ من السبانخ وبعضُ الفليفلة الخضراء.

بعدها سألتُها:

- هل هذا كل شيء؟ هل أستطيعُ الذهاب الآن؟

تجهّمَ كلاهما في وجهي.

يحدث الأمر نفسه عندما أذهب إلى مسبَح الحَي. تشمّرُ النساءُ جميعهن بالحاجة لأن يقُلن لي أمرًا ما، أي شيء، أيّة نصيحة يظنون أنها ستساعدني لأنهي يومًا آخرَ من حملي بسلام.

«انتبهي، الأرضيّة رطبة هنا»

«من الأفضل أن تبقي في الظل»

«ضعي في بالك ألاّ تغطسي في الماء ببطنك أوّلًا..»

«لا تبتلعي الكلور..»

في الشارع، في الحافلة، في الباخرة، في المقاهي والمطاعم، نساءٌ غريباتٌ عنّي بالكامل يُسدون لي النصح. ولو حدث أن كانت إحداهُنّ تأكل طعامًا، فستقتسمه معي على الفور.

مهما قلتُ «لا، شكرًا» يبقى إصرارهن أكبر وأشد حتى أخضع لهنّ. هكذا أسيرُ في الجوار أمضغُ سندوتشات الناس وكعكهم. لا يهم كوني لم ألتق بهؤلاء النسوة من قبل أو أنني لن أراهن مجددًا أبدًا. أينما توجَدُ حالةُ حَمل، فليس هناك إجراءات شكلية. وأينما تختفي الإجراءات الشكلية، لا تعود هناك خصوصية.

الأسبوع 39.5

اجتاحتني موجةٌ من الهدوء. نسائم الهواء تُحرّكُ بخفّةٍ غيومَ الأفق، وأزهار التوليبس تتفتحُ الآن في اسطنبول، عنابية وحمراء وصفراء. فجأةً صار العالم مكانًا فاتنًا والحياة فيه جنة. ابتسمتُ حتى تعبت عضلات وجنتيّ وارتخت.

مررتُ بعمود الكهرباء اليوم ولاحظتُ أنّ الأحذية لم تعُد هناك، تكفّل أحدهم بإنزالها. يا لروعة ذلك! ما أبهى الجوّ، ما ألطف الناس، يا لها من زُرقة في السماء! يا للعالم الحالم!.

قالت ماما الرُّز بالحليب:

- إنه هرمون السعادة. يُفرزه الجسد عندما تقتربُ الحاملُ من أيّام الولادة.

للمرة الأولى في حياتي ألمسُ التأثير الكبير للهرمونات فينا. لطالما ظننتُ في قرارة نفسي أنني مُفكّرة، مُختارةٌ شخصيتي ومبتكرتها. ولكن كم من حيواتنا وعلاقاتنا، وأفعالنا واختياراتنا، مَقودةٌ بالهرمونات؟. إذا كانت كفيلةً بأن ترفع معنويات الشخص، هل تستطيعُ أن تقوم بالعكس، تدفع أحدهم عميقًا في الكآبة؟ ولكن الحياة الآن أجمل من تأمّل هذه الأمور المزعزعة، ولن أفعل ذلك.

الأسبوع 41

مذعورة! حان الوقت وأنا خائفة. صاحبة الجلالة الملكة تقومُ بما في وسعها لتُهدّئ من رَوعي، ولكن لا فائدة. هناك فقط واحدة من بين نسوة الأصابع من تستطيعُ مساعدتي الآن. أحتاجُ إلى الحديث إليها.

ارتفعَ بطني إلى ذقني، وبحذرٍ كي لا أتعثر، نزلتُ الدرجَ داخلي نحو عوالمي السفلية. هناك، في مدينةٍ روحانيّة مثل جبل آثوس في

اليونان، خلف بابٍ خشبي، وجدتُ السيّدة الدرويشة تجلسُ على وريقات عنبٍ متصالبة القدمين. تنتعلُ صنادل زرقاء، ومن عنقها تدلّت «هُوَ» الصوفية.

- أيتها السيّدة الدرويشة، هل لي أن أتحدث؟

- بالطبع! الكلمات هدايا البشر للبشر.

- حسنٌ، هل تذكرين الوقت الذي كنتُ فيه شاكرةً لأنني لم أكن من الفِيَلَة؟ الآن أتمنى أنني واحدة منهم.

ناظرةً إلى التعبير البادي على وجهها، قررتُ أن آخذ طريقًا آخر:

- لستُ مستعدةً للولادة الآن؛ لا أعرفُ ما أفعل. تسعة أشهر هي فترةٌ قصيرة..

قالت بلُطف بالغ:

- اهدئي أوّلًا..

- ولكن ما الذي عليّ فعله؟

- لا شيء..

- لا شيء؟

- لقد اعتدتِ على القيام بشيءٍ ما طوال الوقت. شيء تجيدينه، لقد اعتدتِ على ألاّ تقومي بشيءٍ يُرعبك. ولكنه أمرٌ مُريحٌ ألاّ تقومي بأي شيء!. لا تقلقي، جسدك يعرف ما عليه فعله، وكذلك الطفل والكون. كل ما عليك فعله هو الاستسلام، الخضوع.

«الخضوع» ليست كلمةً مُحببةً إليّ، لذا عضضتُ شفتي وصمتُّ.

- هل تعرفين أنّ الصوفيين يؤمنون أن الكونَ رَحِمٌ أُم؟ نحنُ جميعًا أطفالٌ في رحم. وعندما يحينُ الوقت، نغادر العالم. نحن نعرف ذلك ولكننا لا نُريدُ المغادرة. نخشى أننا عندما نموت لن نوجَدَ

أبدًا. ولكن الموت في الحقيقة هو ولادة. لو أننا فقط فهمنا هذا لما خشينا من شيء.

تخيّلتُ العالمَ رحِمًا كبيرًا ونحن بلايين الناس من مختلف الأعراق والأجناس والأديان تنتظرُ أن نولد في حياةٍ أخرى، فهدّأ ذلك أعصابي.

- أيتها السيّدة الدرويشة، كم أشتاق إليك.

- وأنا أيضًا أشتاق إليك. والآن اذهبي واستسلمي للأمر، والباقي يجيء على رسله..

بعدَ يومين، أيقظتُ أيوب من نومه، مبكرًا في الصباح، وذهبنا بهدوءٍ إلى المَشفى. كل تمارين التنفس واليوغا، وما تناولته من الكافيار الأسود وسَلَطَات البروكلي، وحتى «نساء صغيرات»، فقدت معانيها عندما استسلمت.

الكتب والأطفال

تشبيه الأطفال بالكتب ليسَ مجازًا معروفًا في عالم الأدب، ولكن المعروف هو تشبيهُ الكتب بالأطفال. اعتبرت جين أوستن أن كتبها هم أطفالها، وكانت تتحدث عن بطلات رواياتها بإضافة ياء الملكية إلى أواخر أسمائهن: «إيماي» و«فانيتي» و«إلينوري». وعندما تتحدث جورج إليوت عن كتبها، تُشيرُ إلى أنهم أطفالها. وبالمثل، يوميات فرجينيا وولف تحتشد بتعابير عن الكتابة كأنها تجربة أمومية. ولتعدّد الأمثلة وكثرتها من جانب الكاتبات، كبُرَ فيَّ الفضول لمعرفة سبب توظيف الكاتبات دون غيرهنّ لهذا المجاز في كتاباتهن، لم أقرأ أبدًا لكاتبٍ يقول إنّ كتبه هي أطفاله.

وعلى الرغم من كثرة استخدام المجاز وانتشاره، فإنني أجدُ أن هناك فارقًا مهمًا بين الكتب والأطفال يجب ألا يزوغ عن أنظارنا. الأطفال البشريون يتطلبون جهدًا استثنائيًا من العناية والرعاية والانتباه مباشرةً بعد ولادتهم، فهم لا يملكون مساعدة أنفسهم وبلا أسنان. الرضيعُ يتّكلُ بشكلٍ تامٍّ على أمه لوقتٍ طويل.

أما الكتب فهي ليست كذلك. تستطيع الكتب الوقوف على أقدامها منذ الولادة- أي منذ تاريخ نشرها. وتستطيعُ السباحةَ فورًا مثل سلاحف الماء حديثة الولادة: بحماسٍ واصرارٍ ودون تخطيط، تزحفُ على رمال دور النشر الدافئة إلى البحر الواسع الأزرق للقراء.

ولعلّ الروايات تُحاكي فراخ البطلا. فحالما تفتحُ أعينها على العالم، تأخذ أوّلَ من تراه على أنه أمها. هكذا هي الروايات، فبدلاً من المؤلفين، «أمهات» الروايات هُم المحررون، والمترجمون، وبالطبع القُرّاء الأعزاء. وهذا هو الحال، لا يحتاجُ المؤلفون أن يُبقوا عيناً عليها أو أن يناقشوها؛ كذلك الكتب، فهي ليست بحاجة لأن تقوم بمقابلات أو الوقوف لأخذ الصور أو الذهاب في جولة للقراءة. إننا نحن الكُتّابَ والشعراء من نتوقُ إلى التميُّز والمديح. وإلاّ، فليست الكتب في حاجة إلى العناية من قِبَل مؤلفيها.

إحدى النساء نفرَت من الغرور والطموحات الدائرة في عالم الفن والثقافة، إنها الأسطورة دوروثي باركر. بطول متر ونصف ونحول واضح، حضورها الجسدي لم يكن غامرًا قط، ولكنّ الكلمات التي انسكبت من قلمها لا تزال تُبثّ الرعشة في القراء وتُبهرهم إلى اليوم. في مساحتها التي عُرِفت من خلالها بأنها «أكثر سيّدة ظريفة في أمريكا»، بنقدها السليط على صفحات فانيتي فير وذه نيويوركر، كتبت في مواضيع لا تُحصى ولا تُعدّ دون أن تُخفي مخالبها. كانت أقل الأعضاء كلامًا في الجماعة النيويوركية الأدبية «طاولة ألغونكوين المستديرة»، ولكنها الأشهر من بينهم جميعًا.

عُرفت بحظها السيّئ في الوقوع في غرام الرجال الخطأ، كل الرجال المحتملين، عانَت من علاقات مأساوية عديدة، عانت من الاكتآب، والإجهاض المُتعمّد والاضطراري. ولكن يبدو أن علاقاتها لم تترك أثرًا عميقًا في روحها ما عدا علاقتها المتذبذبة وزواجها بالممثل والكاتب المسرحي آلان كامبيل. كانا مثل كوكبيْن يدُوران في نفس المدار لكنهما لا يلتقيان أبدًا، لقد أتعب كلّ منهما الآخر إلى ما لانهاية–حتى ذلك اليوم من عام 1963م عندما انتحرَ كامبيل. باركر نفسُها نجَت

من عدة محاولات انتحار عبرَ سنين طويلة- وكُل محاولة تزيد من إدمانها على شُرب الكحول أكثر.

وكمدافعة ضارية عن المساواة بين الجنسين والحقوق المدنية، كانت باركر محطّ نقد من رؤوس المجتمع في وقتها. في قصائدها وقصصها القصيرة ومقالاتها، ساءَلت كل أشكال الكليشيهات والتابوهات. واحدة من قصائدها المبكرة تلخّص مأخذها على الحياة:

«لو امتنعتُ عن المَرَح

لتمّ تقديري كما يجب

ولكنني سأبقى كما أنا

لأنني، اللعنة، لم أهتم قط»

صداقتها المُقرّبة بداشيل هاميت وليليان هيلمان كانت موضوعًا متناولًا بكثرة في دراسات مؤرخي الأدب. بعد سنوات، سُئلت هيلمان ما إذا كان هناك أيّ تنافس بين الكاتبتين الصديقتين؟ فأجابت نافيةً: «قطعًا لا.» كانت هناك علاقة تواكل، تُفسّرها بأنها:

«أظن أنّ هناك بين الرجال والنساء نوعًا من التواكل، وحتى بين الأصدقاء.. ليس للناس المُستقلّين أن يقلقوا بشأن الاتكال على أحد..».

في بارانويا بداية الخمسينيات، لم يأخذ منهما الأمرُ وقتًا طويلًا حتى يُدرَجا في قائمة هوليوود السوداء. ليس لأنهما اهتمّا بالأمر، لقد كانا مبدعين ومدمرين لذواتهما، كانا من الجيل الذي يشرب ويتشاجر ويتجادل ويضحك ملء العالم؛ ويموت إمّا مبكرًا جدًا أو جرّاءَ اكتئاب شديد.

لم تكن باركر من الملوّحات بإعجاب للحب الرومانسي وللحياة المنزلية وللأمومة. لم توفّر فرصةً للتعليق على مشهد امرأةٍ تعبُرُ

بجانبها صَدفةٌ وهي تُدلّل طفلها. إنها ترى الأمومةَ فخًا، وتمامةً دائمة. كان ذهنها متأكلًا، ومزاجها متطايرًا، سخريتها أسطورية، وعيناها السوداوان المُترعتان بالخسارة حتى الثانية التي ماتت فيها بسكتةٍ قلبية في عمر الثالثة والسبعين، وحيدةً في غُرفة فندق.

إن كان هناك صوتٌ واحدٌ في عالم الأدب يخفق بالغضب والعطف والعدالة والحب- كلها في نفس الوقت، كلها بنفس القوة، فلن يعدو أن يكون صوتَ أودر لورد. كانت روحًا بمواهب عديدة وأدوارٍ مختلفة: شاعرة، كاتبة، امرأةٌ سوداء، مثليّة، ناشطة حقوقية، ناجية من السرطان، مُعلّمة وأمٌّ لطفلين. مُبكّرًا غيرّت اسمها من أوديري إلى أودر، ليس لأنها فقط أحبّت التناسق بين اسمها الجديد ولقبها، ولكن لأنها ببساطة تستطيعُ فعلَ ذلك!. أحبّت إعادة ابتداع نفسها مرّةً تلو الأخرى، تُعيدُ تنظيمَ قلبها وأقدارها، مثل قطعتين هشّتين من العجين. هناك جنازةٌ أقيمت لوفاتها، أعطيت فيها اسمًا جديدًا، قامبا أديسا- «المُحاربة صافية المعاني».

مرّت أوقاتٌ كانت فيها هي أمُّ نفسها، وفي بعض الأوقات، بنتُ نفسها. كانت نفسها في حلقة من سلسلة لا نهائية، جزءًا من «تواصلية نسائيّة أبديّة». مُجَسّرةٌ للفوارق، مُتحديةٌ العرقيّة والتمييز الجنسيّ والمثلي، شجعت لورد ما رأت أنه «تحوّلُ الصمت إلى صوت». من خلال الكلمات التي نفهم أنفسنا من خلالها ونفهم بعضنا، وجلبَت الحكمة الداخلية التي أبهرتنا جميعًا. التواصلية كانت أحد الأمور التي قامت بها بنجاح- الكاتب والقارئ، الأبيض والأسود، الأخت والأخت:

«أنا ما أنا، جئتُ لأقوم بما عليّ القيام به، أؤثّر فيك مثل ترياقٍ أو إزميلٍ لأذكّرك بأناي، لأكتشفك من خلالي.»

في مذكراتها الروائية: «زامي: نُطقٌ جديدٌ لاسمي»، تُلقي لورد نظرةً مقرّبةً على طفولتها في هارلم وتَقدُّمها في السّن كامرأة سوداء نسوية وسحاقية. كانت تقول إنّها أرادت أن تكون امرأةً ورجلاً، مُضيفةً إلى شخصيتها أقوى الصفات وأغناها من أبيها وأمها. كانت كتاباتها ممزوجةً بالاعتقاد بأن جَمع المتقابلات المتشابهة هو في أغلب الظن ما يجعلنا نحن أنفُسَنا لا غيرنا. في كل امرأة صفات ذكورية، وفي كل رجُلٍ صفات أنثوية. وهكذا، فإن مُعاملة كُلاً من الجنسين على أنه منفصلٌ تمامًا عن الآخر كان فهمًا خاطئًا وخطوةً بعيدةً عن فهم الإنسانية بكل تعقيداتها وامتلائها.

وبشكلٍ مُدهش، نجدُ الأمومة قد أُعيدَ تعريفها في كتب لورد. لقد عظّمَت من شأنها دون أن تقدسها. إنّها سماويّة ولكن ليس فيها ما هو مقدّس. آمَنَت لورد بأنّ هناك أُمًّا سوداء في كُلٍّ منا، سواءً أكُنّا أمهات أم لا. الرجال أيضًا يحملون ذلك داخلهم، رغم أنهم يختارون في أغلَب الأوقات عدمَ التعامل معه. مجازُ لورد، الأم السوداء، كان صوتَ الإبداع فيها، والبديهة، والشغف الذي لا يعرف لجامًا:

«قال الآباءُ البيضُ لنا: أنا أفكّر، إذن أنا موجود. بيد أنّ الأمّ السوداء الشاعرة التي بداخلنا، همسَت في أحلامنا: أنا أشعر، إذن أستطيع التحرّر...».

لم ترفض لورد المنطق والتجريب مرّةً واحدة، لكنّها أرادت أن توضّح للجميع مرّةً واحدة وإلى الأبد، أننا محدودون في فهمنا للعالم. الكثير من التفكير التحليلي وعبادة النظريات التجريدية لم يكُن يصلح لها. ارتباطها باللغة وهي تضع كفّها على إيقاع نبض الكون كان أمرًا حسيًا تمامًا، دون خجل. ولأنها أعلَت من شأن تربية الذات، فقد توصّلت إلى أن الأمومة والأنثوية طبقات يتراكم بعضها فوق بعض.

وهكذا رفضت أن تُسجن في أيّ قفص أو نمط ثابت أو تصنيف لا يتغير. كانت دائمًا متعدّدة متنوّعة في الوقت ذاته، وبقيت كذلك حتى بعد مماتها.

لو كانت أودر لورد على قيد الحياة اليوم وتقابلنا، لكانت ضحكت من نسوة الأصابع الستّ الخاصّات بي، ولأخرجت لي نسوة أصابعها هي، نسوتها اللائي بلا عدد كي يرقصن جميعًا تحت مطر الصيف الدافئ.

سانردا سيسنيراس، كاتبة بَليغةٌ وأكاديمية مفوّهة تدعو نفسها «أمّ لا أحد، وزوجة لا أحد». أمضت حياتها متحدّثةً بنديّة وشجاعة عن صعوبات الحياة وجمالياتها من وجهة امرأة عزباء قادمة من خلفيّة بطريركية، ومن وجهة كاتبة على تخوم ثقافتين مختلفتين، المكسيكية والأمريكية. تقول:

«أظن أن الكُتّاب مشطورون دومًا بين أن يحيوا حياتهم وبين أن يشاهدوا أنفسهم يعيشونها».

وُلدت في شيكاغو عام 1954م، ابنةً وحيدةً في عائلة من ستة أبناء، راقبَت سيسنيراس عن قُرب كيف تُصنع الذكورة وكم قد تكون الحياة مؤلمة على كلّ مَن لا يتناسب والشروط المعطاة للتفريق بين الجنسين. وعلى الرغم من نشوئها في بيت مُكتظّ بالناس والأصوات، فإنّها حصلت على حُبّ كبير من أبيها وأمّها وأُعطيَت مساحتها الخاصة:

«أنا نتاجُ امرأة عنيفة امتلكت الشجاعة الكافية لأن تُربّي ابنتها بطريقة غير تقليدية».

تقولُ سيسنيراس إنّها تُريدُ كتابة القصص المسكوت عنها. كتابُها «المنزلُ في شارع المانجو» هو روايةُ إسبيرنانزا، فتاةٌ مكسيكية

أمريكية تنشأ في الجزء الإسباني من شيكاغو. يتناول الكتاب، بكل حريّة، الرجولة والشوفينية ونضال امرأة ملوّنة لتُسمِعَ صوتها. تكتشفُ إسبيرنازا أن للكتابة تأثيرًا شافيًا في جروحها، وتُحرّر روحها. تُساعدها على تطوير مواهبها الطبيعية، على معرفة نفسها وحقيقتها، رافضةً كلّ أنواع الدكتاتورية التي تحدُّ من خياراتها في الحياة بسبب جنسها أو ثقافتها أو فئتها.

أرادَت سيسنيراس، بمُسائلة كلّ المؤسسات النسوية المكسيكية والأمريكية، أن تكتشف أنماطًا أخرى من النسوية. رؤاها عن الزواج والأمومة كانت إشكالية ولا تزال. في مقابلة أُجريت معها، قالت بطُرُق عديدة إنّها لا تزال تشعر بأنها طفلة. ولأجلّ هذا تحديدًا، لأنها لا تزال واحدة من الأطفال، لا ترفعُ طفلًا عن الأرض ولا يتملّكها الهوَسُ بهم. ليس هذا ما يفعله الأطفالُ بالأطفال. قالَت سيسنيراس إنها قضَت العشرينيات والثلاثينيات من عمرها واضعةً جانبًا أمرَ الزواج وإقامة عائلة، مُعطيةً كامل اهتمامها للكتابة والعمل. وعندما بلغت الأربعين، شعرت بأن عليها الزواج بسُرعة، ليس لأنها أرادت الاقتران، ولكن لأن والدها حتَّمَ عليها هذا الأمر. احتاجت إلى سنين عديدة لتُدركَ أنه ليس عليها القيام بذلك- تملّكها فجأة الانتباه لاتخاذ قرارٍ حاسم: لن تتزوج. وعندما سُئلَت لماذا لم تقُم بإنشاء أسرةٍ لها، كان جوابها مختلفًا:

«كتابتي هي طفلتي ولا أريدُ أن يقف بيننا أحد».

دوروثي باركر، أودر لورد، وساندرا سيسنيراس- نسوةٌ رفضنَ حصرَ إبداعَ المرأة في الإنجاب، وانطلقنَ في الكتابة بشغف. نتعلّم منهن أن ننظر بعينٍ جديدة إلى النسوية، والأختيّة، والرجولة. قراءة

أعمالهن توقظُ أرواحنا، تثقُبُ أصدافَ حياتنا اليومية. معرفة المزيد عن حيواتهن تجعلنا نُدركُ أن النزعات الثقافية المُحددة مسبقًا، النزعات التي زُرعت فينا ونَمَت منذ طفولتنا قابلة للجدل والتغيير. صحيحٌ أن كل واحدة منهن شقّت طريقًا مختلفًا، وأتينَ من خلفيات ثقافية مختلفة أيضًا، ولكن هناك أمرٌ واحدٌ يجمعهن سويًا: لم يأخذنَ قوانينَ التفريق بين الجنسين وحدودها كمُعطىً ثابت. لقد ساءَلنَ المعايير الثابتة، والأهم من ذلك، غيّرن العالم بتغيير أنفسهن أولًا.

بحرٌ لا شاطئ له

طفلتي تنامُ في سريرها. مَن أتى بتعبير «ينامُ كالطفل في فراشه» لا يعرفُ ما الذي يتحدث عنه على الإطلاق. ينعسُ الأطفالُ وينامون لأوقات قصيرة ومُتقاربة بعض الشيء، ويستيقظون بين لحظة وأخرى ليتأكّدوا من أنّك لا تزال موجودًا هناك وأن أمرَ ولادتهم لم يكُن حُلمًا.

أمّا أنا، فلم أعُد أنامُ على الإطلاق. لحظةَ أُغلقُ عينيّ، تجتاحُ ذهني أفكارٌ بغيضةٌ وصورٌ مزعجة. من كان يتوقع أن رأسي مستودعَ للقلق؟ لم أقدر على النوم جيّدًا لأيام. حول عينيّ هالاتٌ سودٌ بُنيّة. لم يدُر في بالي أبدًا أن قلبي يستطيعُ تحمُّل كَربٍ قاتم كهذا.

أرتدي الآن بيجامة نوم طويلة بلون الخزامى، تنتثرُ على خَطّ عُنُقها أشكالٌ متفرقةٌ. بلوزة البيجامة معلّقة على كتفي بخيطَين، أحدهما قد انقطع، والآن هو معقودٌ كيفما اتفق. ولكن لأن هذا الخيط تحديدًا صارَ أقصر من الخيط الذي على كتفي الآخر، يبدو خَطُّ العُنُق من بعيد مائلًا، مُعطيًا الإيحاء بأنني أنزلقُ جانبًا، مثل سفينة تغرق. رُبما أنا هكذا حقًا. وبالنسبة إلى الأشكال التي تزيّن خطّ العنق، يبدو أنها من تصميم مُصمم مجنون، ولكنها في الحقيقة نقاط حليبٍ وبقعُ قَيء.

مضت سبعة أسابيع منذ أن ولدت.

أريدُ أن أكون أُمًّا متألّقةً وكاملة، ولكنني انتهيت للقيام بكل

الأمور بالطريقة الخاطئة. أُمسي خرقاءَ وجاهلة عندما أهمّ بتغيير الحفاظات أو تَجشِئة الطفلة، أو إيقاف نوبات الفواق التي تجتاحها. صارت ثقتي بنفسي مثل كوزِ آيسكريم يذوبُ بسُرعةٍ تحت قهر الأمومة. لكان أمرًا مُساعدًا لو كان أيوب إلى جانبي، ولكنه ذهبَ ليخدمَ فترته في التجنيد الإجباري. لستة أشهُرٍ قادمة، سيتدرّبُ تدريبًا عسكريًا في قطعةٍ مّا، شماليّ قبرص، وسأبقى مع نفسي.

لخمس ليالٍ في الأسبوع، تُعيدُ إحدى قنوات التلفزيون عرضَ «عجلة الثراء» لأولائك الذين لا يستطيعون النوم. فتاتان شقراوان بتنانير قصيرة وقمصانٍ ضيّقة، تقفانِ عند العجلة الدوّارة لتُديرا الأحرُف يدويًا. أجلسُ وأشاهد. حروفُ الكلمة التي ظهرت كانت: ك.....بة. رفضتُ أن أكمل الكلمة.

أما الآن، فهناك عجلة ثراءٍ هائلة تدورُ في رأسي، رامشةً بمصابيحها القوية. قسّمتُ واجباتي اليومية إلى حِصَصٍ بألوانٍ مختلفة، أعطيتُ كل حصّةٍ منها نقاطًا، إلا أنها جاءت سلبيةً كلّها:

التسبب للطفلة بالتقيّؤ لأنك رفعتها بسُرعةٍ عن سريرها	(-15) نقطة
الصياح على الناس، ولومهم على أخطائك	(-25) نقطة
الشعور بأنك غير موهوبة على نحوٍ شديد	(-30) نقطة
تُصابين بالذعر إذا بكت الطفلة، فتبكين معها	(-50) نقطة
لا تتوقّفين عن البكاء حتى بعد توقف الطفلة عنه	(-70) نقطة

عند نهاية كل يومٍ، أجمعُ النقاط إلى بعضها، وينتهي بي الحالُ إلى اللون الأحمر. ما أسجّله من ملاحظات ومعلومات عن يومياتي كأمٍ يُشبهِ إلى حَدٍ بعيد أسهم البورصة. لديّ شكٌّ عميقٌ في أنّ نساءً أخريات أخبِرنَ بضرورة قضاء سنواتٍ طويلة لكي يتأقلمنَ مع التغيير

الجديد في حيواتهن بعد الولادة، ولقد اشتقتُ إلى الكتابة. كيفَ لي،، أنا التي لم أستطع أن أتعاملَ مع أنوثتي بشكلٍ طبيعي ودون تصنّع، أن أتعاملَ الآن مع كوني أمًّا؟

أعرفُ أنني أحتاجُ إلى المساعدة، لكن لم يبدُر إلى ذهني طلبها قط.

أفكّرُ في المرأة الجديرة بالتأمُّل، دوريس ليسينغ، الكاتبة ومُتمقّبة الأفكار. وُلدت في إيران عام 1919م. وهي حاصلة على نوبل للآداب، أمضت سنيّ طفولتها في مزرعةٍ جنوبي زيمبابوي. نشأت في أحضان والدة نزّاعة إلى الاستبداد، وأُرسلَت إلى مدرسة كاثوليكية، حيثُ تتمُّ رعايتها لتكون سيّدةً مستقيمةً وتقيّة. تستدعي جزءًا كبيرًا من طفولتها في البلاد المستعمرة على أنها تحوي:

«القليل من المتعة والكثير من التعاسة».

تسللت ليسينغ من المدرسة عندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها، هربت من منزل أهلها ومن والدتها بعد سنتين من ذلك، وهكذا كان عليها أن تُربّي نفسها بنفسها.

كانت الفتاة المرأة التي ربّت نفسها.

عندما بلغت التاسعة عشرة، تزوّجت ليسينغ وأنجبت طفلين من هذا الزواج، صبيًّا وصبيّة. تحدثت عن هذه التجربة الثوريّة بالتفاصيل في مذكّراتها التي صدرت على جزئين: «تحت البشَرة» و«السيرُ في الظلال». كتبت بصراحة عن مشاعرها المتناقضة خلال تلك الفترة- تتنازعها رغبتان: رغبةٌ في قضاء وقت أطولَ مع الأمهات الأخريات، وهنّ يتحدثن عن الأطفال والطعام المهروس، ورغبةٌ توازيها شدّةً في الهرب من الأمهات ومن هذا الوضع كله. انتقدت ليسينغ بشدّة تلك الطرق التي تتغير بها بعض النساء المبدعات بعد الإنجاب. تظُنّ أنّ

هؤلاء النسوة يسعدنَ بشكلٍ مؤقّت بوضعهنّ الجديد، ولكن قريبًا أو بعيدًا سينالُ منهن التعب، وينتابهنّ الانهيار العصبي:

«ليس هناك مللٌ أكثر من قضاء امرأةٍ شابةٍ وذكيةٍ وقتها كله مع طفل صغير».

ناظرةً إلى السنين المبكّرة من ممارستها الأمومة، تستغربُ من العمل الشاق الذي بذلته وكميّة التعب التي تحملتها أثناء ذلك:

«أتساءلُ، كيف قمتُ بذلك؟ أقسمُ أنّ الأمهات الصغيرات مُسلّحاتٍ بمُصارةٍ أو هرمونٍ يوقفهنّ للقيام بذلك وتحمّله».

الدورُ الثلاثي: ربّة المنزل والأمّ والزوجة، لم يجعل من ليسينغ سعيدة. هجرَت زوجها عام 1943م وتركت أطفالها لتتزوج من فوتفرايد ليسينغ، ناشطٌ شيوعي. أنجبت منه صبيًّا، بيتر. انتهى الزواج عام 1949م. وبحلول هذا الوقت، لم تستطع أن تحتمل أكثر الحياة في زيمبابوي، وتحديدًا لم تعُد قادرة على رؤية عُنصرية الطبقة البيضاء الحاكمة. آخذةً ابنها، بعض المال، وبعض الأشباح، عادت إلى بريطانيا. كان قرارًا محوريًا ومؤلمًا تطلّب منها أن تترك ابنها وابنتها من زوجها الأول معه. وجاءت إلى إنجلترا بمخطوطة روايتها الأولى: «العُشبُ يُغنّي». نُشِرَ الكتاب بعد عام من ذلك، ومن يومها نذرَت ليسينغ نفسها للكتابة طوال عمرها.

هناكَ مرجَلٌ يغلي في رأسي. ماذا لو فشلتُ في أن أُصبحَ أُمًّا جيّدة وزوجة رائعة؟ لا أُريدُ أن أخون نفسي أو أن أدّعيٍ أنني شخصٌ آخر غيري. ما يُرعبني حقًا هو احتمالُ أن يحدث تفاعلٌ كيميائي بين تأليف الكتب ومهامّي المنزلية. الروائيون يعشقون أنفسهم ولا يُحبون أن يجذبوا الأضواء إلى هذا الجانب منهم. الأمهات، في الجانب الآخر، من المفترض ألاّ يكُنّ أنانيات، بل كائناتٍ تهبُ نفسها بالكامل– لفترة

ما على الأقل. يُعطينَ أكثر مما يأخذن. رُبما أُبالغُ في القلق، ولكن القلق يأتي من التفكير.

كيف آمُرُ عقلي ألاّ يُفكّر؟

يُهاتفني أيوب متى ما سمح له الوقت بذلك بين فترات التدريب الميدانية. خطُّ الهاتف يوشوش ويتقطّع، وفي الخلفيّة تدريباتٌ عسكرية، الوطءُ على الأرض والهرولة، وصياح وصراخ، أي نقيض حياتي في اسطنبول تمامًا، حيث أشاهد قنوات الأطفال وأستمع إلى المطر ينهمرُ على أزهار البيغونيا.

يحدّثني أيوب:

- أهلًا حبيبة القلب..

- أهلًا حبيبي، كيف تجري الأمور عندك؟

- خسرتُ ثلاثة كيلو ونصف من وزني. ولكنني باقٍ على قيد الحياة. نقومُ بمئة تمرين ضغط، ومئة تمرين رفع، ونجري ميلين كل صباح. عضلاتُ ساعديّ الآن مثل تشاك نوريس، ووجهي شديدُ السمرة من جراء تعرضي للشمس إلى درجة أنه يكونُ بارزًا حتى لو وقفتُ في زقاقٍ مُظلم.

ابتسمتُ- كأنه ينظر إليّ.

قال بصوت يرتعشُ قليلًا:

- اشتقتُ إليك طبعًا..

- اشتقتُ إليك أيضًا..

- ماذا كنت تفعلين قبل أن أهاتفك؟

- كنتُ أضعُ عَشر قطراتٍ من ماء العنب في ملعقة من أجل فواقِ

أصابَ الطفلة وأفكر في دوريس ليسينغ.

- هل يساعدك ذلك؟

- ليس حقًا، رُبما جعلت الوضع أسوأ.

- ما الذي جعله أسوأ؟ قطرات العنب أم دوريس ليسينغ؟

- كلاهما!.

هناك صمتٌ قصيرٌ في نهاية خط الهاتف. ثُمّ، قال أيوب بنعومة:

- عزيزتي، أنتِ تُبالغين في التفكير. وهذا ما يجعلُ الأمور أصعبَ عليك..

- ما الذي تعنيه؟

- لا يقومُ الكثيرُ من الناس بتحليل كل شاردةٍ وواردة، وإعادة تحليلها مرّات ومرّات، أنتِ تعرفين، إنهم فقط ينخرطون في الروتين اليومي.. مثلي عندما أعرف أن عليّ القيام بمئة تمرين ضغط، فأقوم بها وحسب..

- تُريدينني القيام بتمارين الضغط؟

قال بضحكةٍ أنيقة:

- هيّا.. أنتِ تعرفين ما أعنيه. هل تستطيعين القيام بما عليك القيام به دون التفكير فيه قليلًا؟

- لا أعرف، دعني أفكر في الأمر.

لماذا نكتئب عندما نريدُ أن نكون سعداء؟

في مساء اليوم التالي، بدأ أعضاء جوقة أصوات الفوضى ينتحبن داخلي. سألت كل واحدةٍ منهن السؤال نفسه: لماذا أشعُرُ بأنني في الحضيض عندما أكون، في الواقع، سعيدةً وممتنة؟

1.- «هيه، أنتِ، ذلك بسبب الهرمونات!»، قالت الآنسة العمليّة القصيرة. «سيكون كل شيء بخير. نستطيعُ إجراء بعض الاختبارات لنتأكد من مصدر المشكلة. خُذي بعض أقراص السعادة. تعرفين بالطبع أنها تُدعى كذلك بالـ«الابتسامات المُعلّبة». يدُ الغرب الرفيعة في العلم ستحُلُّ هذه المشكلة في لمح البصر. اتّصلي بالطبيب للمساعدة. دعيه يجدُ لك حلًا. كوني عملية!».

قد تكون على حق. عليّ الاتصال بالطبيب. ولكن عزّة نفسي، أو غروري، يمنعني عن ذلك. لا أريدُ لأحدٍ أن يشعُر بالأسف نحوي، أو أن يضع احتمالاتٍ حولَ صحّتي العقلية. كان طبيبي دومًا يتصرّفُ معي كصديقٍ وكأبٍ، ونشأت بيننا علاقةٌ حيّة؛ لا أريده أن يراني مذعورةً هكذا.

قلت لها:

- دعيني أستجمعُ نفسي أوّلًا، ثم سأتحدّث مع الطبيب.

لذا وضعتُ خطة: سأذهبُ لزيارة مختصّ عندما أكونُ في حالة

أفضل بشكل يجعلني غير محتاجة إلى زيارة مختصّ من الأساس».

2.-«انسي أمر الأطبّاء والأقراص. أنتِ تحتاجين فقط إلى الكتب». قالت الآنسة المثقفة الساخرة. «تشعرين بنفسك بلا معنويات لأنك لا تقرئين بما فيه الكفاية. لقد اشتقت إلى العالم الثقافي. اشتقتِ إليّ. كلّ طعام الأطفال هذا وتغيير الحفاظات قد خدّرَ عقلك. تحتاجين إلى إعادة تفعيل ذهنك، هذا كلّ ما في الأمر».

قد تكون على حق. قد يدخُلُ عقلي في نمطٍ من النظام لو بدأتُ بقراءة الروايات من جديد. لو ركّزتُ على قصصِ الآخرين، سأتوقف عن الدوران في دوائر حول نفسي. سينقذني بروست.

ولكن هناك أمرٌ لا أستطيعُ الاعتراف به للآنسة المثقفة الساخرة، وهو شكّي بأن عقل الأمّ الجديدة بعد الولادة لا يعود يعمل كما اعتاد عليه في السابق. لا أحتملُ القراءة حتى لو أردتُ ذلك. انسي أمرَ بروست. لا أستطيعُ حتى التركيز على وصفة إعداد شوربة الطماطم.

3.- «لستِ في حاجةٍ إلى الكتب، أنت تحتاجين فقط إلى خلع بيجامة نومك المُريعة هذه وارتداء شيءٍ مُثير». كان هذا اقتراح بلو بيلي بوفاري. «لو أنك فقط تعيرين القليل من الاهتمام لمظهركِ، لاندفع هذا الاكتئاب عنك خارجًا من الباب مباشرة. دعيني آخذك لصفّفة شعر. ألا تعرفين أنّ أوّل أمرٍ تفعله النساء عندما يشعرن بالاكتئاب هو تغيير تسريحة شعورهن؟ قَصّةً جديدةً ولونٌ جديد ستُشفيان أعماقك الحزينة، يا حبيبتي».

قد تكون على حق. قد أشعر بالتحسن لو زرتُ مصفّفة شعر، ومن هناك، أذهب إلى مجمع التسوّق. ولكنّني لا أشعر بأنني أريد فعل ذلك. بالعكس، أريدُ أن أتشبّث أكثر بشعري الدهني، وبشرتي الشاحبة، وثيابي الرثّة. في عالمٍ يتعاظمُ فيه شعورك بالغربة، وحدها

بيجامة النوم ما يثير فيك الشعور بالأُلفة والراحة.

4.- «هذا جنونٌ محض»، اعترضت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمّوح، «السبب الوحيد وراء شعورك بأنك في الحضيض هو أنك تُنتجين أقلّ من طاقتك الكاملة. عليّ إخراجك من هنا حالًا. لنُخطط لرحلة توقيع كتب لك. علينا العودة إلى العمل».

قد تكون على حق. لو كان هناك مهرجانٌ أدبيٌّ أو حفل توقيع كتب الآن، لكنتُ استطعتُ أن أخنق هذا المزاج القاتم. يا لها من معنويات تلك التي ترتفع عندما أقابل قُرّائي، أنصتُ لملاحظاتهم الحميمة، مُجيبةً عن أسئلتهم وأقرأ عليهم المزيد ممّا كتبت. كيف لي أن أوقّع الكتب في حين أنّ يديّ مدسوستان دائمًا تحت إبطيّ بحثًا عن الدفء؟ كما أوضحت جين سمايلي في كتابها الجميل: «12 طريقةً للنظر إلى رواية»، هناك فرقٌ بين الروائي كشخصٍ يُحب الأدب، وبينه كشخصيّة أدبية.

تقول سمايلي إنّ الروائي كشخصية أدبية يكون أكثر نضجًا، أكثر تهذيبًا ويعمل وفقَ مجموعة مختلفة من الواجبات والمسؤوليات. شخصيّة ألهمتها ثلاثة جوانب رئيسة- الأدب والحياة واللغة. ولهذا فهذه الشخصية ليست تحت سيطرة الروائي بشكل كامل.

لو كانت سمايلي على حق، وأظن أنها كذلك، فستكون الهُوّة بين شخصيتي الأدبية وبيني كإنسانٍ حَيّ واسعة بشكلٍ لم أعرفه من قبل. يتسع في داخلي الآن الصدع الذي سبّبته الولادة.

5.- «ما قالته حضرةُ جنابها كان مُجرّد رطانة فارغة»، قالت ماما الرّز بالحليب بنخرة في صوتها. «أنت تشعرين هكذا لأنك لا تركّزين بما فيه الكفايةَ على القيام بواجباتك كأمّ، هذا كلّ ما في الأمر. إنه الوقت الذي يجب أن تضحي فيه كلّ شيءٍ جانبًا،

كلّ ذاك الهراء الأدبيّ والفنيّ، وأن تكوني أمًّا متفرغة بدوام كاملٍ. حينها فقط ستخرجين من هذا الاكتئاب».

قد تكون على حق. إمضاء الوقت مع ابنتي الحبيبة يجعلني أشعر بتحسّن، بالبهجة والسعادة. ربّما عليّ أن أغلق نفسي عن العالم الخارجي وأن أكون أمًّا وحسب منذ الآن فصاعدًا. قد أكون مكتئبةً الآن لأنني لم أطبّق هذا القرار بشكلٍ كاملٍ حتى هذه اللحظة.

ولكن، هناك أمرٌ لا أستطيعُ شرحه لماما الرّز بالحليب، أمرٌ أعرفُ أنها من المستحيل أن تفهمه؛ في مجتمعٍ تُعتبر فيه الأمومة هي أفضل شيءٍ يُمكنُ أن يحدُث للمرأة، وبمعاييرَ تربوية تأمرنا بألاّ نطمح إلاّ إلى الممتاز، كيف لي ألاّ أقارن نفسي بالأمّهات الأخريات؟ عندما أزنُ نفسي إزاء أولئك الأمهات، كيف لي ألاّ أحسدهنّ على إنجازاتهن وألاّ أستمرّ من قصوري؟ لستُ فخورةً بشعوري على هذا النحو، ولكن هذا ما يجري في أعماقي. ليس حُبي لطفلتي هو ما أشكك فيه؛ إنه حُبٌّ صافٍ ورقيق، يُغلّفُ روحي بوهجٍ لؤلؤي. ولكنها مواهبي كأمٍ هي التي أشعرُ أنني أفتقدها.

6.- «حاولي النظر إلى الأمر بوصفه اختبارًا»، قالت السيّدة الدرويشة. «يُحب الله أن يمتحننا من وقتٍ إلى آخر. إنه يُعلّمنا أحيانًا من خلال الفشل والضعف، ومن خلال القوة والنجاح في أحيانٍ أخرى. وصدقيني، نحن لا نعرفُ أيّة حالة هي الأسوأ لنا. ولكن تذكّري أمرًا واحدًا: كُلّ عُسرٍ يتبعه يُسر».

قد تكون على حق. عليّ ألاّ أنسى بأنني أمُرُّ بمرحلة مؤقتة من حياتي، وأنّ الخيرَ لابُدّ أن ينبثق منه لاحقًا، بيد أنني لا أستطيعُ رؤية ذلك الآن. لاحقًا عندما أنظر إلى الوراء بإدراكٍ متأخر، سأحكم على الأمور بوجهة نظرٍ أخرى، مُشفّة وصافية.

ولكن، هناك أمورٌ لا أستطيعُ شرحها للسيّدة الدرويشة. أعرف أنّ هناك آلاف الناس يحاولون الإنجاب. أناسٌ يضعون أنفسهم في مختلف التجارب الطبيّة، ويقدّمون تضحياتٍ هائلة ويعانون من اضطرابات لا حَدّ لها، فُرادى وأزواجًا. ورغمَ ذلك لا يصلون إلى أهدافهم. أعرفُ كم عليّ أن أكون ممتنّة، وأنا كذلك بالفعل، ولكنّ خجلي من كوني غير سعيدة وغير شاكرة بما فيه الكفاية وغير جيّدة كبيرٌ جدًا. لا أستطيع حتى الحديث مع الله من خجلي.

كُلّ ما أعرفه هو أنني بعد فترةٍ من حُكم الأقلية داخلي وبعد زمن وجيز من الحُكم العسكري، فقد وصل الحُكم الملكيّ الذي أعيشه الآنّ هو الآخر إلى نهايته. ولم يبق من وجود لأيّ حُكمٍ في أرض الأنا سوى حُكم الفوضى.

العَينُ السماويّة

عندما كنتُ فتاةً صغيرة، رُبما في السادسة أو السابعة من عمري، سكنتُ لبضعة أسابيع مع جدّي وجدّتي من جهة أبي في مدينة سميرنا. كانت الفكرة هي أن أرى والدي وأن أقضي معه بعض الوقت، ولكنني انتهيت إلى رؤية جدّتي أكثر من أبي. كانت امرأةً صارمة، تلبسُ نظارات تُضاعفُ من حجم عينيها، وتتحدث بجُملٍ قاطعة وجافّة تنتهي غالبا إلى: «افعلي هذا» و«لا تفعلي ذاك!». كانتْ تتحدثُ طويلًا عن لهيب النار في الآخرة، وكانت تُجيدُ وصفها بصورٍ حيّة ومُرعبة. بالنسبة إليها، كان الله عينًا سماويّةً لا ترمش، يرى كلّ أمرٍ أقومُ به ويسجل ذنوبي وأخطائي واحدةً واحدة، حتى تلك التي دارت في رأسي فقط.

عُدت من منزلها بخيالٍ مُشتعل عن النار ولهيبها وعن المراجل المغليّة، وعن الله كأبٍ صارمٍ ينظُرُ إلى الأسفل مُتجهّمًا نحو خليقته. لا أعرف إن كان لهذه التجربة أيّ تأثير في خياراتي لاحقًا، ولكن حالما أمسيتُ ناضجةً لمعرفة ما هي «اللاأدريّة»، في السابعة عشرة من عمري تقريبا، قررتُ أن أكون واحدةً من اللاأدريين. لم أشعُر بالقُرب قط من الرؤية الإلحادية للكون، لأنني أجدها مُبالغةً في غطرستها لنفي وجود الله- ولكن وجدتُ اللاأدرية مُناسبة لفئةٍ من الناس تجدُ نفسها حائرةً دومًا بخصوص أمورٍ كثيرة، بما فيها الدين. الإيمان ليس أمرًا مُلحًّا للمُلحد. ولكن بالنسبة إلى اللاأدري، هو أمرٌ مُلح.

المُلحد متمسكٌ بمبادئه ومتأكد منها، ويتحدث بجُمَل تنتهي بنقطة وقوف. ولكن اللا أدري يضعُ فاصلةً عند نهاية الجملة، أي أنها ستكتمل لاحقًا.. سيُبقي على نفسه باحثًا، متسائلًا، شاكًّا. ولهذا هو لاأدري.

التحقتُ بالجامعة وانتسبتُ إلى تخصّص العلاقات الدولية. في ذلك الوقت، كنتُ فتاةً ثائرة. أحببت وضعَ أكثر من شالٍ أيديولوجي على أكتافي: كنتُ يسارية ونسوية وعدميّة ومدافعة عن البيئة، ومن دعاة السلام الأناركيين! لو أخذنا أسئلة الإيمان على محمل الجديّة، فلم أكن حينها أؤمن بأيّ دين، والفرق بين «التديّن» و«الروحانية» ضائعٌ عندي. ولكن، كَوني أمضيتُ عدة سنواتٍ من طفولتي مع جدتي من جهة أمي، فقد شعرتُ بأن هناك الكثير في هذا الكون ممّا لا أستطيعُ القبضَ عليه بحواسي الخمسة وحدها. الحقيقة هي أنني لم أكن مهتمةً بفهم العالم، بقدر ما كنتُ مهتمةً بتغييره.

ومن ثم، يومًا ما، دخلَت إلى حياتي السيّدة الدرويشة. عرَّفت بنفسها على أنها الجزء الروحانيّ منّي، وشرحَت لي بأنّ «الخالق» ليس نواةً للـ«خوف»، بل نافورة من الحُبّ اللانهائي. تملّكتني حينها أحجيَةٌ ما. في البداية، شكّلَ حضورها وحده في حياتي فضولًا أكثر من كل ما قالته. تُحيطها هالةٌ من الهدوء والضوء، مثل قمرٍ يلمعُ بلُطف على بحرٍ يتموّج. مأخوذةً بها، بدأت الاطّلاع على الصوفيّة. كتابٌ يقودني إلى آخر. وكلّما قرأت أكثر، زاد جهلي، لأن ذلك ما تفعله الصوفية بك. تجعلك تمحو ما تعرفه وما أنت واثقٌ منه. ثم تبدأ بإعادة التفكير، لا بعقلك هذه المرة، بل بقلبك.

من بين كلّ الصوفيين الذين قرأتهم، شعراءَ وفلاسفة، خلال تلك السنوات، اثنان منهم فقط حرّكاني من العمق: جلالُ الدين الرومي، ورفيقه الروحي، الأسطورة شمسُ الدين التبريزي. عاشا في القرن

الثالث عشر في بلاد الأناضول، في فترة زمنيّة مشروخة بالثنائيات وممزوجة بالتصادمات، وقفا لترسيخ روح كونية، فاتحين أبوابهما للناس من كل الخلفيات الثقافية. تكلّما عن الحب كجوهر للحياة، فلسفتهما الكونية ربطت الناس جميعًا عبرَ المعمورة، من كل الثقافات والمدن. حين كنت أقرأ «المثنوي»، كانت كلمات جلال الدين الرومي تخلع الأيديولوجيات التي وضعتها على كتفي شالًا شالًا، الأيديولوجيات التي وضعتها واحدةً فوق أخرى وكأنني كنت في حاجة إلى دفء من نوع مّا يأتي من الخارج. فهمتُ أنني مهما كانَ الذي اخترتُ أن أكونه في حياتي، يساريّة أم نسويّة أم أي شيءٍ آخر، فإنّني لا أحتاج إلى غير الاتصال الحميم بالضوء الذي في داخلي. ضوء الحقيقة الموجود داخلنا جميعًا.

هكذا بدأ اهتمامي بالصوفية والروحانية، اهتماما ظلّ يمتدُّ وينحسرُ عبرَ السنوات. تمرُّ عليَّ أوقاتٌ تظهرُ فيها الروحانية الصوفية ملموسةً وحيّة، وأوقاتٌ أخرى تختبئ وتتلاشى خلفي، خافتةً وممتمة، مثل بقايا شمعةٍ لا تزالُ تشتعل، ولكنها لم تختفِ أبدًا من كل مراحل حياتي.

وهذه هي الحال، لماذا الآن، بعد أن التهمتُ الكثير من الكتب عن الصوفية والروحانية والفلسفة الدينية، بعد أن مررتُ بالغض والسمين مع السيّدة الدرويشة، أشعر مرةً أخرى بأنني تلك الفتاة الجبانة في مدينة سميرنا؟. في تلك الأيام، لم أكن أستطيع رفعَ وجهي إلى السماء خوفَ أن يكون الله ينظر إليّ وحواجبه معقودةً فوق عينيه. هل هذا هو ما عليه الاكتئاب- الشعور بالغرق لأنّ اتصالك بالله قد انقطع وقد تُركتَ وحيدًا لتطفو في فضاءٍ مائع أسود، مثل رائد فضاءٍ انفصلَ عن مركبته وانقطع عن كلّ ما يربطه بالأرض؟.

الفصل السادس

عذوبة غامضة

جنيٌّ في الغُرفة

في إحدى صباحات نوفمبر، نهضتُ من النوم، شاعرةً بأنّ هناك وجودًا غريبًا في الغرفة. تبلُغُ طفلتي الآن من العمر شهرين، وقد صارت تنامُ بشكل أفضل. هناكَ ضوءٌ غسقيٌّ يتخللُ الستائر منسكبًا في الغرفة، وصوتٌ هامسٌ في الفضاء، وشذا عطر في الهواء. جاءتني رجفةٌ كأنني دُفعتُ للدخول فجأةً إلى إحدى روايات موراكامي السريالية.

هناك مخلوقٌ في الزاوية- ليس بشريًا، ولا حيوانيًا، لا يشبه شيئًا رأيته في حياتي من قبل. إنه رماديٌّ قاتمٌ مثل سُحُب العواصف، وطويلٌ كبُرج، ومُراوغٌ مثل أفعى بوي تاتا. شعره أسودُ طويلٌ ومعقودٌ مثل ذيل الحصان، سوى خصلةٍ بيضاء تركها حُزّة من العقدة. تلمع في إحدى أذنيه جوهرةً بحجم حبّة البندق. وجهه صغير، له لحيةٌ مثل لحية الماعز، قصيرة، ولكنّ عينيْه الناريتيْن تبدوان كبيرتيْن خلف نظاراته المؤطرة بإطارٍ معدني. تمدّدَ للحظة، بلغ رأسه السقف، ثم تمدد أفقيًا من أوّل الغرفة حتى آخرها. ومثل دخان سيجارٍ كبير، هوّمَ في هواء الغرفة. في يده قصبةٌ جميلة، وعلى رأسه قبعةٌ ينسدلُ منها خيط.

ثُمّ ميّزتُه وعرفته، إنه أحدُ الجِنّ الذين حذّرتني منهم أمُّ أمي في طفولتي. لا أعرفُ شيئًا عن جنسهم، ولكن هذا الجنّيّ يبدو شاذًا بالنسبة إليّ.

سألته متضايقة:

- من أنت؟

أجابني بفروسيّة وشهامة:

- آه، ألا تميزينني؟

كأنه فارسٌ شجاع، وكأنني آنسةٌ واقعةٌ في مشكلة:

- لا لم أميزك، ماذا تريد؟

قالَ بميوعةٍ بعض الشيء:

- أرجوكِ.. يا فاتنتي، ألست تعرفين شيئًا عن الجني الذي يلاحقُ الأمّهات الجديدات ويصطادُهنّ؟

فوجئتُ، أخذتُ نفسًا عميقًا وسَخُنَ وجهي:

- بلى، أخبرتني جدّتي عن جنيٍّ يُسمّى القارصة، معروفٌ بالتحرش بالأمهات حديثات الولادة.

انفجر ضاحكًا:

- الزمن يجري سريعًا، يا فاتنتي. القارصة تقاعدت منذ زمن بعيد، هذه مدرسةٌ قديمةٌ جدًا. لم يعُد أحدٌ يعرفُ عنها أيّ شيءٍ اليوم. لن تُدرجَ أبدًا في قائمة العَشر الأوائل!.

فوجئت بأن للجن أيضًا قائمةً للعَشر الأوائل! لكن بدلًا من سؤاله عن هذا الأمر، علّقتُ:

- لم أكن أعرف أنكم تتقدمون في العمر..

استلّ منديلًا من جيبه، وراح يفرك نظارته:

- بالطبع نشيخ، ولكننا لم نفقد عقولنا بحُقن البوتوكس وكريمات الوجه مثلكم.. على الأقل ليس بعد.

نظرتُ إليه عن قُربٍ أكثر. أظن الآن أنه ليس شابًا كما يبدو من مظهره..

ارتدى نظارته مرة أخرى، وأكمل:

- لا نتقدم في العمر طبعًا بنفس السرعة التي تشيخون بها أنتم أيها الفقراء، يا بَني آدمٍ وبنات حواء. عَشرُ سنواتٍ عندكم تساوي عندنا..

حسَبَ بعض المعادلات في رأسه ثم قال:

- تساوي 112 سنة من زمن الجن. لذا، الجني الذي عمره 100 عام لا يزال طفلا عندنا. أما بالنسبة إلى القارصة، كيف أشرح لك الأمر؟ فاسمها مُرادفٌ للنوستالجيا..

- هل تعرفون الحنين يا معشر الجن؟

- ليس نحن، بل أنتم!. ألم تري قط فيلمًا من أفلام ديزني؟ إنهم يستخدموننا كديكور. أعني، ما القصة وراء الجني في المصباح؟ نحن نعيش في القرن الحادي والعشرين! أهلًا! لا أحد منا يتمشّى في المصابيح منذ زمنٍ بعيد.

سألته مشعلةَ الفتنة:

- هل تجدُ أفلام ديزني –سياسيًا- غير مقبولة؟

اشتعلَ مُجيبًا:

- أنتم، أيضًا، متشمرون بالمثل لو تمّ تصوير جنسكم على أنه قصيرٌ وبدينٌ ومتكرّش، أزرقُ ومُخيف، ببناطيل فضفاضة وطرابيش على الرأس. ألا ترين أننا جميعًا نجري مع العصرِ؟ إني أذهبُ إلى النادي الرياضي أربعة أيامٍ في الأسبوع، ولا يحملُ جسدي أيّة دهونٍ زائدة.

- من أنت بالله عليك؟

مثل جنتلمان أنيق، رفع قبعته وانحنى لي مُقدّمًا نفسه بابتسامةٍ

لم تكن بريئة:

- اعتذاري العميق لك لكوني نسيتُ التعريف بنفسي. أنا خادمك المطيع، جنيُّ اكتئاب ما بعد الولادة، والمعروف باسم لورد بوتون.

شعرتُ ببرودةٍ تسيرُ في عمودي الفقري. سألته عارفةً أنني لا أريد سماع الإجابة:

- ماذا تريد؟

- تسألينني ماذا أريد؟ من الجيّد أنك طرحتِ هذا التساؤل.. أمنياتي هي أوامرك.

- إممممم.. أليس من المفترض أن يكون الأمر عكس ذلك؟.

- كما أخبرتك، انسي هذه الكليشيهات الموروثة. لنتعارف بشكلٍ أفضل.

لورد بوتون مخلوقٌ مراوغ لم أستوعب وقتها كم يبدو مُريبًا. في أيامنا الأولى معًا، كنت أراقبه من باب الفضول، لا من باب القلق. لم ألاحظ أنه يستوطن المكان هنا خلال ذلك الوقت، جاعلًا نفسه في منزله!. ومن ثم، في يومٍ ما، قدّمَ لي صندوقًا يشبه صندوق الأمانات.

- ما هذا؟

قال مبتسمًا:

- إنه هديتي لك. ألست تتذمرين دومًا من أنك تعبتِ من إزعاج نسوة الأصابع لك، ذلك الإزعاج الذي لا ينتهي؟

قلت بتردد:

- بلى، ولكن..

- جيّد، سأحبسهن جميعًا هنا وآخذهنّ بعيدًا عنك ولن يُقلقوك

بعد الآن..

اعترضت:

- انتظر لحظة.. أنا لا أريد فعل ذلك.

لكنه لم يسمع مني، وهمسَ لي كأنه يحادث نفسه:

- أمنياتي هي أوامرك.. تذكري ذلك.

ثم مدّ أظفارَهُ الملوّنة بالمناكير وراح يستلّ أعضاء جوقة أصوات الفوضى واحدةً تلو أخرى من داخلي.

أوّل من اصطادها كانت صاحبة الجلالة التشيخوفية الطَّمُوح:

- انتظر، ما الذي تظنّ أنك فاعله؟

هكذا صاحت وعاتبَته وهو يرفعها من ياقة قميصها ويجبرها على الدخول إلى الصندوق.

- لديّ أمورٌ مهمةٌ لأقوم بها! دعني وشأني!

جاء بعدها دور الآنسة العمليّة القصيرة. ظننتُ أنها ستُسلّم بالأمر دون أدنى مقاومة أو معارضة. ولكن، يبدو أنها وجدت الشتم واللعن خيارًا عمليًا أكثر. فقالت وهي تجيش بالغضب:

- هيه أنت! من تظن نفسك؟ هاه؟ أيها المخبول، أبعد يديك عني..

أمّا السيّدة الدرويشة، فقالت وهي تسيرُ بهدوءٍ وكرامة نحو الصندوق:

- رجاءً دون عنف، سأذهب حيث عليّ الذهاب..

قالت بلو بيلي بوفاري وهي تمدُّ شفتيها، وتميلُ برأسها إلى جهةٍ واحدة:

- حبيبي، بوتون، لمَ العجلة؟ لمَ لا نتحدث أولًا تي تي آ تي تي؟ أنا وأنت فقط. هل أستطيع أن أدعوك بوتي؟

حاولَت استنفار كلّ حيلها الأنثوية لتنجو بنفسها. لكن رغم كلّ الجهود التي بذلتها، فقد وُضِعَت في الصندوق هي أيضًا.

قالت ماما الرّز بالحليب راجيةً الجنّي:

- ولكن هناك على النار حساء عدس! لا تستطيعُ اعتقالي الآن!.

وأخيرًا جاء دور الآنسة المثقفة الساخرة:

- تدعو نفسك «لورد» وتظنّ أنّك تمثّل شمس الكآبة السوداء؟. ولكن يبدو أنّك نسيت أن تلك الشمس نفسها ليست مكوّنة من طاقة تدميرية وحسب. كما قالت جوليا كريستيفا: الكآبة هي الغرامُ الشغوف للباطن الحزين.

- هاه؟

تساءل لورد بوتون وقد بدت عليه الحيرة. ولكنّه دفعها إلى الصندوق على أيّة حال.

هكذا، وجدَ أعضاء جوقة أصوات الفوضى أنفسهنّ في حَبس صندوق مغلق. الصمت في المنزل مُقلق.

قالت لورد بوتون والعذوبة في صوته تناقض نظرته الحادة:

- لقد ذهبنَ جميعًا إلى غير رجعة.

- نعم، لقد رحلن.

- منذ الآن فصاعدًا، لا وجود لأحدٍ حولك يصيح عليك. لن تسمعي سوى صوتي. أليس هذا رائعًا؟

حاولت أن أشاركه ضحكته، ولكنها لم تصعد من حلقي. فقدّرت الوضع الجديد بسرعة: السلطة مُركّزةٌ في دكتاتور واحد، منع الأصوات المختلفة في الرأي بالقوّة، استعمالٌ مُنظّمٌ للبروباغندا، طاعةٌ عمياء

للقائد... كل العلامات موجودة هنا. هكذا حلّل علماء السياسة بتوسع العلاقة بين الفاشية والاقتصاد. وفي حالتي، هناك علاقة بين الفاشية والاكتئاب النفسي.

الآن أعرفُ، بعد حكم الأقلية والحكم العسكري، وحكم الفوضى، أنّ الأوان قد حان لأيّام الفاشية.

الأنثوية كحكايةٍ ناقصة

لا تُذكَر اليومَ لو أندرياس سالومي كمؤلفة ومثقفة مستقلة بذاتها، أكثر من كونها تلك المرأة البرّاقة الإشكالية التي وقفت خلف العديد من كُتّاب الرسائل الأقوياء في الأدب. تمّ تصويرها في دراسات التاريخ الأدبي بوصفها الموحية التي ألهمت ريلكة ونيتشة وفرويد النظرَ إلى النسوية والأنثوية بنظرةٍ أكثر قُربا وابداعا. وعلى الرغم ممّا تُثيره هذه التوصيفات لسالوميّ وغيرها، فإنّها لا تُنصِف رؤى سالومي وطلاقتها. كانت في وقتها من أشهر المشاهير، وهو ما يُصَعِّب علينا فهم السبب وراء خفوت حضورها وحضور رواياتها ومسرحياتها في زمنِنا الآن ونسيانها بشكلٍ واسع. خاصّةً، وقد كتبت بالإضافة إلى الروايات والمسرحيات، مقالات تأمليّة لا تُحصى ولا تُعدّ في مجالات واسعة من المواضيع كالفنون الروسية والفلسفة الدينية، والجنسانية في المسرح.

وُلدَت في سانت بطرسبرغ، وهناك ترعرعت بين خمسة إخوة وكانت المحبوبة والفُضلى عند أبيها. كانت موهوبة منذ طفولتها برواية الحكايا، ولكنها وجدت من الصعب أن تهجُرَ بعد ذلك شخصياتها الخيالية التي ابتكرتها وتقذفها إلى النسيان. شعرت بالذنب لتركها تلك الشخصيات. هذه الرّقة التي تلوم بها نفسها على أمورٍ لم تكن هي نفسها مسؤولة عنها قط، ستبقى معها، تتلبّسها طوال حياتها.

وصلت سالومي إلى زيورخ عام 1882م وعمرها تسعة عشر عاما

فحسب. كانت جميلة، ومتألّقة، وجَسُور. ولم يطُل بها الوقت حتى استُدرجَت إلى دوائر الطبقة الأولى حيث يلتقي قادة الدراسات الأكاديمية في أوروبا وأعظم الفنانين. اشتبكَت معهم في نقاشات حامية، مُباغتةً الجميع بشخصيتها الواثقة وحماستها للتعلم. بالنسبة إليها، لم تكُن النساء مُجَرّد مُتعة للرجال أو شخصيات ثانوية صامتة وعالقة في أعمال المنزل وواجبات الأمومة. المرأة عندها إيجابية، مُبدعة، وخالقة مُستقلة بذاتها- لا مجرّد مصدر للإلهام، ولهذا فإن المرأة ليست عاملا إيحائيًا بالضرورة. آمَنَت سالومي بأنّ كل محاولة للسيطرة على النساء تؤدّي إلى تدمير أنوثتهن الطبيعية والمُبدعة.

عَشقَهَا ريلكة، رأى في سالومي تجسيدًا ساميًا للأنوثة. وتحت إلهامها، قرر ريلكة أن الفنان، رجُلًا كان أم امرأة، عليه أن يُطلقَ الطاقة الأنثوية التي بداخله. فإنتاج عملٍ فنيٍّ يشبه تقريبًا الحملَ بطفل، لأنّ الفنّان وهو يكابد مخاض عمله الإبداعيّ، يَلِدُ أفكارًا جديدةً ورؤىً مختلفة. قال ريلكة مرّةً:

«ستوجَدُ المرأةُ يومًا ما، في زمنٍ لا يعني فيه اسمها شيئًا عكس الذكورة وحسب، بل شيئًا خاصًا بنفسه، شيئًا يُفكَّر فيه ويوصَف بكلماتٍ لا تهدف إلى التحديد والشمول، بل إلى الحياة والوجود».

الموقف الساخر والمتناقض هنا هو أن سالومي، لاحقًا، هي من أقنعت ريلكة بأن يغيّر اسمه لأنه يبدو مُخنّثًا بشكلٍ لا يُطاق. «رينيه» التي في اسمه، غُيِّرَت إلى «راينر»، ولكن ريلكه لم يقبل أن يُسقط اسم «ماريا» عن اسمه. ولهذا صار اسمه الكامل راينر ماريا ريلكة.

كانت لسالومي علاقة عاطفية طويلة مع المؤلف بول ريي، ولاحقًا تزوجت من عالم اللسانيات الأكاديمي كارل فريدرش آندرياس. وعلى الرغم من أنّها أصبحت امرأةً متزوّجة، فإنّ ذلك لم يخفف من نقدها

الحاد تجاه الزواج البرجوازي. وقد ظلّت تُقدم على نزواتها مع الرجال بشكلٍ علني، رجالٌ صَدَف وأن كانوا جميعًا مثقفين أو خبراء بالفنون. وحقيقة أنها كانت متزوجة وحظيت بعُشّاقٍ كُثُر في نفس الوقت، تجعل من الصعب علينا معرفةَ كيفَ بقيَت عذراء لسنوات طويلة. ولم يتسبب ذلك في إنهاء زواجهما. الكاتبة القويّة والمستقلة والمفكّرة كانت إمّا خائفةً من الجنس، وإمّا مفرطةً إفراطا يجعلها تهب نفسها لأيّ أحدٍ آخر غدًا نفسها.

قال نيتشة مرّةً:

«الرّجُل بالنسبة إلى المرأة مُجرّد وسيلة: فالأمر ينتهي دائمًا بطفل».

لكن هذا الكلام لم ينطبق على سالومي. ليس لأنها لم تُرد أن تحظى بأطفال. فقد أرادت ذلك. بل إنّها رفعَت من شأن الأمومة حتى جعلتها النداء الأعلى والواجب الأعظم للنساء. لذلك كان غياب الأطفال عندها مصدرَ ندم وأسى، حتى أنها تكلّمت عن الأمر بصراحة، وأحيانًا أخرى بخشونة وتأثر. لقد تصوّرت الرابطة التي تربط الأم بطفلها بوصفها ما ينبغي أن تكون عليه كل الروابط الحقيقية التي تربط الأنا بالآخر.

ولكنها أحبّت الرجال. أولئك الذين تُعزّهم لم تنظر إليهم قط على أنهم وسائل لأيّ شيء. فقد كان كل واحدٍ منهم في نظرها عالمًا لوحده. ومثل ربّة منزل تذوق متعةً خاصة وهي تكوي القمصان وتضغط على ياقة كل قميص لتُسوّي التعرجات فيه، كانت سالومي تفعل الأمر نفسه بالرجال وتسوّي شخصياتهم بأناة ما بعدها أناة. كانت كاتبة مبدعة، رائية وجدليّة وذات آراء صادمة. لذلك فإنّ كلّ من أحبّها -وأغلبهم رجال- أحبّها بعمق، وكلّ من كرهها -وأغلبهم نساء- كرهها بالعمق نفسه أيضًا.

مارغريت دوراس- رائدة الأدب الفرنسي بالنسبة إلى الكثيرين- وُلدَت في سايغون عام 1941م. كان أبواها كلاهما مُعلّمين هناك، يعملان للحكومة الفرنسية. فقدت والدها في عمرٍ صغير، فذهبت والدتها للسُّكنى في آيدوشينا مع أطفالها الثلاثة. لم تَعِش الأسرة حياة سهلة، وكانت هناك صعوبات مالية عمّقتها النزاعات الأهليّة والصراعات. عندما بلغت مارغريت سنّ مراهقتها، أقامت علاقةً عاطفيةً مع رجُلٍ صينيٍّ واسع الثراء، تجربةٌ كتبت عنها بشساعةٍ في رواياتها ومذكراتها.

عند بلوغها السابعة عشرة، ذهبت إلى فرنسا، حيث تزوجت وكتبت الروايات والمسرحيات والنصوص السينمائية والقصص القصيرة والمقالات. تحرّكَت بحُريّةٍ وحذق بين هذه الأنواع الأدبية. عندما كتبت: «جدار البحر»، الكتاب الذي استند فيه إلى طفولتها في آيدوشينا، تعرّضَت هي وأمها إلى الكثير من المماحكات بسبب التصوّر الذي طرحته عن عائلتها. قالت:

«سيجدُ بعض الناس الكتابَ مُحرجًا بطريقةٍ ما، وهذا لا يقلقني، لم يبق عندي شيء لأخسره، ولا حتى حشمتي ولياقتي».

هناك مشهدٌ في مذكراتها حيث تجلسُ أمها في الطابق العلوي تقرأُ الكتاب لأوّل مرة، والكاتبة مارغريت تنتظر في الطابق السفلي بفارغ الصبر موافقتها على نشره. عندما نزلت الأم الدرج، كان وجهها عابسًا مُظهرًا عدم إعجابها بما قرأت. لقد اتهمَت مارغريت بأنها تشوّش الحقيقة وتتلاعب بالقُرّاء. دافعت مارغريت عن كتابها، وعن حقها في مزج الحقيقة بالخيال.

لو كان الماضي أرضًا بعيدة، فإنها هي الأرض التي لطالما زارتها مارغريت، عائدةً منها بذكرياتٍ مختلفة عن الحدث نفسه! قالت:

«لا سبب آخر يُملي عليّ كتابة هذه الذكريات سوى غريزة الكَشف..»

علاقتها العاطفية وهي مراهقة مع ثريٍّ صيني يكبرها باثني عشر عامًا ظهرَت أولًا في كتابها: «المُحب». ولكن الحكاية نفسها راحت تتغير كُلّما استدعتها من كتاب إلى آخر. لم تخجل مارغريت من كتابة نفس الثيمات وإعادة طَرقها مرةً بعد مرة، فقد كانت كاتبةً غزيرة الإنتاج. وبعد اضطرابات 1968م، أخذت كتابتها تنحو منحىً سياسيًا، مُترادفةً مع روح المرحلة، وَسَمت أحد كتبها بـ: «دَمِّر، هكذا قالت».

فقدت أحد أطفالها وحملت آلام هذا الفقد وعذاباته طوال حياتها. طفلها الثاني هو من شَكّلَ لها منعطفًا في حياتها بعد قضاء فترةٍ من الجَري المتواصل من عملٍ إلى عمل، وهي تنهض بواجبات الأمومة، وأعمال المنزل، ومهام الكتابة أثناء النهار، وتشرب وتختلط بالناس أثناء الليل، لم تُرِد أن يفوتها أي أمر. انفرطَ زواجها مع ضغوطات مستمرة من مصادر مختلفة. انفصلت عن زوجها ولكنهما لم يتفرّقا- كانا يقضيان الوقت معًا، يرعيان تعليم طفلهما- ثمّ دخلَت في علاقات عاطفيةٍ فيما بعد- لقد كانت امرأةً لا تستطيعُ فعلَ شيءٍ دونَ حُبّها للرجال وكتابتها للكتب.

شغفها بالكتابة جديرٌ بالثناء، ولكن شخصيتها طغَت على كتاباتها لاعتزازها بنفسها واستهلاكها لنفسها أيضًا حدّ الأنانية. أحبّت أن تُمدَح وأن تُحَب، وأبقت على روحٍ منافسة وامتلاكيّة حتى النهاية. لم تكن تتحدث مع أكثر من عضوٍ من أعضاء عائلتها طوال حياتها وكانت مُنتقَدَةً بشكلٍ واسع من قِبَل النقاد وطلاب الدراسات بسبب نرجسيتها المفرطة. عانت، في فتراتٍ متقطعة من حياتها، من نوبات تأنيبٍ للضمير والشعور بالأسى وشرب الكحول.

ريبيكا ويست، روائية وناقدة أدبية، وكاتبة رحلات وصحافية. ولدت عام 1892م باسم سيسيلي إيزابيل فيرفيلد، وقد تبنّت اسمها المستعار الذي تُدعى به من مسرحيّةٍ لإبسن تُدعى «روسمرشولم». بدأت حياتها المهنية ككاتبة عمودٍ صحفي في صحيفة تطالب بحق المرأة في الاقتراع. منذ صِباها، احتضنت المفاهيمَ النسوية والاشتراكية المتطرفة. وعلى الرغم من كونها راجعت رؤاها وآراءها وهي تتقدم في العمر، فإنّ ما تحمله من هَمٍّ عن العدل الاجتماعي والمساواة قد استمرّ معها طوال حياتها. في العام 1913م، قابلت روائيًّا مشهورًا يُدعى هربرت جورج ويلز بعد أن كتبت مُراجعةً أدبيّةً لاذعة لروايته: «الزواج». سقطا في الحُب، رغم أنّ ويلز كان يكبرها بستة وعشرين عامًا. استمرّت علاقتهما عشر سنوات، وأنجبت منه ابنًا عام 1914م، ابنها الوحيد، ويُدعى آنثوني.

شاقةً طريقها كأُمٍّ عزباء منذ انفصالها، بدأت ويست بكتابة مقالات نقدية لصحف ومجلات عديدة. صارت واحدة من مثقفات الصفِّ الأول ومن أشهر الروائيات. ولكن، في حياتها الخاصة، لم تكن سعيدةً دائمًا وناجحة. علاقتها بويلز استمرّت في صعودٍ وهبوط، ودخلت في علاقات عاطفيّة أخرى. كانت تشبه، على نحوٍ ما، لو أندرياس سالومي؛ امرأةٌ متوقّدة الذهن في دوائر ثقافية وفنية ونقدية رجالية، صديقةٌ وعاشقة.

كانت علاقتها بولدها متصنّعة حتى آخر أيام حياتها. كان آنثوني ويست كاتبًا هو نفسه، كتبَ مذكرات عن حياة أبيه وقد اشتهرت على نطاق واسع، لكنها لم تُسعد أمه. اتهمت ريبيكا ويست ولدها بمجافاة الحقيقة ومشاركة ذكريات خاصة، والأشد وطأة، هو وصمها بالأم السيئة والتقليل منها. قامت بمقاضاته في محاولةٍ منها لمنع الناشر

من نشر كتابه: «التَّرِكَة». ربما ما آذاها أكثر من أي شيء آخر هي أنها قامت بتربيته وحيدة بينما كان والده غائبًا طوال الوقت، ورغم ذلك، كتب أنثوني عن والده مُفضّلًا إياه على أمه. ظهرّت إلى السطح اتهامات متبادلة، و لم تندمل الجروح قط. عندما ماتت ريبيكا ويست عام 1983م، لم يكُن ابنها معها. بعد وفاتها، نشر أنثوني ويست كتابه: «التركة»، ونغمته الناقدة لم تتغير تجاه أمه، بل صارت أشد ضراوة.

قالت سيمون دي بوفوار مرّةً:

«الأنثوية ليست حقيقةً ثابتة ومتجسّدة، ولكنها صيرورةٌ نحو الحقيقة، ومن خلال هذه الصيرورة تحديدًا تجب رؤيتها والتعرف على خياراتها..»

لو أندرياس سالومي، مارغريت دوراس ، وريبيكا ويست، ثلاث نساء قويات بحكايا مختلفة ولكن نفس الحياة العاصفة، جميعهن تعاملْنَ مع أمور الجسد والحب والنسوية، حيث الأنثوية في ذلك كلّه «صيرورة».

مثلنا جميعًا معشر النساء.

غريبٌ في المرآة

يجب أن يُشَرّع قانونٌ يمنعُ الناس الذين يمرّون بالاكتئاب من النظر إلى المرآة. يجب إيقافهم، لمصلحتهم هم، من النظر إلى انعكاساتهم حتى يصيروا بعيدين تمامًا عن غمّهم وكآبتهم. وإن كان على مُصابٍ بالاكتآب أن ينظر إلى المرآة تحت أيّ سببٍ قاهر، فليفعل ذلك بسُرعةٍ خاطفة. المرايا هي أخطر الأشياء الموجودة حولك عندما تكون ثقتك بنفسك قد غرقت حتى القاع وعندما تكون روحك مسقوفةً بغيوم سوداء.

وها أنا كذلك حتى الآن، وحيدة في الغرفة، أحدّق في مرآةٍ لزمن بدا وكأنه الأبدية. كانت مرآةٌ دائريةٌ انحفرت على إطارها الفضيِّ أزهارٍ وبراعم، وعلى صفحتها انعكست صورةامرأةٍ شابة تُحدّقُ فيَّ بالمثل. شَعرُها غير مغسول، وجسدها يشبه تلك العرائس المصنوعة من حَشوِ الأقمشة، وعيناها حزينتان بعمق. لم أرفع عنها نظري، ظللتُ أدقّق في هذه الغريبة المألوفة بفضولٍ يتصاعدُ غضبًا. ولأنّ وجهها كانَ جديدًا عليّ، فلم أستطع كبح رغبتي في معرفة المزيد عنها. ولكنني كنت مرعوبةً منها في نفس الوقت، لأنها على نحوٍ ما أخذت مكاني. أمرٌ واحدٌ كنت واثقةً منه: كانت المرأة التي في المرآة تغرق، وإذا غرقَت عميقًا، ستأخذني معها دون شك.

في بعض المناطق التركية، تؤمن العجائزُ بأن المرايا ليست أغراضَ ديكورٍ وزينة، ولم تكن كذلك قَط. ولهذا لا يكتفين بزخرفة وجه المرايا

فحسب، بل يزخرفن ظهرها أيضًا، ثم يعلّقنها على الحائط مقلوبة، أي أننا نرى ظهرها، لا وجهها. ومتى ما صارَت هناك حاجة لاستخدام المرآة وإعادتها إلى وضعها الصحيح، تُغطّى أولًا بقماشة سوداء، يُفَضّل أن تكون من مخمل أسود أو أحمر. تُزيحين القماشة جانبًا لتختلسي نظرةً على نفسك وأنت تصففين شعرك أو تضعين الكحل، ثم تعيدين الستار إلى مكانه. كان يُظَنُّ دومًا بأن سطحَ المرآة خطيرٌ جدًا وعليه ألاّ يُترَك مكشوفًا هكذا لمدة طويلة. إنها عادةٌ شرقيّةٌ قديمة، نُسيَت هذه الأيام. ولكن لا تزال هناك جدّاتٌ كثيرات يرينَ في كلّ مرآة بوّابةً نحو الغياهب والمجاهيل. إذا نظرتَ إلى مرآة لمدّة طويلة، هناك احتمالٌ كبيرٌ بأن البوابة ستنفتحُ بغتةً وتجذبك إليها.

هناك كلماتٌ حول العالم يتداولها الناس مثل العُملة المحلية. شرقًا وغربًا، أينما تذهب، تتشابه الكلمات بشيء من التفاوت في كل لغة وثقافة. «التلفزيون» و«التليفون» هي أشهر الأمثلة، «الإنترنت» مثلٌ آخر، و«دبرشن» (depression = الكآبة) أيضًا!.

وعلى أن «دبرشن» منتشرة في كل اللغات، يبدو أنّ هناك اختلافات ثقافية في فهمها، وهي اختلافات جديرة بالتأمل. ففي التركية، مثلًا، يقول المرء إنه «واقعٌ في الكآبة» ولا يقول إنّه «مصابٌ بالاكتئاب». تستخدم الكلمة كأن الكآبة مكانٌ ما، لا حالة ذهنية. كأنها دهليزٌ مُظلمٌ بوميض خفيف يريك أبعاد المكان. لهذا، يُعتَقَدُ بأن المصاب بالاكتئاب ليس «هُنا»، ولكنه هناك في «المكان الآخر»، معزولًا عنا بحيطانٍ زجاجية.

لا يمسي المكتئبون في مكانٍ آخر وحسب، بل حتى علاقتهم بالوقت تصبح مشوّهة. لا يُرتّب الاكتئاب سوى قطعةٍ واحدة من الوقت:

الماضي. ولا يبدأ الحديث سوى بمفتتح واحد: ماذا لَو؟. اتصال المكتئبين بالحاضر ضعيف، إنهم يعيشون بشكلٍ متّصل في ذكرياتهم، يُخيون كُلّ ما جاء ورحل. مثل فئرٍ يركض داخلَ دولابٍ دوّار، أو ثعبانٍ ابتلع ذيله، إنهم عالقون في دائرةٍ من الأسى.

تلك كانت، إلى حدٍّ ما، حالتي الذهنية لأسابيع. أمرٌ ما انصدعَ داخلي، شيءٌ لم أستطِع أن أضع يدي عليه لأجُسّه، ومن ذلك الشْق في داخلي، راح يطفحُ كلُ القلق والريبة التي جمعتها طوال حياتي، عامًا بعدَ عام، دون أن أستطيع إيقاف أيّ شيء.

كنتُ في الثامنة عندما بدأتُ بكتابة القصص. عادت أمي إلى المنزل في إحدى المساءات ومعها دفترٌ تركوازي وسألتني أن أكتب يومياتي فيه لو كنت أستطيع. مستعيدةً تلك الذكرى الآن، أعتقدُ أنها كانت قلقةً بشأن صحّتي العقلية!. كنت أروي القصص بشكلٍ متواصل، وهو أمرٌ جيّد، عدا أنني كنت أحكيها لأصدقاء متخيلين، وهذا سيّئ إلى حد ما. لذا ظنّت أمي أنها تُحسنُ لي الصنيع عندما تجعلني أكتب ما أمُرُّ به يوميًا من تجارب ومشاعر.

ما لم تعرفه هو أنني كنت أشعرُ حينها أن حياتي مملّة إلى حدٍّ بعيد. لذا، كان آخر ما أردتُ فعله هو أن أكتب عن نفسي. وبدلًا من ذلك، بدأتُ الكتابةَ عن أناسٍ غيري وعن أمورٍ لم تحدث أبدًا. هكذا اشتعل عشق حياتي كلها لكتابة القصص، القصص التي لم أنظر إليها منذ ذلك الحين على أنها شكلٌ للتذكر، بل شكلٌ للتسلل والترحُّل لحيوات أُخرى، لمصائر مختلفة.

ولكنني الآن أشعرُ كأنني أُميّة. الكلماتُ التي رافقتني عُمري كله، هجرتني وذابت في رسائل رطبة، مثل خيوط الشعيرية في حساءٍ من الحروف.

مع مرور الوقت، بدأت حالتي تظهرُ لمن حولي. قال البعض: «يبدو أنك تعانين من انغلاق الكتابة. لا تقلقي، يحدث ذلك للجميع. ستمر على خير».

آخرون قالوا: «ذاك لأنك مررتِ بأيّام عانيتِ فيها كثيرًا. لقد استُدعيتِ إلى المحكمة بسبب كلماتك عنْ الأرمَن في رواية «لقيطة اسطنبول»، وقد كنتِ في آخر أيام حملك وقتها، كانت تجربةً قاسية وقد دفعتِ ثمنها».

أمّ أمّي قالت: «كآبتك سببها عينُ الشيطان. عسى أن تنغلق عيون الخُبث تلك!».

زُرتُ مُعالجًا روحانيًا قال لي: «مهما كان السبب، عليك أن تحتضني قنوطك وأن تتذكري، لا يُحمّلنا الله أكثر ممّا نحتمل».

وأخيرًا، استشرتُ طبيبًا قال لي: «أهلًا بك في اكتئاب ما بعد الولادة. لنبدأ بأخذ قرصين من السيبرلكس يوميًا، ولنشاهد ما يحدث. لو شعرتِ بأيّ تغيرٍ في مزاجك، أخبريني عنه فورًا».

- شكرًا أيها الطبيب.

وضعتُ الأقراص في جيب قميصي. سيبرلكس، زاناكس، بروزاك... المشكلة هي، لو أنني بدأتِ بأخذ هذه الأقراص كلها، سيؤثر ذلك في حليب ثديي، وقد أردتُ أن أرضعَ ابنتي رضاعةً طبيعية.

ظُهرَ ذاك اليوم، في المنزل، فكّرتُ مليًا في هذه المعضلة، وقررتُ أن أعطي أقراص السيبرلكس للزهرة الوردية التي أضعها في المطبخ؛ قُرصًا في الصباح، وقُرصًا في المساء، وعلى معدةٍ فارغة. وكُلّ يومين، تأخذ الزهرةُ الأرجوانية في غرفة المعيشة نصيبها من الزاناكس. ولأربع مرّاتٍ في الأسبوع، أضعُ البروزاك في تُربة الغاردينيا وأسقيها

بالماء لأُسهّل عليها الأمر.

لم يمضِ شهران حتى انقلبَ لونُ زهرة المطبخ إلى البنفسجي الغامق، أما أوراق زهرة غرفة المعيشة فبدت مُخدّرة، لا تستطيع أن تشعر بأي شيء. الغاردينيا كانت الأكثر انقلابًا وتحولًا. يا لها من وردة تلك التي صارت إليها- مرحة ومزدهرة! تلقي النكات، تقهقه من الفجر حتى الغروب.

أما مزاجي، لو تحدثنا عنه، فبقيَ على حاله.

لورد بوتون وعائلته

إنّه لمن المعروف اليوم أنّ الأمّهات الجدد يمشنَ حالةً من تخبّط المشاعر، يُصَبْنَ بها بعد الولادة، في الفترة الأولى من الأمومة. ولكن القليلات منهن، في الحقيقة، من يصلُ بهنّ الأمر للتعرف على لورد بوتون، فأغلب النساء يتعثرنَ بابن شقيقه الغض البريء، وهناك عددٌ أقل من النساء من يتعثرن، لسوء حظهنّ، بعمّه النزق.

1- بلوز الطفل (ابن شقيق بوتون)

بلوز الطفل هو اختلالٌ طفيفٌ في المشاعر، قد يحدث فورًا بعد الولادة. إنه غير مؤذ، ويكثر الزيارة إلى أقسام الولادة. ابن شقيق بوتون هذا لا يُعتبر ضارًّا ولا تهديدًا حقيقيًّا.

2- ذهان ما بعد الولادة (عَمّ بوتون)

هذا أخطرُ إنذارٍ للتحوّل النفسيِ الذي قد تخوضه المرأة حديثة الولادة. أولاء اللواتي يصلن إلى مرحلة الاتصال بعَم لورد بوتون قد ينتهي بهنّ الأمر إلى إيذاء أنفسهنّ أو أطفالهن أو ما يُحيطُ بهن. يحتاجُ الشفاءُ منه إلى فترةٍ طويلةٍ من العلاج الطبي الجاد.

3- اكتئاب ما بعد الولادة (لورد بوتون)

أميرُ الجن، يظهرُ عند واحدةٍ من بين كل عشر نساء حديثات الولادة. في العادة، يُقدِمُ على زيارته الأولى بعد أربعة أو ستة أسابيع من الولادة. يبدو بسيطًا وحميدًا للوهلة الأولى، ولكن ألوانه الحقيقية تظهرُ بالتدريج.

مضت شهورٌ وأنا أخوضُ الاكتئاب. رحتُ أقرأُ بشكلٍ مكثّف حول الأمر، وددتُ لو أموت لأعرف السبب وراء حالتي هذه، لو كانَ هناك سبب. توقفت عن التساؤل: لماذا لم يحدث هذا للنساء الأخريات.. الآن أريد أن أفهم لِماذا حدثَ لي؟. لهذا بحثت في مواقع الإنترنت، جمعتُ البروشورات، قلّبتُ صفحات الكتب والتقارير الطبية. لم تكُن لفضولي الحاد أيّة جَدوى حقيقية، ولكن كان من المُهم عندي أن أمضي وقتًا في البحث والتساؤل.

عرفتُ من بحثي أنه ليس على المرأة أن تكون «غير سعيدة» أو «غير مكتفية» لتقع في اكتئاب ما بعد الولادة. حديثات الولادة من كل طبقة ووضع اجتماعي، ومن كل دين ومِزاج، هُنّ عُرضةً له. ليس هناكَ معادلاتٌ ذهبية لشَرح كل حالة على حِدَة. ولكن هناك بعض الأسباب التي تُعيدُ إثارة الاكتئاب، أحدُها أنَ تكون لدى المرأة تجربة سابقة مع الاكتئاب، أو صعوبات جسدية أثناء الحمل، أو مشاكل مالية أو اجتماعية أو حتى زوجية لا تزال جارية وقتها.. أيضًا فقدان المساعدة والقُرب من الأقارب والأصدقاء المقربين بعد الولادة، أو تغييرٌ فجائي للمُحيط والمكان، وغيرها من المثيرات.

ليس من السهل اصطياد علامات اكتئاب ما بعد الولادة، لأن لورد بوتون خبيرٌ وعالي المهارة في إعادة تشكيل نفسه. ولكن ما سأسرده الآن يُعتبر علاماتٍ جيّدة: فقدان الطاقة، الحساسية المفرطة والهياج السريع، الشعور بالذنب والهزال، فقدان القدرة على التركيز أو النسيان، الذعر من إيذاء النفس أو الطفل، أنماط نوم غير منتظمة، فقدان الشهية للطعام، فقدان الرغبة الجنسية، الانعزال والتوقف عن مخالطة المجتمع (أن تحب نفسك في المنزل، متجنبًا مقابلة الناس وحتى الأصدقاء المقربين)، فقدان الاهتمام بالمظهر الخارجي، حالة

من عدم المبالاة بما يجري في العالم بأسره...

الحقيقة هي، كَوننا نحن النساء من لحم وعظم، وكَوننا حفيدات حواء، نشعر جميعنا بذلك التخبُّط في المشاعر من حين إلى آخر، وتحديدًا في الأوقات التي يشتدّ فيها التحدّي والضغط النفسي مثل وصول طفل جديد. لذا، الأهم من معرفة تلك الأعراض التي نَخبرُها جيّدًا ونعرفها، هو تقديرُ قوّتها واستمراريتها. شِدّةُ الأعراض ومُدّة استمرارها التي لم نعهدها من قبل هي ما نعاني منه حقًا.

غير راضية عن المعلومات التي جمعتها، قررت أن أُعِدّ بنفسي اختبارًا للأمهات الجدد.

أنتِ ولورد بوتون

كيف كنت تشعرين عندما خرجتِ من المشفى وعدتِ إلى البيت؟

أ. مثل طفلٍ قفز من حوض السباحة. تمنّيتُ لو أنني بقيتُ أكثر في المشفى. كانت الممرضات لطيفات ومريحات، وكُنّ يطمئنّن عليّ باستمرار. عندما ذهبنا إلى البيت، اكتشفتُ أنني لا أعرف حتى كيف أحمل رضيعي بشكلٍ صحيح.

ب. مثل سمكة خرجت من الماء، ولكنني ظننتُ أن ذلك طبيعي، ألم يكن كذلك؟

ت. كان شعورًا جنونيًا رائعًا ما انتابني وقتها! إنها بدايةٌ جديدة! من الجيّد أنني جهّزتُ غرفة الصغير من قبل، دهنتها بالوردي والبنفسجي الفاتح، ورسمتُ حيوانَ وحيدِ القرن بنفسي في الغرفة!.

ما هي أكثر اللحظات صفاءً وقوّة من ذكريات يوم الولادة؟

أ. الألم! والضغط النفسي الذي أصابني عندما دخلت غرفة الولادة. كيف لي أن أمسح لحظة تحلّق الأطباء والممرضات من حولي مرتدين الأكمام؟

ب. أوه، لحظةَ حملتُ طفلي بين ذراعي. كان شعورًا لا يوصف. بكيتُ وبكيت. ولا أزال أبكي عندما أتذكر تلك اللحظة.

ت. الورود وعُلَب الشوكولاطة التي أرسلها الأصدقاء والأقارب!

كانت فاتنة! وتلك الدبية الصغيرة كانت جميلة أيضًا!.

كيف كانت عادات طعامك؟

أ. أُرضعُ الطفلَ ولكنني أُهملُ نفسي. ليست لديّ شهوةٌ للطعام على الإطلاق.

ب. كنتُ أتناول الطعام بشكل طبيعي. ولكنني إذا استدعيتُ الأمر الآن، لا أعرفُ تفاصيل ذلك بالضبط.

ت. شهوتي لتناول الطعام كانت هائلة! أستطيعُ أن أتناول الفطور ثلاث مرات!. لا تلوميني! لومي روزيتا، طاهية المنزل. أوه، تلك البسكويتات بالزبدة! كيف لي أن أخفّض ما اكتسبته من وزنٍ الآن!.

كيف كانت عادات نومك وقتها؟

أ. هاه؟ ما هذا! النوم؟ إنني أبقي على أذنيّ مفتوحتين دومًا لأتأكد من أن رضيعي يتنفّسُ بشكلٍ طبيعي. إني أبقى مستيقظةً طوال الليل، وكلّ ليلة.

ب. أنامُ جيدًا على ما أظن. أنام في بعض الليالي أفضل من سواها.

ت. كأنني جميلةُ النوم! عندما يبكي طفلي، ينهضُ زوجي ليطمئن عليه. أليس زوجي حبيبًا؟

هل تجدين أي شيء مختلفا فيك منذ الولادة؟

أ. الأفضل أن تسأليني: «ما الذي بقي فيك دون تغيُّر؟»، تغيرت حياتي، تغيّرتُ، اختلفَ كل شيء.

ب. لستُ على ما اعتدتُ من حال، ولكنني لستُ أكيدةً، لا أعرف.

ت. حسنًا، صرتُ أسمَنَ ممّا كنتُ عليه قبل الحمل، إن كان هذا

ما أردتِ معرفته. ولكنني الآن أنحفُ من ما كنتُ وقت الحمل!.

يعرضُ التلفزيون الآن فيلمًا رومانسيًا أحببته من قبل. عندما يصل الفيلم إلى لحظة القمّة الرومانسية التي تكسر القلب، بماذا يمكن أن تشعري؟

أ. أشعُرُ بالحزن بالطبع!. أبكي على أتفه الأمور هذه الأيام.

ب. لأنني شاهدتُ الفيلمَ من قبل، لن يؤثر فيّ إلى ذلك الحد، على ما أظن. ولكن من يعرف؟.

ت. ولمَ بحق السماء أجلسُ لأشاهد فيلمًا رأيته من قبل؟ هناك الكثير من الأفلام لمشاهدتها، غيره.

كيف شعرتِ تجاه زوجك بعد الولادة؟

أ. كان عليّ أن أخوض كل الألم لأصبح أُمًّا، أمّا هو فجاءته الأبوّة جاهزة!. ومن ثم يذهب ويبتاع للمولود قماطًا خِيطَ عليه «ابنةُ أبيها»!. أنا التي تُغيِّر الحفاظات، ولكن على الفتاة أن تبقى «ابنة أبيها». كان عليّ أن أُولَدَ رجُلًا لا امرأة.

ب. أشعُرُ أنني بعيدةٌ عنه، ولكن لا أعرف لماذا.

ت. أخذني إلى الخارج في إحدى المساءات بعد الولادة. كنا مثل عاشقين في مدرسة ثانوية، حتى أننا جعلنا سدّادة قارورة الشامبين تطفر في الهواء وانسكبت الرغوة من رأس القنينة!.

عندما يمُرُّ طبيبك ببالك، كيف تشعرين؟

أ. أشعُرُ بالامتعاض! أنا غاضبةٌ منه. كان عليه أن يحقنني بمخدر.

ب. أفكّر ما الذي يشعر به ذلك الذي يأتي بأطفالٍ كُثُرٍ إلى العالم؟ ذلك الذي يرى النساء يخُضنَ مُعجزة الولادة. إنه شعورٌ عظيم.. عظيم.. أليس كذلك؟

ت. طبيبي هو ألطفُ طبيب على الإطلاق. سألته في يوم ما: «هل سأتمكن من ارتداء البكيني هذا الصيف؟» فأجابني: «أوه، بالطبع، وستُلفتين الأنظار إليكِ أيضًا!». أليسَ ذلك ساحرًا؟

هل تشعرين بالنشاط أثناء النهار؟

أ. لا أشعر أنني أستطيع فعل أي شيء. ما الهدف من ذلك على أيّة حال؟

ب. أحيانًا أشعُرُ أن رُكبتيّ تُصبحان مطاطيتين. كأنهما خُلقتا من «جَلي»، ولكن يختفي هذا الإحساس بعد وقتٍ قصير.

ت. أوه، اسألني! وأُمارس الرياضة كالمجنونة!. حتى أنني تعاقدتُ مع مُدرب خاص، إنه إيطالي!.

مع من تشاجرتِ مؤخرًا؟

أ. أوه! لم أترك أحدًا!: أمّي التي تفضّل زوجي دومًا؛ جارتي أيضًا، جارتي التي كانت نكديّة بغباء في ساعة مبكرة من اليوم؛ وأخواتي عندما بدأن يسألنني أسئلةً غبيةً على الهاتف؛ وحماتي التي تحاول السيطرة على حياتي؛ وزوجي الذي يقف معها طوال الوقت.

ب. لا أجادل أحدًا. أضبطُ نفسي مع الجميع وحسب.

ت. أنا لا أشاجرُ أحدًا يا حبيبتي، بل أوزّع الحُبّ للجميع.

متى كانت آخر مرةٍ اجتمعتِ فيها بأصدقائك المقربين؟

أ. مضى على ذلك شهران ربما؟ أو أكثر؟ لستُ في مزاجٍ رائقٍ هذه الأيام للاختلاط بأحد.

ب. أصدقائي وأقاربي يأتون دومًا لزيارتي، ليحفظهم الله. ليست لدي سيطرة بشأن من يأتي ومن يذهب.

ت. أقامت الفتيات منذ بضعة أيام حفلًا للطفل «baby shower». استمتعنا طوال الوقت. وكان عليَّ أن أفسد حِمْيَتي، فكيف لي أن أرفض مكعبات الـ«كوب-كيك» تلك؟

هل أنتِ في سلام مع جسدك ونشاطك الجنسي؟

أ. أنا وزوجي ننامُ في غُرفتين منفصلتين. لن أستغرب أبدًا لو انتقل كل واحدٍ منا للعيش في بيتٍ آخر أو حتى في قارات متباعدة.

ب. ما زلنا ننام في نفس الفراش، ولكنني أُفضّلُ النومَ مع الطفل. لا أُصَرّحُ بذلك بالطبع. لا أريد أن أجرح مشاعره.

ت. أوه، تعنين الهانكي-بانكي؟ أوه، بالطبع، مثل شبق الأرانب!.

كيف تقيِّمين هذا الاختبار؟

أ. مضيعةٌ للوقت.

ب. لا أدري. لم أركّز فيه بشكل كامل.

ت. كان ممتعًا. لا مشكلة!.

مفتاح الحل:

إن كان يغلبُ على خياراتك حرف (أ): فأنتِ لم تقابلي لورد بوتون فحسب، بل أخذته إلى جانبك كصديقٍ مُقرّب. هاتفي طبيبك فورًا واطلبي المساعدة.

إن كان يغلبُ على خياراتك حرف (ب): فثقتك بنفسك ليست في أعلى نقاطها، وتُظهرين علامات سلوك سلبيٍّ وعدواني. كوني مُحاطةً بالناس دومًا. قد يطرق لورد بوتون بابك في أيّة لحظة.

إن كان يغلبُ على خياراتك حرف (ت): ليس عليك القلق بتاتًا. الكآبة بعيدةٌ عنكِ بُعدَ كوكب المُشتري عن الأرض. المُرجّح أن طريقك لن يتقاطع مع طريق لورد بوتون.

الأمهات الكاتبات وأطفالهن

أليس والكر واحدة من بين أكثر الكاتبات المعاصرات المفوّهات في أمريكا. لديها متابعون من جميع أقطار العالم، وتُرجمت أعمالها إلى أكثر من عشرين لغةٍ. كانت الأصغر بين أفراد عائلتها الثمانية. وُلدت في جورجيا وسط أسرة من المزارعين. لم تكُن طفولتها مُريحة. ولكن آلَت أمها على نفسها أن توفّر لابنتها الصغيرة الفرص التعليمية نفسها المتوفّرة للأطفال البيض، وفعلت كل ما بوسعها لتحقق ذلك. بدأت أليس الدراسة في عمر الرابعة. عندما بلغت الثامنة، عانت من جُرح في عينها، جُرح كان له أثرٌ كبيرٌ على مسار حياتها، وربما على كتابتِها أيضًا. وعلىً الرغم من أنها غفرَت لأخيها الذي سبّب لها فقدان البصر في عينها اليُمني، فإنّها صارت مأخوذةً بمشاهد العنف ضد الأطفال المتعرّضين للأذى، وغدت مرتعبة منها. وهكذا شُغفت منذ الصغر بالعزلة وحُب القَصّ والكتابة، ناسجةً تقاليد القَص المحكية والكتابية.

في الغرب، خلال أحداث العنف في بداية الستينيات، تَبِعَت والكر قلبها وتزوّجَت مُحاميًا أبيض. في وقت تفشّت فيه العنصرية والرّهاب من الغرباء، كانا الزّوجَ المختَلطَ الأعراقِ الوَحيد في الدوائر التي كانا يتحركان فيها. أنجَبَا ابنةً واحدة، ريبيكا. غيّرَت الأمومة حياة والكر وصارت نقطة تحول في خياراتها. شعرت بأنها مُتّصلة لا بأمها نفسها وحسب، بل وبالأمهات من حول العالم- أولئك اللواتي لن تراهن

جميعًا. لاحقًا، في مقالة بعنوان: «البحث عن حدائق أمهاتنا»، كتبت:

«لم تكُن أمهاتنا وجداتنا قدّيسات أكثر منهن فنانات: تقودهُن فصولُ ربيع الإبداع نحو الخَدَر ونَزف الغضب، وتلك فصولٌ بداخلهن لم يستطعن الفكاك منها..»

قالت في أماكن أخرى إنّ رواياتها حملت أفكارًا وهمومًا تشعُرُ بأنها كانت محمولةً في صدور أسلافها وأرادوا أن ينقلوها من جيلٍ إلى جيل.

انتهى الزواج بالطلاق، ورفضَت من بعده والكر أن تسير على مسرح الزواج مرة أخرى. ومن حينها، صارت رؤاها عنِ الزواج والحياة المنزلية حادّة وصارمة. في مقالة عنوانها: «كاتبةٌ بسبب أولادها، لا غيره»، ساءَلَت والكر الأفكار التقليدية عن الفن والإبداع في العالم الغربي. قالت إنّ الثقافة المحلية تقيم حاجزًا بين واجبات تربية الأطفال، وأرض الإبداع. إنها ترى مؤسسة الزواج كشكلٍ نشأ بجذور بطريركية لم يعُد يناسب الكاتب الحُر المُستقل مثلها. ثم أضافت بتلاعب: «وبالإضافة، أحب أن أكون محطَ غَزَلٍ وتوددا».

روايتها الأكثر شهرة: «لون البنفسج»، تشهدُ بشكلٍ مُفعم على أنّ والكر كاتبة تتعاملُ مباشرةً مع مواضيع كراهية النساء والعُنصرية. عملَت طوال حياتها لأجل عالم أفضل حيث تتحقق المساواة والحرية دون تفريقٍ جنسي أو طبقي أوّ عرقي. كانت ناشطةَ حقوقٍ مدنيّة في شبابها وناشطةً لحقوق المرأة أيضًا. وبشكلٍ مفاجئ، صارت ترفض منذ ذلك الوقت استخدام مصطلح «النسوية» وقاومته، متهمةً إياه بأنه ليس سوى شكل آخر للكثير من المشاكل التي تعانيها النساء. وقد اقترحت أن يُستبدلُ اسم «النسوية» باسم «الأنثوية»، وقالت إنّ نسبة النسويّة إلى الأنثوية تشبه نسبة اللون البنفسجي إلى لون الخزامي.

راحت، من ضمن أعمالها الأخيرة، توجه انتقادًا لاذعًا لحكومة

الرئيس الأمريكي جورج بوش وحربه على العراق، موجهةً عدسة الإعلام إلى الأمّهات المراقيات وأطفالهن. وقد قامت أيضًا بزيارة غزّة، وقابلت عُمّال المنظمات غير الحكومية هناك والفلسطينيين والإسرائيليين، محاولةً تجسير الاختلافات الثقافية. كانت اهتماماتها ورؤاها السياسية دائمًا مطروحة.

في السنوات الأخيرة الماضية، ظهرت حياة والكر إلى العلن بعد خلاف نشبَ بينها وبين ابنتها. ريبيكا ذمّت أمها في العَلن، واتهمتها بأنها نَسيَت ابنتها مُنشغلةً بإنقاذ بنات الآخرين. قالت إنّها كانت مُهمَلةً في طفولتها ومراهقتها في حين كانت أمّها الناشطة الحقوقية تجري من مناسبة إلى مناسبة. لم تَعِش صباها بسهولة، وكانت قد بلغت الثلاثين مُتعاطيةً المخدرات ومتورّطةً في علاقات عاطفية مع رجال ونساء. وبعد عام، صارت حُبلى. وكتبت بتوسُّع عن تقلّباتها وحياتها في مذكراتها: «أسود، أبيض، ويهودي». وبعد ولادتها لابنها، كتبت الجزء الثاني من مذكراتها عن تجربتها في الولادة وعن اختيارها لتكون أمًا بعد فترة من التردد والشك. آمَنَت ريبيكا بأن النسوية قد خدعت نساءً كثيرات، وقد خانَت جيلًا بأكمله من النساء فيما يتعلق بالعيش دون أطفال وعدم الإنجاب.

إنها قصة معقدة. قصة لها جانبان متناقضان: مثل كل قصص الأمّهات مع بناتهنّ. بالنسبة إليّ، يبدو مُثيرًا للاهتمام كيف أن امرأةً ناجحةً ومفوّهة وكاتبة معروفة وأمًّا حَنونًا مثل أليس والكر تغدو غريبةً جدًّا عن ابنتها التي من لحمها ودمها. هل عانَت من اشتباك وجوديّ عنيف بين حياتها كأم وحياتها ككاتبة؟ هل هذه قصة شَخصيّة، مُحاطة بظروف خاصة لا تعرفها سوى الأم وابنتها؟ أم أنها تُشير إلى مشكلة أكثر كونيّة، وقد تحدُث لأيّة أسرة وفي أي مكان؟.

عليّ الإقرار بأنني لست فقط من عاشقات كتب توني موريسون، ولكنني أيضًا أحب الاستماع إلى أحاديثها. إنّ لها صوتًا لا يُصَنّف ضمن أيٍّ من الجنسين، صوتًا خاصًا. كأنها تتحدث إلينا من خلف حواجز غير مرئية، من خلف أشباح الأسلاف الماضين. إنّها من ذلك النوع من الناس الذين ستقف لتسمعهم بإنصات حتى لو كانوا يقرؤون وصفةً لإعداد فطيرة اليقطين، ستجلسُ دائخًا ومسحورًا.

تدعو الناقدة باربارا كريستيان ذلك النوع من الواقعية التي نجدها في أعمال موريسون: «واقعيّةً أرضيّةً عجيبة». في أعمالها، لا تُقدّم موريسون أحداث الماضي بملعقة حساء واحدة! ولكنها تبعثها في قطع وشظايا موزعة في الكتاب كله، وتتوقعُ منا، نحن قُرّاءَها، أن نتابع الأمر معها، أن نكون مشاركين نشطين في بناء القصة، عوضًا عن الجلوس السلبي. الماضي بالنسبة إليها أحجيةُ حنين بانورامية، تركيبةٌ مؤلمةٌ إلى درجة عدم قدرتها على وضع قطعها كلّها مرة واحدة، ولكن يجب تركيبها في النهاية. إنها تكتب بعنفوانٍ وحُزن، ولكن أيضًا بإخلاصٍ وحُب. في إحدى أشهر رواياتها: «المحبوب»، حيث تروي لنا قصة سيث، المستعبدة الهاربة من الأسر. تُمتحَنُ الأمومة هنا أيضًا ولكن بخلفيّة العبودية. وفي نهاية الرواية، تقتل سيث طفلتها الوحيدة لكيلا تراها تكبُرُ عبدةً وتخوضُ المُعاناة التي خاضتها هي.

شخصيات موريسون النسائية دائمًا ما تكون شجاعة، وملحميّة، ولكن لا شيء أسطوريّ وخارق فيها. إنّ المزج بين المستوى العادي والمستوى الرائع من النساء في شخصياتها الروائية هو ما يجعلها رائعة. الأمومة التي تصوّرها في أعمالها تقومُ على حُبٍّ شَغوف، حُبٌّ لو نظرنا إليه بشكلٍ أعمق، لرأيناه مُحوّلًا وشافيًا. لكن، رغم ذلك، لا تعيش الأم وطفلها في الفراغ، بل في مجتمع، ولذلك فأداءُ المرأة كأم

ليسَ حَصِينًا من أمراض العالم الذي تحاول العيشَ فيه، وأخطائه.

تزوّجت موريسون صغيرةً بطالب في الهندسة المعمارية. لم يكن زواجًا سهلًا، وبعد أن أنجبا طفلينِ، انفصلا. عملَت مُحررةَ كتب لتُعيل أسرتها. وحينها بدأت بكتابة روايتها الشهيرة: «أكثر العيون زرقة». كان يصعب عليها الكتابة بعد العمل- شعرت بأنها لم تكن ألِقَة أو سريعة الخاطر أو في مزاج إبداعي بعد غروب الشمس. فقد اعتادت أن تنهض باكرًا كل يوم، وهي عادةٌ تشكّلت مع نمو أطفالها. في مقابلة معها، تحدثت عن تلك الفترة واعترفت بحياء أنها كان يصعب عليها أن تخلع على نفسها لقبَ «كاتبة»، قائلةً: «أنا أمٌّ تكتب»أو «أنا مُحررةٌ تكتُب».

قال أبناؤها مرّةً إنّهم لم يستمتعوا أبدًا وهم يكبرون مع أمٍّ تجني رزقها من وراء الكتابة. وعندما سُئلَت موريسون عن السبب، أعطَت إجابَةً حيّةً وحكيمة:

«ومن يُريد أن يعيش مع كاتب؟ أنا لا أريد ذلك. الكُتّاب ليسو في المكان الذي يجلسون فيه».

تقول موريسون إنّ الكُتّاب يُريدون الضبابية والغموض ولعلّهم يحتاجون إلى ذلك. بيد أن الغموض والضبابية التي يحتاج إليها الكاتب في عالم الأدب، قد تكون مُتعبة وباهظة الثمن لأطفال الكُتّاب.

إن موريسون كاتبة قبل أن تكون أيّ شيء آخر. تقول إنّ أصدقاءها يعرفون ذلك ويتقبّلونها كما هي، الأصدقاء الحقيقيون يفعلون. إنها تحتاج في بعض الأحيان إلى منح الأولويّة للكتابة على أولادها. هناك ذكرى رائعة شاركتها مع قرائها، وأجدها شخصيًا مُؤثرة. عندما كانت مُنكبّةً على كتابة روايتها: «أغنية سليمان»، قالت لابنها الأصغر —وقد كان في العاشرة من عمره آنذاك- بأن إجازة الصيف هذه لن تكون

ممتعة على الإطلاق لأنها ستقضي الوقت في كتابة عمل جديد طوال الوقت. ورَجَتهُ أن يصبر معها وأن يتحمّلها، وهو بدوره رَضيَ بذلك على مضض وقامَ به بلُطف. قالت موريسون إنّ ابنها لا يزال حتى الآن يذكُر تلك الفترة من حياته ويدعو ذلك الصيف بالـ«الصيف الفظيع».

قَدَّرَت أليس والكر وتوني موريسون الفنى الأدبي في القصص المحكيّة، القصص الّتي مررها الأسلاف لنا من جدات إلى أمهات. كلما واجهن صعوبات كبيرة، تذكرن أولئك النساء الخارقات من الأجيال السابقة، وألهمننا كيف نُقدّرُ المسكوت عنه والحكايات التي لم تُقَل، الماضية منها والحاضرة. الأمومة كنزٌ لكليهما، ولكنهن يهربن من تصويرها في كتبهن كهويّة مقدسة. يتحدثن بانفتاح حول تعارضات الأمومة والأعمال الشاقة التي كان عليهنّ تحملها. هزائم لا تُحصى، وانهيارات وخسائر شكلت الشخصيات النسائية في رواياتهن؛ حتّى أنّ بعضهن لفرط ما يحملن من قلوب مكدومة يُوجعن القارئ بعُمق. إنه الصراع الشغوف لأجل الحياة —وليست الخسارة والنصر- من جعلهن على ما هُنّ عليه الآن.

قلبٌ كريستالي

عند نهاية ديسمبر، ارتدت اسطنبول حِليةَ أعياد الكريسماس، مُشعّةً وملوّنة، وقد جرّبتُ وقتها عدّة أدويةٍ دون فائدة. على عمود الكهرباء الذي كانت تتدلّى منه الأحذية، يمتدُّ الآن خيطٌ عُلّقت عليه بعض المصابيح، أنوارها خضراء فاتحة. شاهدتها ترمش بضعفٍ في الليل، وكأنها استسلمت منذ وقت طويلٍ من محاربة الظلام.

أثناء ذلك الوقت، كنتُ أزور مُختصّةً نفسيّةً- امرأةً ذكية اعتادت على قضم أظفارها عندما تحتار. لم يكن لي إيمانٌ قويٌ بطريقة علاجها، وأينما يكون ضعف الإيمان، ينتج الخسران. الآثار العَرَضيّة للعلاج المضاد للكآبة الذي وصفته لي، تَنوّعَ من حكّةٍ في يديّ (وقد يكون هذا نتيجة رغبتي في الكتابة مرة أخرى)، إلى جفافٍ في الحلق وطَفحٍ جِلدي أحمر في وجهي. إنها سخرية صارخة أن يكون ذلك العلاجُ المخصّص لمحاربة الاكتئاب ناجحًا إلى حدٍّ بعيد مع بعض الناس، ولكنه يفشل مع أناسٍ آخرين، وأعراضه الجانبية تزيد من اكتئاب هؤلاء الأخيرين كثيرًا. ذهبتُ أيضًا للعلاج بجلسات الاسترخاء، ولكنني شعرتُ بعد كل حصّةٍ أن مشاكلي تتضخم، في حين أنه من المفترض منها أن تتصاغر. حاولتُ مؤقتًا الانضمام إلى جماعات الدعم النفسي، ولكن لأنني أحب العزلة بالطبيعة، لم أستطع هضمَ فكرة أن أجلس مع دائرةٍ من الأغراب وأحدّثهم عن حياتي الخاصة وما أعانيه من مشاكل ومصاعب. فحالما انسكبَت الكلمات من فمي،

شعرت بأنها غير حقيقية، كأنها وهم.

لم أعد أعرف هل اكتئابي هذا بسبب الهرمونات أم جرّاء قِوَى خارجية، هل مصدره ذاتي، مني، أم ثقافيّ، من خارجي؟. يعمل الاكتئاب بعكس ما نريده، بعكس الخير الذي نتمناه ودون علمنا بذلك. هكذا يبدأ. ولكنه لاحقًا يتحوّل إلى نهر جارف نجدُ أنفسنا نحاول أن نجذّف فيه. كان هناك خوفٌ يقرعُ مؤخّرَة رأسي من أنني قد أكون أعاني من متلازمة الهضبة السحرية!. ففي رواية توماس مان، هناك شخصيّةٌ تدعى هانس كاستورب. ذهبَ كاستورب إلى مصحة لزيارة صديقٍ له يعاني من مرض السّل. أثناء الزيارة، يلاحظ أنه يعاني من نفس الأعراض، وينتهي به الحال إلى البقاء في المصحة نفسها لسبع سنوات. يؤمن مان بأن المرض يفتح احتمالاتٍ كثيرة في الحياة ويساعد الأخلاق الحميدة على النمو في دواخل البشَر.

وبالمثل، احتضنتُ الاكتئابَ حتى رأيته حالةً دائمةً تلازمني، رأيته نظّارةً أنظر من خلال عدساتها الضبابية إلى الحياة. لذا، كان عليّ العودة بسرعة للكتابة كي أجد مَنفَذًا من هذا المستنقع. كان عليّ أن أضع أفكاري على ورقة، ولكن الكلمات لا تجري معي، لم أستطع الكتابة لثمانية أشهر.

قد تبدو فترة ثمانية أشهر من عدم الكتابة لا شيء. ولكن بالنسبة إليّ، شعرت كأنها الأبدية. أثناء ذلك، أمسَى اكتئاب ما بعد الولادة جزءًا لا يتجزأ من حياتي. أينما ذهبت، ومهما فعلت، تبعني لورد بوتون كأنه قنّاصٌ نَهِم. إن وجوده مُتعب، ولكنه لم يأخذ الأمور إلى أقاصيها بعد. لم يجتثني من دائرتي بعد، ولا استطاع أن يمحو عني محيطي، ولكنه جعلني مخلوقًا أقل من إنسان، مثل صَدَفَةٍ فارغة من نفسك. ربما لم يُمسكني عن الطعام والشراب، ولكنه سرق المتعة

المرجوّة من ورائهما. ربما لم يدمّر كل قِواي التي أحتفظ بها، ولكنه جفّفها بما فيه الكفاية لأجد نفسي عالقةً بين النوم والأرق، مثل ملعونة تسيرُ في نومها.

وقبل أن أدري، صار الأدب أرضًا بعيدةً، دخولُها مُحرّمٌ عليّ، أرض بُحرّاسٍ عمالقة يحفظون حدودها. رحتُ أفكّر في الكتابة والقلق ينهشني من عدم السماح لي بدخولها مجدّدا: هل تشبه الكتابة ركوب درّاجة هوائية؟ أي هل هي أمرٌ تتعلّمه لمرّة واحدة في حياتك ثم لا تنساه أبدًا؟ أم أنها مثل تعلّم اللغة العربية والكوريّة؟ ذلك النوع من المهارة التي تتركك شيئًا فشيئًا إذا أهملتَ التدرُّب عليها واستمرارها لفترة طويلة من الزمن؟.

أولًا، أقنعتُ نفسي بأنني نسيتُ كيف أكتب.

ثم بدأت الشكّ في أنّ الكتابة نفسها هي من هجرتني، وبدأ الأمر يشتبه عليّ.

كتابة الروايات- تركيب القصص، خلق الشخصيات وتدميرها- تلك لعبةٌ يُفضّلها الناسُ الذين يرفضون أن ينضجوا. وحتى لو كانت اللعبة تأخذ مساحتها على الورق فحسب، فإنّ احتمالَ لَعِبها مرّةً تلو الأخرى يساعدك على نسيان أنك مخلوقٌ قُدّرَ لهُ الموت. «كلماتُ الشّفاه تَفنى، وكلماتُ الوَرَق باقية»، أو هذا ما نريد أن نصدّقه. الإيمان بهذا يُعطينا راحةً ضد جريان الحياة الأزلي الذي نحياه. يؤمن الروائي، في مكانٍ ما من أعماقه، بأنه خالد.

والإيمان أمرٌ أساسي في مهنة الكتابة. يأتي عليك وقتٌ تؤمنُ فيه بشدة بالحكايا التي تخلقها، إلى درجة أنّ الحياة الخارجية وقتها تبدو بليدةً وغير منطقية. عندما يهاتفك أصحابك، وعندما تحدث

أمورٌ مهمة، أو عندما يريد زوجك الخروج للعشاء، أو عندما تشعر بثقل الواجبات الاجتماعية جاثمًا عليك، تجد عذرًا ما للتنصُّل من ذاك كله. كل شيء يصبح «ثانويًا»- لن تجدَ وقتًا لشيء سوى الكتابة.

الروائي بصورةٍ مّا أنانيّ، وعليه أن يكون كذلك. أما الأمومة فأساسها «العطاء».

ولئن كان الروائي شخصًا انعزاليّا- على الأقل في فترة كتابة الرواية، فإنّ الأم، بتعريفها، منفتحة. يبني الروائي غرفةً صغيرةً داخل ذهنه ويُقفل الباب عليه كي لا يدخل عليهِ أحد. يُخبّئ هناك أسراره وطموحاته عن كل الأعين المتطفلة. أمّا الأم، فعلى كلّ أبوابها ونوافذها أن تكون مُشرعةً صباحَ مساء، في الصيف وفي الشتاء. يستطيع أبناؤها أن يدخلوا من أيّ مدخلٍ يختارونه، والتجوّل حيثما طابَ لهم ذلك. فليس للأمّ زاويةٌ لأسرارها.

عندما يسقط طفلك ويجرَحُ رُكبته، أو عندما يعود إلى البيت ولوزتاه ملتهبتان، أو يسقط على الفراش مريضًا بالحُمّى، أو عندما يُشارك في تمثيلية في المدرسة على أنه سبونج بوب، لا تستطيع الأم أن تقول: «حسنًا، أنا أكتب فصلًا جديدًا الآن من روايتي. هل تستطيع العودة إليّ الشهر القادم؟».

بيتي فريدان- كاتبة، ناشطة حقوقية، نسوية- آمنَت صراحةً بأننا في حاجة إلى تعريف أوسع للنجاح من هذا التعريف المتعارف عليه الآن في أوساط المجتمع المدني. علينا أن نعيد صياغة القيم العائلية لكي نغيّر نظام فهمنا لكُلّ أمّهات الضواحي غير المدنيات اللواتي صارعن الحياة لوحدهن، الأمّهات اللواتي شعرن بأن هناك أمرًا جوهريًا خاطئًا فيهن إذا سقطن في أتفه غلطة. فريدان نفسها كتبت

كتابًا ناجحًا وربّت ثلاثة أطفال. قالت مرّةً:

«أولويات الناس- رجالًا ونساءً على حدٍّ سواء- يجب أن تكون تأكيدًا على الحياة، تحسين الحياة، لا الطمع».

تتعمق كل أنواع الاكتئاب عندما ننسى مهمتنا في تحسين حياتنا. قد يكون السؤال الملح الذي يجب علينا طرحه على أنفسنا في أوقات كهذه هو: لماذا؟ لمَ يحدث لنا هذا؟ لمَ لا يحدث للآخرين، لمَ أنا؟. قالت مرّةً القديسة تيريزا: «روحُنا مثل قصرٍ بُنِيَ من جوهرةٍ واحدة أو نوعٍ آخر من الكريستال الصافي». المشكلة أننا نحن النساء نشعُرُ أحيانًا بأن ذلك الكريستال مغشوش الصنع، في حين أنه ليس كذلك، ونظن أن ذلك نتيجة خطأ قمنا به، وهذا غير صحيح.

تزوّجَت جدتي من جهة أمي وهي في الخامسة عشرة من عمرها من ضابط جيشٍ رأته لدقيقتين وحسب (قرعَ جدي باب منزلها مُدّعيًا أنه يبحث عن بيت في الجوار، وقامت بفتح الباب وأعطته الجهات الصحيحة ليسلكها، مُدّعيةً ذلك أيضًا). أمّا أمي، فتزوّجت من طالب فلسفة في عمر العشرين، عندما كانت لا تزال في الكليّة، ولم يُثنها شيء عن الامتناع عن الزواج مبكرًا.

في ثلاثينيات القرن العشرين، كانت هناك امرأةٌ في تُركيا دُبّرَ لها الزواج بالطريقة التقليدية، أنجبت ثلاثة أطفالٍ وربتهم باعتمادٍ كاملٍ على زوجها. كانت هذه جدتي. الزواج الآخر كان زواجًا بعد قصة حب، اختارت المرأة زوجها، ثم تطلقت، وتخرجت من الكليّة (أنهتْ دراستها بعد انفصالها)، وربّت طفلتها الوحيدة من ذلك الزواج، وعاشت معتمدةً على نفسها ماليًا. وهذه كانت أمي. على الرغم من أن جدتي كانت محكومةً بقوانين الفصل بين الجنسين، فقد كانت أمي متحررة، لكن عندما بلغت التحديات مرحلة النجاة من تقلّبات

مزاج المرأة وتحوّلات جسدها وأهواله (مثل الاكتئاب وانقطاع الدورة الشهرية)، شهدتُ أوقاتًا كانت جدتي هي الأعلم والأكثر جاهزية للتعامل معها من أمي. لقد ضاعَت معلوماتٌ وعاداتٌ مهمة وهي تنتقل من جيل إلى جيل، من بينها أن المرأة، في مختلف مراحل حياتها، قد تحتاج إلى مساعدة أخواتها وأقاربها أو أيّ أحد. بالنسبة إلى جيلي، أجد أننا ابتعدنا كثيرًا عن ذلك بسبب البروباغندا الزاعمة بأننا قادرات على فعل أي شيء وكل شيء نريده لوحدنا.. أقدامنا لا تطأ أرض الواقع الصلبة دومًا. يبدو لي أننا نسينا كيف نطلب المساعدة عندما نحتاج إليها.

اليوم، لا نكتب ولا نتحدث كثيرًا عن وجه الأمومة الذي تُرِكَ في الظلال. بل نسعى متعطّشين نحو أمرين: الأمر الأول هو الرؤية التقليدية، ومفادُها أنّ الامومة هي الدّور المقدس والنّذر الأبدي الذي يجب أن نتخلى عن كل شيء في الحياة لأجله. الأمر الثاني هو الرؤية «المدنية» الطالعة من مجلات الأمهات التسويقية، المجلات التي تصوّر المرأة الكاملة و«السوبر وومن» التي لديها حياة وظيفية ناجحة، وزوج وأطفال، وكانت دائمًا مُرضيةً للجميع في البيت وفي العمل.

وعلى الرغم من أنّ كلا الرؤيتين تبدوان متناقضتين، فإنّ بينهما أمرًا مشتركًا: تركز كل واحدةٍ منهما على ما تُريد رؤيته وحسب، متجاهلةً كل التعقيدات والكدح الذي تتطلبه الأمومة، متجاهلةً الطريقة التي تتحوّل بها المرأة، ويتحوّل بها أيضًا قلبها الكريستالي.

حفلة وداع الجني

علّقت مرّةً كاثرين مانسفيلد بصوتها الآسر:

«أكونُ صادقةً مع نفسي؟ لكن أيّة نفس؟! أيّة واحدةٍ من أنفسي العديدة؟. أوه، بالطبع، سينتهي بك الأمر إلى هذا الحد- مئات الأنفس.. تسأل لماذا؟ ألستَ ترى كل هذا التعقيد والكبت والقمع والحَث والتقلّب والانعكاسات، تمرُّ عليّ لحظاتٌ أشعُرُ فيها بأنني لا شيء سوى عاملة الاستعلامات في فندقٍ مفتوح لا مالكَ له ولا مدير...».

و كموظفة الاستعلامات لفندقي الخاص، أتمنى لو أتمكن من القول إنّني غلبت لورد بوتون، في النهاية، غلبته بالاعتماد على قوّة إرادتي وتحكمي بذاتي ودهائي، آه كم أتمنى لو كنت أستطيع قولَ ذلك. يا ليتني أستطيعُ ادّعاءَ أنني عاركته وغلبته بقوّتي، أنني رسمتُ له طريقًا على الأرض وخدعته ليضيع وينساني. ولكن الأمور لم تجرِ على ذلك النحو.

لا أقول هنا إنّ العلاجات التي تلقيتها لم تكن لها أيّة نتيجة. فأنا متأكّدة أنّ بعضها نفع. ولكن نهاية اكتئاب ما بعد الولادة جاءت على رسلها وتبعًا لفترتها الخاصة في الانقضاء. عاشَت دورتها كاملةً داخلي. وعندما حان الوقت الصحيح، عندما صرتُ أنا «صحيحة»، خرجت من ظُلمة جُحر الأرنب ذاك. كما يأخذ اليوم 24 ساعة لينقضي، كما يأخذ الأسبوع سبعة أيام، كما تعرف الفراشةُ متى تخرج من شرنقتها والبذرةُ متى تُزهرُ بالورود، كما نخوضُ مراحل

التطور، كما أنّ لكل شيء في هذا العالم تاريخَ استعمالٍ ينتهي بموجبه، كذلك اكتئاب ما بعد الولادة.

هناك طريقتان للنظر في هذا الشأن:

التشاؤم: «إذا لم يستطع المرء الخروج من الاكتئاب قبل أن ينضج وقته وينتهي، فليس بيده شيءٌ ليفعله».

التفاؤل: «إذا لم يستطع المرء الخروج من الاكتئاب قبل أن ينضج وقته وينتهي، فليس بيد الاكتئاب شيءٌ ليفعله لي».

إذا كنتِ تميلين نحو التشاؤم، فأنتِ غالبًا في المراحل الأولى من اكتئاب ما بعد الولادة. وإذا كنتِ تميلين نحو التفاؤل، فهنيئًا لك، لقد اقتربتِ من نهايته. تحتاج كل امرأة إلى وقت محدّد يخصّها وحدها لتُنهي دائرة الاكتئاب داخلها. تأخذ الدائرة عند بعضهن بضعة أسابيع، وعند البعض الآخر سنةً وأكثر. ولكن مهما كان الاكتئاب معقدًا ومدوّخًا، فكُلّ متاهة لها مخرج.

وكل ما عليكِ فعله هو السّيرُ نحوه.

قال لي لورد بوتون:

- أرى فيكِ أمرًا مختلفًا هذا الصباح.

قلت:

- حقًا؟ ربما. رأيتُ حُلمًا غريبًا البارحة.

- هل كان كابوسًا؟ أتمنى ذلك! أوه، عذرًا، عليّ أن أقول ذلك. ففي النهاية، لست سوى جنيٌّ خسيس. لا أستطيع تمنّي الخير لك، سيكون ذلك خرقًا للقواعد.

- لا عليك. كان حُلمًا كثيفًا كثافة الكوابيس على أيّ حال.

قال لورد بوتون وعلامات الحماسة بادية على مُحيّاه:

- أوه، حقًا؟ أخبريني عنه!.

- حسنًا، كنا نجلسُ معًا، أنت وأنا، عندَ ميناء بحري. كنت سترحل على متن سفينة تحملُ الجنَّ فقط من هذا العالم إلى العالم الآخر. كانت سفينة ضخمة تُغطيها المصابيح. وقد كان الميناء مزدحمًا، مئات الحوامل اجتمعن هناك ببطونهن المنتفخة. ثم شرعت السفينة بالرحيل ولوّحتُ لك بيدي: وداعًا.. وداعًا!.

قال لورد بوتون وهو مضطربٌ بعض الشيء:

- هل كنتِ حزينةً لرؤيتي أرحل؟ أواثقةً من ذلك؟ من المفترض أن تكوني سعيدةً وتقفزين من الفرح! لقد دمّرتُ حياتك.

- لا، لم تقم بذلك. كنتُ أنا من فعل ذلك بحياتي.

علّقَ لورد بوتون وقد أخذته الحيرة:

- هل تحاولين القول إنّكِ لست غاضبة مني؟

- في الواقع، لستُ كذلك. أعتقدُ بأنه كان عليّ أن أعيش هذا الاكتئاب لكي أجمع شظايا نفسي من جديد. عندما أنظر إلى الأمر من هذه الناحية، أعتقد أنني أدينُ لك بالشكر والعرفان.

وكأنني قد صفعته على وجهه، احمرّ وجه لورد بوتون واحمرّت أذناه، وتراجع خطوةً إلى الوراء. ثم قال بصوتٍ مُرتجف:

- لم يتحدث إليّ أحدٌ من قبل هكذا. لا أعرف ما الذي عليّ قوله. (امتلأت عيناه بالدموع). تكرهني النساء. يكرهني الأطباء. يكرهني المعالجون أيضًا. آه، وتلك الأمور المريعة التي يكتبونها عني!. ليس لديك أدنى فكرة عن شعوري عندما أجدهم يهينونني في إعلاناتهم وكتبهم ومواقعهم على الشبكة.

- اسمع، تلك السفينة في حلمي كان لها اسم، أورا، أي غروب

الشمس بالإسبانية، و«شفق» بالتركية.

اتسعت عيناه الضيقتان، ونظرَ إليّ بذهولٍ خالٍ من أيّ تعبير:

- ألا تفهم؟ أنا تلك السفينة. أنا من جلبتك إلى هنا، إلى ميناء حياتي.

حَكّ لورد بوتون رأسه وقال:

- لنقبل ما قُلته للحظة فقط، كي أسأل هذا السؤال: لو كنت أنتِ السفينة حقًا، لمَ جلبتني إذن؟

- لأنني ظننتُ بأنه لا يمكنني التعامل مع أصواتي الداخلية المتضاربة. لطالما كان التوفيق صعبًا بين نسوة الأصابع. حين أتفق مع واحدة، لا يمكنني مصالحة الأخريات. لو أحببتُ واحدةً منهن أكثر قليلًا، ستبدأ الأخريات بالتذمر. عشتُ معهن هكذا طوال حياتي. كنتُ أميلُ إلى واحدة منهن كل فترة. ولكن بعد ولادة طفلتي، لم يعُد ذلك النظام فعّالًا. لم أكن قادرةً على تحمُّل التعدد الذي بداخلي. الأمومة تحتاج الواحدية، تحتاج الثبات والكمال، بينما كنتُ منقسمةً إلى ست أصوات، إذا لم يكن أكثر. تصدّعتُ تحت ذلك الضغط النفسي. وحينها فقط، ناديتُك.

عندما انتهيت من حديثي، حدث أغربُ شيءٍ رأيته على الإطلاق. هناك، أمام عينيّ، بدأ لورد بوتون يتبخر، مثل الضباب في ضوء الشمس.

قال لي، مُخرجًا منديله الحريري، ماسحًا دموعَ عينيه:

- أظن أن وقت رحيلي قد حان. لم أظن قط بأنني سأمسي شاعريًا هكذا وأبكي (راحَ يمسحُ أنفه). أنا آسف- لقد فاجأتني، هذا

كل ما في الأمر.

- لا عليك.

- (يشخر أنفه في المنديل) أظن أنني سأشتاق إليك. ستبعثين إليّ بالرسائل، صحيح؟

- لن أرسل إليك رسائل، بل سأكتب عنك. سأكتب كتابًا عنك.

- (مصفقًا بكفّيه) يا لها من إثارة! سأصبح مشهورًا!

ثُمّ جَثَمَ صمتٌ على المكان، انسَرَبَ الصمتُ داخل أذني مثل ريح تتسربُ بين وريقات الأشجار. أشعُرُ بالخِفّة، كأن شيئًا ما يحملنيْ ويرفعني عاليًا.

- حسنًا، وداعًا. ولكن ما الذي سيحدث لنسوة الأصابع؟

- سأخرجهن من الصندوق. سأعطيهن حَقًّا متساويًا في الكلام. انتهى حكم الأقلية، وانتهى الانقلاب، وانتهت الملكيّة وانتهى الحكم العسكري والفاشيّة. حان الوقت أخيرًا لديمقراطية كاملة.

- (ضاحكًا) إني أحذرك، ليست الديمقراطية سريرًا من الورود.

- قد تكون على حق. ولكني أفَضِّلُها على الأشكال الأخرى كلها.

الفصل السابع

بزوغ الفجر

الهدوء بعد العاصفة

يومٌ مشمسٌ من شهر أغسطس، الخوخ في الحديقة نضجَ حتى صار باللّون العنابي المكتمل، وعادَ أيوب من الجيش، باديًا عليه النحول ومكتسيًا بالسُمرة. لم ينبس بكلمةٍ لوقتٍ طويل، يبتسمُ وحسب. ثم سمعته في دورة المياه، يتحدث بلطفٍ إلى علب الشامبو والعطور والكريمات.

- لا تقولُ حتى «أهلًا» لزوجتك، ثم تذهبُ وتحادثُ كريم الحلاقة؟

ضَحِكَ:

- في الجيش، يشتاق المرء لأصغر الأشياء الممتعة في الحياة، ويتعلم كيف يكون ممتنًا لِما هو بين يديه..

- الاكتئاب أيضًا يُعلّمنا ذلك. تعلّمتُ كيف أنظر حولي بعينين جديدتين ومُقدّرتين.

همهَمَ أيوب وهو يسحبني إليه:

- آسفٌ لأنني لم أكن إلى جانبك. كان يمكننا معًا أن نُسوّي الأمرَ بشكلٍ أفضل.

- ماذا تعني؟

- لماذا لم نقُم بطلب المساعدة من عوائلنا أو أصدقائنا عندما كنتِ تخوضين ذاك الاضطراب؟ لمَ لَم نجلب عاملةَ منزلٍ إلى البيت لتساعدك؟ لقد حاولتِ القيامَ بكل شيء وحدك، لماذا؟

أومأتُ له:

- ظننتُ أنني أستطيعُ ذلك وحدي. ظننتُ أنني أستطيعُ هدهدةَ الطفلة لتنام، أطعمها طعامًا صحيًّا وأكتُبُ رواياتي بعدها. لم يدُر في ذهني أنني لن أستطيع القيام بهذا كله وحدي. كانت تلك قوّتي، وكانت ضعفي أيضًا.

قال بلُطف:

- منذ الآن فصاعدًا، سنقوم بذلك معًا.

تنفّستُ الصعداء:

- حسنًا، هل سترعى الطفلة عندما ألتهي عنها بالكتابة؟

توقّفَ لبُرهة، وعلامات الذعر تشعّ في وجهه:

- لنقُم بالاتصال بمُربية!.

وقد قمنا بذلك. خلال عشرة أيام، وجدنا مُربيةً من آذربيجان، امرأةً أكبر من الحياة- صدرٌ كبير، أسنانٌ مُغطّاةٌ بالذهب، صوتٌ عالٍ وضحكةٌ من القلب. مزيجٌ مُذهلٌ بين ماري بوبينز وزينا الأميرة المحاربة، وإمبيدمنتا- الزوجة الأم الشجاعة للقائد فيتالستاتيتكس، والسيّدة الأولى في قرية أستريكس الفرنسي. لا تعرفُ المُربية الجديدة سوى الكلمات اللطيفة في اللغة التركية، وتتحدث الروسية بطلاقة، وآمَنَت بأن مشكلة ستالين كانت في أنه لم يكبُر على يدَي مُربية جيّدة. علّمتنا أساسيات التعامل مع الأطفال- كيف نُجشّئهم، كيف نهدهدهم للنوم، كيف نُطعمهم، وبالتالي نكسبُ بعض الساعات من اليوم لأنفسنا. أزجَت إلينا معروفًا لا يُنسى. لقد تعاونّا جميعا.

وفي نفس الشهر، كان هناك احتفالٌ في إحدى الصحف الليبرالية احتفاءً بمرور سنة على إصدار ملحقها الثقافي. عندما ذهبتُ هناك:

وجدتُ حشدًا من الروائيين والشعراء والنقاد، وصحافيين محليين وخارجيين، والمصورين والأكاديميين، يشربون النبيذ في كؤوس ورقية، ويقضمون مكعبات الجبنة ويثرثرون. وكأغلب النشاطات الاجتماعية التي تقام في اسطنبول، كانت هناك سحابة دخانٍ رمادية تطفو في الهواء، دخان كل تلك السجائر والغلايين والأنابيب يحومُ في الجَو. ولكنني كنت في الشرفة، والدخان من خلفي وفوقي كان ضعيفًا. تبدو السماء مُحيطًا عميق الزرقة.

هناك تحديدًا، التقيت بالسيّدة عدالة آؤلو مرّةً أخرى. ابتسمَت عندما رأتني. وقالت لي:

- هل تتذكرين الحديث الذي دارَ بيننا في لقائنا السابق؟

- وكيفَ لي أن أنسى؟

ثم أردفت، واضعةً كفّي بين كفّيها بحنان، ومُغرقةً عينيها في عيني:

- أعتقد أنك قمتِ بالصواب حين أصبحتِ أُمًّا في النهاية..

ضغطتُ على كفّيها بالمقابل، وقلت بتواضعٍ ولُطف:

- وأنا أحترم قرارك بألاّ تُمسي أُمًّا وأنْ تتفرغي تمامًا للكتابة وتنذري حياتك لها.

بعدَ كل اللمحات التي رأيتها من حيوات الكاتبات- في الشرق والغرب، في الماضي والحاضر- عرفتُ أن كُلّ حالة منفصلة عن الأخرى، وأن لكل كاتبةٍ خياراتها. لا توجد هناك معادلة واحدة تنتظم الأمومة والكتابة وتناسب الجميع. بل هناك مسارات مختلفة في رحلة الأدب، وجميعها تقود إلى الهدف نفسه، وجميعها متساوية. كما أن كُلّ كاتبٍ يتعلّم ليطوّر أسلوبه الخاص في الكتابة، لكنه يظلّ يتأثر بأعمال

الآخرين، النساء ككائنات بشرية كذلك أيضًا، نقوم بتحضير أجوبتنا الخاصة لأسئلة الكون وحاجاته، يشدُّ بعضُنا من عزم بعض ونتقدّم.

لاحقًا، وأنا أنظر إلى السيّدة آؤلو تغادر الحفل، وإلى المساء يُبطئ ويهدأ، عرفتُ أن عجلة الحياة قد أكملت الآن دورةً كاملة.

حُكم نسوة الأصابع
لنسوة الأصابع

وضعتُ الصندوق المُحكم في حِجري، مُصيخةً السمع. ولا صوت. ولا همسة، بدأ قلبي ينبضُ بشدة. هل هن بخير؟ لقد اشتقت إليهن جدًا حتى أن عينيّ تدمعان.

أدرتُ القُفلَ وانفتح الغطاء بضغطة.

- أرجوكن أخرجن.

لم يتحرك شيءٌ لدقيقة. ثم خرجن وهنّ يُظلّلن أعينهن بأكفهن لتفادي الضوء المفاجئ، خرجت نسوة الأصابع واحدةً تلوَ أخرى، كُنّ مُرهقاتٍ ولكن في حالةٍ مقبولة.

«الحُرية أخيرًا!» قالت ماما الرُّز بالحليب. «تصلّبَ ظهري! ما هذه التجربة المُريعة. لا ثلاجة، ولا مايكرويف، ولا قِدرٌ لطبخ الرز. لم أستطع حتى أن أغلي شايًا لأشهر!».

أطلّ بعدها رأس الآنسة المثقفة الساخرة من الصندوق. جامعةً أطراف ثيابها الفضفاضة، خرجَت وعلى وجهها الصغير علاماتُ الغطرسة.

«تحدثي أنت عن نفسك. أنا أكيدةٌ من أن هذا التعذيب الوجودي الذي رُفِعَ عنّا الآن سوفَ يدفعني لإبداع فنيٍّ لا مثيل له. ظَنّ الفلاسفة الإغريق بأن الأسى ليس تجربةً سيئةً بالضرورة. فبالنسبة إلى

الفيلسوف بلاتو، مثلًا، الحُزنُ يزيدُ من جودة الأعمال الفنية..».

«أوه، اسمحي لي هنا..»، تذمّرَت حضرة جناب التشيخوفيّة الطَمُوح. حاولَت، بقامتها القصيرة هذه، أن تتسلق لتخرج من الصندوق، نجحت في الوصول إلى الحافة والجلوس عليها، وأصلحت من شعرها. «لا أصدق كم من الوقت الثمين ضيعناه جالسات في هذا السجن الإصلاحي. لقد سرقَ ذلك الجنيُّ ثمانية أشهرٍ من حياتنا!. أوه، يا لتلك الأشياء التي كنا نستطيعُ تحقيقها خلال تلك الفترة!.

«هيه، راح الغول؟» سألتني الآنسة العمليّة القصيرة وهي تخرج من الصندوق وتنظر حولها.

- لا تقلقي، لقد رحل.

ابتسمت الآنسة العمليّة القصيرة، وشيءٌ من الخسارة لا يزالُ يلمعُ في أعماق عينيها. «انتظري لحظة، هل أسرعتِ إلينا لتُحررينا فورَ رحيله؟».

- نعم بالطبع، فعلت ذلك لأنني اشتقت إليكم كثيرًا.

«هل اشتقت إليّ أيضًا، يا حبيبتي؟» سألتني بلو بيلي بوفاري، مُرسلةً إليّ قبلةً في الهواء من شفتيها الكرزيّتين. «حتى أنا؟».

- وحتى أنتِ. لا أفرّق بين واحدة وواحدة. لقد اشتقت إليكم جميعًا.

«ماذا تعنين؟» قالت بلو بيلي بوفاري، «لم تعاملينا قط بشكلٍ مُتساوٍ».

- أنت على حَق، كانت تلك غلطتي وأعتذر عنها منكن جميعًا. منذ الآنَ فصاعدًا، لن أقوم بقمع أيٍّ منكن، سيكون لكل واحدة منكن فرصةٌ للحديث كالأخريات تمامًا. نحن نعيش في ديمقراطيةٍ الآن.

«أخيرًا، وبعد وقت طويل!» قالت السيّدة الدرويشة، وعلى وجهها ابتسامةٌ لطيفةٌ «هذا ما أردته طوال الوقت، يا للروعة!».

لأوّل مرّة في حياتي أراهن واحدًا!- قطعٌ لا تنفصلُ من الكُل الواحد. عندما ترتجفُ واحدةٌ منهن من البرد في الخارج، يرتجفنَ جميعًا. عندما تُجرَحُ إحداهُن، ينزفُ الجميع. وعندما تُمسي واحدةً منهن سعيدةً ومغتبطة، سيغترف الجميع من سعادتها.

عندما قامت حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح والآنسة المثقفة الساخرة بالانقلاب في تلك الليلة البعيدة، كان ذلك لأنني أردتُ قمعَ غريزة الأمومة فيّ. لم أكن مستعدةً لمقابلة ماما الرُّز بالحليب. وذاك المهد الذي أخذته على نفسي تحت شجرة العقل كان لأنني لم أكن في سلام مع جسدي. لم أكُن مُنفتحة على بلو بيلي بوفاري وعالمها. والحكم المَلكي الكامل لماما الرُّز بالحليب أثناء فترة الحمل كان نتيجة أنني آمنتُ بأن الأصوات الأخرى بداخلي لم تكن مُناسبةً للأمومة. في كل منعطف من حياتي، كنتُ أرفعُ صوتًا واحدًا إلى أعلى على حساب الأصوات الأخرى.

أنا جميعهن- بكل مَذامّهن ومناقبهن، إيجابياتهن وسلبياتهن، قصصهن جميعها هي التي تُشكّل كتاب أناي.

إيلين سيكسو- أكاديمية، باحثة، ناقدة أدبية، وكاتبة صاحبة أحد الأصوات النقدية الأصيلة في وقتنا. قالت إنّ نصوصها تتكتبُ بالأبيض والأسود، بالحليب والليل. تعتقد أن المجتمع الأبوي لا وجود له خارج الجماليات والشاعرية. قامت بتحليل نظرة فرويد للمرأة على أنها «نقص»، مُستعيضةً عنها بـ«المرأة كتجاوز». إنها تشرحُ نصوص الكاتبات باستخدام مجازات الولادة والرضاعة والإشارة إلى الجسد الأنثوي:

«من المهم أن نبتدع طريقةً أنثويةً في الكتابة، وهذه أهميّةٌ باقيةٌ إلى الأبد، لأن هذه الطريقة لن تتم دراستها أبدًا تحت نظرية أو

تعريف مُغلَق- وهذا لا يعني أنها ليست موجودة».

الأمومة بالنسبة لسيكسو تجربة ممتلئة- إنها أكثف علاقة يُمكنُ أنْ يميشها بشريٌّ مع بشري. لكنها ترسم خطًا فاصلًا بين العلاقة البايولوجية والعلاقة الثقافية، رغم أنها لا تجرّد العلاقة البايولوجية من الأهميّة. الجسد الأنثوي شكلٌ مُلهمٌ لشكل الكتابة: «أنا ممتلئة غضاضة، نهدايَ ينضحان. حليب. حبر. وقت الرضاع...». سيكسو ناقدةٌ تنتقدُ الكاتبات وتشجعهن في نفس الوقت. تقولُ إنّ كثيرا من الكاتبات اخترنَ أن يكتبْنَ كالرجال بدلًا من «تقويض النظام الأبوي من الداخل». اخترن ذلك مُردِّدات نفس الشفرات والعلامات. لذلك كانت تدعو إلى كتابةٍ جديدةٍ تستندُ إلى الاقتصاد الشهواني للأنثوية، بشكلٍ يمنحها مركزيتها اللغوية التي تعمل خارج هذه الأراضي وتحتها، مثل أنفاق الأرض التي يحفرها الخلد.

ليس هناك تغيّر اجتماعي دون تغيرّ لغوي. على النساء أن يكسرن صمتهن. عليهن الكتابة. قالت مرّةً: «علينا أن نكتب ونحن نحلم».

أورسولا لي جوين واحدة من أفضل الكاتبات بالنسبة إليّ. عندما سُئلَت ما الذي كانت لتكونه لو لم تكن كاتبة، أجابت: ميّتة. منذ أن بدأت الكتابة في عُمر الخامسة وحتى الآن، لم تُبطئ من سرعتها قط. وعلى الرغم من أنها كانت شجاعةً ومبدعة في أنواع أدبيّة كثيرة، فإنّها صرّحت بأنّ الكتابة لم تكن سهلةً أبدًا: «صعوبة أن تحاول أن تكون مسؤولًا، ساعةً بعد ساعة، يومًا بعد يوم، لعشرين عامًا تقريبًا، لأجل حياة جيّدة لأطفالك وكتابة أعمالٍ ممتازة، أمرٌ ضخم: إنها تتطلّبُ صرفَ طاقةٍ دون نهاية وموازنةً مستحيلةً بين أولويات متعارضة». ورغم هذه الصعوبات، قالت إنّ لها يدًا تهدهد بها الرضيع، ويدًا أخرى للكتابة.

واضعةً نسوة الأصابع على طاولة الكتابة الخاصّة بي، حضنتهن جميعًا. وقد احتضنّني بدروهنّ متضاحكات.

بلو بيلي بوفاري، ماما الرُّز بالحليب ، حضرة جناب التشيخوفيّة الطموح، الآنسة المثقفة الساخرة، السيّدة الدرويشة، الآنسة العمليّة القصيرة، وأصوات أخرى لم ألتقِ بها بعد، تقف جميعا على الخطّ نفسه. لا أحد يحاول أن يحكُم الآخر، لا أحد دكتاتور. ولا أحد يرتدي تاجًا أو بطاقةً خاصة. ليس بعد الآن.

هذا لا يعني أنني أقبلُ بأيّ شيء. ولكن بالاستماع، لا بالحديث فقط، سأجعلهن يتعلمن الحياة سويًّا. إنهن يعرفن الآن أنهن إن أردن الحياة بحُريّة وبمساواة، فكلّ واحدة منهنّ في حاجة مشتركة إلى الأخرى، ولئنْ كان صوتٌ واحدٌ فقط منهنّ مسجونًا، فإنّ الأصوات الأخرى لا تُعتبر حُرّة. نتعلم جميعًا كيف نعيش، ونكتب ونُحب بأقصى ما يُمكننا ، ولكن فقط بأن نتماهى مع أصواتنا . ننجحُ أحيانًا في العيش بتناغم وانسجام، ونفشل في أحيانٍ أخرى بغباء. وعندما نفشل، نتذكر لحظات الانسجام والتناغم، فنحاول مرة أخرى.

هذا هو، إلى حَدٍّ ما ، نمطي في الحياة: آخُذُ خطوةً إلى الأمام، أتحرك، أتعثر، أقف، أعود إلى السّير، أتقدم إلى الأمام، أسقط على وجهي، أقف من جديد، أتابع السير..

خاتمة

بعد سنة، انتهيتُ من روايتي: «قواعد العشق الأربعون»، وقد تصدّرَت قوائم الكتب الأفضل مبيعًا في تركيا. عُدتُ لقبول طلبات المقابلات، وكتابة الأعمدة الصحفية والمقالات، وحضور الفعاليات الأدبية والتنقل بين الثقافات كما كنت دائمًا. توقفت عن إعطاء المحاضرات في جامعة أريزونا، فقد بدا لي مستحيلًا السفر لساعات طويلة برفقة طفل. وبدلًا من ذلك، بدأنا حياةً جديدةً في لندن، نقضي نصفَ العام هناك، والنصف الآخر في اسطنبول. عرفتُ كيف أُبقي على البدويّة المترحلة في داخلي مع الوفاء لمتطلبات الاستقرار.

اسمُ ابنتي هو شهرزاد زيلدا- الاسم الأول هو اسمُ أعظم راوية في تاريخ الشرق، والاسم الثاني من زيلدا فتزجيرالد. وبعد ثمانية عشر شهرًا من ذلك، أنجبتُ ابننا أمير زاهر- الاسم الأول مأخوذٌ من تقاليد الشرق القديمة، والاسم الثاني مأخوذٌ من قصّة لبورخيس: «الزاهر» ومن كتابِ لباولو كويلو يحمل العنوان ذاتَه.

في كل شيء كتبته وقمت به، كنت ولا أزال مُلهمةً بزيلدا وزاهر، وبجماليات الأمومة وصعوباتها.

حملي الثاني كان سهلًا للغاية، ولم أقابل لورد بوتون ولا أيّ أحد من أقاربه- لا بعد الولادة مباشرة ولا حتى في الأشهر التي تبعت ذلك. سمعتُ أنه تقدّمَ في العمر وأُصيبَ بالتهاب المفاصل. رُبما سيتوقف

قريبًا عن التحرش بالأمهات الجديدات، مُفضّلًا قضاء وقته في تلميع مصباحه.

المترجم
احمد عبدالسلام العلي

شاعر ومُترجم من السعودية. وُلد في مدينة الظهران عام 1986م. أنهى دراساته العُليا في علوم نَشر الكتب والمجلات في مدينة نيويورك، وأخذَ تدريبه عام 2014-2015 في أعرق دور النشر في العالم Knopf التابعة لـ Penguin Random House.. ترجَم إلى العربيّة مقالات من مجلات وصحف عالمية منها (The New Yorker) و(The New York Times). وهو ضمن الفريق المشارك في مشروع (تكوين) لترجمة الكتب العالمية المهتمة بتقنيات الكتابة الأدبية ومهاراتها، وقد صدر عنه كتابان: (لماذا نكتب؟) و(الزّن في فن الكتابة).

التزم بكتابة زوايا أسبوعية وشبه أسبوعية لصحيفتي عكاظ والحياة، ونُشرت نصوصه في صحيفتَي العرب والشرق. شارَك في تحرير قسم الشّعر في مجلة (إلى)، وأسّس وأدار مجلة (غصون) الإلكترونية التابعة لموقع (منبر الحوار والإبداع)؛ اهتمّت المجلة بتعزيز ثقافة العدالة والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

كان عضوًا في لجنة فعاليات نادي المنطقة الشرقية الأدبي.

صدرَ له في الشّعر:

- كما يُغنّي بوب مارلي: دليلُ التائهينَ إلى نيويورك، دار طوى 2014.

- يجلسُ عاريًا أمام سكايب، دار طوى 2013.
- نهّام الخليج الأخضر. نادي المنطقة الشرقية الأدبي 2010.

صدرَ له في الترجمة:

- اختراع العزلة: مذكرات الروائي الأمريكي بول أوستر، دار أثر 2016.
- صندوق الموسيقى: مختارات شاملة من أعمال نعومي شهاب ناي الشعريّة، دار أثر 2015.
- أصواتُ الطبول البعيدة: ترجمة مُختارات من الأدب الصوفي العالمي، دار طوى 2015.

جمع وتحرير آثار الأستاذ محمد العلي الأدبية:

- لا أحد في البيت: تحرير جديد ومختارات من شعر محمد العلي، دار مسعى 2015.
- نمو المفاهيم: تساؤلات وآراء في الوجود والقيم، نادي الرياض الأدبي بالتعاون مع المركز الثقافي العربي 2013.
- البئر المستحيلة: محاولات لتجاوز السائد في الثقافة والمجتمع، نادي الرياض الأدبي بالتعاون مع المركز الثقافي العربي 2013.
- حلقات أولمبيّة: الجزء الثالث من مقالات صحيفة اليوم (مختارات)، نادي تبوك الأدبي بالتعاون مع دار مدارك 2013.
- هموم الضوء: الجزء الثاني من مقالات صحيفة اليوم (مختارات)، دار طوى 2011.

- درس البحر : الجزء الأول من مقالات صحيفة اليوم (مختارات)، دار طوى 2011.

مُدوّنة نهر الإسبرسّو: https://alaliahmed.wordpress.com

إنستقرام:@al_ali_ahmed

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقًا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نهرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردًا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تتساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ الماديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلف: قسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَويّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

انقطاعات الموت

المؤلف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

هذه الرّواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفيّة حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفا. تُنير تلك المنطقة المخفيّة السّوداء المُخيفة، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الّذي يمعن في التّظاهر بنقائه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخترقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هازئا ضاحكا.

تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التّحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنّى له العصف بكلّ إرث المواضعات التّافهة والمشترك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسيّر عمارته السّرديّة بهذه السلاسة والحذق؟

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزّمن. إنّنا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟

بعد القراءة أنتَ لستَ الشّخصَ الذّي كُنتَهُ، كُنتَ تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنّك لم تكن تستشمر المأساة والكارثة في غياب الموت مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنّك مُستغَلّ، ولكن وأنت تقرأ ستعرف أنّك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدّك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النّمرة الّتي علّموها النّوم في أعماقك، تنبت لها في الظّلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

نصر سامي

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلّف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

«أكلو لحوم البشر» اسم جيل روائيّ جديد تزعّمه نيكولو أمانيتي، اسمٌ مُدوّ، جارح، محيّر ومربك، متوحّش وفضّاح. العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، لم نألفه من قبل لا في الرواية الإيطاليّة ولا الأوروبية، علامتُه الفارقة: «آخذك وأحملك بعيدا».

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

نصر سامي

ميتتان لرجل واحد

المؤلف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» صاحب كنية، «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطأ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفته في طوباو. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنّها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

الناشر

زوربا اليوناني

المؤلف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

زوربا... شخصيّة ورمز... توقّف عن أن يكون وجها وقسمات ليصير علامة... علامة بكلّ مفهومها التأويليّ... إحالة تقود إلى إحالة... لتدلّ على إحالة وتتواصل السلسلة...

شخصيّة فاضت على كل حدّ وهربت من سجن الرواية على رحابته لتُصبح رمزا للمُهمّشين، للّذين يتعلّمون من الحياة، فيلسوفًا يعلّم الفيلسوف، حكمتُه خبرات المعيش ومعترك الوجود الإنساني...

رقصة زوربا انتهت دستورا للكون، رؤية تسخر من المعارف المتطاولة على الدنيا، المتعالية على الأرض، وتثور على وضع تكون فيه إمّا خادما أو مخدوما... تكسر كلّ قالب لتأتيك في كلّ لحظة بدرس جديد مُلخّصه: لا شيء يعلو على صوت الحياة الصاخب...

ظافر ناجي

عرس الشاعر

المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كله في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرة حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنّف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسراويل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

الناشر

الحب والظلال

المؤلف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

أنت في ورطة الآن، كلّ ما يمكنك فعله هو التقدّم والاندهاش، ثمّ التقدّم والاندهاش. والتشويق؟ التشويق مُرٌّ في «الحبّ والظلال». كلّ لحظة فيها هي نهاية ممكنة، لكنّ البداية لا تنتهي. بداية أبديّة تتسّع دوائرها فتنمو الأحداث وتكبر الشخصيات ويبقى السرد طفلا ليكون خارج الظلال، محافظا على براءته. أوليست البراءة هي ما يقاوم العاشقان من أجله؟

ما دفنه التاريخ تنبش عنه إيزابيل الليندي بألم خانق يكاد يقطع أنفاس الرواية في كل لحظة، وبأمل خالق يضخّ الحياة في عالم كامل ينشأ على حافة الهاوية، تروي من خلاله إيزابيل الليندي تلك المرحلة العمياء من تاريخ الشيلي.. لذلك فإنّ رواية «الحب والظلال» لا يمكن أن تنتهي، فهي تتحرّك في الذاكرة كما في النسيان، أو لنقل هي محاولة «لنسيان ما لا ينسى».

أنور اليزيدي

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلّ منهما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل الليندي

السنة المفقودة

المؤلف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»
عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجدّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ.»
زياد عبد القادر

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»
صالح علماني

رحلة في أقاصي الليل

المؤلف: لويس فرديناند سيلين
البلد: فرنسا
ترجمة: حسن عودة وأيمن حسن

«ستكون بمثابة الخبز لقرن كامل من الأدب.»

سيلين متحدثا إلى ناشره

«هناك كتب يصعب تفسيرها: تبدو كأنها خرجت من حيث لا ندري، ولكن عندما نقرؤها، سرعان ما نتساءل كيف عاش العالم من دونها. و«رحلة في أقاصي الليل» تنتمي إلى تلك السلالة النادرة: بداهتها توقع الاضطراب في حياة كلّ قرائها. لغتها الخام تغيّر طريقتكم في الحديث والكتابة والقراءة والحياة. لا يمكن لأحد أن ينجو منها. كم أحسد منكم أولئك الذين لم يقرؤوا بعد هذه اللوحة الملحمية»

فريدريك بيغبيدي

«تَكمنُ عظمةُ «رحلة في أقاصي الليل» في غياب أيّ دعوة للإحساس بتلك الرحمة الجنونية التي كرّستها الوضاعة المسيحية وجعلت الوعي بالبؤس شمارا لها. فلقد مضى زمن لعبة زولا السخيفة التي مكنته من استلال عظمته من مآسي البشر، وهو الذي بقي غريبا عن الفقراء. ما يَسِم «رحلة في أقاصي الليل» ويمنحها معناها البشري، هو تبادل الحياة مع الذين يدفع بهم البؤس خارج الإنسانية – تبادل الحياة والموت، الموت والانحطاط.»

جورج باطاي

إنّ «رحلة في أقاصي الليل» لسيلين أهم رواية فرنسية بالنسبة إلينا... لقد حفظنا عن ظهر قلب مقاطع كاملة منها. كانت فوضويّتها قريبة من فوضويتنا نحن. ولقد كُتبت نكاية في الحرب، في الاستعمار، في الرّداءة، في التعابير الشائعة، وفي المجتمع، كُتبت بأسلوب أخّاذ فتننا جميعا. لقد نحتَ سيلين آلة جديدة: كتابة أعلق بوهج الحياة من الكلمات. ولقد قلبت أسلوب سارتر رأسا على عقب.»

سيمون دي بوفوار

عمل فذّ يجدر بنا قراءته والتعامل معه بجدّية حقيقية. إنّ سيلين لا يكتب إلاّ بعد أن «يضع جلده على الطاولة»، وعيا منه «بأنّ الموت وحده هو الملهم»، واعترافا بأنّ الكتابة أهم من الحياة أو هي في أسوأ الأحوال مُعادل لها.

تعلمون إذن ما ينتظركم، حتى أنّه بوسعي أن أذهب بعيدا في المجاز لأقول برفقة دانتي أليغييري: «أنتم أيّها الداخلون هنا، اخلعوا عنكم أيّ أمل كان». فعلى قارئ رائعة سيلين أن يشحذ عزيمته لكي يتحمل أعباء هذه المغامرة»

أيمن حسن

الحب في زمن الكوليرا

المؤلف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني

هل أصغينا مرّة واحدة إلى صوت الحبّ المتغلغل في بلبال الواقع وفوضاه، هل حدّقنا في وجهه وهو يقاوم آخرَ العُمر على حافّة الهاوية؟

قصّة حبّ طويلة بمئات الشخصيّات تنتهي صفحاتها بعاشقين اثنين على متن باخرة في رحلة لا تنتهي ذهابا وإيّابا... قصّة وطن تمزّقه الحروب والأوبئة تتحوّل بقدرة قادر إلى حكاية حبّ أسطوري.. رواية تستند إلى التاريخ دون أن تقع في شراكه بل تحوّله إلى مادّة للتأمّل في الحبّ وفي الوجود الإنساني.. ها هنا يصير الحبّ ترياقا لكلّ الآفات بدءا بفعل الزّمن وانتهاء بالأحداث والتاريخ.. رواية ظاهرها بطلاها فلورنتينو أريثا وفرمينيا داثا تجري في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين في أمريكا اللاّتينيّة... لكنها رواية الإنسانيّة في كلّ الأزمان وفي كلّ الأمكنة..

ما الإنسان بلا حبّ؟ وهل عاشت الإنسانية زمنا بلا كوليرا؟؟؟ أبدا... فقط سنقول إنّ لكلّ زمان وباءَهُ وآفتَهُ ولا دواء للإنسان غير المقاومة العاشقة ...

ظافر ناجي

حليب أسود

المؤلفة: إليف شفاق
البلد: تركيا
ترجمة: أحمد العلي

ليس «حليب أسود» مجرّد رحلة في تجربة اكتئاب ما بعدَ الولادة، أو سيرة ذاتية لأمٍّ مُبدعة تَصادَفَ أن توقّفَ قلمها عن إنجاب الكلمات عندما أنجبت طفلها، بل هو تجربةُ وَعي لمَا يُمكن أن يحدُثَ حين تتصارع الأنثى التي تَلِدُ الكلمات والأنثى التي تَلِدُ الأطفال، وكيف يُشَقِّقُ هذا الصراعُ المبدعةَ إلى كيانات مُتعدّدة تحرمُها من السلام والصفاء وحالة الرضا، ويجعلها كما كتبَت شفاق: في هَوَسٍ دائمٍ بشأن الدرب الذي أهمَلَت اختياره.

وإلى جانب المتعة وخِفّة الروح والطرافة في هذا الكتاب، فإنّه يُعيننا نحن النساء لنتصالح مع ذواتنا المتشظيّة إلى ذواتٍ وذواتٍ، وبأسلوبٍ لا يُثير الأسى.

تكتبُ أَلِف شفَق ببراءةٍ تُشبه براءةَ أفلام الكارتون التي تُصَوِّرُ الجميعَ أبرياء، أو بشرًا في النهاية، وتجعلنا نتعاطف معهم.

ألف شفَق قلمٌ أصيل، لا يتبع ما يمثِّرُ عليه في السياق ولا يُروّج له، بل يكتُبُ ما اختبرَهُ بنفسه مع احترام تجارب الآخرين. وقد برعَت شفَاق وأثبتت أنّها شُجاعةٌ وطَيِّبةٌ مثل بطلات الحكايات الخرافيّة اللاتي يفُزنَ في النهاية.

د. بدرية البشر

المرجومة

المؤلف: فريدون صاحبجام
البلد: إيران
ترجمة: وليد سليمان

«ثريا مانوتشهري» ليست مجرّد شخصيّة روائيّة من نسج الخيال، إنّما امرأة من لحم ودم، كائن بشريّ جرّدته يد المجتمع من كلّ شيء وقضت عليه بالموت رجما، لا لشيء إلاّ لأنّ زوجها أراد التخلّص منها فاتهمها بالخيانة.

هي دليل إدانة آخر يرفعه الروائيّ والصحفيّ الإيراني «فرايدون صاحبجام» في وجه نظام الخميني الّذي أصدر ضدّه حكما بالإعدام سنة 1979 بسبب نقده المستمرّ له، ولكنّ الكاتب المقيم في باريس تمكّن رغم ذلك في فيفري 1987 من التسلّل خفية إلى بلده الأصليّ لمتابعة وقائع تنفيذ حكم بالرجم حتى الموت ضد «ثريا مانوتشهري» المتّهمة ظلما بخيانة زوجها.

وهكذا يتحول الكاتب شاهد عيان على جريمة بشعة في حق امرأة انتهكت إنسانيتها، ولفّها الصمت، امرأة تآمر عليها مجتمع بأسره، حتّى والدُها الذي أجبر على إلقاء الحجر الأول في عمليّة الرجم.

لقد تم تحويل هذه الرواية التي ترجمت إلى 30 لغة إلى شريط سينمائي ناجح بعنوان «رجم ثريا» وأخرجه قرش نوراسته سنة 2008.

الناشر

تموت المرأة لكن المجتمع لا يتوقف عن رجم نفسه، رجم هويته وتركيبته ومعناه.

هذه رواية كبيرة، وعملٌ عظيم، وكتابةٌ يُستحى منها..

عبد الله ثابت

حديقة الصخور

المؤلف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

من الصعب أن تحدّد من هو كازنتزاكي في رواية «حديقة الصخور».. فهو هنا كل وجوهه المتعدّدة وما أكثرها.. الرّوائيّ يكتب حكايته، والشاعر ينظم قصيدته، والمسافر يدوّن مذكّرات رحلاته، والفيلسوف يتأمّل العالم وذاته، والسّياسيّ يلاحظ انهيار العالم وأكاذيب الإيديولوجيا ..

لقد تأثّر كازنتزاكي بنيتشة وبرغسون وماركس. فكره مزيج من كلّ تلك الفلسفات وفي روحه تمزّق متجانس بين السماويّ والوضعيّ وخارجهما، بين حكمة الشرق الأقصى مختزلة في بوذا والكثير من مسيحيّة الغرب وعلمانيّة الشّيوعيّين في العالم .. لا يقلقه تناقضه، بل يرى في ذلك عمق الوجود الإنسانيّ وخُلاصة مأساته وخلاصه ..

على امتداد صفحات الرّواية تطالعنا المدن و الوجوه في رحلة لا تنتهي بين عشرات الأماكن ومئات البشر .. لا شيء من ذلك يهمّ فعلا بقدر ما تهمّ التّجربة من ورائها والحكمة من وجودها..

ظافر ناجي

بوذا في العالم السفلي

المؤلفة: جولي أتسوكا
البلد: اليابان
ترجمة: أبو بكر العيادي

هي أوديسة من نوع خاص. إبحار إلى ديار بعيدة دونما أمل في العودة. ارتحال مجموعة فتيات معدمات من أرياف اليابان وقراه المنسية بحثا عن زوج يخفف لهن عيشا غير الذي كن يمشنه في مزارع الأرز البائسة. بنات أغلبهن عذارى يحملن صور أزواج لا يعرفنهم، وألبسة تقليدية بسيطة، وأشياء أخرى حميمة يحفظنها بين دفوف كتب من نوع «مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات !» أو «دليل المسافر إلى أمريكا» ويخبّئن بين الضلوع أسرارا لا يبحن بها لأحد، ورغائب ومخاوف. رغائب أنثوية بفرحة العمر، ومخاوف منح الجسد لرجل مجهول في بلد مجهول.

رحلة شاقة في قعر باخرة قديمة تمخر عباب المحيط الهادئ باتجاه كاليفورنيا، تنجاب حين أرست مراسيها عن واقع مرّ يرديهنّ إلى درك وضيع، حيث يكتشفن أن الواقع غير ما حملته الرسائل، وأن الصور المرسلة قديمة يرجع عهدها إلى عشرين عاما، وأن الأزواج الموعودين عمال بسطاء في مزارع القطن والخضروات...

هذه الأوديسة هي حلقة منسية من تاريخ اليابان الحديث، أعادتها إلى الذاكرة جولي أوتسوكا، وهي كاتبة أمريكية من أصل ياباني، حازت بفضل هذه الرواية جائزة فوكنر للرواية سنة 2011 وجائزة فيمينا للرواية الأجنبية في فرنسا سنة 2012.

أبو بكر العيّادي

عالم يتهاوى

المؤلف: تشنوا أتشيبي
البلد: نيجيريا
ترجمة: محمد الحبيب الكحلاوي

□ «كاتب في رفقة أعماله انهارت جدران السجن»

الزعيم الراحل نيلسون مانديلا

□ «له موهبة متّقدة وعظيمة، موهبة مفعمة بالحماس والثراء»

نادين غورديمير، جائزة نوبل للآداب سنة 1991

□ «إنّ أعمال أتشيبي تتكلّم من داخل الشخصيّة الإفريقيّة، ولا تصوّر الرجل الإفريقيّ بوصفه شيئا غريبا وعجيبا كما يراه البيض»

وول سوينكا، جائزة نوبل للآداب سنة 1986.

□ «إنّها رواية الخسران العميم، حيث يتهاوى كلّ شيء: الأشياء، والذكريات، وقيم القبيلة، في وجه الحضارة القادمة من الغرب، ولا يبقى غير الصّمت المتدلّي من جذع الشجرة في آخر الرواية، دليلَ إدانة إزاء الاستعمار البريطاني لشعب الإيبو.

والرواية مسكونة بإيقاعين متنافرين، تطغى السكينة على أوّلهما فتكاد أحداثها لا تتقدّم إلاّ لتكشف عمّا يعتمل في صلب الشخصيّات من جَيَشان، وعمّا يحرّكها من رؤى، بينما يقلب الثّاني كلّ شيء رأسا على عقب، ويفضح بشاعة الكولونياليّة المتحجّبة خلف قناع المقدّس، وبين الإيقاعين تتحرّك الأحداث والشخصيّات والمصائر ومعها تتحرّك ثقافة بأسرها في الطريق إلى حتفها.

شوقي العنيزي

يصدر قريبا

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستالة

ليلة مع صابرينا

المؤلف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أبو بكر العيادي

بائعة النثر الصغيرة

المؤلف: دانيال بيناك
البلد: فرنسا
ترجمة: معن عاقل

نرسيس وغولدموند

المؤلف: هرمان هسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي



إليف شفاق

حليب أسود

ليس «حليب أسود» مجرّد رحلة في تجربة اكتئاب ما بعدَ الولادة، أو سيرة ذاتية لأُمٍّ مُبدعةٍ تَصادَفَ أن توقّفَ قلمها عن إنجاب الكلمات عندما أنجبت طفلها، بل هو تجربةُ وَعيٍ لِمَا يُمكن أن يحدُثَ حين تتصارع الأُنثى التي تَلِدُ الكلمات والأُنثى التي تَلِدُ الأطفال، وكيف يُشَقّقُ هذا الصراعُ المبدعةَ إلى كياناتٍ مُتعدّدةٍ تحرمُها من السلام والصفاء وحالة الرضا، ويجعلها كما كتبَت شفاق: في هَوَسٍ دائمٍ بشأن الدرب الذي أهملَت اختياره.

وإلى جانب المتعة وخِفّة الروح والطرافة في هذا الكتاب، فإنّه يُعيننا نحن النساء لنتصالح مع ذواتنا المتشظّيّة إلى ذواتٍ وذواتٍ، وبأسلوبٍ لا يُثير الأسى.

تكتبُ إليف شفاق ببراءةٍ تُشبه براءةَ أفلام الكارتون التي تُصوّرُ الجميعَ أبرياء، أو بشرًا في النهاية، وتجعلنا نتعاطف معهم.

إليف شفاق قلمٌ أصيل، لا يتبع ما يعثُرُ عليه في السياق ولا يُروّج له، بل يكتُبُ ما اختبرَهُ بنفسه مع احترام تجارب الآخرين. وقد برعَت شفاق وأثبتت أنّها شُجاعةٌ وطَيّبةٌ مثل بطلات الحكايات الخرافيّة اللاتي يفُزنَ في النهاية.

د. بدرية البشر




ISBN: 978-9938-833-58-4
9 789938 833584